فهــرس

الجــزء الثامن

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

صفحة

(تم فهرس الجـــزء الثامن من كتاب صبح الأعشى)

صبح الأعشى

الجـــزء الثامن

al-Qalqashandī, Aḥmad ibn ʿAlī

/kitāb ṣubḥ al-aʿshā/

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ ابى العباس احمد القلقشندى

الجزء الثامن

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقصد الثالث

فى المكاتبة إلى أهل الجانب الجَنُوبىّ ممن جرت العادةُ بالمكاتبة إليه من العرب والسُّودان، وفيه ثلاث جمل

الجملة الأولىٰ

(فى المكاتبة إلىٰ مَنْ بهذا الجانب من العُرْبان)

وقد ذكر فى " التثقيف " ممن كُوتِب منهم جماعةً بالطُّرُقات الموصَّلة من الديار المصرية إلىٰ بلاد الحَبَشة وغيرها . ثم قال : ولعلَّ هٰؤلاء أيضا من عُرْبان الممالك المحروسة ، غير أنه لاإقطاعاتِ لهم ، وعدّ منهم ثمانية أشخاص ، وذكر أنه كتب إلىٰ كل منهم الأسم ومجلس الأمير :

الأوّل — سَمُرة بن كاملٍ العامرىّ .

الثانى — عَبَّاد بن قاسم .

الثالث — كال بن سِوَار . قال : وهو مستحْدَث المكاتبة فى العشر الأول من جمادىٰ الأولىٰ سنة ثلاث وستين وسبعمائة .

الرابع — جُنَيد : شيخُ الجَوَابرة من الهكارِيَّة بأبواب النُّوبة . قال : وهو مستحْدَث المكاتبة فى سنة تسع وستين وسبعمائة .

الخـامس — شَرِيف : شـيخ النَّمَانِمَة ، بأبواب النُّوبة أيضـا ، ومكاتبتـه مستجِدّة حينئذ .

السادس — علىّ : شيخ دُغَيم .

السـابع — زامِلٌ الثـانى .

الثـامن — أبو مُهَنّا العِمْرانىّ .

الجمـــلة الثـانيـــة

(فى المكاتبة إلىٰ مسلمِى ملوكِ السُّودان ، وهم أربعة ملوك)

الاول — مِلِكُ النُّوبة . وهو صاحب مدينة دُنْقُلَةَ : وقد تقدّم الكلامُ عليها مستوفًى فى الكلام علىٰ المقالة الثانية فى "المسالك والممـالك" . قال فى "التعريف": وهو رَعِيَّةٌ من رَعَايَا صاحبِ مصر، وعليه حِمْلٌ مقرّرٌ يقوم به فى كل سنة، ويُخطب [ببلاده] (١) لخليفة العصر، وصاحب مصر .

قلت : هذا كان فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وهذه الإتاوة كانتْ مقرّرةً عليهم من زمن الفَتْح ، فى إمارة عَمْرو بن العاص رضى الله عنه ؛ ثم صارت تنقطع تارةً وتُحْمَل أُخرىٰ ، بحسَب الطاعة والعِصْيان . وهى الآنَ مملكةٌ مستقِلّة بذاتها ، ولذلك أوردتُ مكاتبةَ صاحبها فى جملة الملوك :

ورسم المكاتبة إليه إن كان مسلما علىٰ ما ذكره فى "التعريف" :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس الجليل ، الكبير ، الغازى ، المجاهد ، المؤيَّد ، الأوحدِ ، العَضُد ، مَجْدِ الإسـلام ، زينِ الأنام ، فخرِ المجاهدين ، عُمْـدةِ الملوك والسلاطين .

---

(١) الزيادة من "التعريف" .

وذكر ذلك فى « التثقيف » نقلا عنه . ثم قال : ولم أجد له مكاتبةً متداولةً بين الجماعة . قال : ولم يُكْتب له شىءٌ فى مدّة مباشرتى بديوان الإنشاء ، ولم يزد علىٰ ذلك .

ورأيت فى الدُّستور المنسوب للمقرّ العَلائىّ بن فضل الله أنّ مكاتبته هذه المكاتبةُ أيضا ، وأنه يقال بعد عمدةِ الملوك والسلاطين : «أدام الله سعادته ، وبلَّغه فى الدارين إرادته ، تتضمَّن إعلامه كَيْتَ وكَيْتَ ، فيتقدَّم بكذا وكذا ، فيحيطُ علمُه بذلك» .
ثم قال : والمكاتبة إليـه فى قَطْع العادة ، والعلامة « أخوه » ولا يخفىٰ أنّ العنوان بالألقاب ، ويظهر أن التعريف «صاحب دُنْقلة» .

الثـانى ــ ملك البَرْنُو . قال فى ”التعريف“ : وبلاده تحُدّ بلاد [ملك] [1] التَّكرور من الشرق ، ثم يكون حدّها من الشمال بلادَ [صاحب] [1] أفريقيَّة ، ومن الجَنوب الهَمَج ؛ وقد تقدّم الكلام عليهـا مستوفًى فى المقالة الثانيـة فى الكلام على المسالك والممـالك . ولم يذكر هذه المملكة فى ”مسالك الأبصار“ . قلت : وملكها يزعُم أنه من ذُرّية سَيف بن ذى يَزَن ملك اليمن علىٰ ماورد به كتابُه فى أواخر المائة السابعة .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى ” التعريف “ :

أدام اللهُ تعـالىٰ نَصْر الجناب الكريم ، العالى ، الملكِ الجليـلِ ، الكبيرِ ، العالم ، العـادل ، الغازى ، المجاهـد ، الهُمَام ، الأوحد ، المظفَّر ، المنصور ، عزِّ الإسلام ، (من نوع ألقاب ملك التَّكرور) : يعنى شرف ملوك الأنام ، ناصر الغُزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحِّدين ، جمال الملوك والسلاطين ، ظهير الإمام ، عضد أمير المؤمنين الملك فلان . ويدعىٰ له بمـا يناسبه ، وبعد إهداء السلام والتشوّق هـذه المفاوضَة تبدى ، علىٰ ماسيأتى ذكره فى مكاتبته .

---

(١) الزيادة من ”التعريف“ .

وهذا صـــدر يليق به : ولا زالتْ هِمَمُ سلطانه غيرَ مُقْصَره، ووُفودُ حجِّه غيرَ محصره، وسيفُه فى سَواد مَنْ جاوره من أعدائه الكُفَّار يقول: ﴿وجعلْنَا اللَّيْلَ والنَّهارَ آيتَيْنِ فمحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وجعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَة﴾ صدرَتْ، ولهاَمَثلُ مِسْكةٍ أفقه عبَق، وعنبرةُ طينتِـه سوادٌ إلا أنَّه من السَّواد اليَقَق ، وشبيبة مَلِكه الذى يُفَـدّيه سَوادُ الحَدَق. أوجبها وُدَ أسكنه [مَسْكَنه][1] من سُوَيْداء القلب لا يَرِيم، وأراه غُرَّة الصَّباح الوَضَّاح تحتَ طُرَّة الليل البَهِيم . وحكىٰ ذلك عنه فى "التثقيف" ولم يزد عليه .

ورأيت فى الدُّستور المنسوب للمقرّ العلائىّ بن فضل الله أنّ مكاتبته فى قطع الثُلُث، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب بَرْنُو» .

قلت : ووصل من هذا الملِك كتاب فى الدولة الظاهرية (برقوق) يتشكّى فيه من عرب جُذَامَ المجاورين له ، ويذْكُر أنهم أخذُوا جماعةً من أقاربه باعُوهم فى الأقطار، وسأل الكَشْفَ عن خبرهم ، والمنْعَ من بَيْعهم بمصر والشام ؛ وأرسل هديّةً صالحةً من زِئْبَـق وغيره . وكُتِب جوابُه بخط زين الدين طاهر : أحدِ كُتَّاب الدَّسْت .

صدره : أعزّ الله تعالىٰ جانبَ الجناب الكريم ، العالى ، الملِكِ الجليل ، العالم ، العادل، الغازى ، المجاهِدِ ، الهمام ، الأوحدِ ، المظفَّر ، المنصور ، المتوكِّل ، فخر الدين أبى عمرو عثمانَ بنِ إدريس : عزِّ الإسـلام ، شرفِ ملوك الأنام ، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحِّدين ، جمالِ الملوك والسلاطين ، سيفِ الجَلالة ، ظهيرِ الإمامه .

وبُعِث إليه به مع رسوله الوارد صُحْبـةَ الحجيج ، فأُعِيد وقد كتب الجواب علىٰ ظهره بعد سنة أو سنتين .

الثالث — ملك الكانِم . قال فى "مسالك الأبصار" : وقاعدة الملك منها بلدةٌ آسمُها «جِيمِى» ومبدأ مملكته من جهةِ مصر بلدةٌ آسمها «زَلّا» وآخِرُها طُولا بلدةٌ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ٢٩ .

يقال لها «كاكا» وبينهما نحو ثلاثة أشهر. قال: وعسكرهم يتلثّمون، وملكهم على حقارة سلطانه، وسوء بُقعة مكانه، فى غاية لاتُدْرَك من الكِبْرياء، يمسح برأسه عَنَانَ السماء، مع ضَعْف أجناد، وقِلّة متحصّلِ بلاد، محجوبٌ، لا يراه أحد إلا فى يوم العيدين بُكْرةً وعندَ العَصْر، وفى سائر السنة لايكلمه أحدٌ ولو كان أميرا إلّا من وراء حجاب.

وقال فى "التعريف" ملوكُها من بيتٍ قديمٍ فى الإسلام، وجاء منهم من ادّعى النسب العَلَوىّ فى بنى الحَسَن، وهو يتمذهبُ بمذْهَب الشافعىّ. ورَسْم المكاتبة إليه على ماذكره فى "التعريف" كرسم مكاتبة صاحب البَرْنُو، بدون الكريم، وتبعه على ذلك فى "التثقيف" ناقلا له عنه. ثم قال: ولم أطّلع على مكاتبةٍ له غير الذى قد ذكره.

الرابع — ملك مالِّى. قال فى "مسالك الأبصار" وهى فى نِهاية الغَرْب متصلةٌ بالبحر المحيط، وقاعدة المُلْك بها بَنِى. وهى أعظمُ ممالك السُّودان؛ وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك ذكرُ أحوالها، وما تيَسَّر من ذكر ملُوكها، وأن مالِّى اسمٌ للإقليم، والتَّكْرور مدينةٌ من مُدُنه، وكان ملكُها فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» مَنْسا موسى، ومعنى مَنْسا السلطانُ.

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار"(١) أنه وصل منه كتابٌ عن نفسه لنفسه فيه ناموسًا، وأنه وصل إلى الديار المصرية حاجًّا، واجتمع بالسلطان الملك الناصر، فقام له وتلقّاه، وأكرمه وأحسن نُزُلَه، على ماهو مبسوط فى موضعه.

---

(١) عبارة "المسالك" فى الكلام على مملكة مالى نصها «ولقد جاء كتاب من هذا السلطان الى الحضرة السلطانية بمصر وهو بالخط المغربى فى ورق عريض، السطر الى جانب السطر وهو يمسك فيه ناموسا لنفسه» فلعل مافى الأصل هكذا «عن نفسه وهو يمسك لنفسه الخ» فتدبر.

قال فى "التعريف": وملك التَّكْرور هذا يدّعى نَسَبا إلىٰ عبدِ الله بن صالح ابن الحسن، بن علىّ، بن أبى طالب .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" : « أدام الله تعالىٰ نصرَ المقرّ العالىّ، السلطانِ، الجليلِ، الكبيرِ، العالِمِ، العادلِ، المجاهدِ، المؤيَّدِ، الأوحدِ، عزّ الإسلام، شرفِ ملوك الأنام، ناصر الغُزاة والمجاهدين، زعيمِ جُيوش الموحِّدين، جمالِ الملوك والسلاطين، سيفِ الجَلالة، ظَهِير الإمامة، عَضُد أمير المؤمنين » الملك فلان . ويُدْعىٰ له بما يناسبُ . وبعد إهداء السلام والتشوّق « هذه المفاوضة تبدى » .

قال : ولا يُعرّض له ولا يُقرّبشىء من الألقاب الدالة على النسب العَلَوىّ .

وهذا صدر لهذه المكاتبة ذكره فى "التعريف" .

ويَسَّر له القيامَ بفَرْضه، وأحسنَ له المعاملَة فى قَرْضه، وكثَّر سوادَه الأعظمَ وجعلهم بِيضَ الوجوه يومَ عَرْضه، ومتَّعه بمُلْك يجد الحديدَ سَجْفَ سمائه والذهبَ نَبَاتَ أرضه . صدرتْ هذه المفاوضةُ وصدْرُها به مملُو، وشُكْرها عليه يحلُو، ومَزايا حُبّه فى القلوب سِرُّ كلِّ فؤاد، وسبَبُ ما حَلِيَ به الطَّرْف والقلْبُ من السَّواد، تُنْزِل به سفُنُها المسيَّرةُ فى البحر وتُرْسِى، وتحُلّ عند ملك ينقص به زائدُه وينسٰى موسٰى مَنْسٰى، وتُقيمُ عليه والدهْرُ لا يطرُقُه فيما ينوب، والفكر لا يَشُوقه إلا إذا هبَّتْ صَبًا من أرضه أو جَنُوب .

والمتداوَلُ بين جماعة كُتّاب الإنشاء أن المكاتبة إليه : « أعزّ الله تعالىٰ جانبَ الجناب الكريم العالى، الملكِ، الجليل، العالِم، العادلِ، المجاهد، المؤيَّد، المرابِط، المثاغر، العابدِ، الناسك، الأوحد، فلان، ذُخرِ الإسلام والمسلمين، نُصْرة الغُزاة

والمجاهدين، عَوْنِ جُيوش الموحِّدين، رُكْنِ الأمّة، عماد المِلّة، جمال الملوك والسلاطين، ولىّ أمير المؤمنين» والدعاء .

وذكر نحو ذلك فى الدُّسْتور المنسوب للمقرّ العلائىّ بن فضل الله، ثم قال ويقال : «صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلى الجناب العالى مملوءةَ الصدر بشُكْره، باسمةَ الثغر برفعةِ قَدْره، موضِّحةً لعلمه الكريم كَيْتَ وكَيْتَ . وذكر أنّ خطابه بالجناب الكريم، والطلبَ والقصد والخَتم بالإحاطة، وذكر هو وصاحب "التثقيف" أن المكاتبة إليه فى قطع الثلث، والعلامة «أخوه»، وتعريفه «صاحب مالّى وغانة» .

الجملة الثالثة

(فى المكاتبة إلى ملوك المسلمين بالحَبَشة)

قد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك أنّ ببلاد الحبشة سبعة ملوك مسلمين، لهم سبعُ ممالكَ، كلُّ مملكة منفردةٌ بملك، وبها الجوامعُ والمساجدُ ينادىٰ فيها بالأذان، وتُقام بها الجُمَع والجماعات، وهم مع ذلك تحتَ أمر صاحبِ أَمْحَرا ملك ملوك الحبشة، يختار لولاية ممالكهم مَنْ شاء توليتَه، ولا يَرِدُون ويصْدُرون إلا عن أمره، وهى مملكة أَوْفَات والزَّيْلَع، ومملكة دَوارُو، ومملكة أرَابِينى، ومملكة هَدْيَة، ومملكة شَرْحا، ومملكة بالِى، ومملكة دارَة .

وقد تقدّم الكلام عليها وعلى أحوالها مستوفىً عند الكلام عليها فى المقالة الثانية . قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه الممالك تُجاور ناصِع، وسوا كِن، ودَهْلَك، وليس بها مملكة مشهورة .

قال فى "التعريف" : ولم يَرِدْ من هـذه الملوك السبعة كتاب ، ولا صـدَر إليهم خِطَاب . قال : فإن ورد منهم شئٌ فتجرى مكاتبتُهم مثلَ مكاتبة صاحب الكانم والبَرْنُو . وقد تقـدّم أنّ رسم المكاتبة إليهما على ما ذكره فى "التعريف" : «أعزّ الله تعالى نُصْرَةَ الجناب الكريم، وأعزّ اللهُ تعالى جانب الجناب الكريم» على ما كتب به القاضى زينُ الدين طاهر فى جواب صاحب البَرْنُو على ما هو مذكور فى موضعه .

المقصـــد الرابع

(فى المكاتبة إلى أهل الجانب الشَّمَالى، وفيه ثلاثة أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى المكاتبات إلى أُمَراء الأتراك بالبـلاد المعروفة ببـلاد الرُّوم المسمَّاة الآنَ ببلاد الدُّرُوب)

قال فى "التعريف": وهى البلاد المُنحصِرة بين بَحْرِى القِرمِ والخليج القُسْطَنْطِينِىّ تنتهى فى شرقيِّها إلى بحر القِرمِ المسمَّى بحر نِيطش، وفى الغرب إلى الخليج القُسْطَنْطِينِىّ وتنتهى متشاملة إلى القُسْطنطينية، وتنتهِى جَنُوبا إلى بلاد الأرمن، يحـدُّها البحر الشامىّ . قال : وهـذه البلاد بلادٌ متسـعه ، وهى مفرَّقةٌ لملوك مجتمعه ، ولكنه لا يُطْلق عليهم إلّا آسم الإمارة، ولا آنتِظامَ لكلمتهم ، ولا آجتماعَ لجُملتِهم، ثم قال : وأكبرهم صاحب كِرْمِيان، وله بينهم وَضْع محفوظ، ونظامٌ مرعىّ .

أما ملوكنا، فأجلُّ مَنْ لديهم منهم جماعةُ بنى قرْمان ، لقُرْب ديارهم ، وتَواصُل أخبارهم، ولنِكَاياتهم فى متملَّك سِيس وأهل بلاد الأرمن ، وآجتياحِهم لهم من ذلك

الجانب، مثلَ ٱجتياح عساكرِنا لهم من هذا الجانب؛ فمكاتبتنا إلىٰ بنى قرمان لاتكاد تنقطع، وأما إلىٰ البقيَّة فأقلُّ من القليل، وأخفىٰ من مَرْأىٰ الضئيل. ثم عدّ منهم ستةَ عشَرَ أميرا، وذكر رسمَ المكاتبة إلىٰ كلِّ واحدٍ منهم:

الأول — صاحب كَرْميان. قال فى "التعريف": ولم يُكتب إليه مُدّة مُقامى بالأبواب السلطانية؛ ويُشْبِه أن تكون المكاتبةُ إليه بالمَقرّ نظير صاحب مارِدِينَ، لكن بأبسطِ ألقاب: إذ هى أدعىٰ لٱستحسانهم لقِلَّة مَعارفهم، وعلىٰ هذا التقدير يكون رسم المكاتبة إليه: «أعزَّ الله تعالى نَصْر المقرّ الكريم، العالى، المَلَكىّ، الأجلّىّ، العالمىّ، العادلىّ، المجاهدىّ، المؤيَّدىّ، المرابطىّ، المثاغرىّ، المظفَّرىّ، المنصورىّ، الفلانى، عونِ الأنام، شرف الملوك والسلاطين، نَصير الغُزاة والمجاهدين، زعيم الجُيوش، مقدّمِ العساكر، ظهيرِ أمير المؤمنين».

قال: فإن لم يُسْمَح له بكل هذه المخاطَبة، ولم يؤهَّل لنظير هذه المكاتبه؛ كتِبَتْ إليه هذه الألقاب مع الجناب الكريم، وخُوطب بالإمارة إن لم يسمح له بالمخاطبة بالمُلْك.

قال فى "التثقيف" ولعل مكاتبتَهُ بالجناب مع هذه الألقاب كما ذُكر ومخاطبتَه بالإمارة أَوْلىٰ: لأنه إذا كان بنو قِرْمان أجلَّ لدىٰ ملوكنا، ومكاتبتُهم بالدعاء والمجلس العالى، فيتعين حيثُ هو أكبرُ منهم أن يكون هو أعلىٰ منهم رتبةً فى المكاتبة بدرجتين[1] وهى: الجناب الكريم. قال: هذا هو الاولىٰ عندى.

قلت: وهذا كلُّه إنما كان قبل أن يعْلُوَ قدرُ ٱبن عثمان صاحب بُرْسَا الآتى ذكره، ويرتفعَ قَدْرُه على مَنْ بتلك البلاد جملة؛ أما بعد ٱرتفاعه وانحطاطهم دُونَه فينبغى أن يُنْظَر فى قدر المكتوب إليه، ويكتب إليه بحَسَب ماتقتضيه الحالُ.

(١) لعله بدرجة تأمل.

الثانى — صاحب طُنْغُزْلُو . قال فى " التعريف " ورسم المكاتبة إليه : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى الأميرى» ولم يذكر العلامةَ اليه . قال فى " التثقيف " والذى وجدتُه مسطورا فى مكاتبته الأسمُ والسامىُّ بالياء .

الثالث — صاحب تُوَازا . قال فى " التعريف " : وهو فى المكاتبة نظيرُ صاحب طُنْغُزْلُو، ولم يزد على ذلك، غيرَ أنه ذكر أن آسمه فى زمانه كان «على أرينه» وذكر فى " التثقيف " أنه لم يقف له على رسم مكاتبة سوى ذلك .

الرابع — صاحب عَيْدَلِى . قد ذكر فى " التعريف " أن آسمه فى زمانه دَنْدار أخو يونُس صاحب أنْطاليا ، وأنه نظير صاحب تُوَازا فى المكاتبة ، فتكون المكاتبة إليه : صدرتْ والعالى . قال فى " التثقيف " ولم أقف على رسم مكاتبة إليه سوى ذلك ، إلا أنه ذكر بعد ذلك صاحب عدليو . وقال : إن المكاتبة إليه الأسمُ والسامىّ بالياء، وذكر أن المقرّ الشهابىَّ بن فضل الله لم يتعرّض إلى ذكره فى " التعريف " ثم قال : وقد تكون هى عَيْدَلِى المقدّم ذكرها، وإنما تكرّرتْ بتغيير الحروف . قال ولم يتحرّر هل هما آثنان أو واحد .

الخامس — صاحب كَصْطَمُونِيَة وهى قَسْطَمُونِيَة . قال فى " التعريف " وكانت آخِرَ وقتٍ لسليمان باشا، وكان أميرًا كبيرًا، كثيرَ العَدَد، موفورَ المَدَد، ذاهَيْبة وتمنُّع . ثم قال : وورث مُلْكَه آبنُه إبراهيم شاه ، وكان عاقًّا لأبيه ، خارجًا عن مَرَاضيه، وكان فى حياته منفرِدا بمملكة سَنُوبَ . قال : وهى الآنَ داخلةٌ فى مُلْكه، منخرطةٌ فى سِلْكه .

وذكر أنّ رسم المكاتبة اليه : «أدام اللهُ تعالى نعمةَ المجلس العالى الأميرى» بأكمل الألقاب، وأتمّ ما يُكْتَب فى هذا الباب، وذكر فى " التثقيف " نقلًا عن القاضى ناصر الدين بن النشائى، وأمين الدين خضر مثلَ ذلك، وأن العلامة إليه «أخوه» .

السادس — صاحب فاوِيَا . قال فى "التعريف" وهو (يعنى فى زمانه) مرادُ الدين حمزةُ ، وهو مَلِك مضْعُوف ، ورجلٌ بمجالس أُنْسِه مشْغُوف . قال : ورسم المكاتبة إليه «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامىّ الأميرىّ» بالياء . قال فى "التثقيف" وهو غير بعيد .

السابع — صاحب بُرْسَا . وقد ذكر فى "التعريف" انه فى زمانه أُرْخَان بن عثمان . ثم قال : وهو نظير صاحب فاوِيَا فى المكاتبة ، فتكون مكاتبته السامىّ بالياء . قال فى "التثقيف" ولم أطّلع علىٰ رسم لمكاتبة إليه غيْرَ ذلك ، إلا أنه ذكر فى الفصل الأوّل من الباب الرابع فى الكلام علىٰ مكاتبات الحُكّام أُرْخَان بن عثمان . وقال : إنّ لقبه سيفُ الدين . ثم قال : ويقال إنه صاحب بُرْسَا ، وذكر أن رسم المكاتبة إليه فى قَطْع العادة والدعاء والمجلس العالى ، والعلامة أخوه ، وتعريفُه اسمه .

قلت : وقد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك أن الأمر قد آل فى بنى عثمان إلى أُرْخان بن عثمان جَق ، ثم إلى ٱبنه مُرَاد بك ، وأنه ٱتّسع مُلْكُه وجاوز فى الفتح الخليج القسطنطينىّ حتّى قارب خليجَ البَنَادقة ، ثم إلى ٱبنه أبى يزيدَ فزاد فى المُلْك علىٰ ما كان بيد أبيه ، وتزوج فى بنى قِرْمان ، ودخل بنُو قِرْمان وسائر التُّرْكُمان فى طاعته ، ولم يبقَ خارجًا عن مُلكه إلا سِيواسُ ؛ فإنها كانتْ مع قاضيها إبراهيمَ المتغلِبِ عليها ، ولم يزل كذلك حتّى قصده تَمُرْلَنْك وأسَرَه ، ومات فى يديه ، وملك بعده ٱبنُه سليمان چَلَبى . ثم مات ، وملك بعده أخوه محمدُ بنُ أبى يزيد بن مُرَاد بك ٱبن عثمان جق ، وهو القائم بها إلىٰ الآن . وكانت المكاتبة قد استقرت إلىٰ أبى يزيد فى الأيام الظاهرية (برقوق) (١)

(١) ترك بياضا فى الاصل لصورة المكاتبة .

الثامن — صاحب أكبرا . قد ذكر فى "التعريف" : أنه كان فى زمانه دمرخان[١] آبن قَرَاشِى، وذكر أن مكاتبته نظير مكاتبة صاحب بُرْسا ، يعنى السامىَّ بالياء، وذكر فى "التثقيف" : أنه لم يقف على سوى ذلك .

التاسع — صاحب مَرْمَرا . وقد ذكر فى "التعريف" : أنّه فى زمانه كان بَخْشى بن قَرَاشِى . وقال : إن رسم المكاتبة إليه : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى» .

قلت : وقد تقدّم فى المسالك والممالك أن هذه البلدة كانت جزيرةً بالخليج القسطنطينى بها مَقْطَع رُخَام، وأنّ النصارى غَلَبُوا عليها .

العاشر — صاحب مَغْنِيسِيَا . ذكر فى "التعريف" : أن آسمه صارُوخَان . وقال : إن المكاتبة إليه السامىّ بالياء . وذكر فى "التثقيف" : أنها صارتْ بعده إلى آبنه إسحاقَ بنِ صارُوخانَ ، وأنه كُتِبَ إليه فى شوّال سنةَ سبع وستين وسبعمائة بالاسمِ والسامىِّ بالياء .

الحادى عشر — صاحب نِيف . ذكر فى "التعريف" : أنه فى زمانه كان على باشا أخو صارُوخانَ صاحب «مَغْنِيسيَا» المقدم ذكره، وذكر أنّ رسم المكاتبة إليه مثلُ أخيه المذكور ، فتكون صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى .

الثانى عشر — صاحب بَرِكِى . ذكر فى "التعريف" : أنها فى زمانه كانت بيد آبن أيْدين ولم يصَرّح باسمه . قال : وإن المكاتبة إليه « أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العالى» بالألقاب التامّة، وذكر فى "التثقيف" : أنه لم يقِفْ له على مكاتبة غير ذلك .

---

(١) هى كذلك فى كتاب "المسالك" والذى تقدم فى ج ٥ نقلا عن "التعريف" أيضا صاروخان ، وليست فى نسخة "التعريف" التى بأيدينا .

الثالث عشر — صاحب فُوكَه . ذكر فى "التعريف": أنه كان فى زمانه أَرْخَان ٱبن منتشا، وأن المكاتبة إليه نظيرُ صاحب بِرْكِى، فتكون الدعاءَ مع العالى بالألقاب التامَّة أيضا؛ وذكر فى "التثقيف": أنه لم يَقِف فى مكاتبته على غير ذلك .

الرابع عشر — صاحب أنطاليا . ذكر فى "التعريف": أنه كان فى زمانه ٱسمه خَضِر بنُ يونُس . وقال : إن رسم المكاتبة إليه «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى» . وذكر فى "التثقيف": أن خَضِر بنَ يونس المذكور كان يلقَّب سِنانَ الدين، وأنه ٱستقرّ بعده دادى بك، ثم ٱستقرّ بها آخراً محمدٌ المعروف بكاجُوك؛ وذكر أن المكاتبة إليه «أخوه»[1] والدعاء والعالى . ثم قال : وهو الأصحّ لأنه آخرُ ما ٱستقرّ عليه الحال فى مكاتبته وكتب به إليه .

الخامس عشر — صاحب قَرَاصار . ذكر فى "التعريف": أنه كان فى زمانه ٱسمه زكَرِيّا، وأن رسم المكاتبة إليه : هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى، بلا ياء؛ وذكر فى "التثقيف": أنه لم يطلع على مكاتبةٍ إليه سوى ذلك ، وأنه لم يكتب إليه شىءٌ فى مدّة مباشرته .

السادس عشر — صاحب أَرْمنَاك . ذكر فى "التعريف": أنها كانتْ فى زمانه بيد ابن قِرْمان ولم يصرح باسمه، وذكر فى "التثقيف": أن ٱسمه عَلاءُ الدين سُلَيمان . قال فى "التعريف": ورسم المكاتبة إليه : أدامَ اللهُ تعالى نعمةَ المجلس العالى بأكمل الألقاب وأكبرها، وأجمعها وأكثرها . وذكر فى "التثقيف" أنّ آخر مَن ٱستقرّ بها فى شوّالٍ سنةَ سبع وستين وسبعمائة علاءُ الدين على بك بن قِرْمان ، ووافق على رسم المكاتبة المذكورة . وقال : إن العلامة إليه «أخُوه» وتعريفه «فلان بن قِرْمان» .

(١) لعله "العلامة إليه" .

قال فى "التعريف": ولإخوة صاحبها ٱبنِ قِرْمان المذكورِ رسومٌ فى المكاتبات، فأكبرهُم قَدْرا، وأفتكُهم نابًا وظُفُرا، الأميرُ بهاءُ الدين موسٰى . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية أنّه حضر إلى الأبواب السلطانية، وحَجَّ مع الركب الشريف؛ ثم عاد إلىٰ الأبواب السلطانية، وأُجْلِس فى المَرّتين مع أُمَراء المَشُورة، وأُشْرِك فى الرأى . وسأل السلطانَ فى كتابة منشورٍ بما يَفْتَحُه من بلاد الأرمن فكُتِب له . قال فى "التعريف" : وٱستقرتْ المكاتبةُ إليه مثلَ مكاتبة أخيه . قال : أما بقيّةُ بنى قِرْمان فدُونَهُما فى المكاتبة .

وٱعلم أن صاحب "التثقيف" قد زاد علىٰ ذلك من أمراء هذه البلاد ستّةَ نفر .

أحدهم — الحاكمُ بالعلايا . وذكر أنه كان ٱسمُه حُسَامَ الدين محمودَ بنَ عَلَاء الدين، وأنه كتب إليه فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة «أخوه» والدعاء، والعالى، فى قَطْع العادة .

الثانى — صاحب بَلَاط وريحر[1] . ذكر أنه كان بها «أمير موسٰى» بنُ ابراهيم ٱبن مَنْتشا ، وأن المكاتبة إليه فى قَطْع العادة «والده والدعاء، والمجلس العالى» .

الثالث — صاحب أَكْدُور وهى أَكْدُون. ذكر أنه كان بها إلياسُ بنُ مصطفىٰ من بنى حُمَيد، وأن رسم المكاتبة إليه علىٰ ما ٱستقر عليه الحالُ عند ما كُتِبَ إليه فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة «والده» والسامى بالياء .

الرابع — صاحب أَيَاسْلُوق . ذكر أنه كان بها عيسىٰ بنُ أَيْدين ، وأنه كَتَبَ إليه فى شوّال من السنة المذكورة أيضا .

(١) كذا باهمال جميع حروفها نعم تقدّم فى القواعد «بلاط» فقط ولم نعثر عليها بعد البحث والتصحيف .

الخامس — صاحب بلى شار . ذكر أنه كان بها الأمير محمد ولم يذكر نسبته. وقال : إن المكاتبة اليه الاسم والسامى بالياء .

السادس — الأمير ذروان بن كرمان بن منتشا . ذكر أنه ممن آستجدت مكاتبته فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة .

وآعلم أنه قد زاد فى "التثقيف" ذكر مكاتبة جماعة لم أتحقّق هل هم من أهل هذه البلاد أم من غيرها .

منهم صاحب قلعة الحنفاء، ذكر أنه كان آسمه سيف الدين قوجى، وأن المكاتبة اليه فى قطع الثلث والسامى بالياء .

ومنهم صاحب قلعة الجوز، فى قطع الثلث الاسم والسامى بالياء، وتعريفه آسمه .

ومنهم صاحب بكجرى : آستجدت الكتابة إليه فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة، وكتب إليه الاسم والسامى بغير ياء .

ومنهم الحاكم بقلعة أبيض كتب اليه الاسم ومجلس الأمير .

ومنهم الحاكم بقلعة نعمة، كتب إليه الاسم ومجلس الأمير أيضا .

ومنهم الحاكم بقلعة أشنى : وهى أشنو كتب إليه كذلك .

على أنه قد ذكر منهم جماعة أيضا ليسوا من أهل هذه البلاد جملة، منهم نائب خلاط، وصاحب موغان، وهى موقان، والحاكم بإسعرد وهى سعرت، وصاحب قيشان وهى قاشان .

وقد تقدّم أن خلاط من أرمينية، وموقان من أرمينية، وإسعرد من ديار ربيعة من الجزيرة الفراتية، وقاشان من عراق العجم، وبالجملة فقد خلّط فى "التثقيف" فى البلدان تخليطا كثيرا، وخلط بعض أقاليم البلاد ببعض .

قلت : قد تقدّم فى صـدر الكلام على المكاتبات ذكرُ أصول يعتمِدُها الكاتب فى كتبه تعمُّ الكتبَ السلطانيـة وغيرَها ؛ وأنا أذكُرهنا ما يختصُّ منها بالكتب الصادرة عن السـلطان على النَّمَط الجارى عليه الاصطلاحُ الآنَ ليسْهُل القصدُ إليها لقُرْبها، ويحصلُ الغرضُ من ذلك، بذكر [تسعة] أمور :

أوّلها — مقاديرُقطْع الورق؛ قد تقدّم فى الكلام على مَقادير قطْع الورق المستعملة فى دواوين الإنشاء جملةً، والذى يختص منها بالكُتُب الصادرة عن السلطان أربعةُ مقـادير :

أحدها — قَطْع البغدادىّ الكامل ؛ وقد مرَّ أنه يكتَبُ فيه للقانات .

وثانيهـا — قطْع النّصف، وفيه يكتَبُ إلى أكابر الملوك ممّن دُونَ القَانات .

وثالثهـا — قطْع الثُّلُث، وفيه يكتَبُ إلى الرتبة الثانيةِ من الملوك .

ورابعها — قَطْع العادة، وفيه يكْتَب إلى أصَاغِرِ الملوك والوُلَاة وغيرهم .

الثـانى — العُنْوان ؛ قد تقدّم فى مقدّمة الكتاب أنّ الذى كان يَكْتُب عُنْواناتِ الكتب السلطانية فى الزمنِ المتقدّمِ هوصاحبُ دِيوان الإنشاء دُونَ غيره ؛ أما الآنَ، فإنّ كاتب كلّ كتاب صار هو الذى يكتب عُنْوانَه بنفسه .

وقد جرتِ العادة فى عامة الكتب السلطانية أن يكون المكتوب فيها هى ألقاب المكتوب اليـه ونُعوتُه التى فى صـدر المكاتبة فى الباطن ؛ ثم يُدْعىٰ للمكتوب إليه فى آخر الألقاب بالدّعوة التى صُدِّر بها الدعاء فى الصدْر مثـل : أعزّ الله أنصارَه ، أو ضاعَفَ الله نعمَتَه، وما أشـبه ذلك من الأدعِيَة التى تُفْتتَح بها المكاتبات ؛ فإن كان الكتاب مفتَتَحا بالحمـدلة أو بلفْظِ من فلان ، كُتِب فى العنوان الألقابُ التى فى صَـدْر الكتاب بعـد ذلك ؛ ثم بعد الدعاء يُخَلّى بياضا قليـلا ؛ ثم يذكر تعريف

المكتوب إليه . مثل «صاحب فلانة» ونحو ذلك مما تقدم ذكره من التعريفات . وتكون كتابة العُنْوان بنظير قلم الباطن فى الدِّقة والغلَظ . وتكون أسطُرُه متصلةً من أوّل عَرْض الدَّرْج إلى آخره، وأسطُرُه متلاصقةً متتالية .

الثالث — الطُّرّة التى يُكْتَب فيها تعريفُ المكتوب إليه ، والعلامةُ التى يكتبها المكتوبُ عنه، والسببُ فى كتابته .

وقد جرتِ العادةُ فى ذلك أنه يكتب فى رأس الدَّرْج فى الجانب الأيمن «إلى فلان» وفى الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» وفى الوسط العلامة التى يعلّمها السلطانُ مثل «أخوه» أو «والده» أو «اسمه» : لِيُنْظَر عند علامة السلطان على الكتاب فيعلَم حالُ الكِتاب، ويجرى الأمرُ فى العلامة[1] على هذا الرسم، وتكون كتابتُها بقلَم الكتاب من ثُلُث أو رقاع أو غيرهما، إلا أن يكون الكتابُ بمختصر الطُّومار فى قطع البغدادى فيكون ذلك بقلم الثلث . وهذه الطرّة تقطع بعد أن يعلَّم على الكتاب .

الرابع — البياض فى أعلى الكِتاب ، وقد جرت العادةُ فى الكتُب السلطانية أنّ العلامة إلى المكتوب إليه : إن كانت «أخوه» أو «والده» ترك فيه ثلاثة أوصال بياضا بما فيه من وَصْل العُنْوان، ثم تكتَبُ البسملةُ فى رأس الوصل الرابع، وإن كانت العلامةُ إليه الاسم، تُرِك وَصْلان بياضًا فقط وكتبت البسملةُ فى أوّل الوصل الثالث، ثم يُكْتَب السطر الأوّل من الكتاب على سَمْت البسملة ملاصِقًا لها، ثم يخلّى موضع العلامة بياضا، ويكتَبُ السطر الثانى على سَمْت الأوّل فى أواخر ذلك الوصل على قدر إصبعين من آخره، ثم يُجْعَلُ بين كل سطرَيْنِ أربعةُ أصابعَ مطبُوقة، إن كان القطع صغيرا، وإن كان القطع كبيرا كان فيه قدرُ رُبُع ذراع أو نحوه بحسَب

(١) لعله فى الكتابة أى يكتب ما يناسب العلامة .

المناسبة؛ فإذا ٱنتهى إلىٰ آخر الكتاب كتب «إن شاء الله تعالىٰ» فى الوَسَط علىٰ بُعْد قدر إصبعين من السطر الآخر. ثم يكتب: «كُتِب فى تاريخ كذا من شهر كذا سنة كذا وكذا» ويكون إلى آخر ذكر الشهر سطر، ومن أول سنة كذا إلى آخره سطر. ثم يكتب المستَنَد على نحو البُعْد المذكور: فإنْ كان بتلَقِّ كاتب السِّرّ خاصَّةً كتب «حَسَب المرسوم الشريف» فقط. وإن كان بتلَقِّ كاتب السر وكُتَّاب الدَّسْت من دار العَـدْل كتب «حَسَب المرسوم الشريف» فى سطر، وتحته بقدر إصبع «مِنْ دار العَـدْل الشريف» فى سـطر. وإن كان برسالة الدَّوَادار كتب «حَسَب المرسوم الشريف» فى سطر، وتحته بقدر إصبع «برسالة الجناب العالِى الأميرىّ الفلانىّ الدَّوادار الفلانىّ» بلقب السلطان «ضاعف الله تعالى نعمتَه». وإن كان من ديوان الخـاصّ، كتب «حَسَب المرسوم الشريف» فى سطر وتحته «من دِيوان الخاصّ الشريف». وإن كان بخطّ السلطان: بأن كُتِب علىٰ القِصّة بالخط الشريف، كتب «حسَب الخَطّ الشريف» فى سـطر واحد. وإن كان بإشارة النائب الكافل كتب «بالإشارة العالية الأميريَّة الكبيريَّة الفلانية» فى سطر، وكتب تحته بقدر إصبع «كافِلِ الممالك الشريفة الإسلامية أعْلَاها الله تعالىٰ». وإن كان باشارة أستاد الدار، كتب «بالإشارة العالية الأميرية الكبيرية الفلانية» فى سطر، ثم يكتب تحته بقدر إصبع «أستاد الدار العاليةِ أعلاها الله تعالى». علىٰ أنه قد تقدّم فى الألقاب أن كتابتهم أستاد الدار هو عرف جرىٰ عليه ٱصطلاحُهم، وأنّ الصواب فيه إستَدَّار بغير ألف بعـد التاء. وتكون كتابة المستَنَد ببياض من جانبيه، سواء كان سطرا واحدا أو سطرين، ثم إذا فرغ من كتابة المستَنَد، كتب الحمدَلة والصلاةَ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى سطر كامل علىٰ بُعْد قدر إصبعين من المستَنَد، ثم يكتب الحَسْبلةَ علىٰ قدر إصبعين من سطر الحمدلة والتصلية.

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ الخواتم فى المقالة الثالثة نقلاً عن عبد الرحيم بن شِيث أن موضعَها من ثُلُث السطر الأخير من أوّله إلىٰ حينِ تنتهى كتابتُها .

الخامس — قد ذكر آبن شيث فى معالم الكتابة أنه لا يُكْتَب فى حَوَاشِى الكتب السلطانية : لأنّ فى ذلك شُحًا بالورق ، وذلك مما لا يليق بالسلطان ؛ ولا خفاءَ فى آستقباح ذلك ، بل قد يُستقْبَح ذلك فى غير السلطان كما سيأتى ذكره فى الإخوانيّـات .

السادس — العلامةُ السلطانية علىٰ المكتوب، فى بيت العلامة من البياض السابق ذكره . قد ذكر فى "التعريف" أن أكبر مَنْ يكتب إليه من الأمراء ومماليك البيت الشريف فترجمته بالخط الشريف « والده » ومَنْ دونَ ذلك «الآسمُ الشريف» ؛ أما الغُرَباء كملوك المسلمين والعُرْبان وأكابرُ القضاة وأهْلِ الصّلاح والأكابر، فترجمته بالخط الشريف «أخوه» ومَنْ دُونَ ذلك الآسمُ الشريف .

والذى آستقرّ عليـه الحالُ آخرا فى زماننا أنّ لأكابر الأمراء من النوّاب وغيرهم «أخوه» لرفعة مكان الأخ علىٰ الولد، ولمن دُونَهم «والده» ولمَنْ دُونَ ذلك «الآسم» وباقى الحـال على ما ذكره ؛ وقد سبقَتْ ترجمة كلّ مكتوب إليـه فى الكلام علىٰ المكاتبة إليه .

أما القانات الكِبَار فقد تقدّم فى الكلام علىٰ المكاتبة إليهم أنه تكتب لهم طُغْراة بالألقاب السلطانية فى موضع العلامة ؛ وأما ملوك الكُفْر، فسيأتى أنه تكتب طُغْراة بالألقاب السلطانية فوق البسملة .

السابع — طىّ الكُتُب السلطانية : قد تقـدّم فى صَدْر الكلام علىٰ المكاتبات نقلا عن آبن شيث من كُتّاب الدولة الأيوبية أنّ كُتُب السـلطان يكون طيُّها

فى عَرْض أربعـة أصابع ، وأن مقتضىٰ ذلك أن كُتُبَ السـلطان بالديار المصرية كانت تُطْوىٰ على هـذه الهيئة كما فى كُتُب أهل المغرب الآنَ ، والذى آسـتقرّ عليه الحال آخرا أنها يجعَلُ طيُّها فى صورة أُنْبُوبِ القَناة ولا تُضْـغَط فى طَيِّها لتكون نبيلة تعظيما لأمر السلطان و إجلالًا لقدره .

الثـامن — خَتْمُ الكتّاب : قد تقدّم فى الكلام على الخَواتم واللّواحق فى المقالة الثالثـة أنّ الكتب السلطانية كانت تختَم بسَحَاءة(١) ، ويُطْبَع عليها بِطين أحمر، يُؤْتىٰ به من سِيراف ، وتختَم بخاتم كما تختُم المغاربةُ الآنَ ؛ أما الآن فقد آستقرّ الحالُ على أن الكتب تُلْصَق بالنَّشَا أو ما فى معناه من الكَثِيراء ونحوها ؛ وقد سأل الشيخُ جمـالُ الدين بن نُباتةَ فى رسالتـه التى كتبها إلىٰ الشّهاب محمود رحمه الله حينَ بلَغـه وقوعُ بعض كُتّاب دِمَشْقَ فى حقه عمن غيَّر طينَ الختم إلىٰ النَّشا ، ولم أقِفْ علىٰ زمان تغيُّر ذلك ولا مَنْ غيَّره ، علىٰ أنى حلّلت معظَم أسْئولة هذه الرسالة فى خِلال هذا الكتاب مفرّقةً فى مواضعها .

التاسـع — أن الكتبَ الصادرةَ عن الأبواب السلطانية : إن كانت إلىٰ أحد من عُظماء المُلوك كالقاناتِ ببلاد الشَّرْق ، أو ملوكِ بلاد المغرِب ونحوهم ممن يَتَعانىٰ البلاغةَ فى الكتب الصادرة عنـه ، كُتبت مسجوعةً كلُّها ؛ وإن كانت إلىٰ صِغَار الملوك والحُكّام كُتبت غيرَ مَسْـجوعة ؛ وإن كانت إلىٰ أحد من أهـل المملكة ؛ فإن كانت فى أمرٍ بعد وُقُوعه : كالكتابة بالبِشارة بوفَاء النيل ، أو جلوس السلطان علىٰ التَّخت لأوّلِ أمره ، أو بُرْئِه من المرض ، أو وِلادَة ولدٍ له ، أو البِشارة بفَتْح ، أو الإعلام بركوب المَيْدان ، أو الإنعام بخَيْـل أو نحوها ؛ كُتبت مسجوعةً ، وإلا كُتبت مُرْسَلةً غيرَ مسجوعة .

(١) يريد تلف عليها سحاءة كما يؤخذ من بقية العبارة ومما تقدم فى جزء ٥

الطـــرف الثـانى

(فى المكاتبة عن ملوك الديار المصرية على المصطلَح المستقِر عليه الحـالُ، إلى مـلوك الكُفْر)

وٱعلم أن ملوك الكفر المكاتَبين عن هذه المملكة جميعهم نصارى : من الرُّوم ، والفَرَنْج ، والكُرْج ، والحَبَشــة وغيرهم ، إذ كانوا هم المستوْلين على أكثر الممالك ، أما اليهود ، فإنهـم لم يبْقَ لهم مملكةٌ معروفة ، بل هم تحتَ الذِّمَّـة أين كانوا . قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْـلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ . قال فى "التعريف" وجميعُ الكُتُب المكتوبة إلى ملوك الكُفْر لا يشْـمَلُها الخطُّ الشريف أصلًا، بل يُكْتَب فوقَ البسملة فى الكتَاب بخط الكاتِب عِوَضَ العلامة الشريفة أسطُرٌ قصيرةٌ ببياض من الجانبين ماصورته :

« من السلطان الأعظم الملكِ الناصر ــ مثلا ــ العالم، العادلِ، المجاهِد، المرابِط، المُثَاغِر، المؤيَّد، المظَفَّر، المنصور، الشاهنشاه؛ فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مُحْيِي العــدل فى العالمين، وارث المُلْك، مَلِك العرب والعَجَم والتُّرْك؛ ظلِّ الله فى أرضــه، القائم بسُنَّته وفَرْضــه ؛ إسكَنْدرِ الزمان، مُمَلِّك أصحاب المنابر والتُّخوت والتِّيجان، واهِبِ الأقاليم والأمصار، مُبِيدِ الطُّغاة والبُغَاة والكُفَّار، حامِى الحرمين والقِبْلتين جامع كلمة الإيمـان ، ناشِر لواء العدل والإحسان ؛ سـيِّدِ ملوك الزمان، إمام المتقين ، قسيم أمير المؤمنين؛ أبى فلان، ٱبن السـلطان الشهيد الملك الفلانى فلان، خلَّدالله سلطانه، ونصر جنودَه وجيوشه وأعوانَه » .

وأوضح ذلك فى "التثقيف" فقال : ويكون فى الطرّة بعد وصلين بياضًا من أول الكتَاب بهامِش جيد من الجانبين يَمْنةً ويَسْرةً، ويكونانِ فى قَدْر بياضهما سواءً

تقديرَ أربعـةِ أصابع فأكثرَ من كل جانب، من الورق العريض؛ وفى قَطْع العـادة دُونَ ذلك . وتكون الأسطرُ متقاربةً، ما بينهما من البياض تقديرُ إبهام أو أزيدُ منه بشىءٍ يسير، وإذا انتهت الألقاب يَتْرُك بعـدَها وصلًا أبيض، ثم يكتب البسملةَ الشريفة، وبعدها رَسْم المكاتبة للمكتوب إليه .

الطـرف الثالث

(فى المكاتبة إلى مَنْ وراءَ بحر القِرِم بالجانب الشمالىّ منه)

وهو صاحبُ البُلْغار والسَّرْب . وهى بلادٌ فى نهـاية الشَّمال ، متاخمةٌ لصاحب السَّرَاى ؛ وقـد ذكر فى "التعريف" المكاتبةَ إليـه فى المكاتبة إلى جمـلة ملوك المسلمين. وقال : إنَّ صاحبها يُظْهِر الانقيادَ لصاحب السَّرَاى، وإنه أرسل رسُلَه تَطْلُب له الألوِيَةَ من الأبواب السلطانية فجُهِّزت إليـه مع ما جَرَتْ به العـادةُ من السيف والتشريف والخَيْل المُسْرَجة المُلْجَمة . وذكر أن رسم المكاتبة إليـه على ما كُتِب إذ ذاك :

«أعزَّ الله نصْرَ الجناب الكريم، العالى، المَلَكىّ، الأجَلّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المجاهدىّ، المؤيَّدىّ، المُرابِطىّ، المثاغِرىّ، الأوحدىّ، سيف الإسلام والمسلمين، ناصر الغُزاة والمجاهدين، زعيم الجُيوش، مقدَّمِ العساكر، جمالِ الملوك والسلاطين، ذُخْر أمير المؤمنين» .

ثم هذا الطرف يشتمل على أربعةِ مقاصدَ مشتملةٍ على الجهات الأربع :

المقصـــد الأوّل

(فى المكاتبة إلى ملوك الكُفّار ببلاد الشّرق ، وجملةُ مَنْ بها من ملوك النصارى المكاتَبين عن هـذه المملكة مملكتان)

الأولىٰ ـ مملكةُ الكُرْج من النصارىٰ المَلَكِيَّة . قال : فى "التعريف" ويقال فى المسلمين الكُرْد ، وفى النصارى الكُرْج . قال : وموقع هذه [البِلادِ] بين بلاد الرُّوم وبين بلاد أرمينِيَـةَ . وهى بلادٌ جليـلةٌ ، ومملكةٌ مفخَّمة ، وكأنها مقتطعـة من البلادَيْن ، ولهـا ملِك قائم ، وبها مُلْكٌ دائم ، وأُمُّها مدينة تَفْلِيس ، وسـلطانُ بيت هُولاكُو بمملكة إيرانَ يحكُم عليها ، ويَرَالِغهُ تَصِلُ إليها ، إلا أنه لا يَطْغىٰ بها سَيْلُه ، ولا تجوسُ خِلالَ ديارِها لحرْب المُضْرَمةِ خَيْلُه ، وإنمـا له بها تُومانٌ اتخذه سِدَادا لثغرها ، وقياماً بأمْرِها ، مَنْزِلهُم فَسِيحُ بوَادِيها ، أهـلُ حَلٍّ وتَرْحال ، وتنقُّل من حال إلىٰ حال . قال : وآخِرُ مَنْ كان له فى هذه البلاد سُمْعة ، وأُقيلَتْ به للمَهابة صَرْعه ، الشيخُ محمودُ بنُ جُوبان ، وكان باسـلًا لا يُطاق ، ورجُلا مُرَّ المَذَاق ، ولمَّـا جرتِ الكائنةُ لأبيه ، لاذَ بالسلطان (أزبك قان) ثم لم تَطُل له مُدّه ، ولا آنفرجَتْ له حِلَقُ شِدّه ، وأتاه أجَلُه وما آستطاع ردّه . ثم قال : وعسكرُ الكُرْج صَلِيبةُ دِين الصَّليب وأهـلُ البأْس والنَّجده ، وهم للعسا كرِ الهُولاكُوهِيَّـة عَتَاد وذُخْر ، ولهم بهم وُثُوق وعليهم آعْتِماد ، [ولا] سيّمـا لأولاد جُوبانَ وبَنِيه ، وبَقَايا مخلّفيه ، لسالف إحسانِ جُوبانَ إليهم ، ويدٍ مشكورةٍ كانتْ له عندهم ، وكان صديقاً لمِلكهم بِرْطِلْما يَغرِس عنده الصَّنائع ، ويَسْتَرْعِيه الوَدَائع ، فكان أخصَّ خصيص به ، وأصـدقَ صديقٍ له ، يدعُوه للمُهِم ، ويستصْرِخ به فى المُلِم ، ويَعُدُّه رِدْءاً لعسكره ، ومُزيلا لمُنْكَره .

وعقّب ذلك بأن قال : وبرطلما المذكور عَهْدِى به حَىٌّ يُرْزَقُ من أجَلّ ملوك النَّصْرانيـه ، وأعْرَقِ أنساب بنى المَعْمُودِيَّه ، وقد كان كاتَبَ الأبوابَ السلطانية بسبب كنيسةِ المُصَلَّبه ، وأن تُرْفَعَ عنها الأيدى المتغلِّبه ، فبرزَتِ الأوامرِ المُطاعةُ بإعادتها عليهم وكانت قد أُخِذتْ منهم ـ وهى بظاهر القُدْس الشريف ـ واتُّخذتْ مسجِدا ، وعزّ هذا علىٰ طوائفِ العلماء والصُّلَحاء وان لم يُعْمل هذا سُدىً . قيل إنه كان يُحَسِّن لخُوبَانَ قصـدَ البلاد ، ويبذُل له عليه الطارِفَ والتِّلاد . وذكر أن رسم المكاتبة إليـه : « أدام الله تعالى بهجةَ الحضرة العليـة ، حضرةِ الملك الجليل الهُمام ، الباسِل ، الضِّرْغام ، السَّمَيْدَع الكرَّار ، الغضَنْفَر ، المتخَت ، المتوّج ، العالم فى مِلّته ، العادلِ فى رعِيّته ، بقيّةِ الملوك الأغرِيقيّة ، سلطانِ الكُرْج ، ذُخْرِمُلْك البحار والخُلُج ، حامى حِمىٰ الفُرْسان ، وارثِ آبائه فى الأسِرّة والتِّيجان ، سِيَاجِ بلاد الروم وإيران ، سـليلِ اليُونان ، خُلاصةِ ملوك السُّرْيان ، بقيّـةِ أبناء التُّخُوت والتِّيجان ، مُعِزِّ النصرانيه ، مؤيِّد العيسويّه ، مَسِيح الأبطال المَسِيحيه ، معظِّم البيت المقدّس بعقد النيّه ، عمـادِ بنى المعمُوديه ، ظهير الباب بابا رومية ، مُوادِّ المسلمين ، خالصةِ الأصدقاء المقرَّبين ، صديق الملوك والسلاطين» .

وهذا دعاء أورده فى "التعريف" يليق به وهو : وحَمىٰ ملكَه بوُدّه لابجُنْـده ، وبوفائه بعَهْده لا بجَيْشه ومَدَّبَنْده ، وبما عندنا من سَجَايا الإحسان لا بما يَظُنُّ أنه من عِنده ، وبمـا فى رأْينا المُورِى لا بمـا يَقْدح النارَ من زَنْده ـ وربمـا قيل مُصافِى المسلمين بدلَ مُوادّ المسلمين .

أما فى "التثقيف" فقد ذكر أن للكُرْج مِلكين (أحدهما) صاحب تَفْلِيسَ المقدَّمُ ذكره ، وذكر أنه كان آسمه إذ ذاك «داود» (الثانى) الحاكم "بسخوم" و"أبخاس" وهما مدينتان علىٰ جانب بحر القِرِم من الجانب الجَنُوبىّ كما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ

المسالك والممالك فى الجانب الشّمالىّ ، وسمّى صاحبها إذ ذاك (ديادان) . قال : ورسمُ المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما فى قَطْع النصف : أطال الله تعالىٰ بقاء حضرة الملك الجليل، المكرَّم، الخطيرِ، الباسلِ، الهُمَام، المقدّس، الرُّوحانىّ، فلان، عِزّ الأمّة المَسِيحيه ، كنْزِ الطائفة الصليبيّة ، فخرِ دينِ النّصرانيه ، مَلِك الجبَال والكُرْج والجُرْجان، صديقِ الملوك والسلاطين . وتعريف كلٍّ منهما "ملك الكُرْج" .

ثم قال : وقد ذكر القاضى المرحوم شهابُ الدين بن فضل الله فى المكاتبة المذكورة من التغييرات مالا حاجةَ إلىٰ ذكره : لأنَّ ماذكرتُه هو المستقِرُّ فى المكاتبة إليه الىٰ آخِرِ وقتٍ .

قلت : وذلك لأنه فى زمن المَقر الشهابىّ بن فضل الله كان مَرْعىَّ الجانب بُمالأة التّتر وانضمامه إلىٰ جُوبان، كما تقدّمت الإشارةُ إليه؛ فكانت المكاتبةُ إليه إذ ذاك أعْلىٰ وأفخم، فلما زالت دولةُ التّتر من إيران وخمدت قسوتُهم انحطّت رُتْبةُ المكاتبة إلىٰ ملك الكُرْج عن هذه الرتبة . ثم قد تقدّم فى المسالك والممالك فى الكلام علىٰ مدينة تَفْلِيسَ أنها من إقليم أرّانَ، وأنها كانت قد فتحها المسلمون . ثم غَلَب عليها الكُرْج وملكُوها، فلو عُبِّر[1] عن صاحبها بتملّك تَفْلِيس كما كان يعبَّر عن المستولى علىٰ سِيسَ من الأرمن بتمَلّك سيس ، وعن المستولى علىٰ قُبْرس بتملّك قُبْرس علىٰ ما سيأتى ذكره على الأثر إن شاء الله تعالىٰ .

الثانية — مملكة الأرمن وقاعدتها مدينة "سِيسَ" قبل فتحها ؛ وقد سبق فى الكلام على مدينة سِيسَ عند ذكر مُضافاتِ حَلَبَ، فى الكلام على الممالك الشامية فى المسالك والممالك ذكرُ حدود هذه البلاد وبيانُ أحوالها؛ وأنها كانت تسمّى

(١) جواب لو معلوم أى لكان له وجه .

فى زمن الخُلَفاء بلادَ الثُّغور والعَواصم؛ وأنها كانت بأيدى المسلمين، وأهلُها نصارىٰ أرمن؛ وعليهم جِزْية مقرّرةٌ يؤدُّونها إلى الملوك؛ إلىٰ أن كانت طاعتهم آخرًا لبقيّة الملوك السَّلاجقة ببلاد الروم، والعُمَّالُ والشَّحانِى علىٰ بلادهم من جهة الملِك السَّلْجُوقىّ حتّىٰ ضَعُفت تلك الدوله، وسكَنَتْ شقاشِقُ تلك الصَّوْله، وآنتدبَ بعضُهم لقتال بعض، وصارت الكلمةُ شُورىٰ، والرعيَّة فَوْضىٰ، وشوامخُ المَعاقل مجالًا للتخريب، والبلادُ المصونةُ قاصيةً من الغَنَم للذِّيب، وطمِع رئيسُ النصارىٰ بهذه البلاد حينئذ فيها وآستَنْسَر بُغاثُه، وآشتدَّ إنكاثه، ورأىٰ سَوامًا لا ذائدَ عنه فساقه، ومتاعًا لاحاميةَ له فملأ منه أوْساقه؛ فاستولىٰ علىٰ هذه البلاد وتملَّكها، وتحيَّفَ مواريثَ بنى سَلْجُوق وآستهلكها . وذكر فى "مسالك الأبصار" أن كبيرهم كان يسمّى قليج بن لاوُنْ .

قال فى "التعريف" وقد أخذ فى أُخْرَيات الأيام الناصرية، يعنى (محمد بن قلاوون) بلادُ ماوراءَ نهر جاهانَ وأمُّها آياس، وكان قد أُخِذ بعضُ ذلك [أيام] الملكِ المنصور (لاچين) واستُنيب به أستدُمر الكُرْجىّ؛ ثم أُعيدت إلىٰ الأرمن بمواطأة أستدمر حين قتل لاچين وضَعُفت الدولة . وذكر أنه قُرِّر علىٰ الأرمن لملوك الديار المِصْرية قطيعةٌ مقرَّرة بلغت ألف ألف ومائتى ألف درهم مع أصـناف، ثم حُطَّ لهم منها؛ ثم صاروا بعـد ذلك بين طاعة وعِصْيان . وذكر أنه كان لملوك البيت الهُولاكُوهِىّ عليهم حكْمٌ قاهر، وله فيهم أمرٌ نافذ، قبلَ ضَعْف شوكتهم، ولِين قَسْوتهم، وخلُوّ غابِهم من قَسْوَرتهم . ثم قال : ولو تمكَّنوا من دِمَشْق لمحَوْا آثارها، وأنْسَوْا أخبارها؛ ثم أشار إلىٰ أنَّ ملِكها يومئذ صاهرَ صاحبَ قُبْرس ليتقوّىٰ به، وأنه مع ذلك أوصىٰ سلطاننا صاحبَ مصر علىٰ آبنه بوصِيَّة أشهد عليها أهلَ مملكته، وجعل ذلك وسيلة لبقاء دولتـه؛ وكتب له تقليد عوضًا عن أبيه وجُهِّز إليه، وأُلْبِس التشريفَ فلبس

وقَبّل الأرض به وخدم (١) . قال فى " التعريف " : ومَنْ ملك منهم سمّى التَّكْفُور، سِمةٌ جرت عليهم مُنْذُ كانوا وإلىٰ الآن. قال: وملكُهم ملِك عرِيقٌ من أبناء الملوك، يزعُم أن أصله من البيت القُسْطَنْطِينىّ . قال : وعندى نظَر فى دعواهم ذلك : إذ كان أهلُ ذلك البيتِ هم صَلِيبةُ الرُّوم ومعتَقَدُهم معتقَد المَلِكانية والبيْتُ التَّكْفُورىّ أرمَنُ ومعتقَدُهم معتقد اليعَاقِبة أو مايُقارِبه، وبين المعتَقَدين بُعْد عظيم، وبَوْنٌ ناء . وقد ذكر فى " التعريف " أن آسمه ليفور (٢) بن أوشير . وذكر أن رسم المكاتبة [اليه] صدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ حضرة الملِك، الجليلِ، البطلِ، الباسلِ، الهمامِ، السَّمَيْدع ، الضِّرْغام، الغضَنْفَر، فلان بن فلان ؛ فخرِ المِلَّة المَسيحيَّة ، ذُخر الأمة النَّصْرانيه، عِمَادِ بنى المعمودِيَّه، صديقِ الملوك والسلاطين .

وهذه أدعية — ذكرها فى "التعريف" تناسبه :

وفَّقه الله تعالىٰ لطاعةٍ يَكْتَنِفُه ذِمامُها ، ويَقِيه مَصارِعَ السُّوء الْتِزامُها ، وتجرِى له بالسَّلامة فى النَّفْس والمال أحكامُها .

آخر : ولا عدِمَ من مِنَنِنا الكرَم الذى أجاره، والأمْنَ الذى أمَّن جاره، والأمانَ الذى وَسَّع عليه وجِارَه ، والعفوَ الذى وَقاه فى الدنيا قبلَ الآخرة نارًا وَقُودها الناس والحِجاره .

آخر : أبقاه اللهُ لوَلاءٍ يُبْدِيه، وفَرْض من الخِدْمة يُؤَدِّيه، ودَيْنٍ فى ذِمَّته من الوظيفة يقومُ به مع طَرائف مايُهْدِيه .

(١) فى التعريف بدون خدم .

(٢) فى التعريف المطبوع ص ٥٧ ليفون بن أوشين، ونخشى أن يكون تصحيفا .

آخــــر : أراه الله ما يستدفع به من مواضى السيوف البلاءَ إذا نزل ، والسمهرىّ الذى لا يُرْويه البحرُ إذا نهل ، والسيل الذى لا يقف فى طريقه شىءٌ ولا يمشى على مهـــل .

آخــــر : صان الله تعالى بمصانعته من أهل ملّته كلّ قبيل ، وأمّن الله بمداراته من خوف جيوشنا المنصورة كلّ سبيل ؛ وصدّ عنه بصـدق صداقته بعث جنودنا الذى لا يُرَدّ وأوّلُه بالفُرات وآخره بالنّيل .

آخــــر : ولا زال يتوقّى بطاعتـه بوادر الأسـنّه ، وعوادىَ الخيـل موشّحة بالأعنّـه ، وعيث الجيش حيثُ لا يبقى إلا أحدُ الأقسام الثلاثة : القتلُ أو الأسْر أو المنّـــه .

آخــــر : جنّب الله رأيَه سُوءَ التعكيس ، وشرّ ما يُزيّن لمثله إبليس ، وأخذ جنائبَ قلاعه وأوّلُ تلك الجنائب سيس .

والذى ذكره فى "التثقيف" أنه كان آسمه كستندين بن هتيوم ؛ وأنّ رسم المكاتبة إليه على ما كان آستقرّ عليـه الحال إلى حين الفُتوح فى سنة ستّ وسـبعين وسبعمائة ، فى قطع العادة : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى حضرة الملكِ الجليلِ ، المكرّم ، المبجّل ، المعظّم ، المعزّز ، الهمام ، الباسل ، فلان بن فلان ؛ عزّ دين النصرانيه ، كبير الطائفـة الصليبيّه ، عمـاد بنى المعموديه ، صـديق الملوك والسـلاطين ؛ أدام الله نعمتَه ، وحرس مُهجتَه ، تُعلمه كذا وكذا» . وتعريفه «متملك سيس» قال : وكتبت أنا والجمـاعة إليه بهذه المكاتبة مرّات .

قلت : وقد بطلتْ هـذه المكاتبة بفتح سيس حين فتحها قشتمر المنصورىّ نائبُ حلب فى الدولة الأشرفيـة « شعبان بن حسين » فى التاريخ المقـدّم ذكره ،

وآستقرتْ نيابةً فى رتبة نيابة طرابُلُس وما فى معناها ؛ ثم آستقرت تَقْدِمةَ عسكر فى مُضافات حَلَب علىٰ ما تقدّم ذكره فى المسالك والممالك هناك . وإنما كان يقال له متملّك سِيس دُونَ مَلِك سيس لما تقدّم من أنها كانتْ أوّلا بيد المسلمين، ثم وَثَب عليها رئيسُ الأرمن المقدّمُ ذكره فملكها من أيدى المسلمين ، ولله الحمد فى إعادتها إلىٰ يد المسلمين، وآستقرارها فى جملة الممالك الإسلامية .

المقْصِد الثانى

(فى المكاتبة إلىٰ ملوك الكُفّار ببلاد المغرِب من جزيرة الأَنْدَلُس وما والاها مما هو شَمَالِىَّ الأَنْدَلُس من الأرض الكبيرة)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك من المقالة الثانية أن المسلمين كانوا قد آفتتحُوا جزيرةَ الأندلُس فى خِلافة أمير المؤمنين عُثْمانَ بنِ عَفّان رضى الله عنه وأنها أقامتْ بأيدى المسلمين إلىٰ رأس السِّتّمائة من الهجرة، ولم يبقَ منها بيد المسلمين إلا غَرْناطة وما معها من شَرْق الأندلس ، عَرْض ثلاثة أيام فى طُول عَشَرة أيام ؛ وباقى الجزيرة علىٰ سَعَتها بيد أهل الكُفْر من نصارىٰ الفَرَنْج ، وأن المستولىَ علىٰ ذلك منهم أربعة ملوك :

الأوّل — صاحبُ طُلَيْطُلة[١] وما معها، ولقَبُه الأَذْفُونُش : سمةً علىٰ كل من ملك منهم، وعامّة المغاربة يسمُّونه الفُنْش، وله مملكةٌ عظيمة وعُمَالات متَّسِعة، تشتمل علىٰ طُلَيْطُلَة، وقَشْتالة ، وإشْبِيلِيَة، وبَلَنْسِيَة، وقُرْطاجَنَّة، وجَيَّان، وجِلِّيقِيَّة، وسائر أعمالها .

(١) ضبطها ياقوت عن الحميدى بضم الطاءين وفتح اللامين ثم قال وأكثر ما سمعناه عن المغاربة ضم الاولى وكسر الثانية . وكذلك ضبطه المؤلف فيما تقدّم فى جزء ٥ فليتنبه .

الثانى — صاحب أَشْبُونَة وما معها، وتُسمَّى البُرْتُقال، ومملكته صغيرةٌ واقعة فى الجانب الغربىّ عَرْضا له، تشتمل على أَشْبُونَة وغَرْب الأندلس .

الثالث — صاحب بَرْشَلُونة ، وأَرْغُون، وشاطِبة ، وسَرَقُسْطة ، و بَلَنْسِيَة(١)، وجزيرة دانِيَة، ومَيُورْقة .

الرابع — صاحب بِيرة : وهى بين عِمَالات قَشْتالة، وعِمَالات بَرْشَلُونَة، وقاعدته مدينة بَنْبُلُونَةُ ؛ ويقال لملكها ملك البشْكَنْس . ووراءَ هؤلاء بالأرض الكبيرة صاحبُ إِفْرَنْسَة التى هى أصل مملكة الفَرَنْج كما تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك ، ومِلكُها يقال له الرِّيد إفرنْس . قال فى "التعريف" : وهو الملك الكبِير المُطَاع ؛ وانما الأَذفُونش هو صاحب السطوة ، وذِكْره أشهر فى المغرب لقُرْبه منهم، وبُعْد الرِّيد إفْرَنْس .

والمكاتَبُ منهم ملكان :

الأوّل — الأذفونش المبَدَّأ بذكره . قال فى " التعريف " : وبيده جُمْهور الأَنْدَلُس، وبسُيوفه فَنِيَتْ جَحاجِحُها الشُّمُس، وهو وارث مُلْك لذريق . ولذريق هذا الذى أشار إليه فى "التعريف" هو الذى انتزعها المسلمون من يده حينَ الفتح فى صدر الإسلام . قال صاحب "التعريف": وحدّثنى رسولُ الأذفونش بتعريف تَرْجُمانٍ موثوقٍ به من أهل العَدَالة يسمَّى صلاحَ الدين الترجمان الناصرى : أن الأدفونش من ولد هِرَقْل المفتَتح منه الشام ، وأنّ الكتاب الشريف النبوىّ الواردَ على هِرَقْل متوارَثٌ عندهم مَصُون ، يُلَفّ بالدِّيباج والأَطْلَس، ويُدَّخَر أكثرَ من ادّخار الجواهر والأَعْلاق، وهو إلى الآنَ عندهم لا يُخْرَج، ولا يُسْمَح بإخراجه،

(١) هى بلنسية المتقدمة أضيفت إلى برشلونة فيا بعد .

يُنْظَر فيه بعين الإجْلال ، ويُكْرِمُونه غايةَ الكرامة ، بوصيةٍ توارثها منهم كابِرٌ عن كابِرٍ وخلَفٌ عن سَلَف .

قال : وكان الأدفونش ممن قَوِىَ طمَعُه فى بلاد مصر والشام فى أخرى ليالى الأيّام الفاطمية . ثم قال : ومكاتباتُه متواصلة ، والرُّسُل بيننا و بينه ما تنقطع على سُوء مَقاصده ، وخُبْث سرّه وعَلانيته ، أهدى مرّة إلى السلطان سيفا طويلًا وثوبا بُنْدُقيا وطارقةً طويلةً دقيقةً ، تشبه النَّعْش ، وفى هـذا مالا يخفى من ٱستفتاح باب الشر والتصريح المعروف بالكناية ، فكان الجواب أن أُرْسل إليه حبل أسود وحجرٌ ، أى إنه كلب إنْ رُبِط بالحبل و إلا رُمِىَ بالحجر .

قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إليه أطال الله بقاء الحضرة السامية ، حضرةِ الملك الجليـلِ ، الهمامِ ، الأسد ، الباسلِ ، الضِّرغام ، الغضَنْفَر ، بقيّة سلَف قيْصَر ، حامِى حُماة بنى الأصْـفَر ، الممَنَّع السُّـلُوك ، وارث لذريق وذرارِىّ الملوك ، فارس البرِّ والبحر ، ملك طُلَيْطلة وما يليها ، بَطَل النصرانيه ، عمـادِ بنى المعمُوديه ، حامل راية المَسِيحيَّه ، وارث التِّيجان شَبِيه مَرْيحُنَّا المَعْمَدان ، محبّ المسلمين ، صـديقِ الملوك والسلاطين .

دعاء وصدر يليقان به

وكفاه شرَّ نَفْسه ، وجَنَاه ثمر غَرْسه ، ووقاه فعلَ يومٍ يجُرّ عليه مثلَ أمسِه ، وأراه مِقدارَ النِّعمة بالبحر الذى تمنَّع بِسُوره وتوقَّى بتُرْسه .

أصدرناها إليه وجندُ الله لايمنَعُهم مانع ، ولا يُضَرُّ بهم فى الله ماهو جامع ، ولايبالُونَ أكتائبَ يُخَلِّفُونها أم كُتُبا ، وجَداوِلُ تعرِض لهم أم بحارٌ لاتقطعُها إلا وَثْبا .

آخــر : ووقَاه بتوفيقه تِلافَ المُهج ، وكفاه بأسَ كلِّ أسدٍ لم يُهَجْ ، وحماه من شرِّ فتنةٍ لايبُلُّ البحرُ الذى تحصَّن به غُبارَها من الرَّهَج .

أصـدرناها إليه وأسِنَّتُنا لا تُرَدّ عن نَحْر ، وأعِنّتُنا لا تُصَـدُّ بسُورٍ ولو ضُرِبَ من وراء البحر .

قلت : وينبغى أن تكون فى قَطْع النِّصف .

الثانى — صاحب بَرْجَلُونة ، ووَهِم فى "التثقيف" بجعله هوالأدفونش المقدّم ذكره . وقال : إنه يلقّب أنفونش ، دُونَ حاكم . ثم قال : وهم طائفة الكِيتْلان ورسم المكاتبة إليه فى قَطْع النصف بقلم الثُّلث الكبير(١) « أدام الله تعالىٰ بهجةَ الحضرة الموقَّرة ، الملك الجليل ، المكرَّم ، المبجَّل ، الخطير ، البَطَل ، الباسـل ، الهُمام ، الضِّرْغام ، الرِّيدأرْغون ، فلان ؛ نَصير النَّصْرانيـة ، فخر الأمَّة العِيسويّة ، ذُخر الملة المسـيحيه ، حامى الثُّغور ، متملِّك السَّواحل والبُحُور ، عمـادِ المَعمُوديّة ، ظهير بابا روميه ؛ ملاذ الفُرْسان ، جمَـالِ التُّخوت والتِّيجان ، صديق الملوك والسلاطين ، صاحب بَرْجَلُونة » .

قال فى "التعريف" : أما الرِّيد فَرَنْس فلم يرِدْ له إلا رسولٌ واحدٌ ، أبرقَ وأرْعد ، وجاء يطْلُب بيت المَقْدِس علىٰ أنه يُفْتَح له ساحلُ قَيْسارِيّةَ أو عَسْقَلان ، ويكون للإسلام بهما وُلَاة مع وُلَاته ، والبلادُ مُناصَفة ، ومساجدُ المسلمين قائمة ، وإدرارات قَوَمَتِها دارّة ، علىٰ أنه يبْذُل مائتَىْ ألفِ دينار تُعجّل وتُحمَلُ فى [كل](٢) سـنة ، نظير دَخْل [نصف](٢) البلاد التى يتسلّمها علىٰ معدّل ثلاث سنين ، ويُطْرِف فى كل سنة بغرائب التُّحف والهَدَايا . وحَسَّن هذا كُتَّابٌ من كَتَبَة القِبط ، كانوا صاروا رءُوسًا فى الدولة بعمائمَ بِيضٍ وسرائرَ سُودٍ ، وهم أعداءٌ زُرْق ، يجرِّعُون الموتَ الأحمر ، وعملوا علىٰ تمشِيَة هذا القصد و [أن](٢) سرىٰ فى البَدَن هذا السُّم ، وتُطُلّب له الدِّرْيَاق فعزّ .

(١) مراده الثلث الثقيل .

(٢) الزيادة من "التعريف" ص ٦٣ .

وقالوا : هذا مالٌ جليـل معجَّل ثم ماذا عسىٰ أن يكون منهـم وهم نُقْطة فى بحر، وحصاةٌ فى دَهْناء .

قال : وبلغ هذا أبِى رحمه الله، فآلىٰ أن يُجاهرَ فى هذا، ويجاهدَ بمـا أمكنه، ويدافعَ بمهما قَدَر عليه، ولو لاوىٰ السلطانَ علىٰ رأيه إن أصغىٰ إلىٰ أولئك الأفَكة؛ وقال لى : تقوم معى ونتكلَّم، ولو خُضِبت منا ثيابُنَا بالدَّم، وراسـلْنا قاضىَ القضاة القَزْوينى الخطيب، فأجاب وأجادَ الاستعداد، فلمـا بكَّرْنا إلىٰ الخِدْمة وحضرْنا بين يدِي السلطان بدار العَدْل، حضرت الرسـل، وكان بعضُ أولئك الكَتبة حاضِرا، فاستعدَّ لأن يتكلَّم، وكذلك استعدَّيْنا نحن : فما استتم كلامُهُم حتّٰى غَضِب السلطانُ وحَمِى غضَبُه، وكاد يتضَرَّم عليهم حطَبُه، ويتعَجَّل لهم عطَبُه، وأسْكتَ ذلك المنافقُ بخِزْيتـه، وسكتْنا نحن اكتفاءً بمـا بلغه السلطان مما ردّه بخَيْبته؛ فصُـدَّ ذٰلك الشيطانُ وكفىٰ الله المؤمنـين القِتَال؛ ورُدَّتْ علىٰ راميها النِّصال . وكان الذى قاله السـلطان : والكم أنتم عرفتم ما لقيتم نَوْبةَ دِمْياط من عسكر المَلِك الصالح، وكانوا جماعة أكرادٍ ملفَّقة مجمَّعه؛ وما كان بعدُ هؤلاء التُّرك؛ وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال التتر؛ ونحن اليوم بحمد الله تعالىٰ صُلْحٌ [نحن وإياهم](١) من جنسٍ واحد ما يتخلّٰى بعضه عن بعض، وما كنا نُريد إلا الابتـداء؛ فأما الآنَ فتحصَّلوا وتعالَوْا ، وان لم تجوا فنحن نَجِيكم ولو أننا نخوض البحر بالخيـل؛ والكُمْ صارت لكم ألسنةٌ تذكُرون بها القُدُس؛ والله ما ينال أحد منكم منه ترابةً إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب ! وصرخ فيهم صَرْخةً زعزعت قُواهم، وردّهم أقبحَ ردّ، ولم يقرأ لهم كتابا، ولا ردّ عليهم سوىٰ هذا جوابا .

---

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : فإن آتفق أن يكتب إلىٰ الرِّيد إفرنس المذكور فتكون المكاتبة إليه مثل المكاتبة إلى الأدفونش أوأجلّ من ذلك .

وآعلم أن الريد فَرَنْس هو الذى قصد الديارَ المصريَّة بمواطأة الأدفونش: صاحب طُلَيْطِلَة المقدّم ذكره ، وملكوا دِمْياطَ ، وكانت الواقعة بينهم فى الدولة الأيوبية فى أيام الصالح أيُّوب ، وأُخِذ الرِّيد فَرَنْس وأُمْسِك وحُبِس بالدار التى كان ينزلها فخر الدِّين بنُ لُقْمان : صاحب ديوان الإنشاء ، بالمنصورة ، ورُسِم عليه الطَّواشى صَبِيح ، ثم نُفِّس عنه ، وأطلق لأمرٍ قُرِّر عليه ، وقال فى ذلك جمالُ الدين بنُ مَطْروح أبياته المشهورةَ وهى :

[قُلْ للفَرَنْسِيسِ اذا جئتَــه * مقالَ صِدْقٍ من قَـُوْلٍ نَصُوحْ
أتيْتَ مِصْرًا تبتــغِى مُلْكَها * تَحْسَبُ أنَّ الزَّمْرَ ياطَبْلُ رِيحْ
وكلُّ أصْحـابِكَ أودَعْتهُــمْ * بحُسْنِ تَدْبيرِكَ بَطْنَ الضَّرِيحْ
خمسينَ ألفًا لاتَرىٰ منهمُ * غيرَقتيــلٍ أوأسـيرٍ جريحْ
وفّقَـــكَ اللهُ لأمْثالِها * لعَـلَّ عِيسىٰ منْكُمُ يَسْتَرِيحْ
آجـرَكَ اللهُ علىٰ ماجَـرىٰ * أفْنيْتَ عُبَّـادَ يَسُوعَ المَسِيح
فقُــلْ لهم إن أضْمَرُوا عودَةً * لأخْذِ ثارٍ أو لقَصْدٍ صَحِيحْ:
دارُ ابنِ لُقْمانَ علىٰ حالِها * والقَيْدُ باقٍ والطَّواشِى صَبِيح] (١)

---

(١) بيض لهذه الأبيات فى الاصل ونقلناها مما تقدم فى ج ٥

المقصــد الثالث
(فى المكاتبة إلى ملوك الكفّار بالجانب الجنوبىّ)

والمكاتَب بهذا الجانب منهم مَلِكان :

الأول — صاحب أمحرا : ملك مُلُوك الحبَشَة ، ولقبه عندهم حَطِّى ـ بفتح الحاء وكسر الطاء المشدّدة المهملتين ، سِمَة على كلِّ منْ مُلِّك عليهم منهم .

قد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثانية أنه نصرانىٌّ يعقوبىّ ، يحكم على تسعة وتسعين مَلِكا ، منهم سبعةٌ مسلمون ، وهم صاحب وفَاتَ ، وصاحب دَوارو ، وصاحب أرابِنى ، وصاحب شَرْحَا ، وصاحب هَدْيَةَ ، وصاحب بَالِى ، وصاحب دارةَ ، وأنه لولا أنّ معتقَد دين النَّصرانية لطائفة اليعَاقِبة أنه لايصحُّ تعمد معمودىٍّ إلا باتّصال من البَطْرِيَرك ، وأنّ كرسىَّ البَطْرِيرك كنيسةُ الإسكندريَّة فيحتاج إلى أخذ مَطْرانٍ بعد مَطْران من عنده ، لشَمَخَ بأنفه عن المكاتَبة ، لكنه مُضْطرٌّ إلى ذلك .

قال فى " التعريف " ورسم المكاتبة إليه :

أطال الله بقاءَ الحضرة العالية ، الملك ، الجليل ، الهُمَام ، الضِّرْغام ، الأسد ، الغضَنْفَر ، الخطير ، الباسِل ، السَّمَيْدَع ، العالم فى مِلَّته ، العادل فى مَمْلكته ، المُنصِف لرعيَّته ، المستمع لما يجب فى أَقْضِيَته ، عزّ المِلَّة النَّصْرانيه ، ناصر المِلَّة المسيحِيَّة ، رُكْنِ الأمَّة العيسويَّة ، عمادِ بنى المعموديَّة ، حافظ البلاد الجَنُوبيَّة ، متَّبِع الحوارِيِّين ، والأحبار الرَّبَّانيين ، والبطاركة القِدِّيسِين ، معظِّم كنيسة صِهْيَوْن ، أوحد مُلوك اليعْقُوبية ، صديق الملوك والسلاطين . ويدعى له دعاءً مفخَّمًا يليق به .

وهذا دعاء وصدر يليقان به، ذكرهما فى "التعريف" :

وأظهر فضلَه علىٰ مَنْ يُدانيــه من كلِّ ملك هو بالتاج مُعْتَصِب، ولكفَّ الحَجاج بالعَدْل منتَصِب ، ولقطع حِجاج كلِّ معاند بالحق معتصر أو للحقِّ مغتَصِب .

صدرت هذه المُفاوَضةُ إلىٰ حضرته العليــه ومن حضرة القُدُس مَسْراها ، ومن أُسرة المُلْك القديم سُراها، وعلىٰ صَـفَاء تلك السَّرِيرة الصافِيَة تَرِدُ وإن لم يكُنْ بهـا غَليل، وإلىٰ ذلك الصديقِ الصَّدُوق[المَسِيحى] تصل، وإن لم تكُنْ بُعِثَتْ إلا من تِلْقاء الخَليـــل .

ولم يذكر القطع الذى يكتب إليه فيــه . أما فى "التثقيف" : فإنه ذكر أنه يُكْتَب إليه فى قطع الثُّلُث بقلم التوقيعات مانصه :

أطال الله بقـاءَ الملِك ، الجليل ، المكَرَّم ، الخطيرِ، الأســد، الضِّرْغام، الهمامِ، الباسل، فلان بن فلان، العالم فى مِلَّته، العادل فى مَمْلكته، حَطِّى ملك أمْحرا، أكبرِ مُلوك الحُبْشان، نَجَاشِىّ عَصْره، سَندِ المِلَّة المَسِيحيه، عضُدِ دين النصرانيه، عمادبنى المعمُوديه، صديق الملوك والسلاطين؛ والدعاء، وتعريفه «صاحب الحَبَشة» .

قال : فإن كانت المكاتبة جوابا، صُدِّر الكتَابُ إليه بما صورته : ورد كتاب الملك الجليل، ويذكر بقية المكاتبة . ثم قال: وهذه المكاتبة هى التى آستقرّ عليها الحال عند ما كُتِب جوابهُ فى التاسع من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

وهذه نسـخة جوابِ كتابٍ ورد عن صاحب الحبشة من سَـلْطنة الملك المظفَّر صاحب اليمن ، علىٰ الملك « الظاهر بيبَرْس » رحمه الله ، بطَلَب مَطْرانٍ يُقيمُه لهم البَطْرك ؛ مماكتب به القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهى :

ورد كتابُ الملك، الجليل، الهمام، العادل فى ملّته، حَطّى ملك أمحرا أكبر ملوك الحُبْشان، الحاكم على مالهم من البُلْدان، نجاشىّ عصره، صديق الملوك والسلاطين، سلطان الأمحرا حرس الله نفسه، وبنى على الخير أُسّه؛ فوقَفْنا عليه وفهِمْنا ماتضمّنه: فأما طلبُ المَطْران فلم يحضُرْ من جهة الملك أحدٌ حتّى كنا نعرف الغرَضَ المطلوب، وإنما كتابُ السلطان الملك المظفّر صاحب اليمن ورد مضمونُه أنه وصل من جهة الملك كتابٌ وقاصد، وأنه أقام عنده حتّى يسيِّرَ إليه الجوابُ. وأما ماذكره من كثرة عساكره، وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين، فالله تعالى يكثر فى عساكر الإسلام. وأما وَخَم بلاده فالآجالُ مقدَّرة من الله تعالى، ولا يموتُ أحدٌ إلا بأجَلِه، ومَنْ فرغ أجلُه مات.

وآعلم أنّ العادة جرتْ أنه كلما كُتِب إليه كتابٌ عن الأبواب السلطانية كتب قرينَه كتابٌ عن البطْرِيَرْك. قال فى "التعريف": ولأوامر البطْرِيَرْك عنده مالشريعته من الحُرْمة، وإذا كتب كتابا فأتى ذلك الكتابُ أوّلَ مملكته، خرج عَميدُ تلك الأرض فحمل الكتابَ على رأسِ عَلَم، ولايزال يحملُه بيده حتّى يُخْرِجه من أرضه، وأربابُ الديانةِ فى تلك الأرض: كالقُسُوس والشَّمامِسَةِ حولَه مُشاةٌ بالأَدْخِنة؛ فإذا خرجُوا من حَدّ أرضهم تلقّاهم مَنْ يليهم أبدا كذلك فى كلّ أرض بعْدَ أرض حتّى يصلوا إلى أمْحرا، فيخرج صاحبُها بنَفْسه، ويفعل مثلَ ذلك الفعلِ الأوّل، إلا أنّ المطْران هو الذى يحمل الكتابَ لعظَمته لا لتأبّى الملك. ثم لايتصرف الملكُ فى أمرٍ ولا نَهْى، ولا قليلٍ ولا كثير، حتّى ينادى للكتاب، ويجتمع له يومَ الأحد فى الكنيسة، ويُقْرأُ والملك واقفٌ؛ ثم لايجلس مجلسَه حتّى ينفّذَ ماأمره به.

الثانى — صاحب دُنْقُلَة. قد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك أن دُنْقُلَة هى قاعدةُ مملكة النُّوبة، وأنها كانت فى الأصل يكونُ ملكُها من نصارى

النُّوبة، ومعتقَدُهم معتقَدُ اليَعَاقبة، وأنه ربمـا غَلَب عليها بعضُ المسلمين من العرب فملَكها؛ وقد تقدّم ذكر المكاتبة إلىٰ صاحبها إذا كان مسلما؛ أما إذا كان نصرانيا فقد ذكر فى "التثقيف" أن المكاتبة إليـه : هذه المكاتبةُ إلى النـائب، الجليل، المبجَّل، الموقَّر، الأسدِ، الباسل، فلان؛ مجد الملّة المسيحيه، كبيرِ الطائفة الصليبيَّة، غرس الملوك والسلاطين؛ والدعاء، وتعريفه «النائب بدُنْقُله» .

المقْصـــد الرابـــع

(فى المكاتبة إلىٰ ملوك الكُفَّار بالجانب الشَّمالىّ من الرُّوم والفَرَنْجة علىٰ اختلاف أجناسهم، وجميعُهم معتَقدهم معتَقَدُ المَلِكانيَّة)

وجملة ماذكر من المكاتبات فى "التعريف" و "التثقيف" اثنتا عشرة مكاتبةً :

الأولىٰ — مكاتبة الباب، وهو بَطْرِيَرْك المَلِكيَّة، القائم عندهم مَقامَ الخليفـة؛ والعجَبُ من جعله فى "التثقيف" بمنزلة القان عند التتار، والقان إنمـا هو بمنزلة مِلكهم الأكبر، والبابُ ليس من هذا القبيل، بل إليه أمر الدِّيانة حتّى فى التحليل والتحريم .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك عند ذكر البَطَارِكة أنهم كانوا يُسَمُّون القِسّيس ونحوه أبًا، ويُسَمُّون البَطْرِيَرْك أبًا؛ فأحبُّوا أن يأتُوا علىٰ البَطْرِيَرْك (١) بسِمَةٍ له تميِّزه عن غيره من الآباء، فاختاروا له لفظ البَاب؛ وأنه يقال فيه الباب والبابا ومعناه أبو الآباء؛ ثم لمـا غلب الروم علىٰ المملكة، وعلَتْ كلمتُهم علىٰ اليَعاقِبة، خصُّوا اسم الباب ببَطْرِيَرْكهم؛ فصار ذلك عَلَمًا عليـه، ومقرّه مدينـةُ رُومِيَةَ علىٰ ما تقدم

(١) مراده أن يطلقوا علىٰ البطريرك سمة الخ .

هناك ، ورسْمُ المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" ضاعفَ اللهُ تعالى بهْجة الحضرة السامية ، الباب الجليل ، القدّيس ، الرُّوحانى ، الخاشع ، العاملِ ، پَاپَا رومية ، عظيم الملة المسيحيّة ، قُدْوة الطائفة العيسويّة ، مملِّك ملوكِ النَّصْرانية ، حافظ الجُسُور والخُلْجان ، ملاذِ البَطَاركة والأساقفة والقُسُوس والرُّهْبان ، تالى الإنجيل ، معرِّف طائفتِه التحريمَ والتحْليل ، صديقِ الملوك والسلاطين . والدعاء ، وصدرت هذه المكاتبة .

قال فى "التثقيف" : هـذا ما وجدته مسطورا ولم يكتب إليـه شىءٌ فى مدّة مباشرتى ، ولا أدرِى فى أىّ شىء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفَه . ولم يتعرّض له المقرّ الشهابىّ بنُ فضـل الله فى "التعريف" جملةً ، ورأيت فى بعض الدَّساتير أنه لم يكتب إليـه إلا مَرّة واحدة ، وأن الكتابة إليه فى قطْع النصف مع المكاتبة المتقــدّمة .

الثانية — المكاتبة إلىٰ ملك الروم صاحب القُسْطَنْطِينيَّة . قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك أنهـا صارتْ آخِرا إلىٰ بنى الأشكرىّ ، فصار الأشكرى سمةً لهم ملكا بعد ملك . قال فى "التعريف" وقد كان قبل غَلَبة الفرنج مَلِكاجليلا ، يرجع إليه من عُبَّاد الصَّليب سائرُ الملوك ، ويفتقِر إليـه منهم الغنىُّ والصُّعْلوك ، وكتبُ التواريخ مشحونةٌ بأخْباره ، وذكرِ وقائعـه وآثاره ، وأوّلُ من ألْبَس هامتَـه الذِّلَّة ، وأصار جَمْعَه إلىٰ القِلَّة ، هارونُ الرشيد حين أغزاه أبوه المهدىُّ إيّاه ، فأزال الشَّمم من أنْفِه ، وثنىٰ جامحَ عِطْفه . فأما غَزَوات مَسْلمةَ بنِ عبد الملك ويزيدَ بن معاوية فإنها لم تبلُغ فيه حدَّ النِّكايه ، ولا أعظمَتْ له الشِّكَايه ، قال : وهذا الملك الآنَ كان السلطان (أزبك) قد كاد يبتزُّ تاجَه ، ويُعْقِم نِتَاجه ، ويُخِل من جانب البحر المُغْلَق رِتَاجَه ؛ فاحتـاج إلىٰ مُداراته وبذَلَ له نفائسَ المـال ، وصَحِب أيّامه علىٰ مَضَض

الاّحتمال، وكانت له عليـه قطيعةٌ مقرره، وجملةُ مال مقدّره، ثم عَمِيت علينا بعده منهم الأخبار، وتولّى بالدنيا الإدبار .

ورسم المكاتبة إليـه على ما ذكره فى " التعريف " : ضاعف اللهُ تعالى بهجة الحضرة العالية ، المكرَّمة، حضرة الملِك ، الجليل، الخَطير، الهُمَام، الأسد، الغضنْفَر، الباسـل ، الضِّرْغام، المُعْرِق، الأصيـل ، الممجَّد ، الأثير، الأثيل ، البلالاوس، الرِّيدأرغون، ضابط الممالك الرُّومِيّة، جامع البلاد الساحِلِيّة، وارث القَياصرة القُدَماء، مُحْيِى طُرُق الفلاسفة والحكماء، العالم بأمور دِينه، العادل فى ممالكه، مُعِزّ النَّصرانيه، مؤيِّد المسـيحيَّه ، أوحد مُلُوك العِيسَويه ، مُخوِّل التخوت والتِّيجان، حامى البِحَار والخُلْجان، آخر ملوك اليُونان، ملك مُلوك السُّرْيان، عمادِ بنى المعمُوديَّه، رَضِىِّ الباب پاپا رومية، ثِقة الأصدقاء، صديقِ المسلمين، أُسْوة الملوك والسلاطين . ثم يكتب آسمه هنا ويدعى له ، ولم يذكر قطْع الورق الذى يكتب إليه فيه .

وهذا دعاء وصدر يليقان به، أوردهما فى التعريف .

وجعل له من السَّلامة[1] يَدًا لا تُزَعْزِعه من أوطانه ، ولا تنزِعُه من سُلْطانه ، ولا تُوجِب له إلا آستقرارًا لتِيجانه، وآستمرارًا بمُلْكه على مادارتْ على حُصُونه مناطقُ خُلْجانه ، ولا بَرِحتْ ثمارُ الوُدّ تَدْنُو من أفْنانِه ، ومَوَاثيقُ العهد تُبوِّئُ له مايُسِّر به من إشادة معالم سَلَفه وشَـدّ بناء يُونانه : أصدرناها ، وشكْرُه كَبَحْره البحر لا يُوقَف له على آخِر، ولا يُوصَف مثل عِقْده الفاخر، ولا يكاثَر إلا قيـل : أين هذا القليل من هذا الزاخر .

(١) فى التعريف « مع الإسلام » .

آخــر له : ونَظَم سِلْكَه ، وحمىٰ بحُسْن تأتّيه مُلْكَه ، وكفىٰ مُحِبّـه هُلْكَه ، وأجرىٰ بودّه ركائبَه وفُلْكَه ، ووَقَاه كذِبَ الكاذب وكفَّ إفْكَه ، وأشهد علىٰ ودّه الليلَ والنهار وما جَنَّ كافورُ هذا كافُوره ولا مسك هذا مِسْكَه .

قلت : هــذا الدعاءُ والصدْرُ وإن أورده فى "التعريف" فى جملة الأدعية له والصدور ، فإنه منحطُّ الرتبة عن المكاتبة السابقة ؛ اللهــم إلا أن يُخَصَّ هذا بحالة منابذةٍ أو تهديدٍ ، ونحو ذلك .

وذكر فى "التثقيف" أن الذى آستقر عليه الحالُ فى المكاتبة إليه أنه يُكْتَب إليه فى قَطْع النِّصف ما نصــه : ضاعف الله تعالىٰ [بهجةَ](١) حضرة الملك الجليــل ، المكَرَّم ، المبَجَّل ، الأسد ، الخطير ، البَطَل ، الباسل ، الهُمَام ، الضِّرْغام ؛ فلان ، العالم فى مِلّته ، العادلِ فى أهل مَمْلكته ، عزِّ الأمة المَسيحيَّة ، كبيرِ الطائفة الصَّليبيَّة ، جَمَــالِ بنى المعموديَّه ، صَمْصام الملوك اليُونانيّــه ، حُسام المملكة المــاكصونيّــه ، مالك البرغليّــة والاملاحيــه ، صاحبِ أمصار الرُّوس والعَلّان ، مُعِزِّ اعتقاد الكُرْج والسُّرْيان ، وارثِ الأسِرَّة والتِّيجان ، الحاكم علىٰ الثُّغور والبُحُور والخُلْجان ، الضُّوقس الأنجالُوس الكمنينُوس البالالُوغس ، صــديقِ الملوك والســلاطين ؛ ثم الدعاء . صدرَتْ هــذه المكاتبة إلىٰ حضرته تشْكُرُ موالاتَه ، (ومن هــذه المــادة) وتوضِّح لعلمه السعيد .

ورأيت فى بعض الدســاتير أنه يختمها بقوله : فيُحِيط بذلك علمــا ، والله تعالىٰ يديم بهجتــــه .

---

(١) مقتبسة من "التعريف" لصحة الكلام .

قال فى " التثقيف " : وتعريفه « ضابط مملكة الروم » وذكر أن هذه المكاتبة هى المتـداولَة بديوان الإنشـاء بين كُتَّابه ، وأنه هو كَتب بهـا إليه ، ولم يتعرّض لإيراد المكاتبـة التى ذكرها فى " التعريف " بل أحال فى معرفتها لمن أرادهـا علىٰ النظر فيـه .

الثالثـة — المكاتبة إلىٰ حُكَّام جَنَوَةَ : وهم جمـاعة متفاوِتُو المراتب ، وهم : البُودشطا ، والكَبْطان ، والمشايخ . ورسم المكاتبة إليهم علىٰ ماذكره فى " التثقيف " فى قطْع الثُّلُث :

صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ حضرة البودشطا والكبطان الجليلين ، المكرَّمين ، الموقَّرين ، المبجَّلين ، الخَطيرين ، فلان وفلان ، والمشايخ الأكابرِ المحترمين ، أصحـاب الرأى والمَشُورة ، الكمنون بجَنَوه (١) ، أمجاد الأمّة المَسِيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصـدقاء الملوك والسلاطين ؛ ألهمهم الله تعالىٰ رُشْدَهم ، وقرن بالخير قَصْدَهم ، وجعـل النصيحة عِنْدهم . تتضمن إعلامهـم كذا وكذا . وتعريفهـم «الحُكَّام بجَنَوَة» .

قال فى " التثقيف " والذى آستقر عليـه الحـال آخِرا فى مفتَتح سـنة سبع وسـتين وسبعمائة إبطالُ المكاتبة إلىٰ البودشـطا والكبطان ، بحُكْم أنهـما أُبْطِلا ، وآستقرّ[ت مكاتبة] الدُّوج مكانهما بمـا نصه :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الدُّوج الجليـل ، المكرَّم ، المبجَّل ، الموقَّر ، الخطير ، فلان ، والمشايخ ، والباقى علىٰ ماتقدم ذكره .

قلت : هكذا هو فى " التثقيف " بدال وواو وجيم ، والمعروف إبدال الجيم فى آخره كانا علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ صاحب البندقية علىٰ الأثر .

---

(١) لعله الحاكمون بجنوة .

واعلم أنه قد ذكر فى "التثقيف" أنه كان لصاحب جَنوة مُقَدّم على الشَّوانى بقُبْرُس ، وقيل إنه كان بالماغُوصة ، وأنه كتب إليه فى رمضان جواباً عما ورد عنه فى قَطْع العادة مانصه :

وردتْ مكاتبة المُحْتشِم ، الجليل ، المبجَّل ، الموقَّر ، الاسد ، الباسل ، فلان ؛ مَجْدِ الملة المَسيحيه ، كبيرِ الطائفة الصَّليبيَّه ، غَرْس الملوك والسلاطين ؛ ثم الدعاء . وتعريفه «مقدَّم الشَّوانى الجَنوِيّة بقُبْرُس» .

الرابعة — المكاتبة إلىٰ صاحب البُنْدُقِيَّة . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما آستقرّ عليه الحال عند ما كتب إليه جوابه فى شهر رجب سنة سبع وستين وسبعمائة ، وهو يومئذ مَرْكِريادُو فى قطع الثلث :

وردتْ مكاتبة حضرة الدُّوج ، الجليـل ، المكرَّم ، الخطيرِ ، الباسلِ ، الموقَّر ، المفخَّم ، مَرْكِريادو فخرِ الملة المسيحيه ، جمالِ الطائفـة الصَّليبيه ، دُوج البُنْدُقِيَّة والمانسية ، دوج كرال دين بنى المعموديه ، صديق الملوك والسلاطين ، والدعاء . وتعريفه «صاحب البندقية» : ثم ذكر بعد ذلك نقلا عن خط القاضى ناصر الدين آبن النشائى أنه كتب فى الجواب إلىٰ دُوك البنادقة :

وردتْ مطالعةُ الدُّوك الجليل ، المكرَّم ، المبجَّل ، الموقَّر ، البَطَل ، الهمام ، الضِّرْغام ، الغَضَنْفَر ، الخطير ، مجدِ المِلة النَّصرانيه ، فخرِ الأمّة العِيسَويّه ، عِماد بنى المَعْمُوديه ، معزِّ بَابَا رُوميـة ، صديقِ الملوك والسلاطين ، دُوك البنَادقة ، وديارقة ، والرُّوسَا ، والإِصْطَنْبُولِيَّة . ثم قال : ولم يذكر تعريفَه ولا قَطْعَ الورق الذى يُكْتَب إليـه فيه ؛ ثم نقل عنه أيضا أن المكاتبة إلىٰ دُوكِ البُنْدُقِيَّة : هـذه المكاتبة إلىٰ حضرة المحتَشم ، الجليـل ، المبجَّل ، الموقَّر ، المكرم ، المفخَّم ، الباسـل ، الضِّرْغام ، فلان ؛

عِزّ الأمة المسيحيّة، جمالِ الطائفة العِيسَويّة، ذُخْر الملة الصليبية، صـديق الملوك والسلاطين . ثم قال : هكذا رأيتـه من غير ذكر تعريفه ولا القَطْع الذى يكتب إليه فيه . قال : ومايبعُد أنه غيرُ الأوّل ولم يزد على ذلك .

قلت : ومقتضى ما ذكره من جميع ذلك أن الدُّوكَ غيرُ المِلِك نفسِـه . على أن المكاتبة الأولى والثانيـةَ فى الجواب متقارِبتانِ . أما المكاتبة الثالثـة فمنحطّة عن الأوّلَيْنِ . على أنه قد تقدّم فى الكلام على المسالك والممـالك عنـد ذكر البُنْدُقِيَّـة نقلا عن ٱبن سعيد أن مَلِك البنادقة يقال له الدُّوك بضم الدال المهـملة وواو وكاف فى الآخر، وهذا ممـا يحتاج إلى تحرير؛ فإن كان الدُّوك هو المِلكَ فتكون المكاتبةُ إليه ٱختلفتْ باختلاف الحال، أو باختلاف غَرَض الكُتّاب، أو عدمِ ٱطّلاعهم على حقيقة الأقدار والوقوف مع مايُلْقَىٰ إليهم من المُزَاحمة فى كل وقتٍ وهو الظاهر .

الخامسة — المكاتبة إلى صاحب سَنُوبَ، من سواحل بلاد الروم، قبل أن تُفْتَح ويستولِىَ عليها التُّرْكُمَان . قال فى "التعريف" وهى على ضَفَّة الخليج القُسْطَنْطِينىّ، وملكها رومىٌّ من بيت المُلْك القديم ، من أقارب صاحب القُسْطَنْطِينيّة . قال : ويقال إن أباه أعرَقُ من آبائه فى السلطان . قال : ولكن ليس ملكه بكَبِير، ولا عدده بكثير، ويكونُ بينه وبين أُمراء الأتراك حُروب، يكون فى أكثرها المغْلُوب .

وذكر أنّ رسم المكاتبة إليه مثـلُ متملّك سيس، فتكون على ما ذكره فى مكاتبـة متملك سيس :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى حضرة المِلك ، الجليل، البطلِ، الباسـلِ، الهُمامِ، السَّمَيْدَع، الضِّرْغام، الغضَنْفَر، فلان، فخر الملّة المَسِيحيه، ذُخْر الأمة النَّصْرانيه، عماد بنى المعْمُوديّه، صديق الملوك والسلاطين .

وهذا دعاء يليق به، ذكره فى "التعريف" :

وكفاه شرّ ماينُوب ، وروّح خاطِرَه فى الشَّمال بَرَيًّا مايَهُبُّ من الجَنُوب ، ووقاه سُوءَ فِعلٍ يُورِثُ النَّدَم وأوّلُ مايَقْرَع السِّنَّ سَنُوب .

السادسة — المكاتبةُ إلىٰ صاحب البُلْغَار والسَّرْب . قد تقدّم فى الكلام علىٰ المكاتبات إلىٰ ملوك الإسلام بالجانب الشَّمالىّ نقلا عن "التعريف" ما يقتضى أنَّ ملكها مسلمٌ، وذُكِرت مكاتبتُه الإسلاميةُ هناك، وعلىٰ ذلك ٱقتصر فى "التعريف" وتقدّم النقل عن "مسالك الأبصار" أنها صارتْ إلىٰ ملوك النَّصْرانية، وعليه ٱقتصر فى "التثقيف" وهو المراد هنا .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" نقلا عن ٱبن النشائى فى قَطْع الثلث ما نصه :

أطال اللهُ تعالىٰ بقاءَ حضرة الملك، الجليل، المكرَّم، المبجَّل، الهُمام، الضِّرْغام، الباسل، الدُّوقس، الانجالُوس، الكمنينوس، فلان، عمادِ النَّصرانية، مالك السَّرْب والبُلْغار، فَخْرِ الأمّة العيسويه، ذُخْرِ الملة المسيحيه، فارس البُحُور، حامِى الحُصُون والثُّغُور . والدعاء، أصدرنا هذه المكاتبة، وتعريفه «صاحب البُلْغار» .

وٱعلم أنه فى "التثقيف" بعد أن أورد المكاتبةَ المتقدّمةَ لصاحب السَّرْب والبُلْغار، نقلا عن ٱبن النَّشائى ذكر نَقْلا عنه أيضا أن المكاتبةَ إلىٰ صاحب السَّرْب فى قَطْع الثلث نظير متملِّك سِيسَ، فتكون المكاتبة إليه على ماتقدّم أنه الذى استقرّ عليه الحالُ فى المكاتبة لمتملِّك سيس :

صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ حضرة الملك، الجليل، المكرَّم، المبجَّل، المعزَّز، الهمام، الباسل، فلان، عزِّ دين النَّصْرانيه، كبير الطائفة الصَّلِيبِيَّة، عماد بنى

(١) أى البلد التى هى عاصمة ملكه .

المعمُوديَّة، صديق الملوك والسلاطين، أدام الله نعمتَه، وحَرَس مُهْجَته، تعلمه كذا وكذا، وتعريفه «صاحب السِّرْب» .

ثم قال : ولم أدر هل يجتمعان لشخص واحد تارةً فيكون بهما آثنان تارةً وواحدٌ تارةً أم لا . ثم قال : علىٰ أنه لو كان الأمرُ كذلك لكان يتعـين أن يذكُرَ مكاتبـة صاحب البُلْغار وحده مفْردا كما ذكر مكاتبة صاحب السِّرْب وحده مفردا .

قلت : كِلَا الأمرين محتمِلٌ، فيجوز أنهـما كانا مجتمعينِ لواحدٍ، وأنه كتب تعريفَـه بالإضافة إلىٰ أحدهمـا آستغناءً به عن الآخر، أو أنه كتب إلىٰ صاحب السِّرْب بمفرده، ولم يحطَّ رتبَته فى قَطْع الورق عن رتْبة من اجتمعا له، ولا يلزم من ذٰلك أنه كان يكتب لصاحب البُلْغار بمفرده لآحتمال أنه لم يُكْتَب إليه شىءٌ حينئذ، وبالجملة فهذا أمر راجع إلىٰ النقل .

السابعة ــ المكاتبة إلىٰ ملك رُودِس . قال فى "التعريف" وهى جزيرةٌ تقابِلُ شُطوطَ البلاد الرُّوميَّـة . قال : وأهلها فى البحر حَرَامِيَّـة، إذا ظفِروُا بالمسلم، أخذُوا مالَه، وأَخيَوْه، وباعُوه أو آسـتَخْدَمُوه، وإذا ظفروا بالفَرَنْجِيّ، أخذوا ماله وقتَـــلُوه .

ورسم المكاتبة إليه مثـل متملك سِيس، إلا أنه لا يقال فيه مُعزّ بابَا روميـة، وتختصر بعض ألقابه لأنه دونَه، وحينئذ فيتجه أن تكون المكاتبة إليه :

صدرت هذه المكاتبةُ إلىٰ حضرة الملِكِ الجليل، البطَل، الباسل، السَّمَيْدَع، فلان، فخر الملة المَسِيحيه، ذُخر الأمة النَّصرانيه، صديقِ الملُوك والسلاطين، أونحو ذلك . علىٰ أنه فى "التعريف" لم يذكر فى المكاتبـة إلىٰ متملِّك سيس، معِزّ بابَا رومية، فلم يكن ليحتاج أن يقولَ : إلا أنه لا يقال فيه معزّ بابا رومية .

وهذا دعاء يليق به، ذكره في "التعريف" وهو

قدّم الله له الأعذار، وكفاه قوامعَ الإنذار، وحذّره عاقبةَ البغْي قبل أن لاينفع الحذار.

آخر: فكَّ الله من وَثاقه كلَّ مأسور، وأقال كلَّ غرابٍ له من الرجوع وجَناحُه مكسور، وعصمه بالتَّوْبة مما اقترف، لا بالبَحْر ولو أنه سبعةُ أبحُر، وسُورِ مدينته ولو أنه مائةُ سُور.

الثامنة — المكاتبة إلى صاحبِ جزيرةِ المَصْطكىٰ. قال في "التعريف": وهي جزيرةٌ صغيرةٌ لاتبعُد مدًى من الإسكَنْدريّة، وصاحبها صغيرٌ لا في مالٍ ولافي رجال، وجزيرتهُ ذاتُ قَحْط لا يَطُرُّ شاربها بزَرْع، ولايَدِرُّ حالبُها بضَرْع؛ إلا أنها تُنبِت هـذه الشجرةَ فتُحْمَل منها وتُجْلَب، وتُرْسَى السفُنُ عليهـا بسببها وتُطْلَب؛ قال: وفي ملكها خدمةٌ لرُسُلنا إذا ركبُوا ثَبَجَ البحر، وتجهيزٌ لهم إلىٰ حيثُ أرادوا، وتجيزٌ لهم إذا توجَّهوا و إذا عادوا. ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره في "التعريف" كالمكاتبة إلىٰ صاحب جزيرة رُودِس المتقدّمة الذكر آنفًا وهي:

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ حضرة الملك الجليل إلىٰ آخر ما تقدّم.

وهذه أدعية تليق به ذكرها في "التعريف" دعاءٌ من ذلك، وفقّه الله لطاعتِه، وأنهضَه من الولاء بقَدْر طاقتِه.

آخر: أطاب الله قلْبَه، وأدام إلينا قُرْبَه.

آخر: لا زالَ إلىٰ الطاعة يبادِر، وعلىٰ الخدمةِ أنهضَ قادِر، ومكانُه تُزَمّ إليه ركائبُ السُّفُن بكل واردٍ وصادر.

التاسعة — المكاتبةُ إلىٰ متملّك قُبْرس. و إنما قيل له متملّك قُبْرس لأنها كانت قد فتحها المسلمون، ثم تغلّب عليها النصارىٰ وملكُوها؛ فقيل لمن غلب عليها متملّكٌ

ولم يُقَـلْ له مَلِك ، وذكر فى "التثقيف" عن القاضى ناصر الدين بن النَّشائى أن المكاتبة إليه [مثل] متملك سيس ولم يَزِد علىٰ ذلك ، وحينئذ فتكون المكاتبة إليه مثلَ ما آستقرّ عليه الحال فى المكاتبة إلىٰ متملِّك سيس فى قَطْع العادة :

صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ حضرة الملك ، الجليلِ ، المكرَّم ، المبجَّل ، المعزَّز ، الهمام ، الباسل ، فلان ، عزِّ دين النصرانيـة ، كبيرِ الطائفة الصَّليبية ، عمـاد بنى المعْمُوديَّة ، صديق الملوك والسلاطين ، أدام الله نعمتَه ، وحرس مُهْجَتَه . وتعريفه « متملك قبرس » .

قال صاحب "التثقيف" : ولم أقِفْ علىٰ مكاتبة إليـه ابتداءً ولا جواباً سوىٰ ذٰلك ، إلا أنه كتب إليه عن الأمير الجاى اليُوسفى عند وقوع الصلح فى سنة آثنتين وستين وسبعمائة ، يعنى عند ما كان الجاى أتابك العساكر المنصورة .

العاشرة — المكاتبـة إلىٰ ملك مُونْفُراد . ذكر فى "التثقيف" أنه كان بهـا آبن ملك إصْطَنْبُول ، وأنه كتب إليه فى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة :

أصـدرناها إلىٰ حضرة الملك الجليـل ، المكرَّم ، البَطَل ، الهمام ، الأسَـد ، الضِّرْغام ، فلان ، مجد النَّصْرانية ، فخر العِيسَويّه ، عمـاد بنى المعْمُوديّه ، جمـال الطائفتيـن الرومية والفَرَنْجيّـه ، ملك مُونْفُراد ، وارث التـاج ، مُعِزّ الباب ، ادام الله بَقـاه ، وحَفِظه ووَقاه ، وأورثه من ابيـه تختَه وتاجه وولاه ، تتضمن إعلامه كذا وكذا . ثم قال : هـذا ماوجدتُه مسطورًا فى رسم المكاتبة المذكورة ، ولم يُكْتَب إليه شىءٌ فى مدّة مباشرتى ، ولم أدْرِ ماتعريفه ، ولا فى أىّ قطع يكتب إليـه . قال : والذى يظهر أنه يكتب إليـه فى قَطْع العادة ، وأن يكون تعريفـه « ملك مونفراد » .

الحادية عشرة — المكاتبة إلى صاحبة نابُل . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان اسم صاحبتها جُوانا، وأنه كُتِب إليها فى أواخر سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ما صورته :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى الملكةِ، الجليلةِ، المكرَّمة، المبجَّلة، الموقَّرة، المفخَّمة، المعزَّزة، فلانة ، العالمةِ فى مِلَّتها، العادلة فى مَمْلكتها، كبيرةِ دين النَّصْرانية ، نصيرةِ الأمَّة العِيسَويه، حاميةِ الثغور، صديقةِ الملوك والسلاطين . ثم الدعاء ، تتضمَّن إعلامها ، وتعريفُها « صاحبة نابُل » ولم يذكر قَطْع الورق لمكاتبتها ، ولاخَفاءَ أنه يكتب إليها فى قَطْع العادة لِصغَر مَقامها .

قلت : فإنْ ولِىَ مملكتَها رجلٌ، فينبغى أن يُكْتَب إليه بهذه المكاتبة على التذكير أو أعلى من ذلك ، لِميزَة الرجال على النساء . وهؤلاء جملةُ من تعرَّض إلى مكاتبته فى "التعريف" و "التثقيف" من ملوك الكُفْر، فإن اتفقت المكاتبةُ إلى أحد سِواهم فلُيَقسْ على من هو مثلُه منهم . ثم قد ذكر فى "التثقيف" القنصل بكفا، وذكر أنها جارية فى حكم جَنَوَة ، وأنه لم يكتب إليه شئٌ عن المواقف الشريفة، ولا خفاءَ فى ذلك، فإن مقام القُنْصُل دُونَ أن يكاتَبَ عن الأبواب السلطانية .

الفصـــل الخامس

من البـاب الثـانى من المقـالة الرابعة

(فى الكتب الواردة علىٰ الأبواب الشريفةِ السلطانيـة بالديار المِصْرية، ممن جرت العادةُ بمكاتبتـه إليهـا من أهـل المملكة وغيرها من سائر الممـالك المكاتَبةِ عن هذه المملكة، وهى نوعان)

النـــــوع الأوّل

(المكاتَباتُ الواردةُ عن ملوك المسلمين ، وهى علىٰ قسمين)

القسم الأوّل — فى الكُتُب الواردة عن أهل هذه المملكة، بالديار المصرية ، والبلاد الشامية، ممن يؤهَّل للكاتبةِ إلىٰ الأبواب السلطانيـة ، من النوّاب وغيرهم : من الأمراء، وأرباب الأقلام : من الوزراء، والعلمـاء ومَنْ فى معناهم ؛ وهم علىٰ ضربيـن :

الضــــرب الأوّل

(فى المُطالَعات الواردةِ عن أكابر أهل الدولة بالديار المِصْرية والبلاد الشامية : من النوّاب ومَنْ فى معناهم)

قد جرتْ عادةُ من يكتُبُ إلىٰ الأبواب السلطانيـة من أهل هذه المَرْتَبة ، أن يكتب جميعُهم كُتُبَهم فى قَطْع العادة ، فإن كان بالديار المصرية فمن الوَرَق البَلَدىّ ، وإن كان بالبلاد الشامية فمن الوَرَق الشامىّ ، وجميعُ ذلك فى الورقِ الأبيض، إلا نائبَ الشـام ونائبَ الكَرَك، فإنهما قد جرتْ العادةُ فيهما بأنهما يكتُبان إلىٰ الأبواب السلطانية فى الورق الأحمر الشامىّ، شىءٌ ٱختَصّابه دُونَ سائر أهل المملكة .

ثم قد ذكر فى "عرف التعريف" أن الملوك لا يُكتَب إليهم إلا «يُقبّل الأرض» ويُنْهِى . ويُختَم الكتاب بما صورته : طالع المملوكُ بذلك وللآراء العالية مَزيدُ العُلُوّ، أو أنهى المملوكُ ذلك وللآراء العالية مزيدُ العُلُوّ، والعنوان «المَلَكىّ الفلانىّ، مطالعة المملوك فلان» وحينئذ فالذى جرتْ به العادةُ فى ذلك أن يبتدئ الكاتبُ فيكتب فِهْرِست الكتاب فى رأس الدَّرْج من جهةِ وجْهِه، فى عَرْض إصبع، فى الجانب الأيمن «إلى الأبواب الشريفة» وفى الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» ثم يَقلِبُ الدَّرْج ويكتُب فى ظاهره، بعد تَرْك ما كُتِب الفِهْرِستُ فى باطنه، العُنوانَ ؛ فيكتب : «المَلَكىُّ الفلانىّ» فى أول العُنْوان، و «مطالَعة المملوك فلان» فى آخره . ثم بعد ذلك يقلِبُ الدَّرْج، ويترك وَصْلا أبيض، ويكتُبُ البسملةَ فى رأس الوصل الثانى بعد خُلُوّ هامِشٍ من الجانب الأيمن . ثم يكتُبُ تحت البسملة ملاصقًا لها ما صورته «المَلَكىّ الفلانى» بحيث يكون آخر المَلَكىّ الفلانى مسامتاً لجلالة البسملة، بلقب السلطان، كأنه يَنْسُب نفْسه إلى سلطانه . ثم يكتب صورةَ المكاتبة على سَمْت البسملة فى سطرٍ ملاصقٍ للمَلَكىّ الفلانىّ «يقبِّل الأرضَ ويُنْهِى كذا وكذا» فإن كان ٱبتداءً كتب ويُنْهِى أن الأمر كذا وكذا ، ويأتى بمقاصد المكاتبة : فإن كانت فصلا واحدا ذكره وختم الكتاب بآخر كلامه ؛ وإن كان الكتاب مشتملا على فُصُول أتى بالفصل الأول إلى آخره . ثم يخلّى بياضا قدرَ خمسةِ أسطُر . ثم يَسْرُد الفصولَ بعد ذلك فَصْلًا فصلًا : يُخَلّى بين كل فصلين قدرَ خمسة أسطر أيضا ، ويقول فى أول كل فصل «المملوكُ يُنْهِى كذا وكذا» وإذا أتى على ذكر السلطان ، قال : خلّد الله سلطانه ؛ أو خلّد الله ظلّه ؛ أو أتى على ذكر المرسوم الشريف ، قال : شرّفه الله وعظّمه ونحو ذلك ؛ وإذا سأل فى أمر ، قال : والمملوكُ يَعرِض على الآراء الشريفة كذا وكذا ، أو إن ٱقتضت الآراءُ الشريفة كذا فلها مزيدُ العُلوّ، ولا يقال : يسأل

الصدقات الشريفة، إلا فى أمر جليـل أو شىء مُهِمّ، والعَرْضُ أبلغُ فى الأدب، ولا يلَقّب أحدا بالجناب والمجلس ومجلس الأمير، وإذا ذكر كبيرا فى الدولة كالنائب الكافل، ونائب الشـام، أو نائب حَلَب، أو أمير كبـير . قال : إن مملوك مولانا السـلطان خلَّد الله ملكه الأميرَ فلان الدين فلان النـاصرى مثـلا، كافل الممـالك الشريفة، أو نائب السلطنة الشريفـة بالمملكة الشامية المحروسـة، أو كافل المملكة الشامية المحروسة، أو نائب السلطنة الشريفة بحَلَب المحروسة، أو الأمير فلان الدين فلان الناصرى مثلًا، أو القاضى فلان الدين، أو ناظِرِ الجُيوش المنصورة بالأبواب الشريفة، وما يجرى هذا المجرىٰ، ولا يُدْعىٰ فى المطالعة لأحد . وإذا آنتهت الفصول إلىٰ آخرها، قال : وقد جَهَّز المملوكُ بمطالعته هـذه مملُوكه فلانا السيْفِىَّ مثلا المـاثِلَ بها . وإن كان ثَمَّ مشافهة، قال : وقد حمَّله مشافَهةً يسأل المَسامِعَ الشريفة سَمَاعها إن آقتضت ذلك، أو يُنْهِيها إلىٰ المسامع الشريفةِ إذا رُسِم له بإنهائها، طالع بذٰلك، أو أنهىٰ ذٰلك .

ثم قد جرت عادة النُّوّاب بالبلاد الشامية أن يُقَدّموا فى صـدر المكاتبة ما آشتمل علىٰ أخبـار البلاد الشرقية من مملكة إيران المجاورة لأواخرِ هذه المملكة : من تجدُّد أمر، أو حركة عدُوّ، أو حكايةِ حالٍ مُهِمَّة من أحوال تلك البلاد، مثل أن يقال فى أوّل المكاتبة، ويُنْهِى أنَّ قُصّاده عادُوا من البلاد الشرقيـة مخبِرين بكذا وكذا، ويشرح الحال التى أخبر بها قُصّادُه .

وإن كان الخـبر نقلا عن نائبٍ من نُوّاب الأطراف كالرُّهَا ونحوها، قال : إن مطالعة نائب فلانة وردتْ بكذا وكذا، ويذكر ما تضـمَّنته ملخَّصا ـ وإن كانت المطالعـةُ جواب مثالٍ شريف ورد فقط، قال : وينهى أن المرسومَ الشريفَ

شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه ورد علىٰ المملوك علىٰ يد فلانِ الدين فلان البَريدىّ بالأبواب الشريفة يتضمَّن ما آقتضته المراسيمُ الشريفة ، أو ما آقتضَتْه الآراءُ الشريفة شرَّفها الله تعالىٰ وعظَّمها: من كذا وكذا، ويذكُرُ نصَّ المثالِ الشريفِ حرفًا حرفًا . ثم يقال: وتفهَّم المملوكُ ما رُسِم له به ، وقابل المراسيمَ الشريفةَ ـ زادالله تعالىٰ شرَفَها ـ بتَكْرارِ تقبيل الأرض والآمتثال ، وتقدم بكذا ، ان كان الأمر مما نفذ، أو والذى ينهيه المملوك كذا وكذا إن كان الأمر قد توقَّف .

ثم إن كان النائب عظيمَ القَدْر كنائب السلطنة الشريفة بالشام أو حَلَبَ، جعل بُعْدَ ما بين كل سطرين تقديرَ رأسِ إصبع ، وإن كان دُونَ ذلك جعل ما بينهما أقلَّ من ذلك حتّى ينتهى فى أقل الرتب إلىٰ ملاصقة السطور بعضِها ببعضٍ .

وإن كانت المطالعة فى أمرٍ مُهِمٍّ كآستقرار نائبٍ أو بشارةٍ بفتح أو نحو ذلك، أتىٰ بجميع الكتاب مسجَّعا وإلا فلا .

وهذه نسخةُ مطالعة عن نائب الشام آبتداءً .

يقبِّل الأرضَ، ويُنْهِى أنه ورد علىٰ المملوك مكاتبةُ نائب السلطنة الشريفةِ بحَلَبَ المحروسة ، يذكر فيها أن قُصَّاده عادُوا من جهة بلاد الشرق ، وأخبروا أن العدُوَّ المخذُولَ فلانا قد خرج عليه عدوٌّ من ورائه وقصد بلاده فكَرَّ راجعا إليه بعد أن كان قاصدًا هذه الجهةَ، وأحبَّ المملوكُ إحاطة الخواطرِ الشريفة بذلك .

المملوك يُنْهِى أنَّ مطالعة نائب الرَّحْبة المحروسة وردت علىٰ المملوك يخبر فيها أن فلانا التُّرْكُمانِىَّ قد عاد إلىٰ الطاعة الشريفة، ولاذَ بمَراحم الأبواب العالية ، وأنه ما كان حمله علىٰ ما وَقَع منه من عَدَم المقابلة إلا الخوفُ من السَّطَوات الشريفة، وأنه يسأل كتابة أمانٍ شريفٍ له ولجماعته ومَنْ يليه بأن يكونوا آمِنِين علىٰ أنفسهم،

وأموالهم، وسائر ذات يَدِهم، وأنه إذا وصل إليه الأمان قصد الأبواب السلطانية، وتمثل بالمواقف الشريفة، وآمتثل ماتبرز به الأوامر المطاعةُ فى أمره وأمر جماعته. والمملوك ينظر ما يردُ به الجوابُ الشريف فى أمره لكاتبِ نائب الرَّحبة المحروسة بمـا يعتَمِده فى أمره .

المملوكُ يُنْهِى أنه قد بلغ المملوكَ أنَّ البحر مشـغولٌ بمراكب الفرَنْج، ولم يعلم إلىٰ أىِّ مكان يقْصِـدون ، وقد أخذ المملوك فى الآحتراز علىٰ السواحل المذكورة بإقامة المركَّزين، وأمَرَهم بالآحتراز والآحتفاظ، وقد عرض المملوكُ ذٰلك علىٰ الآراء العالية ليكونَ ذٰلك علىٰ الخواطر الشريفة، ويكاتِب به النوابَ بالبلاد المجاورة للبحر .

المملوك يُنْهِى أن الأمير فلانا الفلانىَّ : أحد أمراء الطبلخاناه بدِمَشْقَ المحروسـةِ قد تُوُفِّىَ إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، والمملوك يسأل الصَّدقات الشريفةَ فى آستقرار إمْرته بآسم مملوكِ مولانا السلطان عز نصره، ولد المملوك فلان، إعانةً له علىٰ الخدمة الشريفة، وجَبرًا لخاطر المملوك، فإن حَسُن ذٰلك بالآراء الشريفة، وإلا فالرأى العالى مَزِيدُ العلُوّ .

المملوكُ يُنْهِى أن الأمير فلان الدين فلانا : أمير حاجب بالشام المحروس ، كان قد برزَتِ المراسيمُ الشريفةُ باستقراره فى نيابة صَفَدَ المحروسة ، وقد توجَّه إلىٰ محلِّ نيابَتِه، والمملوك يَعْرِضُ علىٰ الآراء الشريفة إنْ حَسُن بالرأى الشريف أن يستقِرَّ فى الوظيفـة المذكورة الأميرُ فلان الدين فلان : أحدُ الأمراء الطبلخاناه بدمشـق المحروسة ، فإنه كُفْءٌ لذٰلك، أو يستقرّ من تبرُز به الآراءُ الشريفة .

المملوك ينهى أن فلانا : أحد رجال الحَلْقة المنصورة بدِمَشْقَ المحروسة، قد دَرَج بالوَفَاة ، وقد كتب المملوكُ مربَّعةً بآسم فلان الدين فلانٍ باسـتقراره علىٰ إقطاعه ، وجَهزَها إلىٰ الأبواب الشريفة لتُعْرضَ علىٰ الآراء العالية، فإنْ حَسُن بالرأى الشريف

إمضاؤُها وإلا فيستقرّ علىٰ إقطاعه مَنْ تبرُزُ المراسيمُ الشريفةُ باستقراره، وقد جَهَّز المملوك هذه المطالعةَ علىٰ يدِ مملوكه فلان إلىٰ الأبواب الشريفة .

طالع بذلك، إن شاء الله تعالىٰ ثم يكمل .

✦ ✦ ✦

وهـذه نسخة مطالعةٍ عن نائب الشام أيضا ، فى جواب مكاتبةٍ شريفةٍ وردتْ عليـه وهى :

يُقَبِّل الأرض ويُنْهِى أن المرسوم الشريفَ ــ شرَّفه الله تعالىٰ وعَظَّمه ــ ورَدَ علىٰ المملوك علىٰ يد فلانِ الدين فلان البريدىّ ، بالأبوابِ الشريفة ، يتضمَّن أنّ المرسوم الشريفَ اقتضىٰ الاجتهادَ والاهتمام فى حِفْظ السواحل والمَوَانِى ، وإقامة الأَيْزاك والأبدال فى أوقاتها علىٰ العادة ، وإلزام أربابها بمواظبتها ، وإلزام المنوِّرين بالدَّيْدَبَانات والمَناظر والمَناور فى الأماكن المعروفة ، وتَعَهُّد أحوالها وتَفَقُّدها ، وتقويم أحوالها بحيث تَقُومُ أحوالُها علىٰ أحسن العوائد وأكملها ، ولا يقعُ علىٰ أحدٍ دَرَك بسببها . وأنّ المملوك يتقدّم باعتماد مااقتضاه المرسومُ الشريفُ من ذٰلك مع مُضاعفةِ الاحتفال بذٰلك والمُبادرةِ إليه . فوقف المملوكُ علىٰ المرسوم الشريف شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه، وتَفهَّم مارُسِم له به، وقابل المراسيمَ الشريفةَ زاد الله تعالىٰ شَرَفَها بالامتثال ، وتقدّم باعتمادِ ما اقتضَتْه المراسيمُ الشريفة من ذٰلك، وأخذَ فى حِفْظ السواحلِ والمَوَانِى، وإقامة الأيزاك والأبدال، وإلزام أربابها بمواظَبَتِها، وإلزام المنوِّرين بالدَّيْدَبَانات والمناظر [فقامت الأحوال] علىٰ أحسن العوائد ، وجرتْ علىٰ أكملِ القَواعِد ، ولم يَكُنْ عند المملوك غَفْلَةٌ عما هو بصَدَده من ذلك ، وقد أعاد المملوكُ فلانَ الدين فلاناً البريدى المذكورَ بهذه المطالعة : ليحصُل الوقوفُ عليها . طالع بذلك ... ...

وهذه نسخة مطالعـة تشتمل علىٰ ٱبتداءٍ وجواب : يقبّل الأرض وينهى أنه قد حضر رسولٌ من القـانِ فلانٍ بالمملكة الفُلانية [وقصـدُه التوجه] إلىٰ الأبواب الشريفة ، والمملوكُ يَعْرِض علىٰ الآراء العالية أمْرَه ، فإن أذِنَ له فى التوجُّه إلىٰ أبوابه الشريفة ، جَهَّزه المملوك إليها علىٰ العادة .

المملوك يُنْهِى أن المرسوم الشريف شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه ورد علىٰ المـملوك على يَدِ فلان الدِّينِ فلان المُسَـفَّر من الأبواب الشريفـة ، يتضَمَّن طَلَب فلانٍ الفلانىِّ ، وحمْلَه إلىٰ الأبواب الشريفة محتَفَظًا به ، فبادر المملوكُ ما برزَتْ به المراسيمُ الشريفةُ بالأمتثال ؛ وتقدّم بطلب فلانٍ المذكور وسَلَّمه إلىٰ فلان الدين المسَـفَّر المذكور ، وبعث معه من يحتَفِظ به فى الطريق إلىٰ حينِ وصولِهِ إلىٰ الأبواب الشريفة .

صورة وضع المطالعة من نوّاب السلطنة ومن فى معناهم ، إلى الأبواب الشريفة

الجانب الأيمن	الطـــرة	الجانب الأيسر
إلى الأبواب الشريفة		بسبب كذا

العنوان

الملكى الفلانى	مطالعة المملوك
	فلان

الصــــدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الملكى الظـاهرى مثلا

يقبل الأرض وينهى أن المرسوم الشريف شرَّفه الله تعـالىٰ وعظَّمه ، ورد علىٰ المملوك ، علىٰ يد فلان الدين فلان البريدى ، ويكمل عليه إلىٰ آخره .

الضـــرب الثـانى

(من المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل المملكة)

المطالعات الواردة من الوُلاة ومن في معناهم[1] .

(١) بيض له فى الأصل بقدر صفحة

القسم الثانى — فى الكتب الواردة على الأبواب السلطانية، عن أهل الممالك الإسلامية المكاتبةِ عن هذه المملكة . وحالُها مختلفٌ باختلاف حال مصْطَلح أهل البلاد وحالِ المكتوبِ عنه فى رِفْعة القَدْر . وفائدةُ معرفة ذلك أنه إذا عَرَف الكاتبُ مصطَلح كلِّ مملكة فى الكتابة ، ظهر له ما هو واردٌ عن مَلِكها حقيقةً وما هو مفتَعَل عليه ، ولا يخفىٰ ما فى ذلك من كبير الفائدةِ ، وعظيمِ النَّفْع ، وآرتفاعِ قَدْر الكاتب عند مَلِكه بإظهار الزَّيْف بمَحَكِّ المعرفة .

ومن غريب ماوقع فى هذا المعنىٰ أنه وردَ رسولٌ من الشرق، فى الأيام الظاهرية الشهيديَّة بَرْقُوق سقىٰ الله تعالى عهده ، وأظهر لأهـل الطُّرُقات أنه رسولٌ من عند طقتمش صاحب بلاد أزْبَك، ورُفِعتْ بِطاقَتُه بالقلعة المحروسة بذلك ، فأمر السلطانُ النائبَ الكافلَ وأكابر الأمراء بالخُروج لمُلاقاته علىٰ القُرْب من القاهرة، فخرجوا وتلَقَّوْه بالتعظيم ، علىٰ أنه رسولُ طقتمش خان المقدم ذِكْرُه ، وأُنْزِل بالمَيْدان الكبير تعظيماً لأمره، فلما عُرِض كِتَابُهُ نظر فيه المَقَرّ البدرىُّ بنُ فضل الله، تغمَّده الله تعالىٰ برحمته، وهو يومئذٍ صاحب دِيوان الإنشاء الشريف، فوجده غيْرَجارٍ علىٰ مصطَلَح كتب القانات فى الورق والكِتَابة، فاستَفْسر الرسولُ المذكورُ عن ذلك ونُوقِشَ فى قضيته، فأخبر أنه عن الحاكم بالقِرِم من أتْبَاع طقْتُمش خان، فأنكر عليه ذلك ، وحَطَّ رُتْبته عند السلطان وأهلِ دولته عما كان عليه ، وعَلَا بذلك مقدار المقرّ البدرىّ بن فضل الله المشار إليه عند السلطان ، وشكَرَله ما كان من ذلك .

ويشتمل علىٰ أربعة مقاصد :

المقصـــد الأوّل

(فى الكتب الواردة عن أهل الشرق، وفيه أطراف)

الطـــرف الأوّل

(الكتبُ الواردةُ عن القانات العِظَام من بنى جَنْكِزخان ، ولها حالان)

الحال الأولى ـــ ما كان الأمر عليه قبل دُخُولهم فى دين الإسلام .

وكان الأمر يجْرِى فى كتابتهم مجْرَى المُخَاشنة ، والتصريح بالعَدَاوة ، ولم أقِفْ على مقادير قَطْع ورق كُتُبهم يومئذ ولا ترتيب كتابتها .

وهذه نسخة كتاب كتب به هُولاكو بن طوجِى، بن جَنْكِزخان، المنتزِع العِراقَ من أيْدِى الخلفاء العباسيين . كتب به إلى الملك المظفَّر قُطُز فى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وهو :

من مِلك الملوك شَرْقًا وغَرْبا القانِ الأعظم :

بٱسمك اللهمَّ باسطَ الأرض ورافِعَ السماء .

يعلم المِلك المظفَّر قُطُز الذى هو من جنس المماليك الذين هَرَبُوا من سيُوفنا إلى هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه، و يقتلون من كان سلطانه بعد ذلك .

يعلم الملك المظفَّر وسائرُ أمراءِ دولتــه وأهلِ مملكته بالديار المصرية وما حَوْلَها من الأعمال ، أنّنا جُنْدُ الله فى أرضــه ، خَلَقَنا من سَخَطه ، وسلَّطنا على مَنْ أحَلَّ عليه غضَــبَه ، فسلِّموا إلينا أُمورَكم تَسْلَمُوا ، قبــل أن ينْكشِفَ الغِطاءُ فتنْدَمُوا ، وقد عرفْتُمْ أنّنا خَرَّبنا البِلاد ، وقتَلْنا العباد ، فلكم منّا الهَرَب ، ولنا خَلْفَكم الطَّلَب ؛

فما لكم من سُيُوفنا خَلَاص : خُيولُنَا سَوَابِق، وسُيوفُنا قوَاطِع، وقلُوبُنا كالجبال، وعَدَدُنا كالرِّمال ، ومَنْ طلَبَ حَرْبَنا نَدِم، ومَنْ قصد أمانَنَا سَلِم ؛ فإنْ أنتم لشَرْطنا وأوامِرِنا أطعتم فلَكُم مالنا ، وعلَيْكم ماعلينا ؛ فقد أعْذَرَ مَنْ أنْذَر . وقد ثبت عندكم أنّا كفَره، وثبَتَ عندنا أنكُم الفَجَره، فأسْرِعُوا إلينا بالجواب قبلَ أن تُضْرِم الحربُ نارَها ، وتَرْمِيكم بشَرارِها ، فلا يَبْقىٰ لكم جاهٌ ولا عِزّ ، ولا يعصِمُكم منّا جَبَل ولا حِرْز، فما بقِيَ لنا مقْصِد سِواكم ، والسـلامُ علينا وعليكم ، وعلىٰ مَن اتّبع الهدىٰ ، وخشِيَ عواقِبَ الرَّدىٰ، وأطاع الملِكَ الأعلىٰ .

الحال الثانية — ما كان الأمرُ عليه بعدَ دُخُولهم فى دين الإسلام معَ قِيام العَدَاوة بين الدولتين .

وكان عادتهم فى الكتابة أن يُكْتَب بعد البسملة « بقوّة الله تعالىٰ » ثم يُكْتَب بعد ذلك «بإقبال قان فَرَمان فلان» يعنى كلام فلان .

ولهم فى ذلك طريقتان .

إحداهما — أن يُكْتَب بسم الله سطرا ، ويُكْتَب « الرحمن الرحيم » سطرا تحتها، ويكتب « بقوّة الله » سَطْرا « وتعالىٰ » سطرا آخر تحته ؛ ثم يكتب تحت ذلك فى الوسط بهامش من الجانبين « بإقبالِ قان » سطرا ، وتحته « فرَمان فلان » باسم السلطان المكتوب عنه سطرا آخر .

والطريقة الثانية — أن تُكْتَبَ البسملةُ جميعُها سطرًا واحدًا، ثم يكتب تحت وَسَطِ البسملة « بقوّة الله تعالى » سطرا « ومَيَامِينِ الملّة المحمّدية » سطرا آخَر ؛ ثم يكتب تحت ذلك سطر آخر بزيادة يسيرة من الجانبين « فَرَمان السلطان فلان » يعنى كلام السلطان فلان .

ولم أقِف علىٰ قَطْع الورق الذى كُتِب فيه حينئذ ، والظاهرُ أنه فى البَغْدادِىّ الكامل تعظيماً لشأن المكتوب عنه عندهم . وبالجملة فإنّ الظاهر أنّ الكتبَ الواردةَ عنهم علىٰ نَمَطِ الكتب الواردة من هذه المملكة إليهم ، جَرْيا علىٰ قاعدة كُتَّاب هذه المملكة من أنّ الغالب مضاهاتُهم لأكابر الملوك فى كتبهم فى الهيئة والترتيب شَرْقا وغَرْبا .

وهذه نسخةُ كتاب علىٰ الطريقة الأُولىٰ ، ورد عن السلطان « أحمد » صاحب مملكة إيران ، من بنى هُولاكُو المقدّم ذكره ؛ وهو أوّلُ من أسلم منهم ، كتب به إلىٰ الملك المنصور « قلاوون » صاحبِ الديار المصرية ، تغمّده اللهُ تعالىٰ برِضْوانه ؛ ورد مؤرَّخا بأوسط جُمادىٰ الأولىٰ سنة إحدىٰ وثمانين وستمائة ، ورأيت فى بعض الدساتير أنه من إنشاء الفَخْر بن عيسىٰ المَوْصلىّ ، وورد بخطه وهو :

بسم الله	بقوة الله
الرحمن الرحيم	تعالىٰ

بإقبال قان .

فرمان أحمد .

إلىٰ سلطان مصر ، أما بعدُ ، فإنّ الله سبحانه وتعالىٰ بسابق عِنايته ، ونُور هِدَايته ، قد كان أرشدَنا فى عُنْفُوان الصِّبا ، ورَيْعان الحَدَاثة ، إلىٰ الإقرار برُبُوبيَّته ، والاعتراف بوَحْدَانيَّته ، والشهادة لمحمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، بِصِدْق نُبُوّته ، وحُسْن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبَرِيّته ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فلم نَزَلْ نَميلُ إلىٰ إعلاء كلمة الدين ، وإصلاحِ أمور الإسلامِ والمسلمين ، إلىٰ أنْ أفضىٰ إلينا بعدَ أبِينا الجليل ، وأخِينا الكبير ، نَوْبةُ المُلْك ، فأضفىٰ علينا من

جَلَابِيبِ أَلْطافه ولَطائفه ، ماحقَّق به آمالَنا فى جَزِيل آلائهِ وعوارفه ، وجَلَّى هذه المملكةَ علينا، وأهدىٰ عَقيلتَها إلينا، فاجتمع عندنا فى قُورِيلْتَاى المبارك ــ وهو المجتمع الذى تُقْدَحُ فيه الآراءُ ــ جميعُ الإخوان والأولاد والأمراء الكِبار، ومقدَّمو العساكر، وزعماءُ البلاد، واتَّفقتْ كلمتُهم علىٰ تنفيذ ماسبق به حُكْمُ أخينا الكبير، فى إنفاذ الجَمِّ الغفير، من عساكرنا التى ضاقتْ الأرض برُحْبها من كثرتها، وامتلأت الأرضُ رُعْبا من عظيم صولتها، وشديد بَطْشتها، إلىٰ تلك الجهة بهمةٍ تخضع لها صُمُّ الأطواد، وعزمةٍ تلين لها الصُّمُّ الصِّلاد، ففكَّرنا فيما تمخَّضت زُبَدُ عزائمهم عنه، واجتمعت أهواؤُهم عليه، فوجدناه مخالفا لما كان فى ضميرنا من اقتفاء الخير العام، الذى هو عبارة عن تَقْوِية شِعَار الإسلام، وأن لايَصْدُرَ عن أوامرنا ما أمكننا إلَّا مايُوجب حَقْنَ الدِّماء، وتسكينَ الدَّهْماء، وتَجْرِى به فى الأقطار، رُخَاءً نَسائمُ الأمْن والأمَان، ويستريحُ به المسلمونَ فى سائر الأمصار، فى مِهاد الشَّفَقة والإحسان، تعظيماً لأمرِ الله، وشفقةً علىٰ خَلْق الله ، فألهمَنا الله تعالى إطفاءَ تلك النائره ، وتسكينَ الفِتَن الثائره، وإعلامَ مَنْ أشار بذلك الرأْى بما أرشَدَنا الله إليه : من تقديم مايُرْجىٰ به شفاءُ مِزَاج العالَم من الأدواء، وتأخيرِ مايجبُ أن يكونَ آخِرَ الدواء ، وأننا لا نحبُّ المسارعَةَ إلىٰ هزِّ النِّصال للنِّضال إلا بعدَ إيضاح المَحجَّه، ولا نُبادِرُ لها إلا بعد تَبْيين الحق وتركيبِ الحُجَّه، وقوّىٰ عزْمَنا علىٰ مارأيناه من دَوَاعى الصَّلاح، وتنفيذ ماظهر لنا به وجْهُ النَّجاح، إذ كان، الشيخُ قدوةُ العارفين «كمال الدين عبد الرحمن» الذى هو نِعمَ العونُ لنا فى أمور الدين، فأرسَلْناه رحمةً من الله لمن [لبّىٰ] دُعاه، ونِقْمةً علىٰ مَنْ أعرضَ عنه وعَصاه، وأنفذْنا أقضىٰ القُضاة قطبَ الملة والدِّين، والأتابكَ بهاءَ الدين، اللَّذَيْنِ هما من ثِقاتِ هذه الدولةِ الزاهرةِ ليُعرِّفُوهم طرِيقَتَنا، ويتحقَّق عِندَهم ماتَنْطوى عليه لعُمُوم المسلمين جميلُ نِيَّتنا ، وبيَّنَّا لهم أنَّا من الله تعالىٰ علىٰ بصيرة ، وأنَّ الإسلامَ

يحبُّ ماقبله ، وأنه تعالىٰ ألقىٰ فى قلوبنا أنْ نتّبع الحقّ وأهله ، ونُشاهد أنّ عظيم نعمة الله للكافّة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان ، أنْ لا يُحْرَمُوها بالنظر إلىٰ سائر الأحوال فكُلَّ يوم هُوَ فى شان ، فإنْ تطلّعتْ نفوسُهم إلىٰ دليلٍ تستحكمُ بسببه دواعى الاعتماد، وحُجّة يثقون بها من بُلُوغ المُراد، فلينظُروا إلىٰ ماظَهر من أمْرِنا مما اشتهر خبره ، وعمّ أثرُه ، فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدّين وإظهاره ، فى إيرادِ كلّ أمْرٍ وإصْداره ، تقديمًا لنَامُوس الشرع المحمّدىّ ، علىٰ مقتضىٰ قانُون العَدْل الأحمدىّ ، إجلالًا وتعظيمًا ؛ وأدخلْنا السرور ، علىٰ قلوب الجُمْهُور، وعفَوْنا عن كل من اجْترح سيئةً واقترف، وقابلْناه بالصَّفْح وقُلْنا عفَا الله عمّا سَلَفْ ؛ وتقدّمنا بإصلاح أمورِ أوقافِ المسلمين من المَساجد والمَشاهد والمَدارس ، وعِمارة بقاع الدّين والرُّبُط الدَّوارس ؛ وإيصالِ حاصلها بمُوجِبِ عوائدها القائمة إلىٰ مستحقّيها بشُروط واقفيها؛ ومنعْنا أن يُلتمس شيءٌ مما استُحْدث عليها؛ وأنْ لا يغيّر أحدٌ شيْئا مما قُرّر أوّلا ؛ وأمَرْنا بتعظيم أمرِ الحُجّاج وتجهيزِ وَفْدها، وتأمين سُبُلها ، وتسْيِيرِ قَوافلها؛ وإنّا أطلقْنا سبِيلَ التُّجار المتردّدينَ إلىٰ تلكَ البلادِ ليُسافِرُوا بحسَبِ اختيارهم علىٰ أحْسنِ قواعِدهم ؛ وحرّمْنا علىٰ العساكر والقَراغُولاتِ والشَّحانى فى الأطراف التّعرّضَ لهم فى مَصادرهم ومَوارِدِهم ، وقد كان قَراغُول صادفَ جاسُوسا فى زِىّ الفُقَراء كان سبِيلُه أنْ يُهْلَك ، فلم نُهرِقْ دَمَه : لحُرْمَة ماحرّمه الله تعالىٰ وأعدْناه اليهم . ولا يخفىٰ عنهم ماكان فى إنفاذ الجَواسيس من الضرر العامّ للمسلمين ، فإنّ عساكرَنا طالمَا رأوْهم فى زِىّ الفقراء والنُّسّاك وأهلِ الصّلاح، فساءتْ ظُنُونُهم فى تلك الطّوائف ، فقتلُوا منهم مَنْ قتلوا ، وفعَلُوا بهم مافعلُوا ، وارتفعتِ الحاجةُ بحمد الله إلىٰ ذلك بما صدر إذْنُنا به من فتْح الطريق وتردُّد التُّجار، فإذا أمعنُوا الفِكْرَ فى هذه الأُمُور وأمثالها لا يخفىٰ عنهم أنها أخلاقٌ جِبِلّيّة طبيعيّه، وعن شوائب

التّكلّف والتصنّع عَرِيّه . وإذا كانت الحال على ذلك فقد ٱرتفعتْ دواعِي المَضَرّة التى كانت مُوجِبَة للمخالفة ، فإنها إن كانتْ طريقًا للذّبّ والذود عن حَوْزة الإسلام ، فقد ظهر بفضل الله تعالى فى دَوْلتنا النّورُ المبين ، وإن كانتْ لما سَبَق من الأسباب ، فمَنْ يتحرّىٰ الآنَ طريقَ الصّواب ، فإنّ له عِنْـدنا لَزُلْفى وحُسْنَ مآب . وقد رفَعْنا الحجاب ، وأتَيْنا بفَصْل الخِطاب ، وعرّفناهم [طريقتنا و]ما عزمنا بنيّةٍ خالصةٍ لله تعالىٰ علىٰ ٱستِئْنافها ، وحَرَّمْنـا علىٰ جميع العساكر العملَ بخِلافِها ، لتُرْضِيَ الله والرسول ، ويلُوحَ علىٰ صَـفَحاتها آثارُ الإقبالِ والقَبُول ، وتَسْـتريحَ من ٱختلاف الكلمة هـذه الأمّة ، وتنجلِيَ بنُور الائتِلاف ، ظُلمةُ الاختلاف ، والغُمَّه ، ويَشْكُر سابغَ ظِلّهـا البَوادى والحَواضِر ، وتقَرّ القلوبُ التى بلَغتْ من الجهل الحَناجر . ويُعْفىٰ عن سالف الجرائر ، فإن وفّق الله سلطانَ مصر إلىٰ ما فيه صلاحُ العالَم ، وٱنتظامُ أمور بنى آدَمَ ، فقد وجب عليه التّمسكُ بالعُروة الوُثْقىٰ ، وسُلوكُ الطريقة المُثْلىٰ ، بفتح أبوابِ الطاعة والاتّحاد ، وبَذْل الإخلاص بحيثُ تَعمُر تلكَ الممالك وتيك البلاد ، وتَسْكُنُ الفتنةُ الثائره ، وتُغْمَدُ السّيوف البـاتِره ، وتَحُلّ العامّةُ أرضَ الهُوَيْنىٰ وروضَ الهُدُون ، وتخلُصُ رِقابُ المسلمين من أغلال الذُّلّ والهُون . وإن غلب سُوءُ الظن بما تفضَّل به واهبُ الرحمه ، ومنَع معرفةَ هـذه النعمه ، فقـد شكر اللهُ مساعِيَنا وأبلَى عُذْرنا ، ﴿وما كُنّا مُعذِّبِينَ حَتّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ والله تعالىٰ الموفّق للرّشاد والسّداد ، وهو المُهَيْمِن علىٰ البِلاد والعِباد ، إن شاء الله تعالىٰ .

✣

وهـذه نسخةُ كتابٍ علىٰ الطريقة الثانية ، كُتِب به عن السلطان « محمود غازان » صاحبِ إيران أيضا ، إلىٰ السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب الديار المصريّة وما معها من البلاد الشامية ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقُوّة الله تعالى

ومَيَامين المِلّة المحمّدية

فرمان السلطان محمود غازان

لِيَعْلمِ السلطانُ الملكُ الناصر، أنه فى العام الماضِى، بعضُ عساكرهم المُفْسِدة دخَلُوا أطرافَ بلادِنا، وأفسدُوا فيها لِعناد الله وعِنادِنا، كارِدِينَ ونَواحِيها، وجاهَرُوا اللهَ بالمعاصى فيمَنْ ظَفِروا به من أهليها، وأقْدَمُوا على أمورٍ بَديعه، وآرتكبوا آثامًا شَنِيعه، من مُحارَبةِ الله ونَخْرِق ناموس الشَّرِيعه، فأَنِفْنا من تهجُّمِهم، وغِرْنا من تقَحُّمِهم، وأخذَتْنا الحَمِيَّة الإسلامية فجَذَبَتْنا إلى دُخول بلادهم، ومقابلتِهم على فَسَادهم، فركِبْنا بمن كان لدَيْنا من العساكر، وتوجَّهْنا بمِن اتَّفق منهم أنه حاضر، وقبل وُقُوع الفِعل منا، وآشتهارِ الفَتْك عنا، سلكْنا سَنَن سيِّد المرسلين، وآقتفَيْنا آثارَ المتقدِّمين، وآقتدينا بقول الله ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ وأنفذْنا صُحْبَة يعقوبَ السكرجى جماعةً من القُضاة، والأئمة الثِّقات، وقلنا ﴿ هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى أَزِفَتِ الآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ ﴾ فقابلتم ذلك بالإصرار، وحكَمْتم عليكم وعلى المسلمين بالإضْرار، وخالفتُم سَنَن الملوك، فى حُسْن السُّلوك، وصبَرْنا على تمادِيكم فى غَيِّكم، وخُلودكم إلى بَغْيِكم، إلى أن نصَرنا الله، وأراكم فى أنْفُسِكم قضاه ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ ﴾ وظَنَّنا أنهم حيثُ تحقَّقُوا كُنْهَ الحال، وآل بهم الأمْرُ إلى ما آل، أنهم تداركُوا الفارِطَ من أمرِهم، ورتَقُوا مافتقُوا بغَدْرهم، ووجَّه إلينا وجْهُ عُذْرهم، فإنهم ربما سيَّروا إلينا حالَ دُخُولهم إلى الدِّيار المصريه، رُسُلا لإصلاح تلك القَضِيه، فبقِينا بدِمَشْقَ غير مشحنين، وتثبَّطْنا تَثَبُّطَ المتمكِّنين، فصدَّهم عن السعْى فى صَلاح حالهم التَّوانِى، وعلَّقُوا نُفوسَهم عن اليقين

بالأمانى، ثم بلغنا بعد عودنا إلىٰ بلادنا أنهم ألقوا فى قلوب العساكر والعوامّ، وراموا جبْرَ ما أوْهَنُوا من الإسلام، أنهم فيما بَعْـد يلقُوننا علىٰ حلَبَ والفُراه، وأنّ عزمَهم مُصرٌّ علىٰ ذلك لاسواه، فجمَعْنا العساكر وتوجهْنا لِلقاهم، ووصَلْنا الفُرات مرتقِبين ثُبوتَ دَعْواهم، وقلنا لعلَّ وعَسَاهم، فما لَمَع لهم بارِق، ولا ذَرّ شارِق، فتقدمْنا إلىٰ أطرافِ حلَب، وعجِبْنا من تَبَطّيهم غايةَ العَجَب، وفكّرنا فى أنه متىٰ تقدّمْنا بعساكرنا الباهِره، وجموعِنا العظيمةِ القاهِره، رُبَّما أخربَ البلادَ مرورُها، وبإقامتهم فيها فسدَتْ أمورُها، وعمّ الضررُ العِباد، والخرابُ البِلاد، فعُدْنا بُقْيا عليها، ونَظْرةَ لُطْف من الله إليها . وها نحنُ الآنَ مهتَمُّون بجمع العساكر المنصوره، ومُشْحِذُون[1] غِرارَ عزائمنا المشْهُوره، ومشتَغلُون بصُنْع المَجانِيق وآلاتِ الحِصار، وعازمُون بعد الإنذار ﴿ وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . وقد سيَّرنا حامِلَىْ هذا الكِتابِ الأميرَ الكبيرَ ناصرَ الدين على خواجا، والإمامَ العالم ملِكَ القُضاة جمال الدين موسىٰ ٱبن يوسف، وقد حَمَّلناهما كلاما شافهناهما به، فلْيَثِقوا بما تقدّمنا به إليهما فإنهما من الأعيان، المعتمد عليهما فى الديوان، كما قال الله تعالىٰ ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فلْتَعُدُّوا لنا الهدايَا والتُّحَف، فما بعد الإنذار من عاذِر، وإن لم تتداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالُهم مطْلولةٌ بتدبيرهم، ومطلوبةٌ عند الله فى طُول تقصيرهم .

فلْيُمْعِن السلطان لرعيّته النظرَ فى أمره . فقد قال صلّى الله عليه وسلم « مَنْ ولّاه اللهُ أمْرًا من أُمور هذه الأُمّة فاحتَجبَ دُونَ حاجتِهم وخَلَّتهم، آحتجبَ دُونَ حاجَته وخَلَّته وفَقْره» . وقد أعْذَر من أنْذَر، وأنصَفَ من حذَّر، والسلامُ علىٰ من

(١) شحذ السكين كمنع حدّها كأشحذها أنظر القاموس .

أَتَّبع الهدىٰ ـ فى العشر الأوسط[1] من شهر رمضان سـنة سبعمائة ـ بجبال الأكراد، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسـلامُ علىٰ سيدنا [محمد] المصطفىٰ وآله وصَحْبه وعِتْرته الطاهرين .

قلت : وقد تقدّم جواب هذين الكتابين فى الكلام علىٰ المكاتبات إلىٰ القاناتِ ببلاد الشَّرْق من بَنِى جَنْكِزخان فلْيُنْظَرْ هناك .

الطـــــــرف الثانى

(فى المطالعات الواردة إلىٰ الأبواب السلطانية عن أهل الشرق : من الملوك والحُكّام بالبلاد أتباعِ القانات ومَنْ فى معناهم)[2]

---

(١) تقدم له أنه لا يقال العشر الاوسـط بل العشر الوسطى أو الوسـط قال وبعض النحويين أجازه فـا فى الجواب على ذلك الرأى .

(٢) ترك فى الأصل باقى الصفحة بياضا ولم يكتب عن هذا الطرف شيئا .

الطـــرف الثـالث

(فى رسم المكاتبات الواردة عن صاحب اليَمَن إلىٰ هذه المملكة)

وعادةُ مكاتبته أن يحْـذُوَ حَذْوَ الديار المصرية ، فيما يُكْتَب إليـه عنها، فيبتدئ المكاتبةَ بلفظ : أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقام الشريف، العالى، المولوىّ، السلطانى، الفلانى بلقب السلطنة، ثم يقول أصدرها من مكان كذا، ويذكر المقْصَد، ويختم بالدعاء ونحوه، ويكتبون فى قَطْع الشامىّ الكامل بقلم الثلث .

وهذه نسخة كتاب عن الملك الأشْرَف « إسمـاعيل » صاحب اليمن ، إلىٰ الملك الظاهر « برقوق» صاحب الديار المصرية، فى شهور سنة ثمـانٍ وتسعين وسبعمائة، علىٰ يَد القاضى بُرْهان الدين المحـلِّى ، تاجر الخـاص ، والطواشى آفتخار الدين فاخر دَوادار الملك الأشرف صاحب اليمن المذكور، وهو :

أعزَّ الله تعـالىٰ أنصارَ المَقَامِ الشريف العالى السـلطانى الظاهرىّ ، وزاده فى البَسْطة والقُدْرة، وضاعف له موادَّ الآستظهار والنَّظر العزيز، وجعل الظَّفَر مقرونا براياته أيْنَما يمَّمتْ ما بينهـما تمْيِيز، ومحبوباً إلىٰ عساكره المنصورةِ حيثُ توجَّهت وفَتح ببركة أيَّامـه كلَّ مُقْفَل ممتنِع بأمرٍ وَجِيز، ولا زال ممتَثلَ الأوامرِ والمَرَاسِم ، رافلًا فى أرْدان العِزِّ والمَكَارم، ممْدُودًا علىٰ الأمة [منه] ظلُّ المراحم، بمنّه وكرمه .

أصدرها إليه من زُبْدة زَبِيـدَ المحروسةِ مُعْرِبةً عن صِدْق وَلَائه، متمسِّكةً بوَثِيق أسبابِ آلائه، ناشرةً طِيبَ ثَنَـائه، مترْجِمةً ناظمةً لمنثورِ الكتاب الكريم الظاهرىّ الواردِ علىٰ يد المجلس العـالى البُرْهانِىّ ، بتاريخ ذى الحِجَّة عظَّم الله بَركاتِهـا، سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، أحسنَ الله خاتِمتَها ، فتلقَّيناه باليدَيْن ، ووضَعْناه علىٰ الرأس والعين، وآستَدْلَلْنا به علىٰ شريف همَّته، وصفاء مَوَدَّته، وتأكيد أُخُوَّته، وسألْنا الله

تعالىٰ أن يمتّعنا ببقاء دولته القاهره، وينشر فى المشارق والمغارب أقلامه الزاهره، ففضضنا ختامه، فوجدنا فيه من نشر السلم الأريج أذكاه، ومن أنوار ما مجّه القلم الشريف مايخجل منه نوّار الربيع وبهاه، فانشرحت به الصدور، وتزايد به السرور، وقرّت به الأعين، وكثر التهجد به لمّا استعذبته الألسن، وامتثلنا المرسوم الشريف فى تعظيم المجلس العالى ذى الجلالتين، برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلّى، ومراعاته فى جميع أموره وسرعة تجهيزه، علىٰ أنا نجلّه ونبجّله، ونوجب حقّه ولا نجهله، فهو عندنا كما كان فى عهد الوالد المرحوم الملك الأفضل، بل أمكن وأفضل، فهو لدينا المكين الأمين، وجهّزنا له المتجر السعيد الظاهرى، وبرزت مراسيمنا إلىٰ النوّاب بثغر عدن المحروس أن لايعترض فى عشور ونول، وحملناه علىٰ ظهور مراكبنا عزيزا مكرّما، وعرّفناه أن لايصرف علىٰ الحمل السعيد ولا الدرهم الفرد، وذلك قليل منّا لأجل غلمان بابكم الشريف شرّفه الله تعالىٰ وعظّمه، وجهّزنا الهديّة السعيدة المباركة المتقبّلة، صحبته هو والأمير الأجلّ الكبير الافتخارى : افتخار الدين فاخر الدوادار، وصارت بأيديهما بأوراق مفصّلة، للمقام الشريف والأمراء الأجلّاء الكبراء، وصحبتهما نفر من المعلّمين البازدارية، برسم حمل الطيور للصيد السعيد، والمهتارية للصافنات الجياد. علىٰ أنّا لو أهدينا إلىٰ جلال المقام الشريف الظاهرى أعزّ الله أنصاره بمقدار همّته الشريفة العاليه، ورتبته المنيفة الساميه، لاستصغرت الأفلاك الدائره، والشهب السائره، واستقلّت السبعة الأقاليم تحفه، والأرض وما أقلّته طرفه، ولم نرض أن نبعث إليه الأنام مماليك وخولا، ونجبى إليه ثمرات كلّ شىء قبلا، ولو رام محبّ المقام هذه القضية، لقصر عنه حوله، ولم يصل إليه طوله، ولكنه يرجع إلىٰ المشهور، بين الجمهور، فوجدنا العمل يقوم مقام الاعتقاد (١)، وليس علىٰ المستمر

(١) لعله "الاعتقاد يقوم مقام العمل" أو "العمل يقوم مقامه الاعتقاد" تأمل.

علىٰ الطاعة سِوىٰ الاجتهـاد ، والمخلِص فى الولاء محمولٌ علىٰ قُدْرته لا علىٰ ما أراد ، فوثِق بهذه القضيَّة ، وأنفذ إلىٰ المقام الشريف علىٰ يَد مُوصِّلها هـذه الهديَّة ، راغبًا إلىٰ إنعامه فى بَسْط عُذْره ، وحَمْله علىٰ شُروط المحبَّـة طُولَ دهره ، وتصريفـه بيْنَ أوامره الممتثَلة ، ومَرَاسيمه المتقبَّلة . والمسئولُ الإتحاف بالمهمَّات والمراسيم الشريفة شرَّفها الله تعالىٰ وعظَّمها .

ونوضِّح لعلمه الكريم ما أفاء اللهُ به علينا من النَّصْر الذى خفقَتْ بُنُوده ، وأشرقَتْ سُعُوده ، وبَرَقَتْ سُيوفُه فى رقاب المارقين ، وآطَّردت فى راياته المآربُ فتناولهَا باليمين ﴿ نَصْرٌ من اللهِ وفَتْحٌ قَرِيبٌ وبَشِّرِ المُؤْمِنِين ﴾ وفَتْح القِلاع والمَصانع ، والآستيلاء علىٰ المَرابِع والمَزارِع ، وآستئصالِنا شأفَةَ المارقين ، وآسترْجاع حِصْن قاف المحروس بعد طُول مُكْثه تحتَ يَد العرب ، فكم من كَمِىٍّ مقتول ، وأسيرٍ مَكْبول ، وحَصَانٍ تُرِك سبيلُها ، ورُبَّ حَصَانٍ كثُرَ عليه عويلُها ، نخرَّبْنا المَعاقل ، وأطلَقْنا العقائل ، وأوْطَنَّاهم الحميم ﴿ وما جَعَلَه اللهُ إلَّا بُشْرىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكم بِهِ وما النَّصْر إلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ وغيرُ ذلك ما أرسَلْنا علىٰ يد المجلس البرهانى والأمير آفتخار الدين : فاخر الدَّوادار ، لقَضَاء بعضِ الحَوائج الطارئة من الديار المصرية « ألفٌ وأربعُمائة وسبعُون قِطعةً من أصناف البَهار ، وسبعُ قِطَع حرير » والمستَمَدُّ من إحسان المقام الشريف العالى ، بُرُوزُ أمره الأشرف العزيزِ النافذ المُطاع ، أنفذه الله تعالىٰ شَرْقا وغربا ، وأمضاه بُعْدًا وقُرْبا ، فى قضاء حوائجهما وسُرْعة تجهيزهما وقُفُولهما إلىٰ يُمْن اليَمَن ، وعِزٍّ تَعِزّ قريبا .

وبعـدُ ، فإنَّ الجـلالةَ والآحترام بهـما دوامُ المُوالاة ، وتوفير الحُرُمات ، بل هى أعظمُ الكَرامات ، والمسئول من المقـام الشريف الظاهرى أعز الله تعـالىٰ أنصاره ، وضاعفَ آقتداره ، بُرُوزُ أمره الأشرف إلىٰ النُّوَّاب بمصر المحروسـة ،

وثغر الإسكندرية، والشام، بالجلالة والاحترام، لكافة غلمــاننا الواردين إلى الديار المصرية، ومن انتسب إلينا من تاجر وغيره، مسافرا كان أو مقيما، وأن يعار فى مهمّاته، جلالة تفيأ ظلالها، ويشمله إقبالها، كما سبق للوالد المرحوم المقدّس الملك المجاهد، تغشاه الله برحمته، بل نرجو فوق ذلك مظهرا، إن شاء الله، فثمّ خطوط ناصرية من السلطان حسن والملك الصالح لخدّامنا القدماء، لمّا أرسلوا إلى الإسكندرية ودمشق، كتب لهم مربّعات ومثالات شريفة، ولا غرو أن يبدى المستعطى مافى ضميره إلى المعطى، والاشتهار بما بيننا وبين المقام الشريف من الأخوّة الممهّده، والمصافاة المؤكّده، والمودّات المحكمة، والأسباب الثابتة، أوجب ذلك؛ وحسن الظنّ الجميل نطق به لسانُ الحال، فى هذا الاسترسال؛ ولم يخف عن المقام الشريف أنّ لله عوارف يجذب بها القلوبَ إليه، ولطائف خفيّة يستدلّ بها المحبّ عليه؛ وتعاطى كأس الوداد، يدلّ على حسن الاعتقاد؛ ولذلك نطق اللّسان، وكتب البنان، بما افترض على عباده الرحمن؛ فقال فى محكم كتابه المبين ﴿ وللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إليْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِين ﴾ . ومحبّ المقام الشريف يقدّم الكتاب، ويسأل الجواب، بالإذن الشريف : ليعتمد بعد الله عليه فى حجّ البيت الحرام، عند تيسير الله تعالى لذلك، فقد حسّن ظنّه بذلك، وركن إليه لقضاء الفرض والتبرّك بالمشاعر العظام، فلا زالت أيّام المقام الشريف على منابر الدنيا تتلى، وآيات الشكر لله سبحانه على استقراره فى الملك العقيم تملى . جميع هذا الخطاب مقدّمة الإيجاب بالإذن بالحج، وتسفير المحمل فى كل عام، إلى بيت الله الحرام، لحاجّ اليمن تعذرت عليه الطّرقات، ولم يطق حمل النّفقات، ونرجو من الله تعالى أن يفتح ببركة أيامه الشريفة، وشمول الفكر الشريف، بحلّ عقدة هذه الأسباب، إنه هو الكريم الوهّاب، بمنّه وكرمه .

واما ما نعتقــده من أمانة المجلس البرهانىّ فإنهـا مَتِينه ، وشواهِـدُها من أقواله وأفعاله مُبِينه ، خصوصًا فى المقام الشريف ، وآستمـالَته للقلوب بالعبارات اللطيفة ؛ فقد نَظَم مَعاقِدَ الآئتلاف ، وتزايد بشَرْحِه الأُنْس فى محـاورته والآخْتِلاف ؛ ولولا المُهِمُّ الشريف لاستوْقَفْناه عندنا عامًا كاملا من بعد هذا التاريخ : يُمْلِى علينا آياتِ المقام الشريف ؛ شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه . وعلىٰ لسانه مايُبْدِيه فى المَوَاقف الشريفة شِفَاها إن شاء الله تعالىٰ .

فى سابع جمادىٰ الآخرة سنةَ ثمـانٍ وتسعين وسبعمائة ، أحسن الله تعالىٰ ختامَها ، والحمدُ لله أوّلا وآخرا ، وباطِنًا وظاهرا .

قلت : أما إمامُ الزيدية باليمن فلم أقِفْ له علىٰ مكاتَبــة ، وإن كان المقر الشهابىُّ آبن فضــل الله قد أشار فى كتابه "التعريف" إلىٰ أنه ورد عنه مكاتَبةٌ إلىٰ الأبواب السـلطانية الناصرية (محمد بن قلاوون) يستجيشُه علىٰ صاحب اليمن ، والغالبُ علىٰ الظنّ أنّ مكاتبتــه أعْرابية ، كما أن إمارته أعرابِيَّة : إذ لا آعْتِناء لأهـل البادية وعُرْبان الوادى بفَنّ الإنشاء جملةً ؛ وإنمـا يكتَبُ عنهم بحسَبِ مايقتضيه حالُهم ، علىٰ أن فيما يأتون به مَقْنَعا من الفصاحة والبَلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد عُلِم اللسان وعليهم فيه يُعَوّل .

الطـــــرف الرابع

(فى الكتب الواردة إلىٰ الأبواب السلطانية عن ملوك الهند)

قد تقدّم أن المكاتَبة إلىٰ صاحب الهند تُشْبِه المكاتبةَ إلىٰ القانات العِظَام بإيرانَ وتُورانَ . وتقدّم أن الكتُبَ الواردةَ عن القانات المذكورين تكون فى معنىٰ الكُتُب الصادرة إليهـم فى قَطْع الورق والترتيب ، من حيثُ إن الغالبَ جَرَيانُ العادة

فى الأجوبة بأن تكونَ علىٰ نَمَط الكُتُب الواردة ، وحينئذ فيكون مقتضىٰ ذلك أن الكُتُب الواردة من صاحب الهند فى هيئة الكُتب الصادرة إليه فى قطع الورق وغيره ، فتكون فى البَغْداديّ الكامل بقلم مختَصَر الطُّومار بالطُّغراء والخطبة المكتتبتين بالذهب ، إلىٰ ما يجرِى مَجْرَى ذلك مما تقدّم ذكره فى المكاتبات إلىٰ القانات .

قلت : ولم أقِف علىٰ صورة مكاتبةٍ من ذلك ولا علىٰ نسخةِ شيء ورد، لكن قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية عند ذكر مملكة الهند أن من جملة مَمالك الهند مملكةً تُعْرَف بالسَّيلان، وقد رأيتُ فى تذكرة (محمد بن مكَرَّم) التى جَمَعها فى وقائع ديوان الإنشاء بالديار المصرية، أنه فى سنة آثنتين وثمانين وستمائة، وصل كتابٌ من صاحب السَّيلان هذه فى صَفِيحة ذهب رقيقةٍ ، عَرْض ثلاثة أصابع ، فى طُول نِصْف ذراع ، وحوله مدوّرة (حلقة) داخلها شِبهٌ بالخُوص أخضَرُ، عليه كتابة تُشْبِه الخط الروميّ أو القِبْطىّ ، فطُلِب من يقرؤه فلم يُوجَد ؛ فسُئِل الرسُل عما هو مكتوب فيها . فقيل : إنه سَيَّر رسولَهُ رومانَ ورفيقَه، وقصَد أن يسيِّر معهما الهدِيَّةَ إلىٰ الباب الشريف، فقيل له : مالهم طريقٌ . فقال لهم : سافروا إلىٰ (هُرْمُز) فحضروا إليها، وذكروا أنّ مضمون الكتاب السلامُ، والدعاء للسلطان، وأنّ بلادَ السَّيلان مِصْرٌ، وبلادَ مِصْرَ السَّيلان، وأنه ترك صحبةَ صاحب اليمن مرّةً واحدةً، وتعلق بمحبة مولانا السلطان خلَّد الله ملكه ؛ وسأل أن يَحْضُر رسولٌ من عند مولانا السلطان إلىٰ عنده صحبَةَ رُسُله ، ورسولٌ آخَرُ إلىٰ عدَنَ ينتظر حضورَهم من تلك الجهة علىٰ تلك الطريق، وأن عنده الجواهِرَ واللآلِئَ والفيلة والقُماش الكثيرَ من البَزّ وغيره، وكذلك البَقَّم والقِرْفة وجميعَ ما يطلُب الكارِم، وأن عنده فى كل سنة عشرينَ مَرْكبا يسَيِّرها إليه ، فيُطْلق مولانا السلطان التُّجّارَ إلىٰ

البلاد ، وأن رسول صاحب اليمن حضر فى هـذه السنة يتسلم التَّقادِمَ والفِيلَةَ حتّى يسافروا إلى اليمن فردّه، ولم يُعْطِه شيئا، وأنه يُعبِّى التَّقادِمَ والفيلةَ إلى أبواب مولانا السلطان ، وأنَّ بمملكة سَيلان سبعًا وعشرين قلعةً ، وبها معادنُ الجَوْهر والياقوت ومَغَاصُ اللؤلؤ . ولم يزد على ذلك . ورأيت فى كتاب "الذيل" على تاريخ ابن الأثير نحو ذلك ، وفيه ذكر البلاد التى مرّت عليها رسلُ صاحب السَّيلان فى طُرُقها .

المقصـــد الثانى

(فى المكاتبات الواردةِ عن ملوك الغَرْب)

والعادةُ الجاريةُ فى الكتب الواردة عنهم أن تكونَ على نَمَط واحدٍ فى الورق، مع تقارُبِ الحال فى الترتيب، وتكونُ كُتُبهم فى طُومارٍ واحدٍ، فى عَرْض نحو شِبْرين، فى طُول نحو ثلاثةِ أشبار ، والبسملةُ بعد بياضٍ نحوِ شبر وثلاثةِ أصابعَ مطبوقة من أعلى الطُّومار، وعَرْض سبعة أصابع مطبوقة عن يمين البسملة ؛ والسُّطور منحطَّةُ الأوائل مرتفعةُ الأواخر حتّى يصيرَ البياضُ الذى فى أعلاها فى آخر سَطْرِ البسملة قدرَ شِبْرٍ فقط ، وبين كلِّ سطرَيْنِ قدرُ عَرْض إصبع ونِصْف إصبع ؛ وكلُّ سطر ينقص عن الذى فوقه قليلاً من جهة اليمين على التدريج ، حتّى يكون السطرُ الآخِر قطعةً لطيفة فى زاوية الطُّومار التى على اليسار من أسفلَ ؛ ثم يكتب بحاشية الطُّومار من أسفله آخذا من آخر السطر الأخير، ويكون بين ذلك وبين الكتابة الأصلية قدرُ رأس خِنْصَر، ويبتدئ السطرَ الأول منها بقِطْعةٍ لطيفةٍ منحطَّةِ الأولِ مرتفعةِ الآخِر ثم السطر الثانى قطعةٌ أطولُ من ذلك ، ولا يزال كذلك حتّى يكمل السطر فيكتُب أسطرا كاملةً ، إلا أنه فى أوّل كلِّ سطر ينقصه قليلاً عن الذى قبله حتّى يكونَ السطرُ

الأخير قدر الأنملة فى زاوية الطومار من جهة البسملة ؛ ويكون بين كتابة الأصل وبين كتابة الحاشية قدرُ إصبعين بياضًا إلى سَمْت البسملة ، أسطرًا متضايقةً حتى ينتهِىَ إلى آخر الكلام ؛ ويكتب فى آخره بقلم الثلث : وكتب فى التاريخ المؤرخ ، ويزاد فيه هاء مشقوقة راجعة إلى الخلف . وفيه جمل :

الجملة الأولى

(فى المكاتبة الواردة عن صاحب تُونُس)

وعادة مكاتبته أن تُفتتح بلفظ : «من عبدالله الفلانى» بلقب الخلافة الخاصّ به ، «أمير المؤمنين ابن فلان» . ويقال : فى كل من آبائه أمير المؤمنين إن كان قد وَلِىَ الخلافة ويُدْعَى له « إلى أخينا فلان » ويُؤْتَى بالسلام والتحية ، ثم يتخلص بالبَعْدية إلى المقصد ، ويختم الكتاب .

وهذه نسخةُ كتاب عن المتوكل على الله أحمدَ بنِ أبى عبدالله بن أبى بكر ، إلى السلطان الملكِ الظاهر (برقوق) صاحب مصر ، جوابًا عن كتابه إليه . وهو :

من عبدِ الله ، المتوكلِ على الله ، أميرِ المؤمنين « أحمدَ » ابنِ مولانا الأمير أبى عبد الله ، ابن مولانا أمير المؤمنين أبى يحيى أبى بَكْر ، ابن الأَمَراء الراشدين ؛ أعلى اللهُ به كلمة الإسلام ، وضاعفَ نَوافِلَ سيْفِه من عَبَدة الأصنام ، وغَضَّ عن جانب عِزِّه عُيونَ حوادث الأيّام .

إلى أخينا الذى لم نَزَلْ نُشاهِدُ من إخائِه الكريم ، فى ذات الرَّبِّ الرحيم ، قِبْلَةَ صفاءٍ لم تُغَيِّرها يَدُ بِعادٍ ولا انتزاح ، ونُثابِرُ من حِفْظ عهده ، والقيام بحقّ وُدِّه ، على ما يؤكِّد معرفةَ الخُلُوص من لَدُن تعارُفِ الأرْواح ؛ ونُبادِرُ لما يبعَثُ القلوبَ على الائتلاف ، والأَمْن بفضل الله من عوائق الاختِلاف ؛ وإن شَحَطت الدارُ وتناءَتِ

الصُّور والأشباح . ونَعْتَرِفُ بما له من مَزِيدِ الإعظام، بمجاورة البيتِ الحَرَام، والقِيامِ بما هُنَا لك من مَطَالِع الوَحْيِ الكريم ومَشَاعِرِ الصَّلاح، ونجتلِي من أنوائه الكريمة الشريفه، ومَطَالعه العالية المُنيفه، وجُوهَ البشائر رائقةَ الغُرَر والأوْضاح . ونَسْتَهْدِى ماتيسَّرنا من أنبائه، ممَّن يَرِدُ من تِلْقائه، حتّى من أنوار الصَّباح وسُفَراء الرِّياح، ونَبْتَهِل إلى الله بالدعاء أن يُخْبِرنا عنه، ويُطْلِعنا منه، على ما يُقِرُّ عيونَ الفَوْزِ ويشرَحُ صدُورَ النجاح ـ السلطانِ الجليلِ الطاهر، الملكِ الأعظم «الظاهر»، جمالِ الدين والدنيا، مؤيِّد كلمة الله العُلْيا، سيف المِلَّة المرهوبِ المَضَاء، بيد القضاء، ورُكْنِها الباسق العَلَاء، فى أَوْجِ عِزِّها المُنْداح للفضاء، المشهودِ له من لَدُنْ حلِّ التمائم، ولَوْث العمائم، بالشَّهَامة التى تُرْعِبُ الأُسْدَ فى أَجَمِها، وتستخْدِم له سائرَ الأمم : تُرْكها وعَرَبِها وعَجَمِها، المختارِ للقيام بحقّه بين عباده، فى أرضه وبِلاده، الفائزِ من جِوَار بيتِ الله ومَقام خليله، ومَشْرَعِ الحجيج إليه وتيسيرِ سَبِيله، بما أحرَزَ له سعادةَ الدارين، وعزَّ المقامين، كَوْكَبِ السعد الذى شقِيَتْ به أعداؤُه، وبدرِ الدين الذى استضاءَتْ به أنحاؤُه، ميزانِ العدلِ لإنصاف الحقوق، وشمسِ الهداية النيِّرة الغُروب والشُّروق، (أبي سعيد برقوق) وصل الله له رتبةً راقية يتبوّأ محلَّها، ونعمةً باقية يتفيأ ظلَّها، وعِزَّةً واقية تَسِم وجُوهَ أعدائه خَسْفَها وذُلَّها، بمنِّه وكرمه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد حمد الله ناظِمِ الشَّمل وقد رابَ نَثْرُه وشَتاتُه، وجابرِ الصَّدْع وقد آتسعتْ عن الجَبْرِ جهاتُه، ورادِّ الأمر وقد أعْيَا ذَهابُه وفَواتُه، وواصلِ الحبل وقد آستولَى انْقِطاعُه وانْبِتاتُه، العالِمِ الذى لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذَرّة مما تُكِنُّه أرضُه وسماواتُه، الذى قَرَنَ بالعُسْرِ يُسْرا، وجعل لكل شيء قَدْرا، فلا تتحرّكُ ذَرَّةٌ إلا بإذنه ولا يكون فى مُلْكه إلا ما تُنَفِّذه أحكامُه وإراداتُه .

والصلاةِ والسلامِ الأكملين ، على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى صدقت بالحق آياتُه ، وقامتْ بحُجَّة دَعْواه مُعجزاتُه ، ونطقَتْ بأنه رسولُ الله على لسان وحيه الصادقِ الأمينِ كلماتُه ، المبعوثِ بالملّة السَّمْحة ، ومن أزكاها حجُّ بيت الله المقدّسة أركانُه وحُجُراتُه ، المعظَّمة عند الله حُرُماتُه ، المَغْفُورة لمن سبَقتْ له الحسنى بحجه سيِّئاتُه ، وعلى آله وأصحابه الذين قضَوْا رضِىَ الله عنهم وهم أولياءُ دينه الكريم ووُلاتُه ، وأنصارُ حزبِه المُفْلِح وحُماتُه ، ولُيُوثُ دِفاعه فى صدور الأعداء وكُماتُه .

والرضا عن الإمام المهدى القائم بهذه الدعوة الموحِّديّة قِيامَ من خلَصتْ لله نيّاتُه ، وصدَقَتْ فى ذاته دَعَواتُه ، وصمّمت لإظهار دينه القويم عزَماتُه ؛ وصلةِ الدعاء لهذا المَقَام الأحمدىِّ المتوكِّلِ الفاروقىّ ، بنَصْرٍ تمضى به فى صُدُور أعدائه شَبَاتُه ، وعزٍّ يطَّرِدُ به استقلالُه وثَباتُه ، وسَعْدٍ تطيبُ به أيامُه المتصلةُ وأوقاتُه ، وتطول به حيَاتُه .

فإنّا كتبنا لسُلْطانكم ـ كتبَ الله لكم من إسعاده مايتكفّل بعزّه ونَصْره ، ويتضمّن إطالةَ زَمنه المبارَك وعَصْره ، ويقوم بحِفْظ قُطره الشريف ومِصْره ـ من حَضْرتنا العلية " تُونُس " كَلأَها اللهُ تعالى ، ووُجوهُ نصرِ الله العزيز لدينا وَضّاحةُ الأَسِرَّة متبلّجة الصُّور ، وآياتُ فتحه المبينِ ولله المِنّةُ مُحكَمة السُّور ، وأحاديثُ الشُّكْر على نعمه سبحانه مُسَلْسَلَةُ الخبَر ، وَبِشْرُنا بما مَنّ الله به عليكم قد عَمِل بمقتضاه مَنْ تحت إيالتنا[1] الكريمةِ من البَشَر . وإلى هذا فموجبه إليكم بعد تقريبِ حُبٍّ شُرعت فى ملّة الوفاء قواعدُه ، وقُبِل فى عَقْد الصَّفاء شاهدُه ، واستقلّ بصلة الخُلُوص عائدُه ، وثبتَ فى مَرْسوم الصَّداقة الصادقةِ زائدُه ، إعلامُكُم أنّا علِمَ الله من حينَ اتّصل بنا خبرُكُمُ الذى جرَّه القَدَر المقدُور ، وجرىٰ به فى أُمّ الكتاب الحكْمُ المَسْطُور ، لم نزل نتوجّه إلى

(١) مراده من تحت حكمنا وسياستنا .

الله تعالى فى مَظانّ قُبول الدّعاء، ورَفْع النّداء، بأن يُجبرَكم بفضله من حيثُ صَدَع، ويصِلَكُمْ بخيره إثْرَ ماقطَع، ويُعطِيَكم من نعمتـه أضعافَ مامنَع. إلى أن دارك الله بلُطفه وأجاب، وتأذّن بفضـله فى قبُول الدعاء بظَهر الغيبِ وهو مُستَجاب، فردّ عليكم مُلكَكُم، وصَرَف إليكم مِلكَكم، فأخذ القوسَ باريها، وفوّق السهمَ مُقَرطِسُها وراميها، وأنفذ القَضايَا حكَمُها ومُفْتيها، وإذا كان العويلُ يُفْضى إلى النَّجْده، والبلا يَقْضى بالجِدّه، والفرجُ يُدافع فى صَدْر الشّدّه، فلا جرمَ غفرَ اللهُ للأيّام ما اقترفتْ، لمّا أنابتْ واعترفتْ، وهل هو إلا التمحيصُ الإلٰهىُّ أراكم الله من باطن الضَّرّاء سرّاءكم، وأجزل من جانبِ الغمّاء[1] نَعْماءكم، والتِّبر بعد السَّبْك يَروق النواظرَ خُلاصةُ نُضاره، والبدرُ بعد السِّرار تتألّق أشِعّةُ أنواره.

ولما جاءنا بنَصْركم البَشير، وطلَع من ثنيّة الهَناء بأكمام السّرور إلينا يُشير، هزّزْنا له أعطافَ الارْتياح، وتلقّينا منه وارِدَ التّهانِى والأفْراح، وحمِدْنا الله لكم على مامَنّ به من الفَوْز والنّجاح، ورأينا أنّ تهنئتَكُمْ به من فُروضنـا المؤكّده، وعهودنا المجدّده، وأنه لايقومُ به عنّا هُنالكم، ويؤدّى مايجبُ منه بين يدَىْ كُرْسِىّ جلالِكم، إلا مَنْ له من ديار المُلُوك، قربُ الأدَبِ والسُّلُوك، فاقتضى نظرُنا الجيلُ أنْ عيّنا له شيخَ دولتنا المستَشار، وعَلَمها الذى فى مُهمّاتها إليه يُشار، فلان.

وقد كان منذُ أعوام يتطارحُ علينا فى أن نُخَلّىَ لحجّ سبيلَه، ونُبلِّغَه من ذلك مأمُولَه، ويدُ الضِّنّة لاتسمحُ به طَرْفةَ عين، ونفسُ الاغْتباط لا تُجيب فيه دَواعِىَ البَيْن، إلى أن تعيّن من تهنئتكم الكريمة ماعيّنَه، وسهّل شأنَه علينا وهوّنه، فوجّهناه والله تعالى يُسْعد وِجْهتَه، ويجعَلُ حَجّته لقَبُول الأعمـال حُجّته. وحمّلناه من أمانة الحُبّ مايُلْقِى إليكم، ومن حديث الشّوْق ما يقُصّ أخبارَه عليكم، ومن طَيّب الثّناء مايفُضّ خِتامه

(١) الغم والغماء والغمة الكرب والشدة. أنظر القاموس.

بين يديكم، وأصحبناه برسم إصطبلاتكم الشريفة مايسّر الحبّ سبيلها ، وأوضح الخلوص دليلها ، ورجونا من فضلكم على نزارتها قبولها ، إذ لو كانت الملوك تهادى على قدر جلالها ، لما اتّسعت لذلك خزائن أموالها ، لكنّها عنوان الحبّ السليم ، حسب ما اقتضاه الحديث النبوىّ الكريم .

وفى أثناء شروعنا فى ذلك، وسلوكنا منه أيمن المسالك، وصل إلينا كتابكم الكريم، تعرف النواظر فى وجوه بشائره نضرة النّعيم ؛ فاطّلعنا منه على ما راق العيون وصفا ونعتا، وعبّر للخلوص سبيلا لا ترى القلوب فيها عوجا ولا أمتا ؛ ولله هو من كتاب كتب من البيان كتائب ، واستأثر بفلك الإجادة فأحرز به سعادة الكاتب ، فقسما بالقلم وما سطّر! والحبر وما حبّر! لو رآه عبد الحميد لتركه غير حميد، أو بصر به لبيد لأعاده فى مقام بليد، ولو قصّ على قسّ إياد فصاحته لتزلّه عن منبر خطابته بعكاظ ، أو سحب على سحبان وائل ذيل بلاغته لأراه كيف يتولّد السحر الحلال بين المعانى الرائقة والألفاظ .

ولما استقرينا من فحواه ، وخطابه الكريم ونجواه، تشوّقكم لأخبار جهادنا ، وسروركم بما يسنّيه الله من ذلك ببلادنا ، رأينا أن نتحف أسماعكم منه بما قرّت به أعين الإسلام، وأثلج صدور اللّيالى والأيّام . وذلك أنّا من حين صدر من عدوّ الملّة فى الجزيرة ماصدر ، حسب ماجرّه محتوم القدر ، لم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حرمه وحماه، ونطرق طروق الغارة الشّعواء بلاده وقراه، ونكتسح بأيدى الاستلاب ماجمعت بها يداه ، إلى أن ذاقوا من ذلك وبال أمرهم ، وتعرّفوا عاقبة مكرهم .

وكان من جزائرهم المعترضة شجا فى حلوق الخطّار، ومتجشّمى الأخطار، وركّاب البحار : من الحجّاج والتجّار ، جزيرة "غودش" وبها من أعداء الله جمّ كثير، وجمع

كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غِربانا نعقت عليهم بالمَنُون ، وعرَّفت المسلمين بركة هـذا الطائر الميمون، وشحنّاها عددًا وعُددا، واستمددنا لهـا من الله ملائكة سمائه مـددا ، فسارت تحت أجنحة النَّجاح إليها ، وتحوم إلى أن رمت مخالب مراسيها عليها، فلمـا نزلوا بساحتها ، وكبَّروا تكبيرة الإسلام لإباحتها، بُهت الذى كفر، وودَّ الفرار والحَيْن يناديه أين المفر، فلمّـا قضىٰ السيف منهم أوطاره، وشفىٰ الدِّين من دمائهم أواره ، وشكر الله من المسلمين أنصاره، عمَدُوا إلىٰ ماتخطّاه السيفُ مِن والدٍ وولَد ، ومَن أخلَدَ إلىٰ الأرض مِن رجالهم عن المُدافعة فلم يعترِضه بالقتل منهم أحَد، فجمَعُوا منهم عَددا يُنيف بعدَ الأربعمائة علىٰ الأربعين، وجاءُوا بهم فى الأصفاد مقرَّنين ، وآمتلأت بغنائمهم والحمدُ لله أيدى المسلمين ، وآنقلبُوا فرحين بمـا آتاهُمُ اللهُ مستبشرين ، إلىٰ أن دخلُوا حضرتَنا العليَّة بسلامٍ آمنين .

فعرّفنا كم بهذا الفتح : لتأخُذُوا بحظّكم من شُكْر الله عليه، ولتتوجَّهوا فى مثلهِ بصالح أدعيتكم إليـه ، وهو سبحانَه وتعـالىٰ يُطْلعنا و يطلعكُم علىٰ مايسُرُّ النفوسَ ويهنِّيها ، ويجلو وُجوهَ البشائر ويُبْديها ، بمنّه وكرمه ، والسلامُ العَطِر المحيا الجميـلُ المُحيَّا عائدٌ عليكم ورحمةُ الله و بركاتُه .

الجمـــلة الثـانية

(فى المكاتبات الواردة عن صاحب "تِلمسانَ" من بَنِى عبد الواد)

ورسمُ مكاتبته فيما وقفتُ عليه فى المكاتبة الواردةِ علىٰ صاحب الديار المصرية أن يبتدأ الكتّابُ بقوله : إلىٰ الحضرة الفلانيةِ حضرة فلان ـ بالألقاب المعظَّمة المفخَّمة ثم يُدْعىٰ له بمـا يناسب الحال، و يؤتىٰ بخُطبةٍ، ثم بالسلام، ويقَع الخطاب فى أثناء الكتّاب بالإخاء بلفظ الجمع ، ويُختَم بالدعاء المناسب .

كما كتب عبدُ الرحمن بنُ أبى موسى بن يَغْمَراسن ، إلى السلطان الملك الناصر (محمد بن قلاوون) فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة :

إلى الحضرةِ العاليةِ السامِيَة ، السنِيَّة ، الماجدةِ ، المُحْسِنَة ، الفاضلةِ ، المؤيَّدة ، المظفَّرة ، المنصورةِ ، المالكةِ ، حضرةِ السلطان ، الملكِ ، الجليلِ ، الفاضلِ ، المؤيَّد ، المنصور ، المظفَّر ، المعظَّم ، ناصرِ الإسلام ، ومُذِلِّ عَبَدة الأصنام؛ الذى أيَّده الله بالبراهينِ القاطعه ، والأنوارِ المُنيرةِ الساطعه ، الأعلَى ، الأوْحد ، الأكمل ، الأرْفع ، الأمْجد ، الأسمَى ، الأسْرَى ، ذِى المجدِ الظاهر ، والشَّرف الباهر ، الملكِ الناصر ، ابن السلطان ، الملكِ ، الجليلِ ، العادل ، الفاضلِ ، المؤيَّد ، المظفَّر ، الأعلَى ، الأوْحد ، الأكمل ، الأرْفع ، الأمْجد ، الأسنَى ، الأسْمَى ، ناصر الإسلام والمسلمين ، ومُعْلِى كلمة الموحِّدين ، المقدَّس ، المرحوم ، ذى المجدِ المشهور ، والفَخْرِ المَنْشُور ، والذكرِ المَذْخُور ، الملك المنصور ؛ أدام الله علُوَّ قدره فى الدُّنْيا والآخِره ، وأسبغ عليه نعَمَه باطنةً وظاهِره ، وجعل وُجوهَ مَحاسِنِهم فى صَفَحات الدهر سارَّةً سافِره ، وصَفْقةَ أعدائهم خائبةً خاسِره .

وبعدَ حمدِ الله الذى أظهر الأمْرَ العلِيَّ الناصرِيَّ وأيَّده ، وبَسَط فى قولِ الحق وفعلِه لسانَه ويَدَه ، وسدَّدَ نحوَ الصَّواب مَنْحاه كُلَّه ومَقْصِدَه ، والصلاةِ التامّة المباركة على سيدِنا محمدٍ رسولِه المصطفَى ، الذى خصَّه اللهُ بعُمُوم الدَّعْوة وأفرده ، وقَرَن ذِكْرَه بذِكْرِه فأبقاهُ أبدَ الدَّهْرِ وخَلَّده . والرِّضا عن آلِه الكِرام ، وصَحَابته الأعلام ، الذين حَفِظُوا بالتوقيرِ والتعزيرِ مَغِيبَه ومَشْهَده ؛ وكانُوا عند آستِلالِ السُّيُوف ، ومَجالِ الحُتُوف ، عَدَده المظفَّر وعُدَده . والدعاءِ لذلكم المقامِ الشريفِ بسعْدٍ يُطِيل فى شرف الدين والدنيا مُدَده وأمَده .

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، من أخيكم، البَرِّ بكم، الحريص على تَصافيكم، عبـد الرحمن بن أبى موسى بن يغمراسـن . وإنا كتبناه إليكم كتبَ اللهُ لكم أنجحَ المقاصد وأرجَحها، وأثبتَها عِزًّا وأوضَحها، من حصن "تلمسان" حَرسها الله تعالى، ولا ناشئَ بفضل الله تعالى إلا ما عَوّد من بشائرَ تُحثُّ جيادُها، ومَسارَّ يتطاولُ إلى المَزيد آعتيادُها ـ وإلى هـذا أعلى اللهُ كلمتكم، وأمتع المسلمين بطول بقائكم، فإنا نعرِّفكم بوصول كتابكم الخطيرِ الأثير، فتلقيناه بما يجب من التكريم والتعظيم، وتَتبَّعنا فُصولَه، وآسـتوعَبنا فُروعَه وأُصُوله، وتحقّقنا مقتضاه ومحْصُولَه، وعلمنا ما آنْطوى عليه من المِنَن والإفضال، وآشتمل عليه من التفصيل والإجمال، ومِن أعظمِ ذلك إذْنُكم لنا فى أداء فرض الحجِّ المبرور وزيارةِ سـيد البَشَر، الشفيع فى المَحْشَر، الذى وجبتْ له نبوّته، ومُثْنى الغيبِ عليه مُنْسدِل، وآدمُ صلواتُ الله عليه فى طِينته مُنْجدِل؛ وعلم اللهُ أننا لم تزلْ آمالُنا متعلقةً بتِلْكم المَشاعِر الكريمه، وقلوبُنا مَشوقةً إلى تِلْكم المشاهـد العظيمه؛ فلنا فى ذلك نِيَّات صادقةُ التَّحْويم، وعَزَماتٌ داعيةُ التصْميم، وكانَ بودِّنا لو ساعدَنا المِقْدار، وجرى الأمر على ما نُحبُّه من ذلك ونَختار، أن نُمتِّع برؤية المواطن التى تُقِرّ أبصارا، ونَتشفّى بها إيرادًا وإصـدارا، ولعلَّ اللهَ تعالى ينفعُنا بخالص نِيّاتنا، وصادق طَوِيَّاتنا، بمنه وكرمه .

وقد وجبَ شُكرُكم علينا من كلّ الجهات، وآتّصلت المحبةُ والمودّةُ طُولَ الحياة، غير أنَّ فى قلوبنا شيئًا من مَيْلكم إلى غيرنا وآستئناسكم، ونحنُ والحمدُ لله أعلمُ النـاس بمـا يجب من حقوقِ ذلكُم المقامِ الشريف، ولنا القُدْرة على القيام بواجبكم، والوفاءِ بكريم حقكم، وليس بينَنا وبين بلادكم مَنْ يُخْشى والحمدُ لله من كيده، ولا يُبالَى بهزْلِه ولا جِدّه؛ وقد توجّه إلى بابكم الشريف قرابَتُنا الشـيخُ الصالحُ الحسيبُ الأَوْرعُ الأكمل الزاهدُ أبو زكريّا يحيى ابنُ الشيخ الصالح المرابط المقدَّس المرحومِ أبى عبدالله

محمد، بن جرار الوادى، وهو من أهل الدِّين والخير، وقد شافَهْناه بما يُلْقيه إلىٰ ذلكم المقام الشريف من تقرير الوُدّ والإخاء، والمحبَّة والصَّفاء، مما يَعْجِز عنه الكتاب؛ فالمقام الشريف يَثِق إلىٰ قوله ويعامله بما يليق ببَيْته ودِينه. وغرضُنا أنْ تعرِّفوه بجميع مايصلُح لذلكم المقام الشريف مما فى بلادنا، ويصلُكم إن شاء اللهُ فى أقرب الأوقات، علىٰ أحْسَن الحالات، ولكم بذلك علينا المِنَّةُ العُظْمىٰ، والمزيَّة القُصْوىٰ، والله تعالىٰ يُبْقِى ذلكم المقام الشريف محروسَ المَذاهب، مشكورَ المَناقب؛ إن شاء الله تعالىٰ.

الجملة الثالثة

(فى المكاتبات الواردة عن صاحب "فاس" إلى الأبواب السلطانية، بالديار المصرية)

وعادة كتبهم أن تفتتح بلفظ «من عبد الله فلان أمير المسلمين». وأوَّلُ مَنْ كتب منهم أمير المسلمين «يوسفُ بن تاشفين» حينَ آستولىٰ علىٰ المغرب، قبل بَنى مَرِين، خضوعًا أن يتلقَّب بأمير المؤمنين مُضاهاةً للخلفاء. وهو:

من عبدِ الله علىٍّ أمير المسلمين، وناصر الدِّين، المجاهِد فى سبيل ربِّ العالمين، مَلِك البَرَّيْن، ومالك العُدْوتيْن، أبى سعيد،(١) آبن مولانا أمير المسلمين، المجاهِد فى سبيل ربِّ العالمين، ملكِ البرَّين، وسلطان العُدْوتين، أبى سعيد آبن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ملك البرَّين، وسلطان العُدْوتين، القائم لله بإعلاء

(١) كذا فى الأصل الوحيد وصوابه "أبى الحسن" كما يؤخذ مما تقدم فى الكلام علىٰ ملوك فاس من أن عليا هذا يكنىٰ أبا الحسن وأنه آبن السلطان أبى سعيد عثمان آبن السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق فلعل مافى الاصل من أعمال النساخ فتنبه.

دين الحقّ، أبي يوسفَ يعقوبَ بنِ عبد الحق، منح اللهُ التأييدَ مَقامه، وفسّح لفتح مَعاقِل الكفر وكَسْر جَحافل الصُّفْر أيّامَه .

إلى السلطانِ، الجليلِ، الكبيرِ، الشهيرِ، العادلِ، القاضلِ، الكاملِ، الحافلِ، الملكِ، الناصرِ، المجاهدِ، المُرابِطِ، المُثاغِرِ، المؤيَّدِ، المظفَّرِ، المنصورِ، الأسْعَدِ، الأصْعَدِ، الأرقَى، الأوْقَى، ناصرِ الدنيا والدين، وقامعِ البُغاةِ والمعتدِين، مُفيدِ الأوطار، مُبِيدِ الكُفّار، هازمِ جيوش الأرمن والفَرَنْج والكُرْج والتَّتار، مالِئِ صدُورِ البرارىّ والبِحار، حامى القِبْلتين، خَديم الحرمين، غيثِ العُفاه، عونِ العُناه، مُصَرِّف الكتائب، مُشرِّف المواكب، ناصرِ الإسلام، ناشرِ الأعلام، فَخْرِ الأنام، ذُخْرِ الأيّام، قائدِ الجُنُود، عاقدِ البُنُود، حافظِ الثُّغور، حامى الجُمْهور، نِظامِ المَصالح، بقيّةِ السَّلف الصالح، ظهيرِ الخلافة وعَضُدِها، ولىِّ الإمامة وسنَدِها، عاضدِ كلمةِ الموحّدين، ولىّ أمير المؤمنين، أبي المَعالى (محمد) آبن السلطان، الكبيرِ، الجليلِ، الشهيرِ، الشهيدِ، الخطيرِ، العادلِ، الفاضلِ، الكاملِ، الحافظ، الحافل، المؤيَّدِ، المظفَّرِ، المعظَّم المبجَّل، المكبَّر، الموقَّر، المعزَّز، المجاهِد، المرابِط، المثاغِر، الأوحد، سيفِ الدين (قلاوون) أدام اللهُ فضلَ عزمه الماضى بتأييده، وأدار الأفلاكَ بتشْييدِ مُلْكه الشامخِ وتمهيده، وطَهَّر أرجاءه من أرْجاس المنافقين، وأدْناس المارِقين، بما يُرِيق عليها من دِمائهم، فما كلُّ متطهِّرٍ يُجْزِئُ عنه غَسْلُ مائه أو تيمُّمُ صعيده .

سلامٌ كريم، طيِّب عميم، أَرِج الشَّميم، متضوِّع النَّسيم، تستمِدُّ الشمسُ باهرَ سَناه، ويستعيرُ المسكُ عاطِرَ شَذاه، يَخُصّ إخاءَ كم العَلِيّ، ووفاءَ كم الوَفِيّ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الله الذى أيّدَ المؤمنين، على عَدُوّهم فأصْبَحوا ظاهِرين، وعرَّف الإسلامَ وأهلَه من السِّرّ العجيب، والصُّنْع الغريب، مافيه عِبْرةٌ للسامعين والنّاظِرين،

حكمةٌ عجزتْ عن فَهْم سِرِّها المكتوم ، وقَصُرتْ عن كُنْهها المختُوم ، ألبابُ عبيده القاصرين . والصَّلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى أرشد به الحائدين الحائرين ، وأرسله بالهُدى ودين الحق ليُظْهِره على الدِّين كلّه برَغْم الجاحدين الكافرين ، وعلى آلهِ وصَحْبه الذين هاجَرُوا إليه وبِلادَهُم هَجَروا ، والذين آووْا من أوى إليهم ونَصَرُوا ، والذين جاهَدُوا فى الله فصَبَرُوا ، ففازُوا بذِكر المهاجِرين والأنصار وأجر المجاهِدين الصابِرين ، وصِلةِ الدعاء لحزْب الإسلام فى مَشارق الأرض ومَغاربها بفضلٍ لا يزالُون معه لأعدائهم قاهرين ، وسعدٍ لا ينفكّون له بآمالهم ظافِرين ، ونصرٍ من عند الله وما النَّصْر إلَّا من عند الله وهو خَيْرُ الناصرين .

فإنا كتَبْنا لكم ـ كتب اللهُ لكم مجدًا مَديدَ الظِّلال ، وعَضُدًا حَديدَ الإلال(١) ، وسعْدًا جَديدَ السِّربال ـ من منصورة "تِلِمْسان" حرسها اللهُ تعالى ، والصنائعُ الربَّانيّة تكَيِّف العجائب ، وتُعرِّف العَوارِفَ الرغائب ، وتَشَنّفُ الأسماعَ بما تُسْمِعُها من إجزال المُنُوح والمَواهب ، وتُفَوِّفُ الرِّقاعَ بما تُودِعُها من أحاديث الفُتُوح الغرائب ، والحمدُ لله على مايسَّر من المآرب ، وسهَّل من المَواهب . وإخاؤُكم الصادقُ مَبْرورُ الجوانب ، مأثور المَناقب ، مُشْرِقُ الكَواكب ، مُغْدِقُ السَّحائب ، نامى المَراتب ، سامى المَراقب ، واللهُ تعالى يُبْقيه فى ذاته ، ويقِيه من صَرْف الدهر وأذاته . وإلى هذا وصل الله لكم سعْدًا جديدا ، وجدًّا سعيدا ، ومَجْدًا حميدا ، وحَمْدا مجيدا ، فقد وصل كتابكم الأثير ، المُزْرى بالمسك النَّثير ، فاجتَلَيْنا منه روْضةً جادَهَا البيانُ فأمْرعها ، ورادها البَنانُ فوشَّعها ، واجتنَيْنا من غُصون سُطوره ثمرات وِدادٍ ما أينعها ، إنباءً عما تلقّاه الإخاءُ الكريم من قِبَل الشيخ الأجلّ ، أبى عبدالله محمد بن الجَرّاح مما عنّا تحمّل ، وفى إلقائه

(١) جمع ألّة بمعنى الحربة .

وأدائه بحضْرتكم الكريمة أحسنَ وأجمـل ، وهو ما كان عليـه عزمُ مَوْلاتِنا الوالدة ألحقها الله تعالىٰ رضْوانَه ، وبوّأها جنانه : من حَجّ البيت المحرَّم ، وزيارة [القبر] المعظّم المكرَّم ، والصلاةِ بالمسجد الحَرام ومسْجِد النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، وثالثِها فى شَدّ الرحال المسجِد الأقصىٰ ونِعْم المغْتنَم ، وقضاءِ النُّسُك بتلك المَناسك والمَشاهد ، والتبرُّك بتلك المعالم المُنِيفة والمَعاهِد ، وما وَصَف مع ذلك بهذا الجانب الغَرْبِى ، ورَصَف من أمْر قتالنا لكلِّ مارِقٍ أبِيّ وكافر حَرْبِيّ ، وما منحنا الله من نَدْبِر قـلوب أهـل الإيمـان مُبْهِج ، ولصُدور عَبَدة الصُّلْبان مُحْرِج ، وأن الإخاءَ الكريمَ حصل له بذلك أبْهىٰ ٱبتهاج ، وحلَّ منه مَحَلَّ القَبُول الذى ٱنتهج له من ٱقتفىٰ سبيلَ القصـد أنهىٰ ٱنتهاج ، فعقَد العزْم علىٰ تلقِّى الوافد من تِلْقائنا ، والوارد رجاءَ أداء فرْضِ الحجِّ من أرجائنا ، بتسهيل سَبِيله ، وتيسيرِ ٱرتحاله إلىٰ بيتِ الله ورسوله ، وأنه متىٰ وقع الشُّعور بمَقْدَم المولاة رحمها الله تعالىٰ علىٰ بِلاده ، وقُرْبِها من جهاته المَجُودةِ من جَوْد جُوده بعِهاده ، يقدّم للخروج مَنْ يتلقَّ رِكابَها ، ويعتَمِدُ بالبِرّ والتكريم جنابَها ، حتّى تحمَد وِجْهَتَها الشريفةَ بجميل نظرِه وإيابَها ، وقام عنّا بما نَوَدُّه من بِرِّها ، وساهَمَ فيما تُقدِّمه إلىٰ الله عزّ وجلّ من صالحِ أجْرِها . وقد قابلْنا هذا الفضلَ من الشُّكر بأجْزلِه ، ومن البِرِّ بأحْفاه وأحفلِه ، وحصل لدَيْنا بإزائه سليمُ وُدِّه وكريمُ إخائه ، من تخليص وَلائه ، وتمحيص صَفَائه ، ممّا لايزال عهدُه الأنيق فى نمائه ، وعقْدُه الوثيقُ فى ٱزديادِه ونَمـائه ، وغُصْنه الوريقُ فى رَوْنَق غُلَوائه ؛ ولئن كانتِ المولاةُ الوالدةُ قدّس الله رُوحَها ، وبَرّد ضريحَها ، قد وافتْ بمـا قدّمت عندَ الله من صالح العمل ، وماتَتْ علىٰ ما أبْرَمَتْه فى قصْد البيت الشريف من نيّة وأمَل ، اذ كانتْ رحمةُ الله تعالىٰ عليها قد تأهّبت لذٰلك ، واعتدّتْ لسُلُوك تلك المَسالك ، وأداءِ ما فرض اللهُ من السِّعاية والمَناسك ، وعلىٰ الله إجزالُ ثوابِها ، وعنده نحتَسب ما ألَمَّ فألَمَ من مُصَابها ــ فإنَّ لدينا ممّن يَمُتُّ بحُرْمة المَحْرَم إلينا ،

ويلزم بحقّ التربية علينا، من يقومُ عندنا مقامَها، ويرومُ من ذلك المقصد الشريف مَرَامها، وسنُوردها إن شاء الله تعالىٰ علىٰ تلكم البقاع، ونُوردها من تلكم الأقطار والأصقاع، ما يَجْمُل بحُسْن نظرِكم موردُه ومصدرُه، ويطّابق فى جميل اعتنائكم وحَفيل احتفالكم خَبَره ومَخْبَره، بفضل الله وعونه.

وأما تشوّق ذلكم الإخاء، لمواصلة الكتب بسارّ الأنباء، فإنّ من أقربها عهدًا، وأعذبها حديثًا يُهادىٰ ويُهدىٰ، ما كان من أمر العاقّ قاتل أبيه، الحالّ من إقليم تلمسانَ وممالكها بالمحلّ النّبيه، وذلك أنّ أسلافه بنى زيّان، كانوا قد استولَوْا علىٰ هذه المملكة فى سالف الزّمان، ولم يزل بينهم وبين أسلافى المحتوين علىٰ مُلك المغرب الأقصىٰ وقائعُ تُوردهم الحِمَام، وتذيقهم الموتَ الزُّؤام، فيدعُون المنازَعه، ويعُودُون للموادعه، ثم لم يلبثوا، أن ينكثوا، ولم يصبِروا، أن يغدروا، إلىٰ أن كان من حصار عمِّنا المقدّس المرحومِ أبى يعقوبَ قدس الله تُربتَه إيّاهم، فأكثر موتَهم وكدّر مَحْياهم، وتمادىٰ بهم الحصارُ تسعَ سنين، وما كانُوا غيرَ شِرْذِمةٍ قليلين، وهُنالكم اتّصلتْ بيننا المُراسَله، وحصلت الصّداقةُ والمُواصَله، ثم حُمَّ موتُه، وتَمّ فوتُه، رحمة الله تؤمُّه، ورضوانه يشمَلُه ويعُمُّه، فنُفّس خناقُهم، وعاد إلىٰ الإبدار مَحاقُهم، وصرفَ القائمُ بعده عنهم الحيْن، عما كان هو رحمه الله قد طوّعه من بلاد مغراوة وتجين، فاتّسعتْ عليهم المسالك، وملَكُوا مالم يكن فيه لأوائلهم طَمَعٌ من الممالك، لكنّ هذا الخائن وعمّه كانا ممن أسأرته الفِتَن، وعم به فيها غوامرُ المِحَن، فسلكا مسْلكَ أسلافهما فى إذاعة المُهادنه، والرَّوغان عن الإعلان بالمُفاتنه.

ولما سوّل الشيطانُ لهذا العاقّ قتلَ والده، والاستيلاءَ علىٰ طارفه وتالده، لم يقدّم عملًا علىٰ إشخاص[1] إرساله بحضرة مولانا المقدّس أبى سعيد، قدّس الله

(١) مراده أنه بدأ أول كل شىء بإشخاص الخ.

مَثواه ، وجعل الجنةَ مأواه ، فى السِّلْم راغبا ، وللحُكْم بموادعته طالبا ، فاقتضى النظر المَصْلحيُّ حينئذ موافقتَه فى غرضه ، وإن كان باطنُه على مَرَضه ، فقوِىَ أمرُه ، وضَرِىَ ضُرُّه ، وشَرِىَ شرُّه ، ووَقَد تحتَ الرَّماد جَمْرُه ، وسرى إلى بلادِ جيرانه الموحِّدين داؤُه ، وطال عليهم تضييقُه واعتداؤه ، واستشعر ضَعْفَهم عن مدافعته ، ووَهْنَهم عن مقاومته ومنازعته ، فبغى وطغى ، ولم يَدْرِ أنَّ مِنْ فوقه سَقْبَ السماء رَغَا ، وباطَنَ جماعةً من عَرب أفرِيقيَّة المفْسِدين وجَرُّوه بحبل الأطماع إليها ، وأقام على بِجاية عشرين سنة يشدّ على بجاية الحصار (١) ، ويَشُنُّ على أحوازتونُس الغار ، حتّى كان من هزيمة جيشه لصاحبها ما كان ، بممالأة منهم ومن غيرهم من وراتيه (؟) كابن اللّحيانى ، وابن الشهيد ، وابن عمران . فأدّى ذلك صاحبَها السلطانَ أبا يحيى أعزّه الله تعالى أنْ بعثَ إلينا وزيرَه فى طلَب النُّصرة رسولا ، وأوفد علينا أعزَّ ولدِه أبا زكرِيّا فى إذهاب المضرَّة عنه دَخيلا ، فخاطبْنا إذ ذاك هذا الخائن العاقَّ مبصِّرين ، وبقوله تعالى ﴿ وإنْ طائفتَان من المُؤمنِينَ اقتتلُوا فأَصْلِحُوا بَيْنَهما ﴾ مذكِّرين ، فما زادتْه الموعظةُ إلّا أشَرا ، ولا أفادته التذكِرةُ إلّا بطَرا ، وحين ذُكِّر فلم تنفعْه الذِّكرى ، وفُكِّر فلم يتيسَّرْ لليُسرى ، امتثلنا فيه أمرَ الله تعالى المرتبَ على قوله ﴿ فإن بَغَتْ إحداهُما على الأُخرى ﴾ فأزمعْنا قَدْعه ، وأجمَعْنا رَدّه ورَدْعه . وفى أثناءِ ذلكم وصل إلينا أيضا سلطانُ الأندلس مستغيثًا على النصارى أعداءِ الله جيرانِه على طاغيتهم ، المُصرّ على عداوته وعداوتهم ، فجهّزنا معه وَلَدَنا عبدَ الواحد فى أربعةِ آلافٍ من الأبطال ، وأمددْناهم بما كفاهم من الطعام والعُدّة والمال ، فأجاز من سَبْتة إلى الخضراء عَجِلا ، ولم يُقدّم على منازلة جبَل الفتح عملا ، وكان هذا الجبل الخطيرُ شأنُه منذ استولى عليه العدوُّ قصمه الله فى سنة تسع وستين شَجًا فى لَهَوات أهل العُدْوتين ، وغُصّةً لنفوس الساكنين بالجهتين ،

(١) المقام للاضمار .

لإطْلالِه عليهما، وإرسالِه جوارحَ جَوارِيه إليهما، تَخْطَف مَنْ رام العُبور بحر الزُّقاق، وما يقرب الملجأ إلىٰ هذا المعْقِل المستقِرّ من اللَّحاق، فكَمْ أرمَلَ وأيْتَم، وأثْكل وأيَّم — فأحاطَتْ به العادياتُ السوابحُ بَرًّا وبَحْرا، وأذاقتْ مَنْ به مِنْ أهماج الأعْلاج شَرًّا وحَصْرا، إلىٰ أنْ أسلَمُوه للمسلمين قَهْرا وقَسْرا، ومنحَ اللهُ حِزْبَه المؤمنين فتْحا ونَصْرا، وسمِع الطاغيةُ الغادر إجابةَ اللهِ تعالى بأمْره، فطار بما قَدَر عليه من حُشُوده وجُنُوده إلىٰ إغاثَتِه ونَصْره، فوصَله بعدَ ثمانيةِ أيام، من تسليمه للإسلام، فنزل بخَيْله ورَجْله إزاءَه، وأقسم بمعْبُوده لايَبْرح فِناءَه، حتّى يُعيد إليه دينَه، أو يلْقىٰ مَنُونَه دُونَه، فأكْذَبَ اللهُ زَعْمه، وأوْهن عَزْمه، وأحنث يَمِينَه، وأقلع بعد شَهْرين وأيام مُدْبِرا، وأسرع العَوْدَ إلىٰ مستقرّه وآسالُه كيْفَ نَجا، وكان ذلك سبَبَ إنابتِه للسِّلم وآنْقياده، وإجابتِه لتَرْك ما كان له علىٰ أصحاب "غَرْناطَةَ" من مُعْتاده، وكانوا يُعْطُونه ما يُنيفُ علىٰ الأربعين ألفًا من الذهب فى العام، ضريبةً ألزمهم الطاغيةُ أداءَها فى عَقْد مصالحتِه أىَّ إلزام، فسُمْناه تركَها وإسقاطَها، وألزمْناه فيما عقَدْناه له من السِّلْم أن يَدَع آشْتِراطَها، والحمدُ لله الذى أعزَّ بنا دِينَ الإسلام، وأذلَّ رقابَ عَبَدةِ الأصنام، وقد آعتَنَينا بتحصينِ حِصْن هذا الجبل تتميمًا لها وتكميلا، وآبتدأنا من تحصين أسْواره وأبراجه بما يَغْدُو علىٰ جبينِه تاجًا وإكليلا. وكنّا فى هذه المدّةِ التى جرَتْ بها هذه الأحوال، وعرَتْ فيها هذه الأهواءُ والأهْوال، منازلِينَ أخانَا الممتنعَ "بسِجِلْماسة" من بعضِ بلاد القِبْلة، ومحاولين من إزاحة ضُرِّه، والإراحة من شَرِّه، مافيه الصلاحُ والفلاحُ علىٰ التفصيل والجمله، لعِثايتِه فى الفساد، ودِعايَته إلىٰ العِناد، ومعاضَدته صاحبَ "تلِمْسان"، ومساعَدتِه علىٰ البغْى والعُدْوان، فسهّل اللهُ آفتتاحَها، وعجَّل من صنائعه الجميلةِ منها مُباحَها، وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهرٍ ونِصْف، ويَسَّر اللهُ تعالىٰ فى ذلك من بدائع الصنائع ما يقْصُر عنه كلُّ نعت ووَصْف.

وفى خلال تلكم المنازله، وحال تلكم المحاوله، لاحتْ لخائن التلمسانى فرصه، جُرّع منها غُصّه، إذ ظنّ أنا عنه مشغولون، وفى أمرِ ما عرض من سجلماسة وجبل الفتح معتملون، نخرج من بلده على حين غفلة بالعزيمة والجدّ، إلى حصن ماور برت(١) الذى هو بين بلاده و بلادنا كالحدّ، فوجد هنالك ولدنا الأسعد تاشفين، فى ثُلّة من بنى مرين، آساد العرين، فلما نذروا به ثاروا إليه مسرعين، فنكص على عقبه، ولم ير له جُنّة أوقى من هربه، وعاد لذلك ثانيه، فلم تكن عساكرنا عن طرده وانيه، بل ردّته فى الحافره، وأنشدته بلسان حالها الساخره :

إنْ عادتِ العقربُ عُدْنا لها * وكانَت النعلُ لها حاضره

ولما فرغنا والحمد لله من تلكم الشواغل، وأرغنا من الخائن التلمسانى ترك ماهو فيه من إثارة الفتن واغل، فأعرض وأشاح، وما لاحت عليه مخيلة فلاح، نهدنا نحو أرضه، لنجزيه بقرضه، بجيوش يضيق عنها فسيح كلّ مدى، وخيول تذر الأكم لحوافر سُجّدا، تنقضّ على الأقران أمثالَ الأجادل، وتقُضّ الجنادلَ من حوافرها بأصلبَ من الجنادل، فكفْنا بتسلّم منازله منزلا فمنزلا، وتسنّم معاقله معقلا فمعقلا، وجُلّ رعاياه تقرّ بفضلنا، وتفرّ من جوره إلى عدلنا، ومن تمسّك منهم بحبله، أو سلك من الغىّ فى سُبْله، قاده السيفُ برغمه، واستنزله على حكمه، والعفوُ مع ذلك يؤمّهم، والإحسانُ يشملهم ويعمّهم، حتّى لم يبق إلّا معقلُه الأشب، ومنزلُه الذى رأى أنه عن عين الشوائب محتجب، قد شمخ أنفا حميّاً، وصافح كفّا للثريّا، ولم يرض لهامته عمائم إلّا الغمائم، ولا لأنامل شرفاته خواتم، الا النجومَ العواتم، فنزلنا بساحه، وأقبلنا على كفاحه، وجعلنا نقذفهم من حجارة المجانيق، بأمثال النيق، ومن كيزان النفط الموقده، بأمثال الشهب المرصده، ومن السهام العقّاره، بأمثال العقارب

(١) كذا فى الأصل باهمال الحروف ولعله مصحف عن بنزرت تأمل

الجَرّاره ، حتى غدت جُدْرانُهم مهْـدُومَه ، وجُسُومهم مَكْلُومه ، وثُغور شُرُفاتهم فى أفواه أبراجهم مَهْتُومه ، وظلّت الفَعَلة تُشَيّد إزاءَ أبْراجهم أبْراجا ، وتُمَهّد منهـا لتسوير أسوارهم أدْراجا ، وللمَعاول فى أسافلها إعْوال ، وللعَواسل على أعاليها أعْمال ، وللأشْقياء مع ذلك شدّةٌ وجَلَد ، وعُدَّة وعَدَد ، وحِدَّة ولَدَد ، يقاتلُون حميَّة ، ويناِزلُون بنفوسٍ أبيّه ، وحِجارةُ المَجانيق تَشْدَخُ هامَهُم ، وبَناتُ الكَنائن تُزَلْزِلُ أقدامهم ، وهم فى مثل ذلك لازمُونَ إقْدامهم ، إلى أن آشـتدّت أزْمَتُهم فلم يَجِدُوا لهـا من فارِج ، وأحاطتْ بهم الأوجالُ من خارج ، وهُدِمتْ أبراجُهم الشَّواهق ، ورُدِمت حفائرُهم والخنادِق ، وأخذت الكُماةُ ، فى العُروج ، إلى البُروج ، والحُماةُ ، فى السِّباق ، إلى الأنْفاق ، والرماة ، فى النِّضال ، بالنِّصال ، فمن مُرْتَقٍ سُلَّما ، غيرمُتَّقٍ مؤلما ، ومشتَغِل بالنَّقْب ، غير محتفِلٍ بشآبُور الحجارة المنصَبّ ، وأُفْرِج المَضِيق ، وآنْتُهِج الطَّرِيق ، وآقتحمتْه أطلابُ الأبطال ، وولّتْه أقيال القبائل وولّى الأشـقياء الأدْبار ، وعاذُوا بالفِرار ، وبدَتْ عليهم علاماتُ الإدْبار ، وسابَقُوا إلى الأبواب ، فكان مَجِيئُهم من أقوى الأسـباب ، وقَتَل منهم الزِّحام ، من أساره الهَدْم والحُسام ، فتملّكْنا مادارتْ عليه الأسوار الخارجة : كفرار السبع والملعب ، وجميع الجِنان والعُروش التى ما آنفكّ الشقىُّ يجتهد فى عِمارتها ويَتْعَب ، وأعلَنّا بالنِّداء أن كلَّ من جاءنا هارِبا ، ووصلَ إلينا تائبا ، منحْناه العَفْو ، ومحَوْنا عنه الهَفْو ، وأوردْناه من إحساننا الصَّفْو ، فتبادَرُوا عند ذلك يتساقَطُون من الأسوار ، تَساقُطَ جَنِيّات الثمار ، فُرادىٰ ومَثْنىٰ ، آتين إلى الحُسْنىٰ ، فيسَعُهم الصَّفْح ، ويُحْسِبُهم المَنُّ والمِنَح .

ولمـا رأىٰ الخائن قلّةَ من بَقِىَ معه ، وشاهد تفرّق مَنْ ذلك الموقفُ جمَعَه ، أمر بسَراح مَنْ فى قبضته وسِجْنه ، وآعتقدَهم عَوْنًا له فكانوا أعونَ شىءٍ على وَهْيِه ووَهْنه ، وآعتمد النـاسُ فى بقيّة يومهم السُّورَ نتوسّع أنقابَه ، ونخرّق أبوابَه ، إلى أنْ جنّهم

الليل، وحاقَ منهم بالأعداءِ الوَيْل، ولزِمَ كلٌّ مَرْكزَه، ولم يكُنِ الليلُ ليَحْجُبه من عمَله ولايَحْجُزَه، وباتَ الفُرّار إلينا يَهْرُبُون، ومن كل نَفَق يتَسرَّبُون، فلما ارتفَع الضِّياء، ومَتَع الضَّحاء، أمرنا ولدَينا: يعقوبَ وعبدَ الواحد، ووزِيرَنا القاعدَله بالمَرَاصد، بأنْ زحَفُوا إليها، مع أطلائِنا تحتَ راياتِنا المنصُورة عليها، فرجفَتْ قلوبُهم، ووجبَتْ جنُوبُهم، ولم يكنْ إلا كَلا حتّى امتُطِيَتْ تلك الصَّهْوه، وتُسنمت فيها الذّروه، وتُسُلِّمت بيد العَنْوه، وفُصِمتْ عُرَاها عُروةً عُرْوه، وأُنْزِلُوا من صَيَاصِيهم، وتمكّنتْ يدُ القهر من نَوَاصيهم، وحقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب من مَعَاصِيهم، وفرّ الشقيُّ إلىٰ فِناء داره، فى نَفَر من ذَوِيه وأنصاره، وفيهم ولدَاه مسعودٌ وعُثْمان، ووزيرُه موسىٰ ابنُ علىّ معينُه علىٰ البغي والعِصيان، وعبدُ الحق بن عثمانَ الخائنُ الغادر، وابنُ أخيه العاملُ بعمله ثابتُ بنُ عامر، فتكنّفَهم هنالك أولياءُ دولتنا العليه، فأوردُوهم ويوسفَ ولدَ الشقيّ السالبِ حِياضَ المنيَّه، ونُبِذتْ بالعَراء أجسامُهم، وتقدّمْنا لِحينِ، بأن يُمدّ علىٰ الرعيّة ظلُّ التأمين، ويُوطَّأ لهم كنَفُ التهدِئة والتسكين، ويُوطَّد لهم مِهادُ العافيه، وتُكفّ عنهم الأكُفُّ العاديه، حتّى لاتمتدَّ إليهم كفُّ منتهِب، ولايلتفِتَ نحوَهم طَرْفُ مستلِب، ومَنِ انتهبَ شيئًا أُمِرَ بردّه، وصُدَّ عن قَصْده — وكَمُل لنا والحمدُ لله بالاستيلاء علىٰ هذا القُطْر جميعُ البلاد، الداخلة فى وِلاية بني عبد الواد، ونُسِختْ منها دولتُهم، ومُحِيَتْ من صَحيفتِها دَعْوتُهم، وعُوِّض الرَّعايا من خَوْفهم أمْنًا، ومن شُؤْمهم يُمْنا، وشَمِلتهم كلمتُنا الراقية، المنصورةُ بكلمة الله الباقية، وفى ذلك معتبَرٌ لأهل اليقين، والأرضُ لله يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقين.

والحمدُ لله علىٰ هذه النعمة التى أفاضَتْ علىٰ النِّعم جِلالا، والصَّنيعة التى بهَرت الصنائعَ جَمالا، وأَضفَتْ علىٰ المسلمين من الصَّلاح والعافية سِرْبالا. وقد رأينا من حقِّ هذا الإنعام الجَسيم، والصُّنع الرائِق الوسيم، أن نتبِع العفوَ بعد المقْدُره،

بالإحسان لمن أسلف لنا غمطه أو شكره ، [فمننا](١) على قبائل بنى عبد الواد ، وأضفينا عليهم صنوف الملابس نساء ورجالا ، وأوسعنا لهم فى العطاء مجالا ، وأفعمنا لهم من الحباء سجالا ، وأقطعنا لهم من بلاد المغرب حاطها الله تعالى ماهو خير من بلادهم ، وحبوناهم منها بما كفل بإخصاب مرادهم ، وإخصاب مرادهم ، وخلطناهم بقبائل بنى مرين ، وحطناهم باتحاد الكلمة من تقول المتقولين ، وتزوير المزورين ، وأعددنا منهم لأوان الجهاد أوفر عدد ، وأعتدنا من فرسانهم ورجالهم لطعان الأعادى أكبر مدد ، وأزيل عن الرعايا بهذه البلاد الشرقية إصرهم ، وأزيح عنهم بتوخى العدل فيهم جورهم ووزرهم ، وخففنا عنهم ماآد من المغارم ، وهاد من المكارم ، فانشرحت صدورهم ، وصلحت أمورهم .

والحمد لله الذى ثل محال الباغين ومجالهم ، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأخذهم بما احتقبوا من المآثم ، واكتسبوا من الجرائم واستحلوا من المحارم ، وأباحوا من المسكرات ، وأذاعوا من المنكرات ، وطالما أصبح ربعهم معدن الفسوق ، وموطن العقوق ، ومقطن إضاعة الحقوق ، لاسيما فى أيام المسرور بهناته ، المغرور بما سول له الشيطان وأملى له من ترهاته ، المشهور بقتل أبيه ، المأثور من مثالبه ومعايبه بما لم يأت الدهر له بشبيه ، ولقد طبقت الآفاق معاصيه ، وبلغت أخبار خيانته من بأطراف المعمور وأقاصيه ، ولكن الله تعالى أملى له ليكثر مآثمه ، حتى إذا شاء أخذه أخذ القرى وهى ظالمه .

والحمد لله الذى طهر بأيدينا هذه الأرجاء من أرجاسه ، ورحض عنها بأيدينا أوضار أدناسه وأنجاسه ، وأتاح لأهلها بهلاك هذا المريد المراد ، وأراح منه ومن شيعته

(١) بياض فى الأصل هذه الكلمة وقد اقتبسناها من المقام .

البـلادَ والعباد ، ولو لم يكُنْ[1] إلا مانال الحُجّاجَ من تعنّيــه وتعدّيه ، وطالَ عليهم من تعرُّضــه لهم وتَصدّيه ، حتّى حجز عن الحجاز الشريف قُصّادَه ، وحجر بقطع السبيل عن بيتِ الله الحرام مَنْ أراده ، فكم سلَب الحُجّاج ، وسَدَّ عليهم المسالكَ والفِجاج ، وفرّق فريقَهــم ، وعوّق طريقَهم . والآنَ بحمــد الله حقّت الحقائِق ، وارتفعتِ العوائق ، وصَحّ العَليل ، ووضح السبيل ، وتَسهّل المَرام ، وتيسّر القصــدُ إلى البيتِ الحَرام ، مكانٌ تَرِدُه الزُّوّار عليكم أرسالا ، ووفودُ الأبرارِ للسِّلْمِ خِفافًا وثِقالا ، يأتُونَ من كلِّ فَجٍّ عميق ، ويقْضُون ما يقضون من مناسكهم ، آمِنِين فى مسالكهم ، إلى البيت العَتيق ، وهكذا أيضــا خَلَا وجْهُنا لجهاد الرُّوم ، ولإعدادِ مَن يغزونهم فى عُقْر دارِهِم للقصْدالمَرُوم ، وأن نجدّد من هذا العمل بجزيرة الأندلُس حماها اللهُ تعالىٰ ما لِسلَفِنا بها سَلَف ، ونبدّد من شمل عُبّاد الصليب ما خِلْفهم بفضْل الله تعالىٰ خيرُ خَلَف ، فعمَلُ الجهاد ، بهذه البِلاد ، هو الفضيلةُ التى لنا اللهُ سبحانه ذَخرها ، والحسنةُ التى فى صحائف أعمالنا سَطَرها ، وبجيوشِنا المنصورة عزّ دينُ الإسلام بهذا المغرب الغريب ، وبسُيوفِنا المشكورةِ والله المشكور ذَلّ بها الصَّلِيب ، أوْزعَنا اللهُ تعالىٰ شُكْرَ آلائه ، وأمتَعنا بتواتُرِ نَعْمائه ، بمَنّه وفضله .

وأنهينا لعِلْمِكم الكريم هذه الأنباءَ السارّه ، والآلاءَ الدّارّه : لمــا ذكرْتم من تَشوُّفكم لاستِطْلاعها ، وسطّرتم من تشوّقكم لِاستماعها ، ولعِلْمنا أنكم تُسَرُّون بقَطْع دابر الباغين ، وتستَبْشِرُون بحَسْم أدْواءِ الطاغين ، وتُؤثِرُون الإخبارَ بائتِلاف الكلمة علىٰ أعداء الله الكافرين إيثارَ الحـامدين لِفعْل الله تعالىٰ فى إظهار دينِــه الشاكِرين . لازِلْتم تُشْرَعُ نَحوَكم البِشائر ، وتُفرَع بذِكْرِكم المنابر ، وتُرفَع لاجتلاء آثار أمركم الستائر ،

(١) لم يذكر فى الكلام جوابَ لو ، ولكنه معلوم أى تكفى تأمل .

واستجلاء أخبار سيركم الباهرة النواظر، وتجمع لسجاياكم السنية العلاء، ومزاياكم العلية السناء، ثواقب المناقب وقول خير المفاخر، إن شاء الله . والسلام الأتم، الأضوع الأنم، يخص إخاءكم الأوفى، ورحمة الله وبركاته .

قلت : جواب هذا الكتاب [تقدم] فى الكلام على المكاتبات عن الأبواب السلطانية فى المكاتبات إلى الملوك .

وهذه نسخة كتاب ورد من أبى الحسن المرينى صحبة الهدايا ، والحرة الحاجة فى شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، ونصه بعد البسملة :

من عبد الله على أمير المسلمين ، ناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، مالك العدوتين ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، وسلطان العدوتين ، أبى سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، وسلطان العدوتين ، أبى سعيد (١) ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، وسلطان العدوتين ، أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفسح لفتح معاقل الكفر وكسر جحافل الصفر أيامه .

إلى السلطان الجليل ، الكبير ، الشهير ، العادل ، الفاضل ، الكامل ، الكافل ، الملك ، الناصر ، المجاهد ، المرابط ، المؤيد ، المنصور ، الأسعد ، الأصعد ، الأرقى ، الأوقى ، الأمجد ، الأنجد ، الأفخم ، الأضخم ، الأوحد ، الأوفى ، ناصر الدين ، عاضد كلمة المسلمين ، محيى العدل فى العالمين ، فاتح الأمصار ، حائز ملك الأقطار ، مفيد

(١) تقدم فى ص ٨٧ من هذا الجزء التنبيه على سلسلة نسب أبى الحسن فتنبه .

الأَوْطار ، مُبيد الكُفّار ، هازِم جُيوش الأَرْمَن والفَرَنج والكُرْج والتَّتار ، خادِم الحرمين ، غَيْث العُفاه ، غَوْث العُناه ، مُصَرِّف الكتائب ، مُشَرِّف المواكب ، ناصر الإسْلام ، ناشِر الأعْلام ، فَخْر الأنام ، ذُخْر الأيّام ، قائد الجُنود ، عاقد البُنُود ، حافظ الثُّغُور ، حائط الجُمْهور ، حامِي كلمة الموحّدين ، أبى المعالى ، محمد بن السلطان ، الجليل ، الكبير ، الشهير ، الشهيد ، الخطير ، العادل ، الفاضل ، الكافل ، الكامل ، الحافظ ، الحافل ، المؤيَّد ، المكرَّم ، المبجَّل ، المكبَّر ، الموقَّر ، المعزَّر ، المعزَّز ، المجاهد ، المرابط ، المُثاغر ، الأوحد ، الأسعد ، الأصْعد ، الأوفى ، الأنْجم ، الأضْخم ، المقدس ، المرحوم ، الملك المنصور ، سيف الدنيا والدّين ، قَسِيم أمير المؤمنين . أبقى الله مُلْكه موصولَ الصَّوْلة والاقتدار ، محمِيّ الحَوْزة حامياً للدّيار ، حميدَ المآثر المأثُورة والآثار ، عزيزَ الأولياء فى كلّ مَوْطن والأنصار .

سلامٌ كريم ، زاكٍ عَمِيم ، تُشْرِقُ إشراقَ النهار صَفَحاتُه ، وتَعْبَقُ عن شَذا الرَوض المِعْطار نَفَحاتُه ، يَخُصّ إخاكم العَلِيّ ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى وَسِع العبادَ مَنّاً جَسِيما ، وفَضْلا جَزِيلا ، وألهمهم الرَّشادَ بأنْ أبدى لهم من آثار قدرته ، على مِقْدار وَحْدته ، بُرهاناً واضحاً ودليلا ، وألزمَ أمّة الإسلام ، حَجّ بيته الحرام ، من استطاعَ إليه سبيلا ، وجعل تعظيمَ شعائره من تقوى القلوب ، ومثاباتِ محطّ الأوزار والذُّنوب ، فما أجزلَ نعمتَه مَنِيلا ، وأجملَ رحمةَ ربّه مَقِيلا ، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا ومولانا محمدٍ المصطفى من أفضل العرب فَصِيلةً ، فى أكمل بِقاع الأرض فضيلة ، وأكرمها جملةً وتَفْصيلا ، المجتبى لختم الرساله ، وحَسْم أدواء الضَّلاله ، فأحسَبَ الله به النبوّةَ تتميما والرسالةَ تكميلا ، المخصُوص بالحوض المَوْرُود ، والمَقام المحمود ، يومَ يقولُ الظالمُ ﴿ يا وَيْلَتى لَيتَنى لَمْ أتّخذْ فُلاناً خليلا ﴾ المبوّأ

من دار هِجْرته، ومقرّ نُصْرته، محَلاّ مابين بيته ومِنْبره فيه روضةٌ من رياض الجنّة لم يزَلْ بها نَزِيلا، والرضا عن آله الأبْرار، وأصحابِه الأخْيار، الّذين فضّلتهم سابقةُ السعادة تفضيلا، وأهّلتهم العنايةُ [بأمر الدّين إلى أن يُوسِعُوا الأحكامَ بُرْهانا ودليلا، فإنا نحيط علم] (١) الإخاءِ الأعزِّ ماكان من عَزْم مولاتنا الوالدةِ قدّس الله رُوحَها، ونوّر ضَرِيحَها، على أداء فريضة الحجّ الواجِبه، وتوفِيَة مَناسكه اللازِبَه؛ فاعترض الحِمام، دُونَ ذلك المَرام، وعاقَ القَدَر، عن بلوغ ذلك الوطَر، فطُوِى كتابُها، وعُجِّل إلى مَقرّ الرحمة بفضل الله مآبُها، وعلى الله أجرُها، وعنده يُحتَسَبُ ذُخْرها، وإنّ لدينا مَنْ نُوجب إعظامَها، ونُقيمها بحكم البِرّ مَقامَها، وعزْمُها إلى ما أمّلته مصروف، وأملُها إلى ما كانت أمّته موقُوف؛ وهى محلُّ والدتنا المُكرَّمة، المبرورةُ، الأثيرةُ، الموقَّرة، المبجَّلة، المفضَّلة، المعزَّزة، المعزَّرة، المعظَّمة، المطهَّرة؛ أسنى اللهُ مكانَتَها، وسَنَّى من هذا القصد الشريفِ لُبانَتَها؛ وقد شيّعناها إلى حجّ بيت الله الحرام، والمُثُولِ بحولِ الله تعالى مابينَ زمْزَمَ والمَقام؛ والفوزِ من السلام، على ضَرِيح الرساله، ومَثابة الجَلاَله، بِنَيْل السُّول والمَرَام: لتظفَرَ بأملها المرْغُوب، وتنْفرَ بعد أداء فَرْضها لأكرم الوُجُوب.

وحينَ شَخَصَ لذلكم الغرضِ الكريم، مَوْكِبُها، وخلَص إلى قَصْد الحَرَم العظيم، مَذْهَبُها؛ والكرامةُ تُلْحِفها، والسلامةُ إن شاء الله تكْنُفُها؛ أصحَبْناها من حُور دولتنا وأحْظِيائها، ووجُوه دعوتنا العليَّة وأوليائها؛ مَن اخترناه لهذه الوِجْهة الحميدة الأثر، والرِّحْلة السعيدة الوِرْد إن شاء الله تعالى والصَّدَر؛ من أعيانِ بنى مَرِين أعزّهم الله تعالى والعربِ، وأولادِ المشايخ أُولى الديانة والتقوى المائلين دِلاءَ القُرَب، إلى

(١) فى الأصل وأهلتهم العناية الاخاء اخ ولايخفى ما فيه . ولعله سقط من قلم الناسخ شىء فزدنا مابين التربيعين لا على أنه هو الساقط بل ليرتبط الكلام نوع ارتباط تأمل .

عقـد الكَرْب ، وكلّ من له أثرة مشهوره ، وشُهرةٌ بالمزايا الراجحة والسَّجايا الصالحة مأثوره ، وقصدُهم من أداء فرض الحجّ قصْـدُها ، ووِرْدُهم إن شاء اللهُ تعـالىٰ من مَنْهل بركاته الجمّة وِرْدُها ، وهكذا سيّرنا من تُحَف هذه البلاد إليكم ماتيسّر فى الوقت تسييرُه ، وإن تعذّر فى كثيرٍ ممـا قصدناه ولهذا الغرض أردناه تيْسِيرُه ، لطُول المَغيب عن الحضره ، والشُّغل بتمهيد البلادِ التى فتحها اللهُ علينا فى هـذه السَّفْره ، وعيَّنّا لإيرادها لديْكم ، و إيفادِها عليكم ، أبا إسحاقَ آبنَ الشيخ أبى زكريّا يحيىٰ بنِ عثمانَ السُّوَيْدى ، وأميرَ الركب الحسنَ بن عِمْران وغيْرَهم ، كتب الله سـلامتَهم ، ويمَّن ظعنَهم و إقامتَهم . ومَقامُ ذلك الإخاءِ الكريم يُسَنّى لهم من اليُسْرىٰ والتسهيل القصدَ والسُّول ، و يأمُر نُوَّاب مالَهُ من الممالك ، وقُوَّامَ مابها من المَسَالك ، لتكْمُلَ العناية بهم فى المَمَرّ والقُفُول . ومعظَمُ قَصْدِنا من هذه الوِجْهة المباركة إيصالُ المُصْحَف العزيز الذى خطَطْناه بيَدِنا ، وجعلناه ذخيرةَ يومِنا لغَدِنا ، إلىٰ مسجد سيدنا ومولانا ، وعصمةِ دِيننا ودُنْيانا ، محمدٍ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم بطَيْبةَ زادها اللهُ تشريفا ، وأبقىٰ علىٰ الأيام فخْرَها مُنيفا ، رغبـةً فى الثواب ، وحِرْصا علىٰ الفَوْز بحظٍّ من أجر التـلاوة فيه يومَ المآب .

وقد عيَّنّا بيَدِ محلّ الوالدة المذكورة فيــه ، كرّم الله جَنْبَتها ، ويمّن وِجْهتها ، من المـال ما يُشْـترىٰ به فى تِلْكم البلادِ المَحُوطةِ من المستَغَلّات ما يكون وقْفا علىٰ القرأة فيه ، مؤبّدا عليهم وعلىٰ غيرهم من المـالكيّة فوائدُه ومجَابيـه . والإخاء الكريم يتلقّىٰ من الرُّسُل المذكورين ما إليهم فى هذه الأغراض ألقيناه [ويأمر] باحضارهم لأدائهم بالمشافهة ما لديْهم أوعَيْناه ، ويُوعِز بإعانتهم علىٰ هذا الغَرَض المطلوب ، ويُيسِّر لهم أسبابَ التوصل إلىٰ الأمَل والمرغوب ، وشأنُه العونُ علىٰ الأعمال الصالحه ، ولا سيما

ما كان من أمثال هذا إلى مثل هذه السُّبُل الواضحه، وشكرُ إدراككم موطَّد الأساس، مطَّرِد القياس، متجدِّدٌ مع اللحظات والأنفاس؛ والله يَصِل للإخاء العليّ نُصْرةَ أيامه، ويوالى نُصْرة أعلامه، ويُبقى الثغورَ القصيَّه، والسُّبُل السَّريَّه، منوطةً بنَقْضه وإبرامه، محُوطةً بمعاضدةِ أسيافِه وأقلامِه، والسلامُ الكريمُ العميم، يخصّ إخاءكم الأعزّ، ورحمةُ الله وبركاته - وكتب فى يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين من ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة.

❖

وهذه نسخةُ كتابٍ عن السلطان عثمانَ بن أبى العباس المَرِينيّ، فى العشر الأوسط[(١)] من شعبانَ سنةَ أربع وثمانمائة، وهو:

من عبدالله ووليِّه: عثمانَ أميرِ المسلمين، المجاهدِ فى سبيل ربِّ العالمين، سلطانِ الإسلام والمسلمين، ناشرِ بِساط العدل فى العالَمين، المقتدى بآثارِ آبائه الكِرام، المقتَفِى سُنَنَهم الحميدةَ فى نُصرة الإسلام، المُعْمِل نفسَه العزيزةَ فى التهمّم بما قلّده اللهُ من أمور عِباده، وحِياطة ثُغوره وبِلاده، سيفِ الله المسْلُول على أعدائه، المنتشرِ عَدْلُه على أقطار المعمُور وأنحائه، ظلِّ الله تعالى فى أرضه، القائم بسُنَّته وفَرْضه، عمادِ الدنيا والدِّين، علم الأئمة المهتَدين، آبنِ مولانا السلطانِ المظفَّر القان الخليفة الإمام، ملكِ الملوك الأعلام، فاتح البُلْدان والأقطار، ممهِّد الأقاليم والأمصار، جامع أشتات المحامد، ملْجَإ الصادر والوارد، الملكِ الجَواد، الذى حلَّتْ محبته فى الصدور محلَّ الأرواح فى الأجساد، أميرِ المسلمين، المجاهدِ فى سبيل ربِّ العالمين، أبى العبَّاس آبن مولانا أميرِ المسلمين، المجاهدِ فى سبيل ربِّ العالمين، أبى سالمٍ، آبن مولانا

(١) جرى على طريقة بعض النحاة وإن كان الأكثر أنه يقال العشر الوسطى أو الوسط.

أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي الحسن، آبن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل ربّ العالمين، أبي سعيد، آبن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل ربّ العالمين، أبي يوسُف يعقوبَ بن عبد الحق؛ وصلَ اللهُ تعالىٰ أسبابَ تأييـده وعَضْدِه، وقضىٰ باتصال عُرْف تجديدِ سَعْدِه، وأناله من جميـل صُنْعه ما يتكفّل بتيسيرِ أمْرِه و بلُوغ قَصْده.

إلىٰ محلّ أخينا الذى نُؤْثِر حَقّ إخائه الكريم، ونُثْنِي علىٰ سلطانه السعيد ثَناءَ الوليّ الحميم، ونشكر ماله فينا من الحُبّ السـليم، والوُدّ الثابتِ المُقيم، السلطانِ الجليل، المـاجدِ الأصيل، الأعزّ الخطيرِ المَثِيـل، الشهيرِ الأمْجَد الأرفع، الهمامِ الأمْنَع؛ السَّرِيّ الأرضىٰ؛ المجـاهدِ الأمْضىٰ؛ الأوحدِ الأسْـنىٰ، المكِين الأحْمىٰ؛ خَديم الحرمين الشَّرِيفَيْن، حائزِ الفَخْرينِ المُنِيفَيْن؛ ناصرِ الدُّنيـا والدِّين، مُحيي العـدلِ في العالمين؛ الأجَدّ، الأوَدّ، المَكين، الأخلص، الأفضل، الأكمل، أبي السَّعادات فَرَج، آبن السلطان الجليل، الأعزّ المَثِيـل، الخطير الأَصِيل، الأرفَع، الأمجد، الشهير، الهُمَام، الأوحد، الأسمىٰ، الأسْرىٰ، الأرضىٰ، المجاهد، الأمضىٰ، خَديم الحرمين الشريفين، حائز الفَخْرين المُنِيفين، الافضلِ، الأكمل، المبرُور، المقدَّم، المرحوم، أبي سـعيد (برقوق) بن أَنَص؛ وصل اللهُ تعـالىٰ لسلطانه المؤيَّد جَدًّا لا يُعْجَم عُودُه، وعِزًّا لا يَمِيلُ عمُوده، ونصرا يملأُ قُطْرَه بمـا يَغَصُّ به حَسُودُه، وعَضُدا يأخُذ بزِمَام أمَلِه السنِيّ فيسُوقُه و يقُودُه.

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله و بركاته.

أمابعدَ حمدِ الله علىٰ سُبُوغ نعمائه، وترادُفِ لُطْفه وآلائه؛ الذى عَرَّفنا من وَلَائكم الكريم ما سَرَّنا من آطِّراد آعتنائه، وأبْهج النُّفُوسَ والأسماعَ من صَفَاء وَلَائه،

ومواصلة صَفَائه ، والصلاةِ والسلامِ الأكملين على سيدنا ومولانا محمد خاتم رُسُله وأنبيائه ، ومبلّغ رسالاتِه وأنبائِه ، صاحبِ المقامِ المحمُود ، والحوضِ المَوْرُود ، واللّواء المعقُود ، فأكْرِمْ بمَقَامه وحَوْضه ولِوائه ؛ والرضا عن آله وصحبه وأوْليائه ، الذين هم للدِّين بدورُ اهتـدائِه ونُجُوم اقْتدائِه ؛ وصلةِ الدعاء لمقـامكم الكريم بدوام عزّه واعتِلائه ، واقتبال النصرِ المبالِـغ فى احتفالِه واحتفائه ، وحياطةِ أنحائه وأرجائِه ، وتأييدِ عَزَماتِه وآرائه .

فإنا كتبْنا إليكم كتب الله لكم سَعْدا سافِرا ، وعَزْما ظافِرا ، من حضرتنا العلية بالمدينة البيضاءِ كَلأَها الله تعالى وحَرَسها ، ونِعَمُ الله سبحانَهُ لدينا واكفة السِّجال ، وآلاؤُه جلَّ جلالُه سابغُ الأذيال ، وخلافتكم التى تَرْعى بعين البِرِّ جوانِبَها ، ونقتفى فى كل مَنْقَبَـة كريمةٍ سِيَرَها الحميدةَ ومَذَاهِبَها ـ وإلىٰ هذا وصـلَ الله سعدكم ووالىٰ عَضْدكم ، وكتابُنا هـذا يُقَرِّر لكم من وِدادِنا ماشاع وذاع ، ويؤكّد من إخلاصِـنا إليكم ما تَحـدَّثُ به السُّمَّار فتُوعِيـه جميعَ الأسمـاع ؛ وقد كان انتهى إلينـا حركةُ عدُوِّ الله وعدُوِّ الإسـلام ، الباغى بالاجتراء على عبـاده سبحانَه بالبُؤْس والانتقام ، الآخذِ فيهـم بالعَيْث والفَسَاد ، الساعى بجَهْده فى تَهْديم الحُصُون وتخريب البِلاد ، وتعرَّفْنا أنه كان يعَلِّق أملَه الخائبَ بالوُصُول إلىٰ أطرافِ بلادكم المِصْريه ، وانتهازِ الفُرْصة على حينِ غَفْلة من خلافتكم العليه ، والحمدُ لله الذى كفىٰ بفضله شَرَّه ، ودفع نِقْمته وضُرَّه ، وانصرف ناكِصًا على عَقِبِه ، خائبًا من نَيْل أرَبِه . ولقد كُنَّا حين سمِعْنا بسُوء رأيه الذى غلبه اللهُ عليـه ؛ وما أضمر لخلقِ الله من الشرِّ الذى يجِدُه فى أخراه ظلَّه يسعى بين يَدَيْه [عزمنا على] أنْ نُمِدَّكم من عساكرنا المظفَّرة بما يَضيق عنه الفَضَا ، ونجهِّز لجهتِكم من أساطيلنا المنصورة مايُحْمَـد فى إمداد المناصَرةِ ويُرتضىٰ ؛

فالحمدُ لله علىٰ أن كفىٰ المؤمنين القِتال ، وأذهبَ عنهم الأَوْجال ، ويَسَّر لهم الأعمال ، وهَيَّأ لخلافتكم السنيَّة وللمسلمين ، هناءً يتضمَّن السلامةَ لكم ولهم علىٰ تعاقُبِ الأعوام والسِّنين .

وبحسَبِ مالنا فيكم من الوُدِّ الذى أَسَّستِ المُصافاةُ بُنْيانَه ، والحُبِّ الذى أوضحَ الإخلاصُ بُرهانَه ، وقع تخيُّرنا فيمن يتوجَّه من بابنا الكريم لتفصيل مُجْمَلِه ، وتقريرِ مالدَيْنا فيه علىٰ أتمِّ وجه الاعتقادِ وأكمله ؛ علىٰ الشيخ ، الأجل ، الشريف ، المبارَك ، الأصيل ، الأسنىٰ ، الحَظِىّ ، الأعز ، الحاج ، المبرور ، الأمين ، الأحفل ، الأفضل ، الأكمل ؛ أبى عبدِ الله محمد ، ابن الشيخ الأجلّ ، الأعزّ ، الأسنىٰ ، الأوجه ، الأنوه ، الأرفع ، الأمجد ، الأثر ، الأزهىٰ ، الشريف ، الأصيل ، المعَظَّم المَثِيل ، الأشْهر ، الأخْطَر ، الأمثل ، الأجمل ، الأفضل ، الأكمل ، المرضِىّ ، المقدَّس ، المرحوم أبى عبدِ الله محمد ، بن أبى القاسم ، ابن نفيس الحَسَنى العراقى ؛ وصل الله تعالىٰ سعادتَه ، وأحمد علىٰ حضرتكم السنِيَّة رِفادتَه ، حسَبَ ما يَفِى بشَرْح ماحَمَّلناه نَقْلَه ، ويكمُلُ بإيضاحه لدَيكم يقظتَه ونُبْله ، إن شاء الله تعالىٰ ، وهو سبحانه وتعالى يُديم سعادتكم ، ويحفَظُ مَجادَتكم ، ويُسْنِى من كل خير إرادتكم ، والسلام عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

الجملة الرابعة

(فى عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلُس)

والرسم فى ذلك أن يكْتُب «الأبوابُ الشريفة» ويصفها ، ثم يقول : «أبواب السلطان الفلانى» ويصفُه ، ويذكر ألقابَه ، ثم يدعُو له ، ثم يقول : «سلام كريم» ويَصِفُه . من فلان ، ويذكر السلطان المكتوب عنه ، ثم يقول : أما بعدَ حمد الله ،

ويأتى بخُطْبة فى المعنىٰ تشتمل علىٰ التحميد، والتصلية علىٰ النبى صلىٰ الله عليه وسلم، والرِّضا عن الصحابة رضى الله عنهم؛ ثم يقول : فإنا كتبنا اليكم، ويأتى علىٰ مايناسب المقام، ثم يخرط فى سِلْك المقصود إلى آخره ويختِم بالدعاء .

وهـذه نسخةُ كتاب كُتِب به عن أمير المسلمين السـلطان أبى عبد الله محمدِ بن أبى الحَجّاج يوسفَ بن نصرِ بن الأحمر، صاحب غَرْناطة — من الأندلُس، إلىٰ السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حُسَين" آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون، إنشاء الوزير أبى عبد الله بن الخطيب، صاحبِ ديوان إنشائه، يشير فيه إلىٰ حادثة الفَرَنج بالإسكندرية، الواقعةِ فى سنة سبع وستين وسبعمائة، إلا أنه وهم فى لقبه الملوكىّ فلقبه المنصور . وهى :

الأبوابُ الشريفـةُ التى تعنُو[(١)] لعِزّة قَدْرها الأبواب، وتعتزِى إلىٰ نَسَب عَدْلها الحِكمةُ والصَّواب، وتُنادِيها الأقطارُ البعيدةُ مفتخِرةً بوَلائها، واصلةَ السببِ بعَلائها، فيَصْدُر بما يَشْفِى الجوىٰ منها الجَوَاب؛ فإذا حَسُن منابٌ عن أئمة الهدىٰ، وسُبّاق المَدىٰ، كان منها عن عُمومة النبوّة النُّوّاب؛ وإذا ضفَتْ علىٰ العُفَاة بغيرها أثوابُ الصِّلات، ضفَتْ منها علىٰ الكعبة المقدّسـةِ الأثواب — أبوابُ السلطانِ الكبير، الجليلِ الشهير، الطاهرِ، الظاهرِ، الأوحد، الأسْعد، الأصعد، الأمجد، الأعلىٰ، العادلِ، العـالمِ العامِل، الكاملِ، الفاضِل، الكافِل؛ سلطانِ الإسلام والمسلمين، رافعِ ظِلَال العـدْل علىٰ العالمين، جمالِ الإسلام، عَلَمِ الأعْلام، فخرِ الليالِى والأيّام، ملِكِ البرين والبحرين، إمام الحرمين، مؤمِّل الأمصار والأقطار، وعاصبِ تاج الفَخَار، هازِم الفَرَنج والتُّرك والتتار، الملكِ المنصور أبى الفُتوح شعْبان، آبنِ الأمير،

(١) فى الريحانة ج ١ ص ١٠٣ "تفتح" .

الرفيع المَجَاده ، الكريم البنُوّة والوِلَاده ، الطاهرِ الظاهِر ، الكبير ، الشّهير ، المعظَّم ، الممجَّد ، الأسمىٰ ، الموقَّر ، الأعلىٰ ، نَخْرِ المِلّة ، سَيْف الأُمّة ، تاج الإمارة ، عزّ الإسلام ، جمالِ الأيّام ، قمرِ الميادين ، أسَـدِ أجَمَة لدين ، سِمام الطُّغاة والمعتدين ، المقـدَّس ، المظفَّر ، الأمير أبى علىّ حسـين ، آبن السـلطان الكبير ، الشهير ، مِلِك الإسلام والمسلمين ، والد السلاطين ، [سـيف خلافة الله فى العـالمين ، ولىّ أمير المؤمنـين ، وظهير الدين](١) سلطانِ الحجّ والجهاد ، وكاسى الحَرَم الأمين ، قامع المعتدين ، قاهرِ الخَوَارج والمتمرِّدين ، ناصر السـنّه ، محيى المِلّه ، ملك البرَّين والبحرين ، مقيم رُسُوم الحرمين الشريفـين ، العادلِ ، العالم ، العامل ، الطاهر ، الظاهر ، الأسعدِ ، الأصعدِ ، الأوحد ، الأعلى ، المنصور ، المؤيَّد المُعَان ، المرفَّع ، المعظَّم ، المبجَّل ، المؤمَّل ، المجاهد ، المُرَابِط ، الغازى ، أبى عبد الله محمد بن قلاوون ، الصالحىّ أبقاه الله ، وفَلَقُ الصباح يشهَدُ بكماله ، وخدمةُ الحرمين الشريفين طرازٌ مُذْهَبٌ علىٰ حُلّة أعماله ، ومُسَوَّراتُ الإسلام ، آمنةٌ علىٰ طول الأيام ، من إهماله ، ولا زال ركنًا للدِّين الحنيف ، تتزاحَمُ علىٰ مستلَمه الشريف ، شفاه أمّاله .

سلامٌ كريم ، بَرٌّ عميم ، كما آستودعتِ الرياضُ أسرارَها ، صَدْرَ النسيم ، وأرسلَتْ مطالعُ الفجر أنهـارَها ، من بحر الصَّباح الوَسيم ، يَسْرى من الطِّيب ، والحمدُ المُطِيل المُطِيب ، فى الصِّوان الكريم ، ويقِفُ موقفَ الأدَب والفَهَامه ، بمـا آسـتُحْفِظ من الأمانة إلىٰ محل الإمامه ، وقوفَ الحفيظ العليم ، يعتمِدُ مَشارِعَ تلك الأبواب الشارِعة إلىٰ الفضل العَميم ، المقابِلة لِذمام وسائل الإسلام بالصَّدْر المشْروح ، والبِرّ الممنُوح ، والقلْب السليم ـ من معظِّم سلطانه ، ومُجِلّ شانه ، المفتخِر بالآنتظام فى سِلْك

(١) الزيادة من "الريحانة" ج ١ ص ١٠٤ .

خُلْصانه، أمير المسلمين بالاندلس، عبد الله الغالب بالله، محمد بن يوسف بن إسماعيل ٱبن فرج بن نصر، بلّغه الله من رضاه أقصى سُوله، وأعانه على جهاد عدوّ الله وعدُوّ رسوله.

أما بعد حمد الله جاعل قلادة الإسلام، على الدوام، آمنةً من الإنخرام، والإنتثار، مفصَّلةَ النِّظام، بخرز المآثر العظام، والآثار. معرّف أهلها، فى حَزْن البسيطة وسَهْلها عوارفَ الصُّنع المُثار، وإقالةَ العثار. القويّ العزيز الذى لا يغالَبُ قَدَرُه بالإحتشاد والاستكثار، ولا يبدّل غَيْبُه المحجُوب، بعد ما عيّن حكْمه الوُجُوب، فى خزائن الاستئثار، حتى تظهر خبيئةُ عنايته بأوليائه، المعترفين بآلائه، باديةً للأبصار، فيما قَرُب وبَعُد من الأعصار، ورحمتُه عند الاستغاثة به والانتصار، فى مختلف الأقطار والأمصار. الوليّ الذى لا تُكَدِّر هِبَاتِ فضله شروطُ الاعتصار، ولا تَشين خُطَبَ حمده ضرائرُ الاقتصار والاختصار.

والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمد رسوله نُخْبة الاكوان، وسرّ الدُّهُور والأزمان، وفائدةِ الأدوار. نورِ الله المتميّز باختصاصه، واستصفائه واستخلاصه، قبل خَلْق الظُّلمات والأنوار. ورحمتِه الوارفة الشامله، الهامية الهامله، على الهضاب والوهاد والنِّجاد والأغوار. أقربِ عوالم الشَّهادة والخَلْق، إلى حضرة الحقّ، على تعدّد الرُّتَب وتفاضُل الأطوار. منقذِ الناس من البَوار، ومُبوّئهم من جِوار الله خيرَ الجِوار. نبيّ الرحمة والجهاد والغِوار. المنصورِ على الأحزاب عند ما ٱستداروا بمثوى نُبُوّته على الأُطم والأسوار دَوْرَ السِّوار. الواعدِ عن ربه بظُهور دينه الحقّ على الأديان فمهما أوقَدُوا نارَ الحرب تكفّلَ الله لهم بإطفاء النار وإخماد الأُوَار.

والرِّضا عن آله وأصحابه حُماةِ الذِّمار، ومقتحمي الغِمار، وباذلى كرائم الأموال من دونه ونفائس الأعمار، القائمين فى سَماء ملّته للاهتداء بسُنَنهم، والاقتداء بسَنَنِهم،

مَقامَ النجوم الهادية والأقمـار ، ماصقلتْ مَداوِسُ النَّسيم سُـيوفَ الأنهار ، وتَجلِ الوَرْدُ من تَبَسُّم البَهار ، وغازلتْ عيونُ زهَرِ المَجَرَّة عُيونَ الأزهار ، وطردَ أدهَمُ الليل أشهَبَ النهار .

والدُّعاءِ لتلك الأبْواب ، المتعدِّدة الحِجَاب ، المعوَّدة بأجْتلاء غُرر الفتوح ، والمَطالع المشيدة المَصانع على العزّ الممنوح ، والأواوين ، المؤيَّدة الدَّواوين ، بالملائكة والرُّوح ، بإعلاء المَظَاهر والصُّروح ، وإنارة الله تعالى بأهِلَّة تلك السُّروج ساحاتِ تلك السُّروح ، ولا زالتْ أقلامُ بشائرها تأتى على سُورة الفتح بأكمل الشُّروح .

فإنا كتبناه لمثابتكم السلطانية دارِ العِـزِّ الأحمىٰ ، والمُلْك الأشرف الأسمىٰ ، والصِّيتِ البعيد المَرْمىٰ ، كتب اللهُ لها من عِنايته ـ وقد فعل ـ أوفَرَ مقاسِم النُّعمىٰ ، وجعل غيثَ نوالِها الأهمىٰ ، وحَظَّ جَلالها من الله الأنمىٰ ، ودامتْ كواكبُ سُعودها تمزّق جلابيبَ الظُّلما ، وأخبارَ بأْسِها وَجُودِها ، وسعادةَ وُجُودها ، تُهْديها على البُعْد ركائبُ الدَّأْما ، وترفْـرِفُ برِياح ارتياحها أجنحةُ بنَـاتِ المـا ، من منزلنا المَحْبور ، بسعادة سلطانكم المنصور ، وخِزْى عدوه المدْحُور ، بحمراءِ غَرْناطةَ : دارِ ملك الجهاد بجزيرة ثغر الأندلس ، وَالىٰ اللهُ عنها الدِّفاع ، وأنارَ بمِشْكاة نُوره الذى وعد بإتمامه الأعلامَ منها والأيفاع ، ووصل لها بشَرَف مخاطبتكم الارتفاعَ والانتفاع ، حتّى تَشْفع بتَهانيكم الأوتارَ وتُوتِرَ الأشْـفَاع ، وآلاءُ الله لَدَيْنا ، بِنعْمةِ دين الإسلام علينا ، قد أخْجلتِ اللسانَ الشَّكور ، وإن استنفدت الرَّواحَ والبُكُور ، والثِّقةُ بالله فى هذا الثغر الغريب قد كثَّرت العَدَدَ المَنْزُور ، والحقُّ الصَّريحُ قد كافحَ الزُّور ، والتَّوطينُ على الشهادة قد شَرَحَ الصُّدور ، واقتطع فى الجنـة المَنازِلَ والدُّور ، والمعرفةُ بمَقام تلك الأبواب الشريفةِ عقيـدةٌ لاتُبدَّل ، وأدْواحُ عَلائها حمائمُ الحَمْد بها تَهدَّل ، ومَحافلُ

ثنائها تتراكم فى سمائها الألوة والمندل ؛ [والحالُ ماعلمتم : بحرٌ زاخرُ الأمواج ، وعدوٌّ وافرُ الأفواج[1]] وحرمٌ لولا اتقاءُ الله مقتحم السياج ، وجيادٌ ضمّرتها مصابرةُ الهياج ، وداءٌ على الأيام متوقعُ الاهتياج ، وعددٌ إلى الإصراخ والإنجاد عظيمُ الاحتياج ؛ فالنفوسُ إلى الله تجهَرُ وتسلّم ، والصبيانُ فى المكاتب تُدرَّب على مواقف الشهادة وتُعلَّم ، والألسنةُ بغير شعار الإسلام لاتتبّس غالباً ولا تتكلّم ، إلا أنّ عادةَ الخبير اللطيف ، تخفيفُ الذُّعر المُطيف ، ونصرُ النَّزر الضعيف ، على عدد التضعيف ، والحالُ تُزجى بين الحرب والسلْم ، والمكالَمة والكَلْم ، وتأميلِ الجَبْر ، وارتقابِ عاقبةِ الصبْر ، على حماة الدَّبْر .

وإلى هذا فإننا اتصل بنا مارامت الروم من المكيدة التى كان دفاعُ الله من دونها سدّا ، والملائكةُ جُندا ، والعِصْمةُ سورا ، والروحُ الأمينُ مَددا منصورا ، وأنها استنفدتِ الوُسْعَ فى احتشادها ، حتى ضاقتِ اللُّجج عن أعوادها ، وبلغتِ المجهودَ فى استنفادها ، حتى غصّ كافرُ البحر بكُفّارها ، يَصيحُ بهم التأليب ، ويُذمِّرهم الصليب ، وقد سوّل لهم الشيطانُ كيادَ ثغر الإسكندرية شجا صُدُورهم ، ومَرْمى آمالِ غُرورهم ، ومَحُوم قديمهم ، ومتعلَّل غريمهم ، ليَنْتِموا ثغر الإسلام بصدْمتها ، ويقُودُوا جانبَ الساحل فى رُمّتها ، ويرفَعُوا عن دينِهمُ المعرّه ، ويتلقَّفُوا فى القُدْس كُرَةَ الكَرّة ، ويقلِّصوا ما امتدَّ من ظِلال الإسلام ، ويَشيمُوا[2] سُيوفَ التغلّب على الشام ، ويحُولوا بينَ المسلمين وبين محطّ أوزارهم ، ومَحجّهم ومَزارهم ، وبيتِ ربهم الذى يقصِدُونه من كل فجٍّ عميق ، ويركبُون اليه نهجَ كلّ طريق ، وقبرِ نبيهم الذى يطْفِئُون بزيارته من الشَّرق كلَّ حريق ، ويكحّلون الجُفونَ بمشاهدةِ آثاره عن بكاء

(١) الزيادة من الريحانة وهى لازمة كما لايخفى .

(٢) شام السيف غمده واسئله ضد . والمراد هنا المعنى الثانى كما لايخفى .

وشهيق، وشوق بذلك الحبيب خليق . وقطعوا حبل المسلمين حتى لايتأتى بلوغ فريق ولا غرض تشريق ، والله من ورائهم محيط ، وبدمائهم مشيط ، وبعباده بصير ، ولدينه الحق ولى ونصير ، ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ . فما هو إلّا أن صمأ (١) جرادهم، وخلص إليها مرادهم، وفاض عليها بحرهم، وعظم من المحاولة أمرهم، حتى آشترك الشرك بعض أسوارها، ونال النهب مستطرف ديارها، وظنت أنها الوهية التى لاترقع، والمصيبة التى غلتها لاتنقع، وآشتعل الباس، وذعر الناس ، وأرى الشدة من تدارك بالفرج، وأعاد إلى السعة من الحرج، وأنشأ ريح النصر عاطرة الأرج، ونصر حزب الإسلام من لاغالب لمن ينصره، وحصر العدو من كان العدو يحصره، وظهر الحق على الباطل، والحالى بزينة الله على العاطل ، فخرج العدو الخاسر عما حازه والسيوف ترهقه حيث تلفيه، والسهام تثبته وتنفيه، وغرماء كرة الإسلام تستقضى منه دينها وتستوفيه ، والخزى قد جلل سباله الصهب ، وحناء الدماء قد خضبت مشيخته الشهب ، والغلب قد أخضع رقابه الغلب ، فكم من غريق أردته دروعه، لما حشى بالروع روعه، وطعين نظمت بالسمهرى ضلوعه، فغلبوا هنالك وآنقلبوا صاغرين ، وأحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين ، و﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . فأى رحمة منشورة ضفت على الإسلام ظلالها ، وخطة نعمة آتسع نطاقها ورحب مجالها ، ومجلى صنيعة راق عيون المؤمنين جمالها، فاهتزت بها الأرض وربت، وبشكر الله جل جلاله أعربت، وآستبشرت النفوس، وذهب البوس، وصفا بمنة الله اللبوس، وظهرت عناية الله بمقامكم ، وإقالة عثرة الإسلام فى أيامكم ، فما كان الله سبحانه ليضيع لكم خدمة

(١) صمأ عليهم كمنع طلع أنظر القاموس فى باب المهموز .

الحرمين، وإنّها للوسيلة الكُبْرى، والذّريعةُ إلى سعادة الدنيا والأُخْرى؛ وهى عُهدةُ الله التى يصونُها من كل اهتضام، وقلادتُه التى ما كان يتركُها بغير نظام.
وكان من لطائف هذا الفتح الذى أجزَل البُشرى، وأوسع أعلامَ الإسلام نَشْرا، ورُودُه بعد أنْ شُفيت العلّه، ونُصرت الملّه، وبعْدَ أن جَفَا الدهرُ وتجافى، وعادى ثُمَّ صافى، وهجَر ووافى، وأمْرضَ ثم عافى، فلو ورد مُقدّمه قبل تاليه، ونَقْدُه متأخرا عن كاليه، أو كانتْ أواخرُه بعيدًا ما بينها وبيْنَ أواليه، لأوْحشَت الظُّنونُ وساءتْ، وبلغتِ الهمومُ من النُّفوس ماشاءتْ؛ فإنّ الإسلامَ كالجسد يتداعى كلُّه لتألُّم بعضِه، ويتساهَمُ إخوانُه فى بَسْطه وقبْضه، وسماؤُه مرتبطةٌ بأرْضه، ونَفْلُه متعلّق بفرْضه، فالحمدُ لله الذى خفَّف الأثقال، وألْهم حالَ الضُّرِّ الانتقال، وسوّغ فى الشُّكر المَقَال، وزاروأ قال، وجمع بينَ إيقاظ القلوب، وإنالة المطلوب، وأنْ وجد العدوُّ طعمَ الإسلام مُرًّا فما ذاقه، وعوده صُلْبا فما أطاقه، ورفَع عن طريقِ بيتِ الله ماعاقه، وقاد إليكم فى بيوتِكم فَضْلَ الجهادِ وساقه [وردَّ المكرَ السّيّئَ على العدوّ وأحاقه](١) فما كانتْ هذه المكيدةُ إلا داهيةٌ للكفر طارقه، ونكْثةٌ لعَصَب التثليث عارقه، ومُعْجزةٌ من آثار النبيِّ الشريف لهذا الدين المنيف خارقه؛ واستأصلَتْ للعدوّ المال، وقطعَت الآمال، وأوهنتِ اليمينَ والشِّمال. فبادرْنا عند تعرّف الخبر، المختال من أثواب المَسرّة فى أبهى الحبَر، المُهدى أعظمَ العبَر، إلى تهنئتكم تطيرُ بنا أجنحةُ الارتياح، مُباريةً للرّياح، وتستفزُّنا دواعى الأفراح، بحسَبِ الودِّ الصُّراح؛ وكيفَ لايُسَرُّ اليَسَار بيمينه [والوجهُ بجبينه، والمسلمُ بدينه، وخاطبناكم مهنئين ولولا العوائقُ](١) التى لاتبرَح، والموانعُ التى وضحتْ حتى لاتُشرَح، ومكايدةُ هذا العدوِّ الذى يأسو به الدّهرُ ويجْرح، لم نجتزِ بإعلام القلَم، عن إعمال القَدم، حتّى نتشرفَ [بالورود على

(١) الزيادة من "الريحانة".

تلك المثابة الشريفه، ونمتاز بزيارة الأبواب المنيفه، فنقضي [(١) الفرض تحت رعيها، وبركة سعيها، لكن المرء جنيب أمله، ونية المؤمن أبلغ من عمله؛ فهنيئا بما خولكم الله من ظفر شهدت برضا الله مراسمه، وافترت عن ثغور العناية الربانية مباسمه، وتوفرت لديكم مواهبه ومقاسمه، ويهنئ البيت المقدس مكان فضل الله ومنه، وسلامة مجنه، ويهنئ الإسلام عصمة ثغره المؤشر، وطهارة كتابه المنشر، وجمال عنوانه، وقفل صوانه، وباب إيوانه: مرفأ الفسطاط، ومركز لواء الرباط، ومحط رحال الاغتباط، ومتخير الإسكندر عند البناء والاختطاط. ومما زادنا بجحا بهذا الفتح، وسرورا زائدا بهذا المنح، ما تحققنا أنه يثير من شفقة المسلمين لهذا القطر الذي لا يزال يطرقه ما طرق الإسكندرية على مر الأيام، وتجلب عليه برا وبحرا عبدة الأصنام، بحيث البر موصول، والكفر بكثرة العدد يصول، ونيران الحوار [مترائية للعيان، والفراسخ القليلة] (١) متوسطة بين مختلف النحل والأديان، والعدد لا ينسب، والصريخ إلا من عند الله لا يحسب، فتنجدنا بالدعاء ألسنة فضلائه، وتسهمنا خواطر صالحيه وأوليائه، والله لا يقطع عن الجميع عوائد آلائه، ويعرفنا بركة أنبيائه، وينصرنا في أرضه بملائكة سمائه.

وقد كان اتصل بنا في هذه الأيام الفارطة الذخر الذي ملأ اليد استكثارا، والخلد اعتدادا واستظهارا، والهمم نخارا، وأضاء القطر أنوارا: جوابكم الكريم يتنسم من نفحاته شذا الإذخر والجليل، وتلتمس من خلال حافاته بركات الخليل، وتقرى الوجوه به آثار المعاهد، وتلتمح من ثنايا وفادته بوارق الفوائد، فأكرم به من وافد مخطوب، وزائر مرقوب، صدعنا به في حفل الجهاد انتحاء وافتخارا، ثم صناه

(١) الزيادة من الريحانة.

فى كرائم الخزائن اقتناءً للخلف وادّخارا ، وجعلنا قِرَاه شُكرا مِعْطارا ، وثناءً يبقىٰ فى الخافقين مُطَارا ، ودعاءً يُعْلِي الله به لمقامكم السنيِّ فى أوليائه مِقْـدارا ، ويجهِّزُ به لمُلْكِكم كما فعل أنصارا ، ويثيبُكم الجنةَ التى لا يَرْضىٰ السعداءُ بغيرها قرارا ، والله تعالىٰ يجعلُ لأفلاك الهَنَاء علىٰ مخاطَبةِ مقامِكم الرفيع العلاءِ مَدَارا ، ويُقيمُ الشكرَ ألزم الوظائفِ لحقِّكم ابتدارا ، والثناء أولىٰ ماتحلّى به مجدكم شعارا ، ويُبْقيكم للإسلام رُكْنا شديدا ، وظلًّا مَدِيدا ، وسماءً مِدْرارا ، مااستأنفتِ البدورُ إبْدارا ، وعاقبَ الليلُ نهارا ، والسلام .

المقصـــــد الثالث

(فى رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السُّودان ؛ وفيه ثلاثة أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى المكاتبات إلىٰ[1] صاحب مالّى)

وهو المستولِي علىٰ التَّكرور وغانَةَ وغيرهما ، وهى أعظمُ ممالك السُّودان المسلمين مملكَةً ، ولم أَقِفْ لأحدٍ منهم علىٰ صُورةِ مكاتبة إلىٰ الأبواب السلطانية ، إلا أنَّ المقرَّ الشهابيَّ بنَ فَضـل الله فى كتابه "مسالك الأبصار" عند الكلام علىٰ هـذه المملكة تعرّض لذِكْرِ سُلْطانها فى زمان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» وهو مَنْسىٰ موسىٰ ؛ وذكر أنه ورد منه كتاب يُمسِك لنفسه فيه ناموسًا ولم يورد نسختَه .

(١) كذا فى الأصل ولعله « المكاتبات الواردة من صاحب مالى » كما يقتضيه التقسيم فتنبه .

الطـــرف الثانى

(فى المكاتبات الصادرة عن صاحب البَرْنُو)

ورسم مكاتبته أن تُكتَب فى ورق مربَّع بخطٍّ كخط المغاربة : فإن فضل من المكاتبة شىء كُتِب بظاهرها، وتُفتَتح المكاتبة بخُطْبة مفتَتحة بالحمد، ثم يتخلَّص إلىٰ المقصد ببَعدِيَّة، ويأتى علىٰ المقصد إلىٰ آخره، ورأيته قد ختَم مكاتبته إلىٰ الأبواب السلطانية بقوله : والسلامُ علىٰ من اتَّبع الهدىٰ. وكأنّ ذلك جهلٌ من الكاتب بمقاصد صناعةِ الإنشاء، إذ لايهتدُون إلىٰ حقائقها .

وهذه نسخةُ كتاب ورد علىٰ الملك الظاهر «أبى سعيد برقوق» ووصل فى شُهور سنة أربع وتسعين وسبعمائة، صحبةَ ابن عمه، مع هدِيَّةٍ بعث بها إلىٰ السلطان بسببِ مايذُكر فيه من أمر عَرَب جُذام المجاورةِ لهم، وهى فى ورق مربَّع، السطرُ إلىٰ جانب السَّطْر، بخطٍّ مَغربِىّ، وليس له هامشٌ فى أعلاه ولا جانبِه، وتَتِمَّةُ الكتاب فى ظهره من ذيل الكتاب وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم، صلّىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

الحمدُ لله الذى جعل الخطَّ تَراسُلا بين الأباعد، وتَرْجُمانا بين الأقارب، ومُصافَحةً بينَ الأحباب، ومُؤْنسا بين العلماء، ومُوحِشا بين الجُهَّال، ولولا ذلك لبطلتِ الكلمات، وفَسدت الحاجات. وصلواتُ الله علىٰ نبينا المصطفىٰ، ورسُولنا المُرْتضىٰ، الذى أغْلَق الله به بابَ النبوّةِ وخَتَم، وجعله آخرَ المرسلين بشيرا ونَذيرا، وداعياً إلىٰ الله بإذنه وسِراجًا مُنيرا، ماناحتِ الوُرْق، وما عاقبَ الشُّروقَ الأَصِيل . ثم بعـدَ ذلك أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعلىّ، رضى اللهُ عنهم أجمعين .

من المتوكِّل على الله تعالىٰ، الملك، الأجل، سيف الإسلام، وربيع الأيتام، الملك المقدام، القائم بأمر الرحمٰن، المستنصر بالله المنصور في كلّ حين وأوان، ودهرٍ وزمان: الملك، العادل، الزاهد، التقيّ، النقيّ، الأنجد، الأمجد، الغشمشم، فخر الدين، زين الإسلام، قطب الجلالة، سُلالة الكرماء، كهف الصُّدور، مصباح الظلام، أبي عَمْرو عثمان الملك، ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم، كرّم الله ضريحه، وأدام ذرّية هذا بملكه ـ هذا اللفظ وارد على [لسان] كاتبنا لآلنا ولا نحو ـ

إلىٰ مَلِك المِصْر الجليل، أرض الله المبارَكة أمّ الدنيا .

سلامٌ عليكم أعطرُ من المِسْك الأذفر، وأعذبُ من ماءِ الغمام واليمّ، زاد الله مُلْكَكم وسلطانَكم، والسلام علىٰ جلسائكم وفقهائكم وعُلَمائكم، الذين يدرُسُون القرءان والعلوم، وجماعتكم، وأهل طاعتكم، أجمعين .

وبعدَ ذاك، فإنا قد أرسلنا إليكم رسولَنا، وهو ابن عمّي، اسمه إدريس بن محمد من أجل الجائحة التي وجدْناها، وملوكَنا، فإنّ الأعرابَ [الذين] يُسمّوْن جُذاما وغيرَهم قد سبَوْا أحرارَنا : من النساء والصِّبيان، وضُعَفاء الرجال، وقَرابتِنا، وغيرهم من المسلمين . ومنهم مَنْ يشرِكون بالله، يُمارقون للدين، فغاروا على المسلمين فقتَلُوهم قتْلا شديدا، لفتنةٍ وقعتْ بيننا وبين أعدائنا، فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا مَلِكَنا، عمرو بن إدريس الشهيد، وهو أخونا ابن أبينا إدريس الحاج، بن إبراهيم الحاج، ونحن بنو سَيْف بن ذى يَزَن، و[الد] قبيلتنا، العربيّ القُرَشيّ، كذا ضبَطْناه عن شيوخنا، وهؤلاء الأعراب قد أفسدُوا أرضنا كلَّها، في بلد بَرْنُو كافّةً حتّى الآنَ، وسبَوْا أحرارنا وقرابتَنا من المسلمين، ويبيعُونَهم لجُلّاب مصرَ والشامِ وغيرهم، ويختدِمُون ببعضهم، فإنّ حكم مصرَ قد جعله الله في أيديكم من البحر إلىٰ أُسْوان، فإنهم قد اتخذُوا متْجرا، فتبعثُوا الرسل إلىٰ جميع أرضكم، وأمرائكم،

ووُزَرائكم، وقُضاتكم، وحُكَّامكم، وعلمائكم، وصواحب أسواقكم، ينظُرون و يحثون ويَكْشِفُون، فإذا وجدُوهم فلينْزِعُوهم من أيديهم، ولْيَبْتَلُوهم، فإنْ قالوا نحن أحرارٌ ونحن مسلمون فصدّقُوهم ولا تكذّبوهم، فإذا تبين ذلك لكم فأطلِقُوهم ورُدُّوهم الى حرّيتهم وإسلامهم، فإن بعضَ الأعراب يُفْسِدون فى أرضنا ولا يُصْلِحون، فإنهم الجاهلون كتابَ الله وسنة رسولنا، فإنهم يزيّنون الباطل، فاتقُوا الله واخْشَوْه ولا تخذُلُوهم يُسْتَرَقُّوا ويُبَاعوا. قال الله تعالىٰ ﴿والمؤمنُونَ والمُؤْمِنَاتُ بعضُهم أَوْلِيَاءُ بعضٍ يَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عن المُنْكَرِ﴾. وقال الله تعالىٰ لنبيه عليه السلام ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهم﴾. وقال الله تعالىٰ ﴿ولَوْلا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾. وكان عليه السلام يقول: «السلطانُ ظِلُّ الله فى الأرض يَأْوِى إليه كلُّ مَظْلوم». وقال: «المُؤْمِنُون كالبُنْيانِ يَشُدُّ بعْضُهُم بَعْضًا الى يومِ القيامةِ». وقال: «المُؤْمِنُ أَخُو المؤمن لا يَظْلِمه ولا يُسْلِمُه» الى آخره. وفى الحكمة: ومن الفرائض الأمرُ بالمعروف على كلِّ من بُسِطَتْ يدُه فى الأرض (أراد به السلاطين) وعلىٰ من تَصِل يدُه الى ذلك (أراد بذلك القضاةَ والحكّامَ والأمراءَ) فإن لم يقدر فبلسانه، (أراد بذلك الفقهاءَ والعلماءَ) وان لم يقدر فبقلبه، (أراد بذلك عامّةَ المسلمين) أطال الله بقاءكم فى أرضكم. فازْجُروا الأعراب المفسدين عن دَعَرِهم، قال الله تعالىٰ ﴿والَّذِينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِين﴾ وقال عليه السلام: «كُلُّكم راعٍ وكُلُّكم مَسْئُول عن رَعِيَّته». وقال فى الحكمة: لولا السلطانُ لأكل بعْضُهم بعضا. وقال تعالىٰ لنبيه داود عليه السلام ﴿يادَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خليفَةً فى الأَرْضِ فاحْكُمْ بينَ الناسِ بالحقِّ ولا تَتَّبِعِ الهوىٰ فيُضِلَّكَ عن سبيلِ الله إنَّ الذين يَضِلُّونَ عنْ سَبِيلِ الله لَهُمْ عذابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾ والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ — ولم يؤرّخ.

الطـــرف الثالث

(فى المكاتبات الصادرة عن ملِك "الكانِم" ولم أقِفْ له على مكاتبة إلا أنه يُشْبِه أن تكون المكاتبةُ عنه نظيرَ المكاتبة عن صاحب "البَرْنُو" فإنه على قُرْب من مملكته والله أعلم

المقصـــد الرابع

(فى الكُتُب الواردة من الجانب الشَّمالىّ، وهى بلاد الروم)

قد تقدّم ذكْرُ المكاتبة إلى أُمرائها ، وأنَّ كبيرهم الذى صار أمْرُهم إليه وآنقادُوا إلى طاعته الآنَ هو آبنُ عثمانَ صاحبُ بُرُسا [1] .

القســم الثالث

(من المكاتبات الواردة إلى هذه المملكة الكتبُ الواردةُ عن ملوك الكُفّار، وهى على أربعة أضرب)

الضرب الأول

(الكتبُ الواردة عن ملوك الكُرْج [2])

الضرب الثانى

(الكتبُ الواردةُ عن ملوك الحَبَشة)

والعادةُ فيها أنْ تَرِد فى قَطْع [3] باللسان [3] ولم أظْفَر بصورة مكاتبة فى هذا المعنى إلّا مكاتبةً واحدةً وردَتْ على الملك الظاهر بيبَرْس، ضِمْنَ كتاب إلى صاحب اليمن، وصاحبُ اليمن أرسله إلى هنا فيما وقفْتُ عليه فى بعض المصنَّفات، وهو :

---

(١) لم يذكر فى الأصل نموذجا من المكاتبة ولا ترك لها بياضا كالعادة فتنبه .

(٢) لم يذكر لها نموذجا ولم يتكلم على رسمها كغيرها . (٣) بياض فى الأصل .

أقلُّ المماليك يقبِّل الأرض ، ويُنْهِى بين يدى السلطان الملكِ الظاهر ، خلَّد الله مُلْكَه ، أنَّ رسولًا وصلَ إلىّ مِنْ والِى قُوص ، بسبَب الراهب الذى جاءنا ، فنحن ما جاءنا مِطْرانُ مولانا السلطانِ ونحن عبيدُه ، فيرسُمُ مولانا السلطانُ للبَطْرِيَرْك [أن] يجهِّز لنا مِطْرانا يكونُ رجلا جيِّدا عالما ، لا يَجْبِي ذهَبا ولا فِضَّة ، ويُرْسِله إلىٰ مدينة "عوَان" . وأقلُّ المماليك يُسَيِّر إلىٰ نُوَّاب مولانا الملك المظفَّر : صاحب اليَمَن ما يلزمه ، وهو يُسَيِّره إلىٰ نُوَّاب مولانا السلطان ، وما كان سببُ تأخير الرُّسُل عن الحضور إلىٰ [ما] بين يدى مولانا السلطانِ إلا أنى كنتُ فى سكار (؟) والملكُ داودُ قد تُوُفِّىَ ، وقد مُلِّك موضعه ولَدُه ، وعِنْدى فى عسكرى مائةُ ألفِ فارس مسلمين ، وأما النصارىٰ فكثير لايُحْصَوْن ، والكلُّ غِلْمانُك وتحتَ أمْرِك ، والمَطْران الكبيرُ يدعُو لك والخلقُ كلُّهم يقولون آمين ؛ وكلُّ من يصل من المسلمين إلىٰ بلادنا نكونُ له أقلَّ المماليك ، ونحفَظُهم ونسَفِّرهم كما يحِبُّون ويختارُون ؛ وأما الرسولُ الذى سفَّروه فهو مريض ، وبلادُنا وخِمَة . أىُّ مَنْ مَرِض لا يقدرُ أحد يدخُل إليه ، وأىُّ من شَمَّ رائحته فيمْرَض فيموت . ونحن نحفَظُ كلَّ من يأتى من بلاد المسلمين ، فسيِّروا مَطْرانا يحفظهم .

قلت : وقد تقدّم الجوابُ عن هذا الكتاب من كلام القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، فى الكلام علىٰ الكتُب الصادرة عن الأبواب السلطانية إلىٰ أهل الجانب الجنوبى من أهل الكُفْر ، ولكن الكتابُ المذكور يخالف ما تقدّم هناك من ادّعائه العظمة ، وأنه لولا اضطرارُه إلىٰ أخذالمَطْران من بَطْرِيَرْك الديار المصرية لكان يَشْمَخ بنَفْسه عن المكاتبة ، ولعلَّ ذلك كان فى الزمن المتقدم .

الضـــرب الثـالث

(الكُتُبُ الواردةُ عن ملوك الرُّوم، ورأسُ الكلِّ صاحبُ القُسْطَنْطِينِيَّة)

وقد وقفتُ علىٰ كتابٍ ورد منه فى السابع والعشرين من صَفَر سـنةَ أربعَ عشرةَ وثمانمائة فى دَرْج ورق فَرَنْجِيٍّ فى نحو عشرين وَصْلا قَطْع النصف، والبياضُ فى أعلاه وصلٌ واحد، وفى أسـفلِه وَصْلانِ، وله هامشٌ عن يمينه وهامشٌ عن يساره، كلٌّ منهما تقديرُ إصبعين ، ومقدارُ ما بين السُّطور متفاوتٌ : فأعلاه بين كلِّ سـطرين أربعةُ أصابع مطبُوقة، ثم بعد تقديرِ ثلُث الكتاب بين كلِّ سـطرين قدرُ ثلاثة أصابعَ ؛ ثم بعد ذلك بين كل سطرين قدرُ إصبعين ؛ ثم بعد ذلك بين كل سطرين قـدرُ ثلاثة أصابعَ إلىٰ آخر الكتاب ، والقـلم فى غاية [الدقة بـ]ـقلم الرِّقاع الدقيق، وفى آخره ثلاثةَ أسطر وقطعةٌ بالحمرة بقلم أجلَّ من الأوّل قليلا .

وهـذه نسخةُ كتاب معرَّبةٌ بترجمة بَطْرَك المَلكانية، بحضور سيف الدين سَيْف[(١)] التَّرجُمان، وهى :

المعظَّم ، الممجَّد ، المبجَّل ، الضابط ، السلطانُ ، الكبيرُ، سلطان مصرَ ودِمَشْق وحَلَبَ وغيرها، الملكُ الناصر (فرج) ٱبن السلطانِ الكبيرِ المرحومِ الظاهرِ (برقوق) المحبوبُ إلىٰ العزيزُ أكثر من أولاد مملكتى .

يُحيطُ علمه أننى ومملكتى طيِّبُون بنعمة الله تعالىٰ ، وكذلك تكونُ ـ انْ شاء الله تعالى ـ سلطنَتُك المجَّدةُ طيبةً فى خير، وأنَّ المحبةَ والمودّة لم تزلْ بين والدك المرحوم وبين والدى إلىٰ آخروقتٍ . ونحن بحمد الله قد تزايدت محبَّتُنا علىٰ ذلك وتكاثَرتْ ،

(١) لعله سودون الآتى بعد فى الضرب الرابع .

وتتوكد أيضا المحبـة بيننـا وبين سلطنتك المعظّمة إلىٰ الأبد ، فإنّ ذلك واجبٌ ، وتتردد رُسُلكم بكُتبكم إلينا ، وكذلك رسلُنا بكتبنا إلىٰ مُلْككم ، وكان قصْدُنا أن نجهزّ إليكم رسـولا لكنّ الفتنَ فى بلادنا ، وما بلَغنا من سـفَر مولانا السلطان من تختِ مملكته ، ولم نعرف إلىٰ أىّ مكانٍ توجّه ، أوجب تأخيرَ ذلك ، وأنّ حاملَ هذا الكتاب المتوجهَ به إلىٰ السلطان المعظم المسمّى (سورمش) التاجر من اسطنبول هو من جهتنا ، وله عادة بالتردد إلىٰ مملكتكم المعظّمة ، ونحن نعلم أنّ سلطنتك تُحبُّ الطيورَ الكَواهى ، فجهّزنا لكم صحبـةَ المذكور خمس كواهى وبازْدار ، ليكونَ نظركم الشريف عليهم ، وكذلك علىٰ البطاركة والنصارىٰ والكنائس علىٰ حُكم مَعْدَلة السلطان ومحبّته ، والوصيةُ بهـم ، ومعاونتهم ورعايتهم وإجراؤهم علىٰ جارى عوائدهم ، من غير تشـويش علىٰ ماألِفُوه من إنصافكم أوّلا وآخرا لأجل محبتكم لنـا ومحبتنا ، واستمرار العناية بهـم ، مع أنّ البطاركة عرّفونا أنّ مولانا السـلطان يُبْرِز مرسومه برعاياتهم ، والإحسانِ إليهـم ، ولم يزالوا داعينَ له شاكرينَ من مَعْدَلته ، ونُضاعفُ شكرنا من إحسانكم علىٰ ذلك ، وتكونوا إن شاء الله تعالىٰ طيبين ، والمحبة متزايدة فى أيّامكم وأيّامنا ، ومهما كان لمولانا السلطان بمملكتنا من أطواع (١) ، فيرسمُ يعرّفُنا بهـا ونبادرُ بذلك .

والذى بآخره بالحمرة علامةُ الملك مضمونهـا (مانويك المسـيحى بنعمة الله ، ضابط مملكة الروم البَلَالُوغس) .

---

(١) كذا فى الأصل ومراده من خدم أو حاجات .

الضـــــــرب الرابع

(الكتبُ الواردةُ من جهة ملوك الفَرَنج بالأندَلُس ، والجهاتِ الشَّمالية ، وما والىٰ ذلك)

والعادة فيها أن تكتب باللســان الفَرَنجى ، وعادةُ الكتب الواردةِ عنهم جملةً أن تكتب فى فَرْخةٍ ورق فَرَنْجىٍّ مربَّعة علىٰ نحو مقدار الفرْخة البلدى أو دُونَها ، بأسطر متقاربةٍ ، باللسان الفَرَنْجىّ وقَلمه ، ثم يُطْوىٰ طيًّا مسَطَّحا ويُعَنْوَن فى وَسَطه ، ويطوىٰ من جهتى الأوّل والآخِر حتّىٰ يصير العنوانُ ظاهرا من الطىّ ، ثم يُخْرَز ويُخْتَم بسَحَاءة ، ويختم عليه بطَمْغة فى شَمع أحمر علىٰ نحو ماتقدّم فى الكتب الواردة عن ملوك الغرب ؛ فاذاورد علىٰ الأبواب السلطانية فُكَّ خَتْمُه ، وتُرْجِم بترجمة التَّرْجُمان بالأبواب السلطانية وكُتب تعــريبُه فى ورقة مفردةٍ وأُلْصِقت به بعــد كتابةِ الجواب من التعريب علىٰ ما تقدّم ذكره فى مقدّمة الكتاب .

وهذه نسخة كتابٍ واردٍ من دُوج البَنادقة مِيكائيلَ ، علىٰ يدِ قاصده نُقُولا البندُقىّ فى سادس عشر صَفَر المبارك سنة أربعَ عشرةَ وثمانمائة ، ترجمةُ شمس الدين سُنْقُر ، وسيفِ الدِّين سُودُون ، التراجمة بالأبواب الشريفة ، فى فرخةِ ورَق فَرَنْجىٍّ مربعةٍ متقاربةِ السطور ، وهو :

السلطانُ المعظَّم ، ملكُ الملوك «فرجُ الله» ناصرُ الملة الإسلامية ، خَلَّد الله سلطانَه .

يقبِّل الأرضَ بين يديه نُقُولا(١) دُوج البَنادقة ، ويسألُ الله أن يزيد عظَمته : لأنه ناصر الحق ومؤيِّدُه ، ومَوْئل الممالك الإسلامية كلِّها . ويُنْهى ما عنده من الشَّوق

(١) تقدم قبل بأسطر أن اسمه ميكائيل وأن اسم رسوله نقولا . فتنبه

والمحبة لمولانا السلطان، وأنه لم تزل أكابر التجّار والمحتشـمين والمتردّدين من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرِين من عَدْل مولانا السلطان وعلوّ مجده، وتزايدُ الدعاء ببقاء دولته، وقد رغِب التُّجّار بالتّرداد إلى مملكته الشريفة بواسطةِ ذلك، ولأجل الصُّلح المتصل الآنَ بيننا والمحبةِ .

وأما غيرُ ذلك، فإنه بلغنا ما اتّفق فى العام الماضى من حَبْس العـبر فى ثَغْر دمْياط المحروس، وأن مولانا السلطان مَسَك قُنْصـل البنادقة والمحتِشـمين من التجّار بثغر الإسكندرية المحروس، وزَنْجرهم بالحديد، وأحضرهم إلى القاهرة، وحصلت لهم البهدلةُ بين جُنُوسهم والضَّرر والقَهْر الزائد، وكسر حرمَتَنا بين أهل طائفتنا، فإن الذى فُعِل مع المذكورين إنما فُعِل معنا، وتعجّبْنا من ذلك: لأنَّ طائفتنا لم يكن لهم ذَنْب، وهذا مع كثرةِ عدْل مولانا السلطان فى مملكته، ومحبّتنا له، ومناداتنا فى جميع مملكتِنا بكثرة عدْله، ومحبتِـه لطائفتنا، وإقبالِه عليهم، وقولنا لجميع نُوابنا: إنهم يُكْرِمون من يجِدُونه من مَمْلكة مولانا السلطان ويُراعُونه ويُحسِنون إليه، والمسئُول من إحسانه الوصيةُ بالقُنْصل والتجّار وغيرهم من البنادقة، ومراعاتُهم وإكرامهم والإقبالُ عليهم، والنظرُ فى أمورهم اذا حصل مايُشْبِه هذا الأمر، ومنعُ من يشاكلهم لتحصُلَ بذلك الطُّمأنينةُ للتُّجّار، ويتردّدوا إلى مملكته .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخة كتاب ورد من كَبْطان الماغُوصة والمستشارين بها، فى ثامن عشر صفر المبارَك سنةَ أربعَ عشرةَ وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سُنْقُر وسيف الدين سودون التَّرْجُمانَين بالأبواب الشريفة، وهو :

الملك المعظّم، ملكُ الملوك، صاحبُ مصر المحروسة، الملك الناصر، عظّم الله شأنه .

يقبّل الأرض بين أياديه الكبطانُ والمستشارون، ويُنْهُون أنهم آناءَ الليل داعُونَ بطول بقائه، مجتهدون فى آستمرار الصُّلح والمودّة التى لايشوبُها كَدَر بين القومون(؟) و بين مولانا السلطان، وأنَّ فى هذا الوقت ثَمَّ حراميَّة غراب يتحرّمون بأطراف هذه البلاد، والمِينِ الإسلامية؛ ونحن لم نزل نُشْحِطهم بالمراكب والأغربة، ونمنعُهم من ذلك جُهْدَنا وقُدرتَنَا، حتى إن أحدًا صار لا يَجْسُر على الدخول إلى مِينَا الماغُوصة جملةً كافيةً، مع أننا كنَّا خلّصْنا فى المدّة الماضيَة من الحراميَّة المذكورين خمسةً وعشرين نفَرا من المسلمين، وأكرْمناهم وأطلَقْنا سبيلَهم [وعزمْنا أن](١) نجهِّزهم إلى دِمْياط أو إلى ثغر الإسكندرية .

وأما غير ذلك، فقد بلَغنا أن برطلما أوْسَقَ للواقف الشريفة صابُونًا فى مَراكبه، وكان قصده أن يَهْرُب بذلك، فللحال عَمَّرنا مركبا كبيرا، وأخذنا برطلما المذكور بالمحاربة، وأحضرناه إلى الماغُوصة، وعَهِدنا بطروق المركب إلى شخص يسمَّى (أرمان سلبوريون) وهو رجلٌ مشكور السِّيرة، وقلنا له إنه يتوجَّهُ إلى خازن الصابون المذكور ويستشيره إن كان يُوسِقُ شيئا من الأصناف لمولانا السلطان، ويجهِّزه إلى أىِّ مكان اختاره ليسلمه ليد من تبرزُ له المراسيمُ الشريفة بتسليمه، فليفعل، وهذا القول كلُّه يكون دليلاً عند مولانا السلطان على صِدْق الولاء والتمسك بالصُّلح، والمسئول من الصدقات الشريفة الإقبالُ على التُّجَّار الجَنَويَّة الذين عند مملكته، وكفُّ أسباب الضرر عنهم، وينشر مَعْدلته عليهم، والله تعالى يديم بقاءه بمنّه وكرمه.

---

(١) فى الأصل « وعقيبها نجهزهم » .

الفصـــــل السادس

[من البـاب الثـانى] من المقـالة الرابعة

(فى رسوم المكاتَبات الإخْوانيَّات ـ وهى جمعُ إخوانيَّة، نسبةٌ إلى الإخوان، جمع أخٍ ـ والمرادُ المكاتبات الدائرةُ بين الأصدقاء . وفيه طَرَفان)

الطرف الأوّل

(فى رسوم إخوانيَّات السَّلَف من الصَّحابة رضوانُ الله عليهم والتابعين ؛ وهى فى الغالب لا تخرج عن ضربين)

الضرب الأوّل

(أن تُفتتَح المكاتبةُ باسم المكتوبِ عنه)

وكان رسمُهم فيه أن تفْتَتح المكاتبة بلفظ « من فلانٍ إلى فلان ، ســلامٌ عليك ، إنِّى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو » فلمـا كانتْ خلافةُ الرشـيد وأمر أن يُزاد هنـا فى السلطانيات « وأسألُه أن يصَلِّىَ علىٰ سـيدنا محمدٍ عبدِه ورسوله » كما تقدّم فى موضـعه، جرىٰ الكُتَّاب فى الإخوانيات علىٰ ذلك أيضا ، وكان الخطابُ يجرى بينهـم فى ذلك بأَنا ، وأنتَ ، ولِى ، ولَك ، وعِنْدى ، وعِنْدك ، وما أشـبه ذلك من ألفاظ الخِطاب ، وكانت خاتمةُ الكتب عندهم بالسَّلام .

الضــــرب الثــانى

(أن تفتتح المكاتبةُ باسم المكتوب إليه : تفخيماً لأمره ، وتعظيماً لشأنه)

وكان رسمُهم فى ذلك أن يفتتحوا المكاتَبةَ بلفظ « إلىٰ فلانٍ من فلان ، سلامٌ عليك ، فإنِّى أحمدُ اليك اللهَ الذى لا إلٰه إلا هو » وباقى الكتاب على ماتقدّم فى الضرب الأوّل فى الخطاب والختام وغيرهما .

الطــــرف الثانى

(فى رسوم الإخوانيَّات المحدَثة بعد السَّلَف ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصــــد الأوّل

(فى رسوم إخوانِيَّات أهل المَشْرِق ، وفيه أربعة مهَايعَ)

المهيــــع الأوّل

(فى صدور الأبتدا آت ، وهى علىٰ أساليب[(١)])

الأسلوب الأوّلُ – أن تفتتح المكاتبةُ بالدعاء ، وعليـه اقتصر أبو جَعْفر النَّحاسُ فى كتابه " صـناعة الكتّاب " وكان علىٰ رأس الثّلثِمائة فى خلافة الراضى ؛ وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقدّمات المكاتبات نقْلًا عن " موادّ البيـان " أنّ الأدعيـة كانت فى الزمن الأوّل تُستعمَل فيما يتعلّق بأمر الدِّين : مثل قولك : أكرمه الله ، وحَفِظه الله ووَفّقه ، وحاطَه ، وماأشـبه ذلك ؛ نعْدِل عنها قَصْدا للإجلال والإعظام إلى الدعاء بإطالة البَقَاء ، وإدامةِ العِزّ ، وإسباغ النِّعمة ، ونحو ذلك : مما يتنافَسُ فيه أبناءُ

---

(١) لم يذكر منها الا الأسلوب الاوّل ونبه على أن النحاس اقتصر عليه فتنبه .

الدنيا، جَرْيا على عادة الفُرْس . ثم رتّبوا الدعاءَ على مراتِب : فجعلُوا أعلاها الدعاء بإطالة البقاء ، ثم بإطالة العُمُر ، ثم بالمدّ فى العمر ، وكذلك سائرُ المكاتبات على ما تقدّم بيانه هُناك .

ثم هو على ســتة أضرب :

الضـــرب الأوّل

(المكاتبة من المرءوس إلى الرئيس ؛ وهو على صنفين)

الصـــنف الأوّلُ

(المكاتبةُ إلى الأمراء)

قد ذكر النحّاسُ أنه يقال فى ٱفتتاح مكاتَبَاتِهم : أطال الله بقاءَ الأمير، فإذا أردت أجلّ ذلك كلّه، كتبت : أطال اللهُ بقاءَ الأمير فى أعَزِّ العِزِّ وأدْوَمِ الكرامة والسُّرور والغِبْطة، وأتمّ عليه نِعَمَه فى علو الدَّرجة، وشرفٍ من الفضيلة، وتتابُعٍ من الفائدة، ووهبَ له السلامةَ والعافيةَ فى الدنيا والآخرة ؛ وبلّغ بالأمير أفضــلَ ما تجْرى إليــه هِمّتُه، وتسمُو إليه أُمْنِيّتُه ، أو بلّغ بالأمير أفضلَ شَرفِ العاجل والآجل، وأجزل له ثواب الآخرة .

ثم قال : ومن الدعاء له : أطال الله بقاءَ الأمير فى عِزٍّ قاهر ، وكرامةٍ دائمـة ، ونِعْمةٍ سابغة ، وزاد فى إحسانِهِ إليه ، والفضيلةِ لَدَيْه ، ولاأخلى مكانَهُ منه .

قال : ومنــه أطال اللهُ بقــاء الأمير ، وأدام عِزّه وتأييــدَه ، وعُلُوّه وتمكينَه ، وكَبَت عَدُوّه .

ثم ذكر أدعيةً أُخرى للأمراء عن الفضل بن سهل . منها ـ أطال الله بقاءَ الأمير، ومكّن له فى البَسْــطة وتزايُد النِّعمة ، وزاده من الكرامة والفَضيلة ؛ والمواهب

الجليله ، فى أعزّ عزّ وأدْوَم سلامة ، وأسبَل عافية ـ ومنها ـ أطال الله بقاءَ الأمير ، وأدام له الكرامةَ مرغوبًا إليه ، وزاد فى إحسانه لدَيْه ، وأتمّ نعمته عليه ، ووصل له خيرَ العاجِل بجزيل الآجل .

الصنف الثانى

(المكاتبة إلىٰ القُضاة)

وقد قال النحاس : إنه يُدْعىٰ للقاضى بمثل مايُدْعىٰ به للأمير ، غير أنه يجعل مكانَ الأمير القاضى ، إلا أنَّ الفضل بن سهل قال : يدعىٰ لقاضى القُضاة : أطال اللهُ بقاء القاضى ، وأدام عِزّه وكرامتَه ، ونِعمتَه وسلامتَه ، وأحسن من كلّ جميل زيادتَه ، وألبسه عَفْوه وعافِيَته . وإنه يدعىٰ له أيضا : أطال الله بقاءَ القاضى فى عزّ وسعادة ، وأدام كرامته ، وأحسَن زيادَتَه ، وأتمّ نعمته عليه فى أسبَغ عافية ، وأشْمَل سلامة . قال : وقال غيرُ الفضل : إن الكُفْء يكاتب كُفْأه ومَنْ كان خارجا من نعمته : أدام الله بقاءَكَ أيُّها القاضى .

الضرب الثانى

(المكاتبةُ من الرئيس إلىٰ المرءوس : كالمكاتبة عن الوزير وقاضى القُضاة وغيرهما ، والخطاب فى جميعها بالكاف)

قال النحاس : وهى علىٰ مَراتب ، أعلاها فى حق المكتوب اليه أطال اللهُ بقاءَك وأدامَ عِزَّك وأكرمك ، وأتمّ نعمتَه عليك ، وإحسانَه إليك وعندك . ودُونه «أطال اللهُ بقاءَك ، وأعزّك وأكرمك ، وأتمّ نعمتَه عليك وعندك» . ودونه «أدام الله عزّك ، وأطال بقاءَك ، وأدام كرامَتَك ، وأتمّ نعمته عليك ، وأدامها لك» .

ودونه « أعزَّك الله، ومدّ فى عُمُرك، وأتمّ نعمتَه عليك، ومابعـده على تَوَالى[١] الدعاء الذى تقدّم» . ودونه « أكرمكَ الله وأبقاك ، وأتمّ نعمتَه عليك، وأدامها لك » . ودونه « أن تُسْقِط وأدامها لك » . ودونه «أبقاكَ الله وحَفِظك وأتمّ نعمتَه عليك، وأدامها لك» . ودونه « أن تُسْقط وأدامها لك » . ودونه « حَفِظك اللهُ وأبقاك، وأمْتَع بك» . ودونه « عافَانَا اللهُ و إيَّاك من السُّوء» .

قال فى "صناعة الكُتّاب" : هذا إذا جرىٰ الأمرُ علىٰ نِسْبتـه ولم تتغيَّر الرسومُ، وإلّا فقد يَعْرِض أن يكون فى الدولة من هو مقـدَّم علىٰ الوزير أو مساوٍ به فتتغير المكاتبة، فقد كان عبدُ الله بن سليمان (يعنى وزير المعتضد) يكاتِبُ أبا الجيش (يعنى خُمَارَوَيْه بن أحمدَ بنِ طُولُون) : أطال الله يا أخى بَقَاك إلىٰ آخر الصـدر، للصاهَرَة التى كانت بين أبى الجَيْش و بين المعتضد ولأنّ المعتضد كَنَّاه . ثم قال : فإن كان الرئيسُ غيرَ الوزير، فربمـا زاد فى مكاتبته زيادةً لمن له محلٌّ : فيزيده ويكاتبه بزيادة التأييـد ودَوامِ العِزّ . قال : ويُدْعىٰ للفقهاء : أدام اللهُ بقاءَك فى طاعته وسلامَتِـه وكِفَايتِـه، وأعلىٰ جَدَّك وصان قَدْرَك، وكان لك ومعك حيثُ لا تكونُ لنَفْسك . أو : أدام الله بقاءَكَ فى أَسَرِّ عَيْش وأنعَم بال، وخصَّك بالتوفيق لما يُحِبُّ ويرضىٰ ، وحَبَاك بُرشْده، وقطَع بينَك وبينَ مَعَاصيه . أو : أطال الله بقاءَكَ بمـا أطال به بقاءَ المُطيعين ، وأعطاك من العَطَاء ماأعطىٰ الصالحين . أو : أكرمكَ الله بطاعتـه ، وتولّاك بحِفْظه ، وأسـعدكَ بعَوْنه ، وأيَّدك بنصره ، وجمع لك خَيْرَ الدنيا والآخرة برحمتِـه، إنه سميعٌ قريب . أو : تولّاك مَنْ يُمْسِكُ السماء أن تَقع علىٰ الأرض إلّا بإذنه ، وكان لك مَنْ هو بالمُؤْمنين رءُوفٌ رحيم . أو : أكرم اللهُ عن النـار وَجْهَك، وزيَّن بالتقوىٰ تجمُّلَك . أو : أكرمك اللهُ بكرامةٍ تكون لك فى الدنيا عِزًّا، وفى الآخرة من النار حِرْزًا .

(١) لعله على منوال .

الضرب الثالث

(المكاتبة إلى النظراء، والمخاطبةُ فيه بالكاف)

قال فى "صناعة الكُتَّاب" وأعلى مايكتب فى ذلك (يعنى بالنسبة إلى المكتوب إليه) ياسيِّدى «أطال اللهُ بقاءك وأدام عِزَّك وتأييدَك إلى آخر الصدر» . ودونه «أطال اللهُ ياسيدى بقاءَك» . ودونه «ياسيِّدى وأخى أطال اللهُ بقاءَك» . ودونه «أدام اللهُ يا أخى بقاءَك» .

الضرب الرابع

(المكاتبة إلى الأبناء، والخطابُ فيه بالكاف)

قال فى "صناعة الكتاب" يكتُب الرجل إلى ابنه : بأبى أنت ، أو : فداك أبوك . أو : ماتَ قبلك . أو : أسألُ اللهَ عزّ وجلّ حِفْظَك وحِياطَتك ورعايتك . أو : أرشدكَ الله أمْرك . أو : أحسَن البَلاغ بكَ . أو : بلّغ الله بكَ أفضلَ الأمل، وأتمّ السرورَ بك، وجعلك خَلَفا صالحا، وبقيّةً زاكية .

الضرب الخامس

(المكاتبة إلى الفِتْيان، والخطاب فيه بالكاف)

قال النحاس : يُدْعى لهم : صرف اللهُ السوءَ عنك ، وعن حَظّى منك . أو : أطال الله بقاءَ النعمةِ عليك وعليّ فيك . أو : جُعلت أنا وطارِفى وتالدِى فِداك . أو : مَلّانى الله إخاءَك، وأدامَ بقاءَك . أو : أستودعُ الله عزّ وجلّ ما وهَبَ لى من خُلّتك، ومَنحَنى من أُخُوّتك، وأعزّنى به من مَوَدّتك . أو : حاطَ اللهُ حظّى منك،

وأحسن المدافعةَ عنك . أو : ببقائك مُتِّعت ، وفَقْدَك مُنِعت . أو : نَفْسى تَفْديك ، واللهُ يُبْقِيك ، ويقينى الأسواءَ فيك . أو : ملّأنى اللهُ النعمةَ ببقائك ، وهَنّانى مامنحنى من إخائك . أو : أبقىٰ الله النعمةَ لى بِبَقائها لك ، وبُلِّغْتُها بك . أو : وفّر الله حظّى منك ، كما وفّر من المكارم حَظّك . أو : مَلّأنِى الله ببقاك ، كما منحنى إخاك . أو : دافعَ اللهُ لى وللمكارم عن حَوْبائك ، وأمتعَنِى ببقائك ، وجمعَ أملِى فيك بجمعه المكارمَ لك . أو : زادكَ اللهُ من النِّعم حسَبَ تزيُّدك فى البِرّ لإخْوانك ، وبلّغ بك أملَهم كما بلّغَ بهم آمالَهُم فيك .

الضـــرب السادس

(المكاتبة إلىٰ النساء)

قد ذكر النحاس أنهنّ يُكاتَبْن علىٰ نظير ما تقـدم من مكاتبـة الرئيس والمرءُوس والنظير ، غيرَ أنه قد وقع فى الاصطلاح من بعضهم أنه لا يقال فى مكاتبتهن وكَرامتكِ ولا وأتمّ نعمتَه عليكِ ، ولكن وأتم نعمتَه لَدَيْكِ ، ولا فَضْلَه عندك ، ولا سَعادتَك ، ولا فَعلْت ولا أن تَفعلِي ، ولكن يقال : إن رأيتِ أن تَمُنِّى بذلكِ مَنَنْتِ به ، وما أشـبه ذلك ، وقد تقدم فى الكلام علىٰ مقدّمات المكاتبات بيانُ كراهتهنّ لذلك .

قلت : ثم راعىٰ الكُتَّاب فى تعظيم المكتوبِ إليـه أنْ عَدَلُوا عن خِطَابه بالكاف عن نظير[(1)] خطاب المواجهة إلىٰ معنىٰ الغَيْبة ، فقالوا : له ، وإليه ، وعنده ، ونحو ذلك وخصُّوا الخطاب بالكاف بأدنىٰ المَراتبِ فى حقّ المكتوب إليه . علىٰ أنه قد تقدم من كلام النحاس إنكارُ ذلك علىٰ من اعتمده محتجًّا عليه بأنه لا أعظَمَ من الله تعالىٰ مع أنه يقال فى الدعاء يا أللهُ ونحو ذلك .

(١) كذا فى الأصل ولعل مراده وغير الكاف من ضمير خطاب المواجهة إلىٰ الخ .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان فى كتابه "ذخيرة الكتاب" أدعية مرتبة على الغيبة، وقال: أعلاها «أطال الله بقاءه، وأدام تمكينه وارتقاءه، ورفعته وسناءه، وكبت عدوه». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام تأييده، وعلاه وتمهيده، وكبت عداه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده وحرس حوباه». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام تأييده ونعماه». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام نعماه». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام عزه». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام توفيقه وتسديده». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام سداده وإرشاده». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام حراسته». ودونه «أدام الله تأييده». ودونه «أدام الله توفيقه». ودونه «أدام الله عزه وسناءه». ودونه «أدام الله عزه». ودونه «أدام الله حراسته». ودونه «أدام الله كرامته». ودونه «أدام الله سلامته». ودونه «أدام الله رعايته». ودونه «أدام الله كفايته». ودونه «أبقاه الله». ودونه «حفظه الله». ودونه «أعزه الله». ودونه «أيده الله». ودونه «حرسه الله». ودونه «أكرمه الله». ودونه «وفقه الله». ودونه «سلمه الله». ودونه «رعاه الله». ودونه «عافاه الله».

وعلى معنى الغيبة يقال فى الدعاء أطال الله بقاء الأمير. أو بقاء القاضى. أو بقاء سيدى. أو بقاء مولاى، وما أشبه ذلك فى كل رتبة بحسبها.

واعلم أن الذاهبين من الكتاب إلى إجراء المخاطبة فى المكاتبة على معنى الغيبة كما هو طريقة ابن حاجب النعمان وغيره، يعبرون عن المكتوب إليه بلقبه الخاص: كالوزير، والأمير، والحاجب، والقاضى، وما أشبه ذلك؛ وذكره بالسيادة وما فى معناها، مفضلين لفظ الجمع، كسيدنا ومولانا على لفظ الإفراد كسيدى ومولاى؛ وينعتون المكتوب إليه بالجليل أو الحاجب الجليل (١)، ويجعلون الإفراد دون ذلك فى الرتبة فيقولون: سيدى، أومولاى الأمير الجليل، أو الحاجب الجليل،

(١) لعله كالحاجب الجليل. ان لم يكن زائدا من قلم الناسخ.

ونحو ذٰلك . ثم توسّعُوا فى ذلك فجعلوا الدُّعاءَ متوسِّطا كلامَ الصدر علىٰ القُرْب من الابتداء، مقدِّمِينَ بعضَ كلام الصدر عليـه، ومؤخِّرِين بعضَه عنه . مثل أن يقالَ فى المكاتبة بشُكْر : إذا كان الشُّكْرُ ـ أطال الله بقاء سيدنا الأمير فلان ـ ترجمانَ النِّيَّه ، ولسانَ الطوِيَّه ، وشاهِدَ الإخلاص ، وعُنْوانَ الاختصـاص ، وسببًا إلىٰ الزِّياده ، وطريقًا إلىٰ السَّـعاده ، وكانت معارفُه قد أحاطتْ بمعادِنه ، واستولَتْ علىٰ محاسِنه ، فألْسُنُ آثارِها مع الصَّمْت أفصحُ من لسانِه ، وبيانُهـا مع الجُحُود أبلغُ من بيَـانه ، ونحو ذلك . ثم أحدثُوا اصطِلاحا آخَرَ أضافُوه إلىٰ الاصطلاح الأوّل، فقدّموا علىٰ الدعاء لفظ «كتابُنا» أو لفظ «كتابِى» رُتْبةً دونَ رُتْبة، مثل أن كتبوا : كتابُنا ـ أطال الله بقاءَ الأمير ـ ونحنُ علىٰ أفضلِ ماعَوَّدَنا اللهُ من انتظام الأمور وسَدَادها ، واستقامتِها بحضْرتنا واطِّرادها . أو كتابى ـ أطال اللهُ بقاءَ مولاىَ الحاجب ـ عن سلامةٍ ينَغّصها فقدُك ، وينتقِصُها فِراقُك، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك . وربما أبدلوا لفظ كتابُنا أو كتابِى بلفظ كتبتُ بصيغة الفِعْل، وربمـا ابتدَءُوا بلفظ أنا ونحوه . ثم خرج بهم الاختيار إلىٰ مصطلَحاتٍ اصطلحُوا عليها مع بقاء بعض المصْطلَح القديم : فخاطبوا بالحَضْرة تارةً، وبالخِدْمة تارةً، وبالمجلس أُخرىٰ، فكتبوا : كتابى ـ أطال اللهُ بقاءَ حضرةِ سيِّدنا الوزير، أو سيِّدنا الأمير، ونحو ذلك ، أو أسعد اللهُ الحضرةَ، أو أسعدَ الله الخِدْمة ، أو ضاعف اللهُ جَلالَ الخِدْمة ، أو أعزَّ الله أنصارَ الخِدْمة . وربمـا كتبُوا : صدرَتْ هذه الخِدْمة إلىٰ فلان . وقد يكتُبون : صـدرتْ هـذه الجملةُ ، إلىٰ غير ذلك من تفنُّناتهم التى لا يسع استيعابُها ، ولا يمكنُ اجتماعُ متفرِّقها .

قلت : وبالجملة فضَبْط صـدورِ الإخوانيَّـات وابتداءاتِها علىٰ هـذا المصطلَح غيرُ ممكن لاختـلاف مَذاهبهم فى ذلك ، والذى تحصَّلَ لى من كلام النحاس

وآبن حاجب النعمان، وترسُّل أبى إسحاق الصابى، والعلاء بن مُوصَلايا، وأبى الفرج البَبَّغاء، وغيرهم من الكُتّاب المُجيدين أنّ الغالب فى المكاتبات الدائرة بين أعيان الدول على سبعة أساليب :

الأسـلوب الأوّل

أن تفتتح المكاتبـةُ بالدعاء

كما كتب أبو إسحاق الصابي إلى الصاحب إسمٰعيل بن عبّاد بالشكر والتشوّق .

أطالَ اللهُ بقاءَ سيدنا الصاحبِ الجليل، فى سلامةِ دُنيا ودين، ونَفاذِ أمرٍ وتمكين، وتمامِ عزٍّ وتأييد، وثباتِ وَطْأة وتمهيد، وعُلُوِّ قدرٍ وسُلْطان، وتعاظُمِ خطرٍ وشان، وتولّاه فى نَفْسه وأوليائه بأحسن ما عُرِف وأُلِف، من نِعَم دارَّةِ الحَلَب، متفرّعة الشُّعَب، محميَّةِ الجهات والجوانب، محجوبةٍ عن النوائب والشّوائب، وأراه فى حُسّاد فضائله، وكُفّار فواضِله، ماعوّده فيهم من شَقاءِ جُدُودهم، وفُلُول حُدُودهم، وحُلُول النَّكال بهم، وإثباتِ العِصْمة منهم . وجعـل حُكْمَه قُطْبا لمَدار الأفلاك، ونَهْجا لمجارِى الأقدار، فلا يَنْزِل منها محبوبٌ مطلوبٌ إلا توجَّه إليه ونَحاه، ولا محذورٌ إلا أعْرض عنه وتَحاماه، ثم كان برءُوسِ معانِديه حلولُه، وبرِقابهم إحاطتُه، وفوق ظُهورهم مَحْمَلُه، وعلى صُدُورهم مَجْثَمُه، أمرًا جَزْما قضاه اللهُ له وخَصّه به، وأعطَتْه الأيامُ عليه عهْدَ أمانِها، وأمَرّتْ له به عَقْدَ ضَمَانها، عاطفةً عليه بطاعتها ومُوَاتاتها، مُغْضيةً له عن نَزائها ونَبَواتِها، وحقيقٌ عليه جلّ آسْمُه أن يفعل ذلك به، ويسمعَ هذا الدعاءَ فيه، إذ كان مرفوعاً إليه فى أوفرِ عِباده فَضْلا، وأغْمَرِهم نَيْلا، وأجْزَلهم أدَبا، وأكثرهم حَسَبا، وأعمِلهم بطاعته، وأوْلاهم بإحسانه ومَعُونته،

كتبت هذا الكتاب أطال اللهُ بقاءَ سيدنا الصاحبِ الجليل ؛ ثم آنخرط فى سلك مقصده إلىٰ آخره .

الأسـلوب الثانى

أن يتوسَّط الدعاءُ صدرَ الكتاب بعد الابتداء بكلامٍ مناسبٍ للحال .

كما كتب أبو إسحاق الصابى أيضًا عن بعض الأمراء إلىٰ أمير آخَرَ، مبشّرا بفتح :

ومن أعْظَم النِّعَم ــ أطال اللهُ بقاءَ مولانا الأميرِ الجليلِ ــ خَطَرا، وأحسنها أثَرا، نعمةٌ سكَنَتْ ثَوْره، وأطفأتْ فَوْره، وعادتْ علىٰ الناس بجميل الصُّنْع، وجليل النَّفْع، ونظامِ الأمور، وصَلَاح الجُمْهور، فتلك التى يجبُ أن يكونَ الشكرُ عليها مترادفا، والاعتـدادُ بها متضاعِفًا، بحسَبِ ما أزالتْ من المَضَرَّه، وجَدَّدتْ من المَسَرَّه، وأماطَتْ من المحذُور، ونشَرتْ من المأمُول . وحقيقٌ علىٰ الناس أنْ يعْرِفوا حَقَّها، ويُوفُوها من حمد الله قِسْطَها، ويَتَنَجَّزُوه وعدَه الحقَّ فى أدائها، وإطالةِ الإمتاع بها، والحمـدُ لله علىٰ أنْ جعلَنا ممن يعرفُ ذٰلك ويهتَدى إليه، ويعتقدُه وينْطوِى عليـه، ويُؤَدِّى فرضَ الاجتهاد فى الاستدامةِ والاستزادة منه، وأن خصَّنا من هـذه النِّعم بذواتِ الفضل السابغ، والظِّلّ المانِـع، الجامعةِ لكَبْت العدو ومَسَاءَته، وابتهاج الوَلِىّ ومَسَرَّته، وهو المسئُول جلَّ آسْمُه وعزَّ ذِكْره، أنْ لَايسْلُبنا ماألبَسَناه من سَرَابيلها، وأجَرّناه من فَضْل ذُيولها، وعَوّدَناه من جَلَالة أقدارها، وتعاظُم أخْطارها، ولايُعْدِمَنا مَعُونةً منـه علىٰ بُلُوغ أقصىٰ الوُسْع فى الاعتدادِ بها، ومُنْتَهىٰ الطَّوْق فى الِبشْر لهـا، بمَنّه وطَوْله، وقوّته وحَوْله .

وقد عرفَ مولانا الأميرُ فلان ماكان من كذا وكذا ؛ ثم أتىٰ علىٰ ذكر الفتح إلى آخره .

الأسلوب الثالث

أن يُفْتَتح الكتّابُ بلفظ « كتابى » كما كتب الصابى عن الوزير أبى عبد الله الحسن بن سَعْدان، إلى فخر الدولة بن بُوَيْه فى بِشارةِ فتح .

كتابى - أطال اللهُ بقاءَ مولانا الأمير الجليل فخر الدولة - ومولانا الملكُ السيدُ صَمْصام الدولة وشَمْس المِلَّة ، جارٍ على أفضلِ حال ، جمع اللهُ بينهما فى تمام عزٍّ ونَصْر، ونفاذِ أمرٍ ونَهى ، وعُلُوّ كلمةٍ ورأي ، وسُبُوغ مَوْهِبةٍ ونِعْمه ، وشُكْرُ الله يَستزيدُ من فضله ، ويستدِرّ المادّة من طَوْله ؛ وأنا جارٍ فيما أُحَمَّلُه من أعباءِ خدمتهما، وأتوَلّاه من تعاظم شُئُونهما ، على أجمل ماعوّد الله وُزَراء هذه المملكة المُناصِحين لها، وأوليائها المُحامين عنها، من هِدايةٍ إلى مَراشد الأمور، وتوفيقٍ لصَوابِ التدبير، والحمدُ لله ربِّ العالمين، وقد كان كذا وكذا .

الأسلوب الرابع

أن يُفْتَتح الكتّابُ بلفظ «كتبتُ» كما كتب الصابى إلى صاحب الجيش فى تعزية :

كتبتُ - أطال اللهُ بقاءَ سيدنا صاحب الجيش - والعينُ عَبْرى، والكَبِد حَرّى، والصبر مسْلُوب، والعَزاءُ مَغْلوب ، بالفَجيعة فى سيّدى فلان نَضّر الله وجهَه، وكَرّم مُنْقَلَبه ، التى هدّت الجَلَد، وفَتّتْ فى العَضُد، وبَسَطَتْ عُذْر الجَزُوع ،وهَجّنتْ حِلْم الحليم ، فإنا لله وإنا إليه راجِعُون ، وإلى أمْرِه صائرُون ، وعند الله نحتَسِبه غُصْنا ذَوى ، وشِهابًا خَبا ، وعِلْقَ مَضِنّة عَلِقتْ به أيْدى النّوائب ، وتخيّرته سِهامُ المَصائب ، وقارنتْ بين قلوب الأباعِد والأقارِب ، والخواصّ والعوامّ فى التألم لفقده والاِستيحاش لمَصْرعه ، والكآبة لوُقُوع المحذُورِ به ، وعزّ علىّ أن يجرى لسانى بهذا القول، ويَدى بهذا الخطّ ، إلى آخر المكاتبة .

الأسـلوب الخامس

أن يُفْتَتح الكِتَابُ بالخطاب : كما كتب صاحبُ ديوان الإنشاء فى زمن المسترشِد عن نفسه، إلى شُجاع الدولة وزيرِدِمَشْق ، بعد هَلَاك زَنْكِى بن آقْسُنْقُر .

أيها السيدُ الرئيسُ المحامِى عن سِرْبه ، والذى قَصَّر إلا فى المَعَالى، رُبَّ ناءٍ بجِسمه وهو دانٍ بقلْبه ، وغريب إذا نسبتَ وأَمِير علَى دِمَشْق مطاع فى صَحْبه ، وله بالعِراق إخوانٌ من حِزْبه ، إلى آخر المكاتبة .

الأسـلوب السادسُ

أن تُفْتَتحَ المكاتبةُ بلفظ : «أنا» كما كتب الصابى عن نَفْسه إلى الأَثِير أبى الحَسَن يهنِّئه بِعِيد .

أنا ــ أطال اللهُ بقاء سيِّدنا الأستاذ الأثير ــ أُحاوِلُ الخِدمةَ له والقُربةَ منه منذُ وصَلْت إلى العَسْكر المنصور ،فيعترِضُ دُونَ ذلك عوَارِضُ يجرى بها المَقْدور، إلى الحِين الموقَّت المسطور ؛ وقد عُلِم منِّى وشُهِر عنى كذا وكذا، إلى آخر الكِتَاب .

الأسـلوب السابع

أن تفْتَتح المكاتبةُ بلفظ « صدَرَت » أو «أُصْدِرت» كما كتب صاحبُ ديوان الإنشاء فى زمن المسترشِد عن نَفْسه إلى أبى الفَرَج سَعْد بن محمد تشوُّقا .

صدرَتْ هذه الجملةُ إلى فلان، ولوَاعِجُ الأشواقِ إليه متضاعفةَ مترادفه ،وآستمْرار الصَّبْر على البُعْدعنه قد رَثَّ قُوَاه، ووهن عُرَاه، وأعْوَزَنا وِجدانُه إذ عنَّتْ ذِكْراه،

وإن كان ذِكْرُه سَمِيرَ الخاطر ، ونُجَاه الناظر ، والغريمَ المُلازِم ، الذى يستحق غالبَهُ اللبيبُ الحازم ، إلى آخر الكتاب .

المَهْيَــــع الثانى

(فى الأجوبة على هــذا المصطلَح ، وهى على ضربين)

الضـــرب الأوّل

أن يُفتتح الجواب بما يُفتتح به الابتداء ثم يقع التعرُّض بعد ذلك لوُصول الكتاب والجوابِ عنه : إما ملاصِقًا لأوّلِ الابتداء ، وإما بعد كلامٍ طويل .

فأما ماهو متصل بأوّل الابتداء ، فكما كتب الصابى .

كتابى — ووصل كتابُ مولاىَ وفهِمْته ، وجلَّ عِنْدى قَدْره ومَوْقعه ، وسكنْتُ إلى مادلَّ عليه من سلامتِه ، وسألتُ اللهَ أن يُسْبِغَ عليه ظِلَّها ، ويَتْلِيه نِعمَه كلَّها ؛ فأما ماذكره من كذا وكذا ، إلى آخر الكتاب .

وأمَّا ما هو بعد كلام طويل ، فكما كتب الصابى أيضا عن نَفْسه إلى الصاحب ابن عَبَّــاد .

كتابى — أطال اللهُ بقاء مولانا الصاحبِ الجليلِ كافى الكُفَاه — وليس من جارحةٍ إلا ناطقةٌ بشُكْره وحَمْده ، ولا فى الدّهْر جِراحةٌ إلا عافِيَةٌ بفضله ورِفْده ، وأنا مستمرٌّ له على دعاءٍ : إنْ خلَوْتُ من أن يكونَ عائدًا لصَلَاحى ، ورائِشًا لجَنَاحى ، لَألْتزمنَّه عن الأحرار العاشِين فى نَدَاه ، المستظِلّين بذَرَاه[1] ، فكيف وأنا أوّلُ ساهرٍ فى مَرَابعــه ،

---

(١) الذرى ما يستكن فيه الانسان والظل راجع ج ١٨ من اللسان .

ووارِدٍ لشرائعه، وأحوالى جاريةٌ على استقامةٍ أقوى أسبابها تصرُّفُ الأيام على آرائه، واتباعُها إيثارَهُ فى أوليائه وأعدائه؛ والحمدُ لله رب العالمين، قضاءً لحقِّه واقتضاءً لمزيده، واستدامةً للنعمة عنده، التى استحصفتْ فى أيدينا سَعَتُها، وسالتْ علينا شِعَابُها، وغَمَرتْنا سِجالُها، وتفيَّأت لنا ظلالُها، وما يزالُ بين رغبةِ مولانا الصاحب الجليل كافى الكُفاة - أدام الله عُلُوَّه، وكبت عدُوَّه، فى عبده ورَغْبةِ عبده إليه سِرٌّ مكنونٌ فى الصُّدور، ومستورٌ تحت الضُّلُوع، فهما يتناجَيان به على بُعْد الدار، ويلتقيانِ عليه بالأفكار، فإنْ تطلَّع من حِجاب القلوب، وشذَّ من ظُهور الغيوب، فإنَّ ظهوره يكون من جِهته فى نَفَحات الإنعام، ومن جِهتى فى ثَمرات الكلام . وقد وصل كتابُه المخطوطُ بكَرَمه لا بقَلَمه، إلى صنيعته الماثِلِ بين يدَيْه بِهِمَمه لا بقَدَمه، فلم يستطعْ أن يَنْهَض من الفِكْر، إلّا بقدْر ما يبرّئُ ساحته من الكُفْر، ويبلِّغُه إلى آخِر الاجتهاد والعُذْر؛ وأسألُ الله أن يطيلَ بقاءه للإفضال المأخوذ منه، والفَضْل المأخوذِ عنه، والعلمِ الذى يَزْخَرُ به بحرُه؛ والفخرِ الذى يُسْحبُ له ذيله، والعز الذى ضُرِب عليه رُواقُه، والسلطانِ الذى أُلْقِىَ إليه استحقاقُه، والأمرِ والنهى اللذين يَحْوِيهما تُراثا واكتِسابا، إذا حَوَاهما غيرُه غُلُولا واغتصابا، بمنِّه وطَوْله؛ وقد كان كذا وكذا .

الضـــرب الثـانى

(أن يُفتتح الجوابُ بلفظ «ورد أو وصل» ونحوهما)

كما كتب الصابى عن الوزير أبى عبد الله بن سَعْدان فى جوابِ كتابٍ ورد عليه .

وصل كتابُك - أطال اللهُ بقاءك - وَفَهِمتُه، وأدّى فلانٌ ما تحمّله عنك ووعيتُه، وازددتُ به بصيرةً فى سَدَادك ومَعْرِفتك، وفَضْلِك وحَصَافتك، واجتماعِ الأدَواتِ الجميلةِ فيك، الداعية إلى إعلاء مَحَلِّك، وحَمِيد حالك، والثِّقة بك، والاستنامة إليك،

وأنهيتُ ذلك إلىٰ مولانا الملكِ فلان ، فأصغىٰ إليه مستمِعا ، وأوجبَ لك به حقًّا متضاعِفا، وأمرنى بكذا وكذا إلى آخر مراده .

وكما كتب أبو الفرج الببَّغاء فى جواب كتاب :

ورد كتابُك مُشافِها من البرِّ، ومؤدِّيا من الفضل، ومتحمِّلا من المنَن ، ماتجاوز الإنصافَ إلىٰ الإسراف ، وقرنَ الإكرامَ بالإنعام ؛ ولم أدرِ أىَّ المِنح به أشكُر ، ولا بأىِّ العَوارِف لهُ أعترف : أبما تحمَّله من جميل نِيَّته ، أم ماأدّى من جليل مخاطَبته ، أم ماناجتْنى به فوائدُ ملاطَفتِه ، أم ما آعتمدَنى من حلاوةِ مُفاوَضَته ، إلىٰ غير ذلك من الوُصول إلىٰ النعمةِ التى لا أُطاولها بشُكر ، ولا أُقاوِمها بمِنَّة آعتداد : وهو ابتداؤه إيَّاىَ من المكاتبة بما أحرزَ به علىٰ عادته قصَبَ السَّبْق ، و زاد علىٰ الرَّغْبة مبرْهِنا وبصادق الوُدِّ مُخبِرا ، و إلى البَسْط دليلا ، وعلىٰ مستأنَفِ الخِدْمة بالمُواصلة باعثا، ووجدتُه أيده الله قد فعَل كذا وكذا .

المَهْيَع الثالث

(فى خواتم الإخوانيات علىٰ هذا المصطلَح)

وآعلم أنه لم يكن لهم ضابط للآختتامات ، ولا ما يقتضى ملازمةَ آختتامٍ معينٍ لصدرٍ معيَّنٍ ، بل ذلك موكولٌ إلىٰ رأى الكاتب لايراعى فيه غير علوّ الرتبة وهُبُوطها، حيثُ تفاوتَتْ رُتَبُ الآختتامات عندهم .

ثم الآختتاماتُ لديْهم علىٰ أنواع شتّى .

منها — الآختتامُ باسْتِماحة الرَّأى، وهو علىٰ مراتب : أعلاها «ولمولانا علُوُّ الرأى فى ذلك» كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب : ولمولانا علُوُّ الرأىِ فى تشريف خادمه

بالقَبُول، والتقدّم بإعلامه بالوُصول، واستخدامه بما يتعلق بآرابه وأوطاره ـ ومن نظائر ذلك وأشكاله ـ إن شاء الله تعالى .

ودُونَ ذلك ـ الاختتامُ بلفظ « فإن رأى كذا وكذا فعل » كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب بشارةٍ بفتح ، فإنْ رأىٰ سيّدى أن يعرّفنى موقعَ هذه البُشرىٰ منه ، ومقابلتَها بالشكر الواجب عليها، ويتقدم بإشاعتها فى نواحيه وأعماله ، ليَكْبِتَ الله به عدُوّه وعدُوّنا ، ويكاتبنى بما أتطلّعه من أحواله وأخباره ، وأتعمّد إسعافه به من مآربه وأوطاره، فإنى أعتدّه شريكًا لنا مساهمًا ، وخليطا مُفاوِضا ، فعلَ إن شاء الله تعالىٰ .

ودونه « فرَأْيَكَ فى كذا وكذا» كما كتب أبوالفرج الببَّغاء فى خاتمة كتاب فى الحثّ علىٰ مواصلة الكُتُب ، فرَأْيَكَ فى إيناسنا بكُتُبك متضمنةً مأثوره من انبساطك ، ونعلمه من أخبارك ، موفَّقا إن شاء الله تعالىٰ .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ أصول المكاتبات لأىّ معنًى كان فرَأْيَك دُونَ فإن رأيتَ .

وذكر ابن حاجب النُّعمان أنّ أعلىٰ المراتب « وللآراء العالية فضلُ السمُوّ ومزيد القُدْرة . ودونه « ولرأى المجلس الفلانىّ فضْلُ وسُمُوّه » . ودونه « ولرأى الحضْرة الفلانية فضلُه » . ودونه « ورأْىُ حضرة مولانا أسْمىٰ » . ودونه « ورأْىُ حضْرةِ مولاى العالى » . ودونه « ورأْيُه موفَّقا » . ودونه « ورأْيُه السديدُ » . ودونه « ورأْيُه الأرشَد » . ودونه « والمُؤْثَر كذا » . ودونه « فأحِب أن يفعلَ كذا » . ودونه « ويحِبُ أن يفْعل كذا » . ودونه « فافْعل كذا من غير مخالَفَة » . ودونه « واحْذَر المخالفةَ » .

ومنها — الاختتام بالدعاء، كما كتب الصابى خاتمة كتاب « وأسألُ الله أن يُطيلَ بقاءَه ، ويَصِلَ إخاءه ، ويحفَظَه بَعيدا وقريبا ، ويَرْعاه غائبًا وحاضرا .

ومنها — الاختتام بطلب مواصلة الكتب، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب، وأنا أسألُه أن يُواصِلَنِى بكُتُبه، مُضَمَّنة أخبارَه الطيِّبـةَ ، وأمْرَه المُمتثَل ، وأوطارَه ومُهِمَّاته ، معتَمِدا بذلك، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها — الاختتام بترك التكليف بالمكاتبة فى غير الضرورى، كما كتب الصابى فى آخر مكاتبة ، وما أطالِبُ سيدى بالمكاتَبة إلّا عند الحاجةِ العارضة، فإنه يُفيدُنى بها جميلا أشْكُره ، ويستفيدُ منّى سَعْيا يحمَدُه ، فأمّا ماعدا ذلك مما يَشْـغَل أوقاتَ راحته ، ويسُدُّ فُرَجَ خَلْوته ، فإنى أستَعْفِى منها آستعفاءَ المتقرِّب إليه، المُؤْثِر لما خَفَّ عليه ، وله فيا سألْتُ فضْلُ النظر فيه ، والإسعافِ به ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها — الاختتام بالتحذير من المخالفـة ، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب إلىٰ جماعة بتحصيلِ قوم : ولْيكْتُبْ كلُّ واحد منهم بخَبَر من عنى أن يَظْفَر به من هؤلاء ، أو يَقِفَ علىٰ موضِعِه ، أو ينْتَهِىَ إليه شىءٌ من خبره ، ولْيحْذَرْ من التقصير فى ذلك . إلىٰ غير ذلك من الاختتامات التى لا تحصىٰ كثرةً .

وقد ذهب كثير من الكُتّاب [إلىٰ عدم تفضيلِ بعضِ الاختتامات علىٰ بعض](١) علىٰ أنَّ آبن حاجب النُّعمان قد قال فى "ذخيرة الكتّاب" إنّ أعلىٰ ذلك بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه : وللآراء الفلانيـة فضـلُ السُّـمُوّ ومزيدُ القُـدْرة . ودونه « ولرأْى المجلس الفلانى فضلُه وسُمُوُّه» . ودونه «ولرأْى الحضرةِ الفلانيَّة فضْلُه» . ودونه « ورأْىُ حضرةِ سـيدنا أسْمىٰ » . ودونه « ورأْىُ حضرة مولاى العالى » . ودونه « ورأْيُه

(١) اقتبسنا هذه الجملة من المقام وأضفناها لتتميم الكلام وعبارة ابن حاجب النعمان تقدمت فى الصفحة قبل فتنبه .

موفقا » . ودونه « ورأيُه السَّديد » . ودونه « ورأيُه الأرشَدُ» . ودونه « والمُؤْثَر كذا» . ودونه «فأُحِبُّ كذا» . ودونه «ويجبُ أن يفْعَل كذا» . ودونه «وسبيلُه أن يعتَمِد كذا» . ودونه « فافْعلْ كذا » . ودونه « فافعَلْ كذا من غير مخالَفَة » . ودونه «وٱحذَرِ المخالفة» .

المَهْيَــع الرابع

(فى عُنْوانات الكتب على هذا المصطَلَح، وفيها أربعة أحوال)

الحالة الأولى — أن يكون العنوانُ من الرئيس إلى المرءُوس ، قد ذكر فى "صناعة الكتّاب" أنّ العُنْـواناتِ من الوزير والقاضى وغيرهما من الرؤساء على تِسْع مراتبَ :

(الأولى) أن يكتَبَ فى الجانب الأيمن « لأبى فلانٍ أطال الله بقاءه وأعزه» ، وفى الجانب الأيسر «من فلان بن فلان» باسم الوزير وٱسم أبيه إن لم يكنّه الإمام؛ فإن كنّاه، كتب «من أبى فلان» ، والقاضى فى معنى ذلك .

(الثـانية) أن يُكْتَب فى الجـانب الأيمن «لأبى فلانٍ أطال اللهُ بقاءه» فقط ، ويُكْتَب الأسم(١) ولا يُكْتَب وأعزَّه .

(الثالثـة) أن يكتب فى الدعاء للمكتوب إليه، أدام اللهُ عِزّه .

(الرابعـة) أن يكتب أعزّه الله .

(الخامسة) أن يُكْتب أكرَمه اللهُ وأدام كرامته .

---

(١) أى ٱسم الوزير فى الجانب الأيسر وقوله ولا يكتب وأعزهُ أى فى الدعاء للمكتوب إليـه الذى هو فى الجانب الايمن فتنبه .

(السادسة) أن يُكتَبَ أكرمه اللهُ ، وفى ذلك يكتَبُ آسمُ الوزير فى الجانب الأيسر .

(السابعة) أن يُكتبَ أبقاه اللهُ، ولا يذكرَ آسمُ الوزير فى هذه المرتبةِ ومابعدها .

(الثامنة) أن يكتب حفِظَه الله ولا يكتَبُ آسم الوزير .

(التاسعة) أن يكتب عافاه الله .

وعلىٰ نحو ذلك جرىٰ آبنُ حاجب النُّعمان فى "ذخيرة الكتّاب" فقال : إنه يُبْدأ فى الجانب الأيمن بذكر المكتوب إليه ونُعُوتِه وكنيتِه وآسمِه وآسمِ أبيه ونَسبِه المشهورِ من ناحيتِه أو قبيلتِه أو بَلَدِه ؛ ثم يذكر المكتوب عنه فى الجانب الأيْسَر بآسمِه وآسمِ أبيه ؛ فإن كان الكُتّابُ عن الوزير ، ذكر كُنْيته فى الجانب الأيسر ، إن كان الإمام أمره أن يكاتِب متكَنّيا أو متلَقّبا .

وقد سبق فى الكلام علىٰ أصول المكاتبات فى أوّل الباب الثانى من هـذه المقالة أنّ من السَّلَف من كَرِه لأبِي فلان وقال : الصواب أن يكْتَب إلىٰ أبِي فلان . قال فى "صناعة الكتّاب" ويُكتَب : لأبى الحسن، فإن أعَدْت الكنيةَ فى الناحية الأخرىٰ رفعْتَ فقلت أبُو الحسن علىّ بنُ فلان علىٰ المبتدإ والخبر أو علىٰ إضمار مبتدإ ، وإن شئت خفضْتَ علىٰ البـدل ، فإن لم تُعد الكنيةَ كان الخفض أحسـنَ فقلت لأبى الحَسَن ؛ ثم قال : وإن كتبتَ إلىٰ رجلين كنيةُ كلٍّ منهما أبو الحسن ، كتبت لأبَوَى الحسَن إذا لم يكن لهما ولَدٌ يقـال له الحسَن ، فإن كان لكل منهما ولد يقال له الحسن ، جاز أن يكتب لأبَوِي الحَسَنَيْنِ . قال : والاختيارُ أن يكتب لأبوى الحسن أيضا ، لأنّ المعنىٰ للّذَيْنِ يقال لكلّ واحدٍ منهما أبو الحسن . ويجوز أن يكتَبَ إلىٰ الرجلين اللّذيْن يكنَّيان بأبى الحسن : لأَبَيِ الحسن بفتح البـاء وكسر الياء علىٰ لغة

من قال جاءنى أَبُكَ ، والأصل فيه لأَبَيْنِ الحَسَن سقطت النون للإضافة ، ويكتب فى الجميع لأَبِى الحسَن بكسر البـاء ، الأصل لأَبِين بكسرها أيضا ، سقطت النونُ للإضافة علىٰ لغة من قال : جاءنى أَبُوكَ[1] يعنى بضم الواو ، ويجوز أن يكتب لرجل كنيتُه أَبُو الحسنِ لأَبَا الحسن علىٰ لغة القصر ، كما يقال لِفتىٰ الحسَن .

قال فى "ذخيرة الكتّاب" وإن كان الكتّاب إلىٰ آثنين[2] وكنايتُهما مختلفـة : كأبى جعفر ، وأبى منصور ، وأبى بكْر ، كتبت آباء جعفر ومنصور وبكر . وإن كانت كنايتهم متفقة مثل أن تكون كنية كُلٍّ منهم أبو جعفر كتبت آباءُ جعفر .

الحالة الثانية — أن يكون العُنوانُ من المرْءُوس إلىٰ الرئيس . قدذكر «النحاس» عن الفضل بن سَهْل أنه إذا خُوطب الكُفْء بجعلَنِى الله فِدَاءك بالصدر الكامل ، فأحسنُ دُعائه للعُنْوان ، أعزّه الله وأطال بقاءَه ؛ وذكر أنه إذا كوتب بأعزّه الله فأجملُ العنوان مدّ الله فى عُمُره . قال فى "صناعة الكتّاب" ولا يتكنّىٰ الرجل فى كُتُبه ، إلا أن تكون كنيتُه أشهرَ من آسمه فيتكنّىٰ علىٰ نظيره ، ويتسمّىٰ لمن فوقه ؛ ثم يُلْحِق المعروفُ أبَا فلان ، أو المعْرُوف بأبى فلان . قال : ويكتب : من أخيه ، إن كانت الحال بينهما تُوجِب ذلك .

الحالة الثالثة — أن يكون العنوانُ من الرجل إلىٰ آبنه ومَنْ فى معناه ، قد ذكر النحاسُ أنه يُعَنْوَن إليه من فُلان بن فلان إلىٰ فلان بن فلان ، ثم قال : وكذا كبير الإخوة والرجلُ إلىٰ أهل بيته .

---

(١) كذا فى الاصل ولم نعثر فى كتب النحو علىٰ هذه اللغة ولعله تحريف من الناسخ والأصل جاءنى أبك يعنى بضم الباء فتأمل .

(٢) لعله الى آثنين فأكثر وكنايتهم ... ... تأمل .

الحالة الرابعة — أن يكون المكتوبُ إليه آمرأةً . قال فى "صناعة الكُتَّاب" : إن كان المكتوبُ إليه أمَّ الخليفة ، كتب : للسيدة أمّ فلانٍ أمير المؤمنين ، وإن كانت آمرأة الخليفة وكان ابنُها معهودًا إليه بالخلافة ، كتب للسيدة أمّ فلان ولىّ عهد المسلمين ، وإن كانتْ آمرأةَ رجل جليلٍ، كتب للحرَّة أمّ فلان ، ولا يكتب آسمُها ، ويدعُو لهـا بالدعاء الذى يكونُ خِطابُها به .

هذا ما كان الحالُ عليه فى زمن النحاس فى خلافة الراضى وما حَوْلَها .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان فى " ذخيرة الكُتَّاب " أنَّ الحالَ تغيَّر عن ذلك عند تغيُّر المكاتَبات إلى المجلس العالى ، والحضرةِ السامية ، وما يجرى مَجْرَى ذلك ، ثم قال : فعلى هـذا إذا كتب إلى المكتوب إليه بالمجلس العالى أو السامى ونعوته ، فيجب أن يكنِّىَ عن نَفْسه بالمملوكِ أو مملوكهِ أو العبدِ أو الخادِم . وإذا كتب : الحَضْرة السامية أو العاليةَ ونُعوتَها ، فيجب أن يكنِّى عن نفسه الخادِمُ أو خادِمُها أو عبْدُها . وإذا كتب : حضرة سيدنا ونُعُوتها ، فيجب أن يكنِّىَ عن نَفْسه خادمُها أو خادمُه وعبدُها أو عَبْده . وإذا كتب : حَضْرة مولانا ونُعوته ، فيجوز أن يكنِّى عن نَفْسه ما شاء من ذلك . قال : وفى الكتابة إلى النظير لا ضابطَ لعنوانه كما لا ضابِطَ لمكاتَبته ، بل له أنْ يكنِّىَ عن نفسه بما شاء مما تقدّم ذكره .

ثم قال : وإن كانت المكاتبةُ من الرئيس إلى المرءوس ، فيجب أن يكنِّىَ : حضرة الفلانى بغير مولاى — ودونه : الفُلانى بغير حضرة ، وكنيتُه ونُعوته وآسمُه وآسمُ أبيه ، ويكنِّى عن نَفْسه ما يختار أن يكتُبَه الرئيس إلى المرءوس مما هو معروفٌ مشهور ، ويزيد فى آسمه وآسم أبيه ألفًا ولامًا ، إن كانا مما يجوز أن يُزادا [فيهما] ، وإذا كتب المرءوس إلى الرئيس وكنَّى عن نفسه بما كنَّى ، فيجب أن يحذِفَ من آسمه وآسمِ أبيه الألف

واللام . قال : وللرئيس أن يكتُبَ عن نفسه بما شاء من الكنايات التى تليق بمنْصبه وآسمِه وآسمِ أبيـه ونعتِه المقْترِن بأمير المؤمنين ، مثـل ناصر أمير المؤمنين ، وحُسام أمير المؤمنين ، وما أشبه ذلك .

المقصـــد الثـانى

(فى [رسوم] إخوانيات أهلْ المغـــرب)

وعادتُهم فيهـا أن يكون الخطابُ فيها خطابَ المُواجَهة ، مثل : أنتَ ، وأنا ، ولك ، وعندى ، وعندك . وربّمـا خاطَبُوا الواحد بميم الجمع تعظيما للمكتوب إليه ، كما يعبِّر عن المتكلِّم الواحدِ بنُون الجمع تعظيمًا له . قال ابن شيث فى "معالم الكتابة" ولا يُعـرفَ ذلك لغـيرهم ، وربّمـا وقع الخطابُ عنـدهم على الغَيْبـة أيضـا ، وفيه جملتان :

[الجمـلة الأولىٰ

(فى مفتتحات المكاتَباتِ علىٰ آصطلاحهم ، وفيها مَهْيعان)

المهيـــع الأول

(فى آبتداء المكاتَبات ، وهى علىٰ طرق)[1]]

منها — أن تُفتَتح المكاتبةُ بالدعاء : إمّا بطُول البقاء كما كتب عبدُ الله بنُ طاهر : أطال اللهُ بقاءَ سـيدى الأعْلىٰ ، ومَفْزَعى فى الجُلّى ، متمِّمةً عليـه النِّعم ، ميَسِّرة لدَيْه الهِمَم ؛ أقول بَدْءًا أيّدك الله : لقد أعشَى الناظرِين سَناك ، كما أعيا الطالبين مَسْعَاك ، ولئِنْ فُتَّ الجميع ، لقد أبْدعْتَ الصَّنيع ؛ فلا غايةَ لمجْدٍ إلا وأنتَ آتِيها ، ولا ذِرْوةَ لعزّ

(١) بيض لذلك فى الأصل وزدناها من نظيرتها الآتية .

إلّا ومن ظُبَاك بَانيها ؛ لكَ الهُدىٰ والناسُ ضُلّال ، وفى يديْكَ الضوءُ والكُلُّ أغفال ؛ وإن الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرِّف بن عميرة : أطال اللهُ بقاءَ الأخ السرىِّ الكريم ، الحرىِّ بالتَّقديم والتعظيم ؛ أوحدِ فُرْسانِ الإحسان ، وواحدِ عِقْبان البَيَان ؛ ولا زال قلمُهُ جالىَ بدائعِ السِّحر ، جالبَ بَضائعِ الشِّحْر ، مغبوطَ السَّبْق ، عند كَلَالِ جِيادِ الكَلَام ، مبْسُوطَ الرِّزق ، فى حال إمْلاقِ الأَقْلام ، إنْ ذُكِرتْ ـ أبقاكَ الله ـ البلاغةُ فمن علىٰ مَوْرِدها يُسَاجلك ، أو قيل فى شَريعتها بُنِيتْ علىٰ خمس فإنما هى أناملُك ، صَفْوُها متَفجِّر من مَعينك ، وَشَأْوُها لا مطمعَ فيه لغير يَمينك ، وشأوها تستوفيه فى هيئة متَمَهِّل ، وجَنَاها ترعاه بعزّة أحِى مُهَلْهِل ، فقد صرتَ أمامَ أُمَّتِها ، لا بل إمامَ أئمتها ، والراضعَ لِرِسْلها ، بل الواضعَ لأصلها . فهنيئاً لها أن كنتَ سابِقَ غايَتِها ، وسائقَ رايتِها ، وبُشْرىٰ لمُهْرِقٍ وشَّتْه يراعَتُك ، ومَشَّته براعتُك ، لقد أُوتِىَ من الحُسْن ما تشْتريه القلوبُ بحَبَّاتها ، وتشْتَهِيه النفوسُ أكثر من حَيَاتها ؛ وإن الأمر كذا وكذا .

وإما بالبقاء المجرَّد .

كما كتب أبو محمد بن عبد البرّ ، إلىٰ بعض أرباب الأقلام :

أبقىٰ اللهُ الشيخَ فى عِزّةٍ تالدةٍ طارِفه ، وسعادةٍ لاتزالُ طارقةً بكلِّ عارفه ؛ ولا زَالَ قاصِدُه مُحَيًّا من رِفْده برَوْضٍ ناضِر ، ومُحَوَّماً من مَجْده علىٰ مَسَرَّةِ سَمْعٍ وقُرَّةِ ناظِر ؛ والأمر كذا وكذا .

وإما بالدعاء للحضرة .

كما كتب أبو زيد الفازازى :

أبقىٰ اللهُ حضرةَ السيد ناضِرةَ أدْواحِ السَّعْد، عاطِرةَ أفْواحِ المَجْد، ساكبةَ أنواعِ الجَدَى، صائبةَ سِهامِ الجِدّ، ولا زالتْ مَغْشِيَّةَ الجَناب، بوفْد الحَمْد، مَوْشِيَّةَ الإهاب، بُسودَد الحَفْـد . الظِّلُّ إذا رَحُب ، ازدحم عليه الضَّاحُون ، والوِرْدُ إذا عَذُب ، ازدلَفَ إليه المُتَاحُون ، وظِلُّ الحَضْرة المكرَّمة كثيفُ الأفياء، ووِرْدُها مُغْنٍ عن وسائط الأَرْشِيَةِ والدِّلاء، فلا غَرْوَ أن تُضْرَبَ إليها أكبادُ الإبل، وتَغَصَّ بالوُفُود عليها أفواهُ السُّبُل ، واللهُ تعالىٰ يُعِين الحضرة المـكَرَّمة علىٰ الأيادى تُسَوِّغُها ، والآمال تَبَلِّغُها ، بمَنِّه . وإن الأمر كذا وكذا .

وإما بالدُّعاء للمحلِّ .

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة فى صدر شَفَاعة .

أبقىٰ اللهُ المحلَّ الأعْلىٰ حَرَمًا يتَحاماه الأنام ، وعَلَمًا تَتَضاءلُ له الأعْلام ، ولا زالتْ آراؤُه النـاجحةُ ، تستـمِدّها العقولُ والأفهام ، ومَسَاعِيـه الصالحة ، يشْكُرها الله والإسلام. إنَّ مجْدًا سامىٰ الكواكبَ بمَثْواه ، وسارىٰ الغُرَّ السواكبَ فى جَدْواه ، لداعٍ إلىٰ آستلام كَفِّه العليه ، والآستِهام علىٰ وَصْفه الذى له حقيقةُ الأوْلِيَّه ، وكيف لا وقد أجار من الدهر المُخِيف ، وصار قِبْلَةَ كلِّ داخلٍ تحتَ التكْليف ، يُعِيدُ متىٰ أخطأها صَلاةَ الأمل ، ويرىٰ الآجتهادَ فى طلبها من راحة العَـمَل ، وإنَّ الأمر كذا وكذا — إلىٰ غير ذلك من أنواع الدعاء .

ومنها — أن تفتتح المكاتبة بلفظ «كتابى» كما كتب أبو المطرّف بن عميرة إلىٰ بعض العلمـاء .

كتابى إلىٰ سيدى — حفظه اللهُ مُقِيمًا وسائرًا ، وأبقـاهُ لغُرَر البيان ساحرًا ، وعن وجه الإحسان سافرًا ، ولا زالتْ آدابُه تُشْرِق وتروق ساهرًا ، ومحاسنُه كالشمس إذا لم

يَلْقَ نورُها ساتِرا ـ من فلانة ـ والوُدّ روضةٌ مَطْلوله ، ورحِمٌ موصوله ؛ خَلَص من القلب إلىٰ حَبَّته ، واختصّ منه بما ليس لأحدٍ من أحِبَّته ؛ وأثارَ شَوْقا علىٰ قَدْره ، وهَوًى ثوىٰ فى صَدْره ؛ وأسفًا علىٰ عهْدٍ أصبو إلىٰ ذكره ؛ فات ، وردُّ الفائت يعْسُر ، وقَصُر ، وأيامُ السُّرور تقْصُر ؛ كأنما كان قراءةَ سطْر ، أو إغْفاءةَ فَجْر ؛ أو زيارةَ مُجْتاز ، أو عبارةَ ذى إيجاز . فمنْ لنا بذلك الأرج الذكى ، والأرْيحىّ يرتاحُ لما يُخترع أو يُحكى ، ومتىٰ نفوزُ بمن ينحت من صَخْر ، ويُزْرِى بأبى صَخْر ، ويَغْرف من بحر ، ويجْرِى مع أبى بَحْر ؛ ويجمعُ إسنادُه بين الجامع والمُسْنَد ، ويُنْشِد من بدائع حفْظِه ما يُؤْثَر يد المسند ، شجرةُ علم تُؤْتِى كلَّ حينٍ أُكُلَها ، ومُزْنةُ فضل تجودُ ماتخْشىٰ بُخْلَها ، وضالّة أدبٍ يقِلُّ لها أن يُجْعل القارِتُ[1] جُعْلَها ، فات عَنّا ، فأتعبَ وعَنّى ، فهل معينٌ علىٰ دواء إن نحن لُسِعْنا ، أو سبيلٌ إلىٰ مايفيدنا من الكلام فنحنُ فى حروف تجىءُ بغير معْنىٰ ، وإن الأمر كذا وكذا .

ومنها — أن تفتتح المكاتبة بلفظ : كتبت .

كما كتب أبو زيد الفازازى .

كتبتُ — كتب الله للأخ الأبرّ الأوفىٰ ، والفاضلِ الذى آثارُ مآثِرِه لاتخْفىٰ ، مجدًا هامىَ الرَّبابه ، سامىَ الرابَهْ ، وذكرًا متحلّا بالإطالة والإطابه ، وقرَن أعمالَه بالقَبُول ودَعواتِه بالاستجابه ـ من مكانِ كذا ، ولا جديدَ بُمْن الله تعالىٰ إلّا صُنْعُه الجميل ، ولُطْفُه العريضُ الطويل ، والحمدُ لله ربِّ العالمين ، حمدًا يؤمِّن آلاءَه من التغيير والتبديل ، والأمرُ علىٰ كذا وكذا .

---

(١) القارت أجف المسك وأجوده .

ومنها — أن تفتتح المكاتبةُ بكنايةٍ عن المكتوب إليه من لقب ونحوه .

كما كتب أبو المطرف بنُ عميرة لبعض الرؤساء .

الجنابُ الرّياسيُّ أدام الله اعتلاءه، وحرس مجْده وسناءه .

صدرت هذه الخدمةُ إليه من فلانة، ولا مَزِيدَ على ما يجِبُ لجلاله من التعظيم، ولفَضْله من التقديم، ولآلائِهِ من الشُّكْر العميم؛ و إنَّ الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو بكر بنُ عيسى شافعًا فى أنصارىّ .

السيدُ العِمَاد، والمـاجدُ الجَوَاد، والمَلْجأ المَنِيع المَرِيعُ لمن يَرْتاعُ أو يَرْتاد، أدام الله عَلاءَه، وضاعف عنـدَه آلاءَه، بدْرُ الجمـلة الشريفه، وفرْع الدّوحة المُنِيفه، من آل قَيْسِ الجُود، وقيْلُ بَنِى قَيْـلةَ الباذلين الموجُود، أولـئك الذين عزّ المهاجرُون بإخائهم وسخائهم، فلا غرْوَ أن تَكْلَف الألسِـنةُ بمدْحه، وتُمـدَّ الأيْدى إلى مَنْحه، ويُصَدَّر باسمِه تاريخُ الأجداد فهو أحقُّ مفْتَتَحه، والأمرُ كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرِّف بنُ عميرة، عن الأمير أبى جَمِيـل زَيّان، إلى الأمير أبى زكريّا بن إسحاق .

الأميرُ الأجلُّ الهمامُ الأعلى حرسَ الله مَقامه، وأسـعد أيّامه، وظـاهرَ بالنُّصْرة مَضاءَه واعتزامه، راسخُ شَرفِ النِّجار، ثابتُ أصـلِ الفَخَار، مستَهَلُّ آلاءِ السُّحُب الغِزار، والعُيُون إليه سامِيَه، والهِمَم إلى مالديْه متراميَه، والصدورُ بالأمل فيه تُشْرَح، والنفوسُ الحُـرَّة إلى استرقاقه تَطْمح، ولا غرْوَ والكرم من بعض شِيَمه، والغِنى من فضلِ دِيَمه — أن يَسيرَ إليـه فى البر والبحْرِ كلُّ ذى رَغْبه، وتترامى نحوه ركائبُ الرّجاء من كل تُرْبه . ومخاطَبَتُنا هـذه إلى مجلِسه أيده الله عمّا نعلَمُه من كبير قَدْره، ونُوجبُه لعالى امْرِه، ونُبِيح به من طَيِّب خبرِه، وجميلِ ذِكْره؛ والأمرُ كذا وكذا .

وكما كتب أبو الحسن بن شَلْبون :

العِمَاد المذخر، والمَلاذُ الذى بولائه أفْخَر، جعل الله قَدْره عاليا، ودهْرَه بمحاسنه حالِيًا، ولا زال للنِّعم قابِلا وللأ[سواء] قاليا ، كتبتُ من مكان كذا ، والوُدُّ حِلْيةٌ يتألَّقُ رَوْنَقُها ، وشجرةٌ لا يسقُط ورقُها ، وإنها مغروسة ، لاتقبل بَذْرَ العَوادِى ، ومحروسةٌ، لايَقَع عليها من يَقَع فى شجر الوادى ؛ والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرِّف بن عميرة إلىٰ بعض الفقهاء شافعا مُوصِيًا :

المحلُّ الأعلىٰ ـ ضاعفَ اللهُ أنوارَ هِدايتِه ، وأبقىٰ على الجميع آثارَ عِنايَتِه ـ مستودَعُ الكَمَال ، ومَشْرَعُ الآمال ، ومَقْعد أرباب السُّؤال ، ومَصْعَد الصالح من الأعمال ، وإن فلانا من أمره كذا وكذا .

وكما كتب ٱبن أبى الخِصَال :

الشيخُ الأجلُّ أدام الله عِزَّه ونُعْماه ، ووصل رِفْعته وعُلَاه بتَقْواه ؛ مُجِلُّ قدْركم ، وملتزِم بِرِّكم وشُكْرِكم ؛ العارفُ بحقِّكم ، فلان ؛ فكتب يعظِّمكم كتبَ اللهُ لكم خيرا مستَمِرًا ، ورِضًا علىٰ ماترْضَوْنه ثابِتًا مستقِرًا ، من مكان كذا ، علىٰ الرسم الملتزَم من توفير عَلَائك ، والشُّكْر لآلائك ، والربُّ تعالىٰ يَنْهَضُ بحقكم اللازمِ الألْزم ، ويصلُ حِراسةَ مَجْدِكم الأتْلَدِ الأقدم ؛ بمنّه وفَضْله ، وإنَّ الأمر كذا وكذا .

وٱعلم أنه ربَّمـا أُتِى بعد ذكر النُّعوت بالسلام ، ثم بحمدِ الله تعالىٰ والصـلاة علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم وعلىٰ آله ، ثم الرِّضا عن الخلفاء المـاضين والخليفةِ القائم . وعلىٰ ذلك كانتْ طريقةُ كُتَّاب دولة الموحِّدين أتباع «المهدىِّ بنِ تُومَرْت» كما كتب أبو محمد بنُ عبد البرّ :

الشيخ الأجلّ، أدام الله عِزَّته، ووصل كرامتَه ورِفعته . مُجِلُّ قدْرِه، وملتزم بِرِّه وشُكْرِه، المسرورُ بما يُجْرِيه إحسانُه من طَيِّب ذكره .

سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعدَ حمدِ الله العظيم ، والصلاةِ على سيدنا محمد رسولِه الكريم ، وعلىٰ آله ـ والرِّضَا عن الإمام المعصوم مَهْدِيِّه ، وعن خلفائِه الأئمة الراشدين ـ والدعاءِ لسيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين ، ابن الأئمة الخُلَفاء أمراء المؤمنين ، بالنَّصْرِ الأعزّ ، والفتح الأتمّ الأوفىٰ ، فكتَبَ كتب الله لكم مجدًا لا يَهِي شرَفُه ، وسعدا لا ينِي طرفه ، من فلانة ـ حرسها الله ـ ولا ناشِئَ عن الله تعالىٰ وعميم لُطْفه إلّا الخيرُ الأكمل، والصُّنع الأجْمَلُ ، والحمد لله رب العالمين كثيرا، وإنَّ الأمر كذا وكذا .

قلت : وعلىٰ هذه الطريقةِ كانتْ كتابةُ أبي عبد الله بن الخطيب : كاتبِ ابن الأحمر بالأندلُس علىٰ القُرْب من زماننا .

ومنها — أن تفْتَتح المكاتبةُ بالخطاب، إما مع حذف ياء النَّسب أو مع إثباتها.
أما مع حذفها، فكما كتب أبو المطرف بن المثنّى :

سيِّدى ومَفْخَرى ، وعِصْمتى ووَزَرى ، ورُكْنى وعمادى ، وذَخيرتى وعَتادى ، أبقاك الله ناهِجًا سُبُلَ المكارم والمعَالى ، مُوَقًّى حوادثَ الأيام والليالى . كُتُبى أعزّك الله عن عهدٍ حَسَنٍ لك قد أُحْكِمتْ معاقِدُه، ووُدٍّ محْضٍ فيك قد صفَتْ مَوارِدُه، ونفْسٍ ترتاح لذِكْرَاك ، ولسانٍ لاهٍ بين محَاسنك وعُلَاك، قد انْفَسح فى نَشْر فضائلك مَيْدانُها، وفاق فى وَصْف فَوَاضِلك بيانُها، فهى تَنْظِم عُقودَ مجْدِك،على أجياد شُكْرِك، وتحُوك من بُرُود تَقريظك وثَنائك ، خِلَعًا لمجْدِك وسَنائك، وشْيُها الذِّكْر الخَطير، وطِرازُها الترفيع والتَّوقِير، تكسر عَصْبَ عَدَن، وتُعفّى علىٰ وَشْى اليَمن ،

وتُطلعُ من رِياض أخلاقك ، فى منَابت أعْراقك ، ما يُزْرى بنَسِيم المِسْك تَضَوُّعُ عَرْفه وآنتشاره ، ويُرْبى على حُسْن النجوم الزاهرة طوالِعُ أزهاره وأنواره ، وأخْلِقْ بمَنْ جمع الله العالَمَ فيه ، وحَرس مَعاهِدَ البِرّ بكريم مَساعيه ، أنْ لا تُعزَى خَلّةٌ نَبِيلةٌ إلا إليه ، ولا تُقْصَر مَنْقَبة جليلةٌ إلّا عليه ، ولا تُؤْثَر مأْثُرةٌ نَفِيسة إلّا عنه ، ولا تُقْتَبَس سِيرةٌ جميلة إلّا منه ، والله تقدّسَ آسْمُه يَحْمِى هذه الأوصافَ البديعه ، والخِلالَ الرفيعه ، من طوارِقِ الدَّهر ونَوازِل الغِيَر ، ويجعلُ عليها يَدَه ، ويَصْرِف عنها معَرّة كل خطب وشدّه ، بحَوْله وطَوْله ؛ ويكون الأمرُ كذا وكذا .

وأمّا مع إثبات ياء النَّسَب[(١)] ، فكما كتب أبو المطرّف بن الدبّاغ إلى بعض الأُدَباء عند وروده إلى بلاده :

يامَوْلاىَ ، وسيِّدى ، العظيمَ شأنُه وأمْرُه ، العالِىَ صِيتُه وذِكْرُه ، ومَنْ أبقاه الله فى عِزّ لا تُنْفَصِم عُرَاه ، وحِرْز لا يُسْتَباح حِماه ، لم أزَلْ - أبقَى الله سيّدى ومَوْلاىَ - تسمُو بى إلى الكِتابة هِمّه ، وتترامَى بى إلى البَلاغة عَزْمه ، حتّى تذلّلَتْ لى صِعابُها فامتطَيْت ، وتَسهّلَتْ لى حُزُونُها فارتَقيْت . ولَمّا رُفِعتْ لى عن غَرائبِها الأسْتار ، وعلِمْتُ من غوامضِها الأسْرار ، وفُزْتُ بالمُعَلّى من سِهامها ، والمَوْفُور من أقسامها ، جعلت بأىّ أئمتها أأتَمّ وأهتَدى ، وإلى أى رُؤسائها أنتَسِب وأعتَزى ، ناظرًا فى ذلك إلى شائع الأخبار ، ومُتَداوَل الآثار ، فوجَدتُ الألْسِنةَ إذا تناولَتْ صِفةَ سِواه ، تحلّتْ بعضَ حِلاه ، أو أرْقَته إلى رُتْبةٍ من العَلْياء ، تمثّلَتْ به فى الرِّفعة والسَّناء ، ثم تُفْرِده أعزّه الله دُونَها بالفَهْم المَتين ، والعِلْمِ المشْهُور ، والحِلْم المتعارَف ، والفضل المُتواصَف ، والرُّتْبة الساميه ، والجَلالة المتناهيه . فكُلّما رأيْتُ محاسنَ مَجْده تُجْلَى ، وسُوَرَ فضله

(١) لم تثبت فيه ياء النسب كما هو ظاهر فتأمل .

تُتْلىٰ، هممت أنْ أطيرَ إلىٰ حضرته بجناح الإرْتياح، وأرْكبَ إلىٰ أُفُقه نوّره اللهُ أعناق الرِّياح، والأيّامُ تقْطعُني بمصَائبها، وتقيّدُني بأحداثها و بحوائبها، حتّى قضى اللهُ أنْ يَرِدَ هذا الأُفُقَ فأفرخَ الأمل بغير نَصَب، وأنال البُغْيَة بغير طَلَب :

ولَيْسَ الّذى يَتّبعُ الوَبْلَ رائدًا * كمَن جاءه فى دَارِه رائدُ الوَبْلِ

ومنها ـ أنْ تُفْتتَح المكاتبةُ بالتحيّة والسلام .

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة :

تخُصّ الآبنَ محبّةً ومِقَه، والعبادَ آعتدادا بجانبه وثِقَه، حفظ اللهُ نجَابته، وجعل لِداعى السِّيادة تلْبيتَه و إجابتَه، تحيّةُ الإجلال والتّكْرِمه، والمودّةِ الخالصةِ المتحكّمه، ورحمةُ اللهِ تعالىٰ وبركاتُه، من مكان كذا، والوُدُّ كافٍ، والعهدُ بالصَّوْن من جميع جوانبه مكتنف، وتلكم الذات السنيّةُ ذخيرة جليلة، وأمل لاتُخْطى منه مخيله، وهبةٌ يكْذب معها أن يُقال الأيّامُ بخِيله . وكُنّا نَظُنُّ أنّ بنـاءَ الكرم صمّ صداه، ومَرْبَعَ الفضل عاصِبٌ برداه، وغائبٌ عن الرُّشْـد أداه، وتقول : ما كلُّ مَنْ أقعدتْه العَيْلَةُ عُميله، ومتىٰ يفطن عمير عمر وبحيله، فكفا بكفاتها(١)، وهل سِوىٰ قيسٍ لرحىٰ العجُوز عدمتْ جداتها، حتّى تمثّل هذا المجاهدُ من طَرَفيه، المستقبِل آثار سلفَيْه، حفظ اللهُ الألفاظ والألْسِنه، وحملةَ الأقلام والأسِنّه .

وكما كتب أبو زيد الفازازى .

السـلامُ الكريمُ العميم، علىٰ الشيخ الذى أثْبُتُ علىٰ وُدّه فلا أتحوّل، وأُطْنِبُ فى حَمْده فلا أستَعيرُ ولا أتأوّل، وأتعلّل بذكْره عنـد عدم مَرْآته ولأمرٍ مّا أتعلّل ؛ فلان ـ أدام اللهُ رِفْعته، وحرَسَ من الأسْواء مُهْجته . كتب أخُوكم، البَرُّ بكم، الشَّيِّق

(١) كذا فى الأصل ولم نقف عليه فى غيره بعد البحث .

إليكم، الشاكرُ لمحاسنكم، المسرورُ بما سمِعه من صَلاح أحوالكم، فلان، ولا جديدَ بمَنِّ الله تعالىٰ إلا الخيرُ والحمدُ لله كثيرا والأمرُ كذا وكذا .

ومنها — أن تُفتتح المكاتبةُ بالكناية عن المكتوب عنه .

كما كتب ٱبنُ أبي الخِصال إلىٰ بعض الكُتّاب يسأله حاجةً :

معظِّم الشيخ الأجلِّ أبي فلان، ومُجِلُّه المكبِّر له فلان، أعلىٰ الله قدرَكم، وأوزَعَ أولياءَكم شُكرَكم، أيادِيكم أدام الله كرامتكم أوكفُ من الغَمام، ونِعَمُكم ألزمُ للأعناق من أطواقِ الحَمام، وإنَّ وليَّكم ومعظِّمكم يحتاجُ إلى كذا وكذا .

ومنها — أن تُفتتح المكاتبةُ بلفظِ من فلان .

كما كتب [بعضهم] من فلان، إلىٰ الشيخ الحافظِ الأكرمِ أبي فلان : أدامَ الله كرامَته بتَقْواه، فالكتابُ إليكم كتب اللهُ لكم أحوالًا صالحه، وخَيراتٍ عليكم غاديةً رائحه، من موضع كذا، والبركاتُ متوافره، والخيراتُ متظاهِره، والحمدُ لله تعالىٰ، وإنَّ الأمرَ كذا وكذا .

ومنها — أن تفتتح المكاتبة بلفظ إلىٰ فلان .

كما كتب بعضهم إلىٰ والده .

إلىٰ مَوْلايَ المعَظَّم وأبِي، المتكفِّلِ بتعْلِيمِي وحُسْنِ أدَبِي، أبقاهُ الله ناظرًا إليَّ بعينِ رِضَاه، وأعانَني علىٰ الجَرْي في بِرِّه علىٰ حُكْمِ الشَّرْع القويم ومُقْتَضاه ؛ من ٱبنك المعَظِّم لك، بلْ عَبْدِك، المتطلِّع إلى ما يَصِل من الأنباء الكريمة من عِندِك، المُواصِلِ المَسْعىٰ في شكرِك وحَمْدِك، فلان : بأبِي كتبْتُه كتب الله لكم لَيانا من العَيْش وخَفْضا، وجمعَ بعد الافتراقِ بعْضًا منّا وبعضا، ويَسَّر لي بطَوْله ومنّه أن يصْفَح عنّي وأن يَرْضىٰ، من موضع كذا، ولا جَديدَ إلا نِعمٌ من الله عزَّ وجلَّ تُراوِح

وتُغادِى، وتَجْرِى الخواتِمُ منها علىٰ حُكْم المَبادِى ، وشوقٌ إليكم يَعْمُر أحناءَ ضُلُوعى وفُؤادِى ، ويَحْسِم عنِّى قَطِيعَىْ دَمْعِى الهَتُونِ وسُهادِى ؛ واللهُ جلَّ وعزَّ يُيَسِّر ٱنقضاب غُربة النَّوىٰ ، ويُرِيح النفُوسَ من مُحْرِق اللَّوْعة ولاعِجِ الجَوىٰ ؛ والأمر كذا وكذا .

المَهْيَــــع الثانى

(فى الأجْوبة)

(وهى علىٰ ما تقدّم فى أجْوِبة المَشارقة من أنها علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(أن يفتتح الجوابُ بما يُفْتتح به الأبتداءُ، ثم يقع التعرّض إلىٰ وُصُول الكتاب، وذكر الجواب عنه)

كما كتب أبو عمرو الباجى :

وَعْدُكَ الكريمُ ـ أدام الله عزَّكَ ـ دينٌ، وقَضاؤُه شَرَف وزَيْن، ومِثْلُك من تَحلَّى بمَحاسِنِ الشِّيَم، وزاحَمَ فى السِّيادة بالمَنْكِب العَمَم ؛ وحفِظَ العهدَ لِما أُضِيع، وٱشترىٰ المَجْد بما بِيع ؛ والتزمَ للوَفاء شَرْطا لايُفْسَخ، ورآه شَرْعا لايُنْسَخ ؛ ووصل كتابُك العزيزُ فى معنىٰ كذا وكذا .

الضـــرب الثانى

(أن يُفتتح الجوابُ بورُود الكتاب ووُصوله ٱبتداء)

كما كتب ٱبن أبى الخصال :

ورَدَ كتابُك فى أمر فلان يَفْرِضُ الحملَ عليه فى النُّفوذ لوِجْهته ، والتقدُّم إلىٰ رُتْبته ، وليس عندى إلا عَوْنٌ وإنْجاد ، وطاعةٌ وٱنقياد ، غيرَ أنَّ فى الأمر كذا وكذا .

الجملة الثانية

(فى خَوَاتم المكاتَبات علىٰ ٱصطِلاحهم ، وهى علىٰ أساليبَ)

منها — أن يُختم الكتابُ بالسلام المجرَّد عن الدعاء .

كما كتب أبو عمرو الباجى فى خاتمة كتاب :

وأَقرأُ عليك سيِّدى ، وأسنىٰ عُددى ، أجزَلَ السلام وأحفلَه ، وأتمَّه وأكملَه .

ومنها — أن يُختَم بالدعاء .

كما كتب أبو المطرِّف بنُ الدبَّاغ فى خاتمةِ كتاب :

والله لايُخلى مولاىَ من عبدٍ يسترِقُّه ، ومنْعِم يُنْعِم عليه [بما] يستحقُّه ، وجميل يُولِيه ، وصُنْع يُسْدِيه ، بمنّه وجميل صُنْعه .

ومنها — أن يختم بذكر التودُّد والمحبَّة .

كما كتب أبو جعفر الكاتب فى آخرِ كتاب :

وإن لم يكُنْ لى من الحقِّ ما لا أتبسَّـط به عليه ، فَلِى من الوُدِّ ما أَمُتُّ به إليه ، فَحَسْبى به سُلَّما إلىٰ فَضْلك ، وذرِيعةً إلىٰ مَجْدِك ، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

ومنها — أن يختَم باستماحةِ النظر فى أمرِ المكتوبِ عنه .

كما كتب أبو المطرِّف بن المثنَّى فى خاتمة كتاب :

ولكَ الطَّوْل العامّ ، والفَضْل الزاهِر ، فى ٱعتبار أمْرِى ، وتحقيق خبَرى ، والسلام ؛
إلىٰ غير ذلك من الخوَاتِم التى تستدعيها المكاتبَـةُ وتستوجبُها المَقاصد ، وفيما ذُكر من الصُّدور والخواتِم ابتداءً وجواباً مَقْنَع لمن تأمَّل ، والله المستعان فى الأمرِ كلِّه .

المقصـــد الثالث

(فى الإخوانيّات المستعملة بالديار المصرية، وفيه ثلاثةُ مصطَلَحات)

المصـــطلح الأوّل

(ماكان الأمرُ عليه فى الدولة الطُّولونيّة وماقاربها مما جرىٰ عليـه ٱبنُ عبدِ كان وغيرُه، وفيـه ثلاثة مَهَايِعَ)

المَهْيَـــعُ الأوّل

(فى الصُّدور، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الأبتــداآت، ولهم فيــه أساليبُ)

الأُسْـــلوب الأوّلُ

(أن تفْتَتح المكاتبةُ بالدعاء، وعليه غالبُ كتابتهم، وهى علىٰ أنماط)

منها — الدعاءُ بطُول البقاء وما فى معناه.

كما كتب ٱبنُ عبدِ كان فى صَـدْر مكاتبة: أطال اللهُ بَقَاءَك، ففى إطالته حياةُ الأنَام وأُنْس الأيام والليالى، وأدام عِزّك، ففى إدامته دوامُ الشَّرف ونُمُوّ المَعالى، وأتم نعمتَه عليك فإنها نعمةٌ حلَّت محلَّ الآستحقاقِ، ونزلَتْ منزلَة الآستِجاب، ووقفَتْ علىٰ مَنْ لاتنكِرُه الآلاءُ مكانَه، ولا تُنكِرُ الفواضل محَلَّه.

وكما كتب: عمّر اللهُ بك الأزمِنـةَ والدُّهور، وآنَس ببقائك الأيّامَ والشُّهور، وأمتعَ بدَوام عِزّك السُّعداءَ بحظّهم منك.

ومنها — الدعاء بدوام النّعمة .

كما كتب : أسبغ اللهُ عليك نِعَمه الراهنة بنِعْمة المستَظْفِر، وصانها لَدَيْك بإيزاع الشُّكْر عليها ، فلم أر ولله الحمدُ نعمةً قصدَتْ مستقرّها ، وتوخّت وَلِيَّها ، وتمنّتْ كُفُؤها، إلا نعمتَك أكسبتْ أولياءَها عِزًّا ونَضْرة، وملأتْ أعداءَها ذِلّة وغَضاضة، وتمكّنتْ بمحلّ الصّيانة والرِّعاية، وخيّمتْ بمستَقرّ الشُّكر والحمد .

ومنها — اطّراح الدعاء بدَوام النعمة لتقييدها بموجباتها منها .

كما كتب : قد كفى الله عزّ وجلّ مَئُونَةَ الدعاء لنِعْمتك بالنَّماء : لأنها توخّتْ لدَيْكَ محلّها، فحلّت بفنائك ساره، مطمئنّة قاره، تستَوْثِر مِهادَها قِبَلَك ، وتستَهْنِئ مَوارِدَها عِنْدك، ولم تزل تائقةً إليك ، متطلّعةً نحوَك بما آستجمع لها فيك : من لطيف السِّياسة وحُسْن الاحتمال لأعباء المَغارم ،فهَنَا كها الله متصلةَ البَقاء بطُول مُدّة بقائك، ومتحلّيةً بحسن فِنائك؛ فلا زِلتَ لعَوارف النعم مستَدْعِيا ، وللشكر بالزيادة فيها ممتريا؛ وبدوام الحمد لَرَدْفها مستَمْرِيا .

ومنها — الدعاء بجُعلتُ فِداك .

كما كتب : جعلَني اللهُ فِداك، فإنّ فى ذلك شرفًا فى العاجل ، وذُخْرَ العُقْبى فى الآجل، وخَيْرَ تُراثٍ لمخلّفى من بعدى . دعاءً أخلصَتْه النيه، وصدّقَتْه الطويّه .

ومنها — آستكراه الدعاء بالتفدية .

كما كتب : إن قلتُ فى كُتُبى إليك : جعلَنى اللهُ فِداك، فأكونَ قد بخَسْتُك حظّ إحسانِكَ إلىّ، وحقّ مفترَضِك علىّ : لأنها نفْس لا تُوازِنُ ساعةً من يومك ، ولا تُوازِى طَرْفةً من دَهْرك ، وإنما يُفدَى مثلُك بالأنفُس التى هى أنفَس من الدنيا وأعرَضُ من أقطار الأرض .

ومنها — تَفْدِيَةُ النِّعمة إعظاما لها :

كما كتب : جعلنى اللهُ فِداءَ نعـمتِك التى علَتْ ذِرْوةُ سَـنامها ، وفاضَتْ دِرَّةُ سمائها ؛ فعمَّرتْ أقطارَ الآملين ، ونَضَّرت جَنابَ ناحيةِ المعتَمِدين .

ومنها — الدعاء بصَلاح الدنيا وغِبْطة الآخرة :

كما كتب : أسعَدَك الله بعَواقِبِ قَضائه وقَدَرِه ، ووهَبَ لك الصَّلاحَ فى دِينك والسلامةَ فى دُنْياك .

ومنها — الدعاء بكَبْت العَدُوّ :

كما كتب : مكَّن الله يَدَك من ناصيةِ عَدُوّك بالصَّوْلة عليه ، ومن زِمَام وَلِيِّك بالإحسان إليه ، وبلَّغك من كِلْتا الحالتَيْن ما يَمْى على تأمِيلِك ، ويُوفِى على تمنِّيك .

ومنها — الدعاء المشترَك بين المكتوب عنه والمكتوب إليه :

كما كتب : أدام الله أُنْسِى بحَياتك ، وحَرَسنِى من الغِيَرِ فى نِعْـمَتك ، وأكرَمَنى بصِيانةِ أيّامك ولَياليك ، وأعزَّنى بذُلِّ عدُوّك وقَمْع حاسِديك .

ومنها — الدعاء بِطيبِ الحياة :

كما كتب : عِشْ أطيَبَ الأعمـار ، مُوَقًّى من سُوء الأقْدار ، مبلَّغا نِهايةَ الآمال ، مغبوطًا فى كلِّ الأحْوال ، لا ينقَضِى عنـك حقُّ عارفةٍ حتّى تُجَـدِّد لك أُخرى أجَلَّ منها ، ولا يمرُّ بك يومٌ من الأيّام إلّا كان مؤمِّنًا(١) على أمْسِـه مقصِّرا عن فضـلةِ غَدِه .

---

(١) لعله موفيا تأمل .

ومنها — الدعاء باقتضاء العَدْل والإنصاف :

كما كتب : جعلك اللهُ ممَّن ينظُر بعَيْن العَـدْل ، ويَنْطِق بلسان القِسْـط ، ويَزِنُ بقِسْطاس الحقِّ ، ويَكِيل بمِعْيار الإنْصاف .

ومنها — الدعاء بإيزاع الشُّكْر .

كما كتب : وصـلَ اللهُ لكَ كلَّ نِعْمة يُنْعِمُها عليـك من الشُّكْر بما يكون لحَقِّها قاضِيا ، وللمَزِيد إليهـا داعِيا ، ومن الغِيَرِ مؤمِّنا ، وللسَّلامة مُوجِبا .

ومنها — الدعاء للحاجِّ بالبَلاغ .

كما كتب : أوْطاكَ اللهُ فى مَسِيرِك أوْثَرَ المَطَايا ، وخَوَّلك فيما نوَيْتَه أسبَغَ العَطَايا ، وأوردَكَ الهِدايةَ إلىٰ كرِيم المُشاهَدة وزَكِىِّ المواقِف وأوْلاها بالزُّلْفة المَقْبوله ، والقُرْبة المأْموله .

ومنها — الدعاء للمسافر .

كما كتب : جعلكَ اللهُ فى حِفْظه وكَنَفِه ، وأحاطَكَ بحَيْطَتِه ، وجعل سَـفَرك أيمَنَ سفَرٍ عليك ، ورجع لك بدَرْك الحاجة ، وبُلُوغ الأمَلِ ، ونُجح الطِّلْبة ، ونَيْل السُّـول .

ومنها — الدعاء بالعافِيَة من المَرَض .

كما كتب : مسَحَ اللهُ ما بِك ، وعاد بالبِرِّ عليك ، وعَجَّل الشِّفاءَ لك ، ومَحَّصَ بَلْواك .

ومنها — الدعاء للوُلَاة .

كما كتب : أجرىٰ اللهُ بالخير يَدَك ، وسَمَا (؟) بالعِزِّ طَرْفك ، وأوطأَ كُلَّ مَكْرُمة قَدَمَك ، وأطال إلىٰ كلِّ غاية هِمَمَك ، وبلَّغَك أقصىٰ محبَّتك .

ومنها — الدعاء فى الأُضحِيَة بقَبُول النُّسُك .

كما كتب : جعلك الله بقَبُول النَّسيكة والقُرْبان، فائزًا بالأَجْر والرِّضوان، مُخْلِصا لله بالإيمان، فى السِّر والإعلان، مؤدِّيًا لما ٱفترَض عليك، شاكِرًا لإحسانه إليك .

ومنها — الدعاء بالهَناء فى الأعياد .

كما كتب : عَرَّفَكَ اللهُ فى هـذا العيدِ المبارَك من السَّلامة وعُمومِها، والعافيـةِ وشُمولها، والعارِفةِ وسُبُوغها، والحِياطة وكَمالها، والحِمَاية وجَمالِها، أفضلَ ما عَرَّفك فى ماضِى أعيادِك، وسالِف أعْوامك .

ومنها — الدعاء بدَفْع النوائب .

كما كتب : كان اللهُ جارَكَ من لجَائع الدَّهْرِ ونُوَبه، ووَلِىَّ إنعامِ النِّعمة فيما آتاك من فَضْله، وتَطَوَّل عليك من حُسن الحِياطة لما تولَّاك والذَّبِّ عمَّا أَوْذاك .

الأسـلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : كتابى أو كتبت)

فأمَّا كتابى، فكما كتَب ٱبنُ عبد كان : كتابِى إليْك، وأنا أستَعْتِب الأيَّام فِيك، وأُصَانِعُ الزَّمان فى تَقْرِيبـك، ورَبْعُ الجوار الذى كنا نَسْكُن تحتَ ظِلاله، ونتفيَّأ بَرْونَق جَماله، بأجلِّ تُحَفه، وأَيْسر أُلْفه، وأعذَب مُشاهدة، وأصدَق مُشافَهَة، ولعل أن يرتاحَ فيَشْعَب صَدْعا، ويُؤَلِّف جَمْعا .

وأما كتبت، فكما كتَب ٱبنُ عبـد كان أيضا : كتَبْتُ وأنا من حَنِين الصَّبابة إلَيْك، وإرْزام الشَّوْق نَحْوَك، وأَلِيم التشوق إليك، ولاعِج اللَّوْعة بك، على ما أسألُ اللهَ أنْ يرحَمَ ضَعْفى ويتصدَّق علَىَّ برؤيتك، ويَهَب لى النظَرَ إلى وَجْهك وجمالِ غُرَّتك، التى هى حَلِيفُ الجَذَل، ونُزْهة الأمَل .

الأسلوب الثالث

(أن تُفتتَح المكاتبةُ بالخطاب بأنا)

كما كتب : أنا من جُملة صَنائِعك ، وحَفَظة ودائعك ، وشَكَرة إحْسانك ، متىٰ تصرَّفتُ فى البلاد ، فأنا المعروفُ بمعروفِك ، والعائش بجدْواك ، وأنت مَنْزَع هِمَّتى وقُرَّة عَيْنى ، ومَدار أملِى ، ومحلُّ رَجائِى .

الضـرب الثانى

(الأجـوبةُ)

وٱبتداؤها إما كما فى الصُّدور الٱبتداآت كما تقدّم ثم يقع التعرُّض لوُصُول الكتاب ؛ وإما بأن تُصَدَّر بوصُوله وهو الأكثر .

كما كتب ٱبن عبدِ كانَ : وصلَ كتابُك فدَفَع تَبارِيحَ الشَّوق ، وقَمع كآبَةَ البَيْن ، وأطفأ لَهِيبَ الحُرْقة ، وبَرَّدَ حَرَّ الصَّبابة .

وكما كتب : وصل كتابُكَ مشتَمِلا من أنواع البِرِّ ، علىٰ ما يقصُرُ فى جَنْب أيْسَرِه أعظَمُ الشُّكْر .

وكما كتب : وصلَ كتابُكَ المصَدَّرُ بجواهر لفْظِك ، وبدائع مَعانِيك ، ومحاسِنِ نَظْمك ، مستودِعاً ما لا يُقْدَرِ علىٰ حمده وشُكْره إلَّا بالٱعتراف بالعجْز عنه ؛ وما أشبه ذلك .

المهْيَـــــع الثانى
(فى خواتم الكتب)

وكان آختتامُ المكاتَبات عند أهل هـذا المصطَلَح علىٰ ماتقدّم فى مكاتبات أهـل المَشْرق من آستماحة الرأى : إما بلفظ فإن رأيْتَ :

كما كتب آبن عبد كان : فإنْ رأيتَ أن تأْتِىَ فيه مُوَتِّنفا ، مالم تزَلْ تأتيه سَلَفا ، فعلتَ .

و إما بلفظ فرأْيُك .

كما كتب : فرأْيُك فيه بمـا أنت أهلُه ، فإن الرأى [الذى] أنتَ أهلُه ، فوقَ مايلتمسه المُسْرِف فى هِمَّته ، والمتَبَسِّط فى أُمنِيَّته .

وكما كتب : فرأْيُك فى ذلك بمـا تقْضى به الحقَّ وتَصل به الذِّمامَ ، وتحفَظُ به الحُرمةَ وتُصدِّق به الأمل ، وتقْتعِد به الصَّنِيعةَ ، وتستَوْجب به الشُّكر .

المَهيَـــعُ الثـالث
(فى عُنوانات الكُتُب)

ومصطلَحُهم فيه علىٰ نحو ماتقدّم فى مكاتَبات أهل المَشْرق : من كتابة إلىٰ فلان من فلان ، أو من فلان إلىٰ فلان .

فأمّا مايُكتب إلىٰ فلان من فلان . فكما كتب آبنُ عبد كان : للسيِّد الذى آستَعْبد الأحرار بفَضْله .

وكما كتب : لمَنْ قُرْبه يُمْن وسعادةٌ ، ونأْيُه نكَد ومِحْنة .

وأما مايكتب من فلان . فكما كتب : من صَرِيع الشَّوقِ إليه ، وأَسِيرالرِّقْبة عليه .

وكما كتب : ممَّنْ لا يتمنَّى الخيرَ إلَّا له ، إذ كان لا يناله إلّا به .

المصطلح الثانى

(من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحالُ فى الدولة الأيوبيَّة مما جرى عليه القاضى الفاضل ومن بعده . وهو على قسمين)

القسم الأوّل — الابتداء : وليس لمصطلحهم ضابطٌ فى الابتداء ولا فى الترتيب فى الرِّفعة والضَّعة، بل افتتاحاتُهم فى ذلك متباينةٌ .

فمن ذلك الافتتاح بالدعاء، وهو أكثر ما يقع فى مكاتباتهم ، والغالبُ فى ذلك الدعاءُ للمجلس، كما كتب القاضى الفاضلُ إلى العماد الأصفهانىّ : أدام الله أيامَ المجلس التى لحسناتِ المُدلِّ مُديله ، ولعثَراتِ المُقِلِّ مُقيله ،ولمعاطف العزّ مُميله ،ولمقاطف الفوز مُنيله ، ولقِداح الجدْوى مُجيله ، ولا زالت الآرابُ بمكارمه ناجحهْ ، والآراءُ بمراسمه ناجحهْ ، ومتاجرُ المفاخر بموالاته رابحهْ، وأيدى الآمالِ لأياديه بمُصافاته مُصافحهْ ، وأرواحُ أوليائه برَوْح آلائه فى مُواطاة أعْطياته عابقةً فائحه ، وأدعيةُ الداعين لأيامِن أيامِه، المذعنِين لعُهود إنعامه، طيِّبةً صالحه .

ومن ذلك افتتاحُ العماد الأصفهانىّ فى اعتذار تأخُّر المكاتبات : إنْ تأخّرتْ مكاتباتِى، فإنّ العُذْر معلوم، والأجْر محتوم ، والقلَم مصْدود، والفم مسْدود، والبلد محصور .

إلى غير ذلك من أساليبهم المشهورة التى لا يسَعُ استيعابُها، ولا حاجةَ إلى الإمعان فى ذكرها . (١)

---

(١) لم يذكر القسم الثانى وهو قسم الكلام على الخواتم ولم يترك له بياضا نعم يفهم ذلك مما تقدم فى الكلام على الخواتم العمومية فتنبه .

المصـــطلح الثالث

(من مصطلحات الديار المِصْرِيَّة فى الإخوانِيّات، ما جرىٰ عليه الاصطلاحُ فى الدولة التُّرْكِيَّة، مما رتَّبه القاضى محيى الدِّين بنُ عبد الظاهر، والشيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبىّ، والمقرّ الشِّهابىُّ بنُ فضل الله، ومن جرىٰ مَجْراهم: من فُضَلاء الكُتَّاب إلىٰ زماننا، مما هو دائرٌ بين أعيانِ المملكةِ وأكابِرِ أهل الدولة: من نُوّاب السَّلْطنة وسائرِ الأُمَراء والوُزَراء، ومَنْ فى معناهم: من أعيان الكُتَّاب ومَنْ نَهَج نَهْجَهم من أرباب الوظائف)

وفيـــه مَهْيعان:

المهيـــعُ الأوّل

(فى رُتَب المكاتبات المصطلَح عليها)

وقد آختلفتْ مقاصِـدُهم فى ترتيبها آختلافًا متقارِبا فى الزيادة والنقْص والتقديم والتأخير، مع مراعاةِ أُصول المَراتب. وها أنا أذكُر ما آستقرّ عليه الحالُ من ذلك، وأُنبِّهُ علىٰ ماخالفه من ترتيبهم المتقدِّم الذِّكر: لتحصُلَ الإحاطةُ به، ويُعلَم ماجرىٰ عليه أهلُ كلِّ عصرٍ منهم مما لعلَّ مختارا يختارُه، أو يَنْسُجُ علىٰ مِنْواله، مُنَبِّها علىٰ وَهَم من وَهِم فى شيءٍ من ذلك.

وآعلم أنهم قد بنَوْا هذا النوعَ من الإخوانِيّات علىٰ قاعدتين، تتعيَّن معرفتهما قبل الخَوْض فى رُتَب المكاتبات:

القاعدة الأُولىٰ — فيما يتعلّق بورق هذه المكاتباتِ.

قد جرتِ العادةُ أن تكونَ جميعُ هذه المكاتباتِ: من الأعلىٰ إلى الأدنىٰ، ومن الأدْنىٰ إلى الأعلىٰ، ومن النظير إلى النَّظير، فى ورَق قَطْع العادة دُونَ مافَوْقه من مَقادير

قَطْع الورق المتقدّمةِ الذكر ، غير أنّ أعيانَ أهـل الديار المصرية يكاتَبُون فى الورق المِصْرىّ ، وأعيانَ أهـل الشأم يكاتَبُون فى الورق الشامىّ : لكثرةِ وُجُوده عندهم ، والمعنىٰ فى ذلك أنّ كُتُبَ السلطان الصادرةَ عنـه إلىٰ جميع أهل المملكةِ من النُّوّاب وغيرهم فى هذا القطع ، فلا جائزأن تعلُوَ مكاتبةُ أحدٍ منهم علىٰ مكاتبةِ السلطان فى ذلك .

ثم قد آصطلَحُوا علىٰ أنْ يكونَ فى أعلىٰ المكاتبـة عن كلّ أحدٍ من أعيـان الدولة قبلَ البسملة وصـلٌ واحدٌ بياضا ، إذ كان أقلُّ ما يُجْعَـل بياضا فى كُتُبِ السلطان وصلين فاقتصَرُوا علىٰ وصـلٍ واحد ، كى لايُساويَهُ غيرُه فى ذلك . وآصطلَحُوا أيضا علىٰ أنْ لا تنقُصَ المكاتباتُ المذكورةُ عن ثلاثة أوصال : الوصلُ الأبيضُ فى أعلىٰ المكاتبة علىٰ ما تقدّم ، ووصلانِ مكتوبانِ : إذ لو نَقَص عن ذلك، لخرج الكتابُ فى القِصَر عن الحدّ فيُزدرىٰ ، أما لو دَعتِ الضرورةُ إلىٰ الزيادة علىٰ الثـلاثة لزيادةِ الكلام فلا مانـعَ منه . وآصطلَحُوا علىٰ أن يُترَك للكُتّاب حاشيةٌ بيضاءُ تكونُ بقدر رُبُع الدَّرْج علىٰ ما تقدّم ذكره فى غيرهذا الموضع .

القاعدة الثانية — فيما يتعلّق بخطّ هذه المكاتباتِ، وكيفيّة أوضاعِها .

قد آصطلَحُوا علىٰ أنّ جميعَ هذه المكاتَبَات تُكتَب بقلَم الرِّقاع علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ قَطْع الورق [من] أنّ لِقَطْع العـادة قَلَمَ الرِّقاع .وآصطلحُوا أيضـا علىٰ أنْ تكونَ كتابةُ البسملة فى أوّل الوَصْـل الثانى من المكاتَبة ، وأن يكون تحتَ الجَلالة من البسـملة لَقَبُ المكتوبِ عنـه المضافُ إلىٰ مَلِكه أو أميره ؛ فإن كان المكتوب عنه من أتباع السلطان كنُوّاب السلْطَنة وغيرهم من الأمراء والوُزَراء ومَنْ فى معناهم من رُؤَساء الكُتّاب السلطانية ، كتب المَلَكىّ الفلانىّ ـ بلقب مَلِكه السلْطان ، مثل المَلَكىّ الظاهرىّ ونحو ذلك كما فى هذه الصورة :

بسم الله الرحمن الرحيم

المَلَكى الظاهرى

وإن كان المكتوبُ عنه من أتباع الأمَراء كإستدّار أميرٍ ونحوه، آنتسب فى كتابته إلىٰ لَقَب أميره الخاصّ مما يُضَاف فى التلقيب إلىٰ الدِّين ؛ فإنْ كان أميرُه لقبُه سيفُ الدين مثلًا، كَتَب بدَلَ المَلَكى الفلانىّ : السيفى؛ وإن كان لقبُ أميره ناصرالدّين كتب الناصِرى؛ وإن كان لقبُه علاءَ الدين كتب العَلائى؛ ونحو ذلك. وإذا كتب تحتَ الجَلالة من البسملة المَلَكى الفلانىّ ونحو ذلك ، جعل ما قبله فى السطر بياضًا وما بعده بياضًا ، ويكون ذلك قطعةً من سطر مفردةً بذاتها . وآصطلَحُوا علىٰ أنه كلّما دقَّ القلمُ وتقاربَتِ الأسطُر، كان أعلىٰ فى رُتْبة المكتوبِ إليه، وكلما غَلُظَ القلمُ وتباعدتِ الأسطُرُ كان أنزَلَ فى رُتْبة المكتوب إليه . وآصطلَحُوا علىٰ أن فى الرتبة العليّةِ من المكاتبات يكون السطرُ الأوّلُ من المكاتبة تِلْوَ المَلَكىّ الفلانىّ وما فى معناه ملاصِقًا له، وفيما دُونَ ذلك من المكاتبات يُتْرَك بياضٌ يسير، ولا يكتَبُ فيه شىءٌ؛ وكأن المكتوبَ عنه يقولُ للمكتوب إليه هذا محلُّ العلامة ، ولكنّى قد تركت الكتابةَ فيه وكتبت بحاشية الكتاب تأدُّبا معك ورِفعةً لقدْرك ؛ وفيما دُونَ ذلك يُتْرَك بياضٌ أوسعُ من ذلك ويكتُبُ فيه المكتوبُ عنه علامَتَه علىٰ ما سيأتى بيانُه فى مواضعه إن شاء الله تعالىٰ . وآصطلحُوا علىٰ أنه بعد آنتهاء الكلام فى المكاتَبة يكتَبُ "إن شاء الله تعالىٰ" فى خَطِّه، ثم يكتَبُ التاريخُ فى سطْرَيْن: اليومُ والشهرُ فى سطر ، والسنةُ فى سطْر، ثم تكتَب الحمدلةُ والصلاةُ علىٰ النبىّ صلىٰ الله عليه وسلم فى سَطْر، ثم الحَسْبَلةُ فى سطر علىٰ ماتقدم بيانُه فى الكلام علىٰ الفَوَاتح والخَوَاتم فى المقالة الثالثة .

ولْيُعْلَمْ أنَّ هذه المكاتَبات علىٰ قسمين :

القسم الأوّل — الابتداءاتُ ، وهو علىٰ أربع درجاتٍ سبق توجيهُ ترتيبها فى الكلام علىٰ أُصول المكاتبات ، فى أوّل هذه المقالة

الدرجة الأُولىٰ — [المكاتبة] بتقبيل الأرض ، وهى أعلاها رتبةً بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه .

واْعلم أنَّ كثيرًا من كُتّاب الزمان يظُنُّون أن المكاتبة بيقَبّل الأرضَ من مختَرَعات كُتّاب الدولة التركية ، بل بعضهم يظُنُّ أنها من مختَرَعات المقرّ الشهابىّ بنِ فضل الله وليس كذلك ؛ بل المكاتبةُ بذلك كانتْ موجودةً فى أواخر الدولة العباسيَّة ببغدَاد ؛ ثم سرَتْ إلىٰ الديار المصرية فى أوائل الدولة الأيُوبيّة ، فاستُعْمِلتْ بعضَ الاستعمال ، والمكاتبةُ بذلك موجودةٌ فى كلام القاضى الفاضلِ فى بعض المكاتَبات الملوكية ؛ ومن ذلك ما كتَب به عن نَفْسه إلى السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب » فى صدر كتابِ تهنئةٍ بمولود :

المملوكُ يقبّل الأرضَ بالمَقام العالى الناصِرىّ ، نصَرَ الله الإسلامَ بمَقامه ، وأهلك أعداءَ الحقِّ بانتقامه ، ولا أعدَمَ الأُمةَ المحمديَّةَ عَقْد التِزامه ، بكَفالتها ومَضاء اعتِزامه . ثم توسَّع فيه الكُتَّاب بعد ذلك حتّى كاتب به الآحادُ بعضُهم بعضا ،

وقد رتّبوا المكاتبةَ بتقْبِيل الأرض فى المصطَلَح المستقِرّ عليه الحالُ علىٰ خمس مراتب :

المرتبة الأولىٰ — الإتيان بالإنهاءِ بعد يُقبِّل الأرضَ من غير تعرُّض لذكرِ دعاء ولاثناء ، مع مراعاة الاختصار وعدم السَّجع وتقارُب السُّطور ، مثل أن يكتُب بعد البسملة ولقبِ المكتوب عنه الذى تحت البسملة :

يُقبل الأرضَ ويُنْهى كيتَ وكَيْتَ ، وسؤالُ المملوك من الصَّدقات العميمة بُروز الأوامر العالية بكيْتَ وكيْتَ ، أو والملوكُ يَعْرِض على الآراء العاليـة كيتَ وكيتَ ، ونحو ذلك . ويختِمُ الكتّابَ بقوله : أنهى ذلك ، أو طالَعَ بذلك ، وللآراء العالية مزيدُ العُلُوّ ، ويعبِّر عن المكتوب عنه فى خلال المكاتبة بالمملوك . ويختلفُ الحال فى خطاب المكتوب إليه : فإن كان من أرباب السُّيوف وهو نائبُ سلطنةٍ خُوطِب بمولانا ملك الأمراء عَزَّ نصرُه أو أعزَّ الله أنصارَه ، وإنْ كان أمـيرًا غيرَ نائب سلْطنةٍ ، خُوطِبَ بمولانا المخْدُومِ ونحو ذلك مما يقتضيه الحالُ ، وإن كان وزيرًا ربَّ سيف خُوطِب بمولانا الوزير ، وإن كان وزيرًا ربَّ قلَمٍ ، خُوطب بمولانا الصاحب ، وربمَّـا قيل مولانا الوزير ، وإن كان قاضيا خُوطِب بمولانا قاضى القُضاة ، وإن كان عالمًـا كبيرا ، خُوطب بمولانا شيخ الإسلام ، وإن كان من مشايخ الصُّوفية ، خُوطب بمولانا شـيخ الشُّيوخ ، وعلى ذلك بحسَبَ المراتب والوَظَائف على ما يقتضيه رأىُ الكاتب بمـا يُناسب الحالَ .

والعنوانُ فى هذه المكاتبة : الفُلانِىّ مطالعةُ المملوك فُلَان ، ويعبِّر عن ذلك : بالفُلانىّ بمطالَعة . وقد يعبِّر عن ذلك عن نفس المكاتبة (١) . وصورته : أن يكتب فى رَأس ظاهر المكاتَبة من الجانبِ الأيمن «الفلانىّ» باللَّقب الخاص بالمكتوب إليه ، كالسَّيفىّ ، والناصِرىّ ، والشَّمْسىّ ، وما أشبه ذلك ، ويكون ذلك ممتدا إلى نحو رُبُع عَرْض الدَّرْج ، وتحته فلان بما يقتضِى تعريفَه من وظيفةٍ أو شُهْرة . فإن كان نائبَ سلطنةٍ كتب تحت الفلانىّ : مولانا مَلِك الأمراء بالمكان الفلانِىّ . وإنْ كان وزيرًا كتب : مولانا الوزير بالمكان الفلانى . وإن كان قاضِىَ قُضاة ، كتب : مولانا قاضى القُضاة

(١) لعله وقد يعبر بذلك عن نفس الخ تأمل .

بالمكان الفلانى، ونحو ذلك، ويعبرَّ عن ذلك بالتعريف، ويُكْتَب فى الجانب الأيسَر من رأسِ ظاهرِ المكاتبةِ مقابِلَ ما كتَبهُ فى الأُولىٰ ما صورتُه «مطالعة المملوك فلان» باسم المكتوب عنه ويكون لفظ المملوك تحتَ ذلك، وفلان تحته عن بُعْد ثلاثةِ أسطر، وتكون لِطيفةَ القدِّ غيرَ مُمْشُوقة علىٰ الضد من المكتوب إليه. وهذا مثال عنوانٍ إلىٰ نائبِ سلطنة بالشام لقبُه سيفُ الدين، عمَّن اسمُه يلْبُغا.

السـ‍ـــــــــــــــيفى	مطالعة
مولانا ملكُ الأمراء بالشام المحروسِ عزَّ نصْرُه	المـ‍ـــلوكِ
	يلْبُغا

وعلىٰ ذلك يُقاس سائرُ العُنْوانات من هـذه المرتبة؛ والأصلُ فى ذلك أنَّ الحجّاجَ ٱبنَ يوسُفَ كتب كتابا إلىٰ عبدِ الملك بن مَرْوان؛ فكتب فى عُنْوانه بقَلَمٍ جليلٍ لعبدالله عبدالملك أمير المؤمنين، وفى الجانب الأيسر بقلم ضئيل من الحجّاج بن يوسف كما حكاه أبوجعفر النحاس فى "صِناعة الكتّاب" فتبعه الناسُ علىٰ ذلك فى تعظيم ٱسمِ المكتوبِ إليه، وتلطيف ٱسم المكتوبِ عنه؛ والعلامةُ فى هذه المكاتبة «المملوك فلان» بٱسم المكتوب عنه بقلم ضئيلٍ بحاشية الكتاب سطرينِ: المملوكُ [سطر] والاسم سطر تحته علىٰ هذه الصورة: المـ‍ـــلوك

فلان

ويكونُ ذلك مقابلَ «يقبِّل» ملاصقًا له بحيث تكونُ جَرّةُ الكاف من المملوك تحتَ الياءِ من يقبِّل، فكأنَّهم راعَوْا فى ذلك صورةَ مايكتَبُ فى القِصَص التى تُرفَع إلىٰ الأكابر لٱستماحةِ الحوائج ونحوها من حيثُ إنها يكتب فيها «المملوكُ فلان يقبِّل الأرض ويُنْهِى كيت وكيت» لما فى ذلك من إظهار الخُضُوع والتواضع.

المرتبـة الثـانية — أن يأتى بعد « يقبّل الأرض » بذكر الدعاء دُونَ الثنـاء مع تقارُب الأسطر أيضا وآجتناب السَّجْع . وقد آصطلَحُوا فى هـذه المكاتبَة علىٰ أنْ يكتُبُوا تحتَ البسملة مع لَقَب المكتوب عنه الذى هو المَلَكيّ الفُلانِىّ ونحوه لقبَ المكتوب إليه : كالسـيفيّ ونحوه ، علىٰ سَمْت المَلَكيّ الفلانى من الجهة اليمنىٰ مع بياضٍ بينهـما ، بحيث يَقَعُ بعضُ اللقب فى حاشـيةِ الكِتاب ، وبعضه تحتَ أوّل البسملة علىٰ هذه الصُّورة :

بسم الله الرحمن الرحيم

السـيفى الملكى الظاهرى

ثم يأتى بصورة المكاتبة بعد ذلك . ويختلف الحال فى هذه المكاتبة بآختلاف حالِ المكتوب إليه ؛ فإن كان نائبَ سلطنةٍ ، كتب « يقبّل الأرضَ ويُنْهِى بعدَ رفْعِ الأدْعيَة الصالحة ، أو بعد آبتهالِهِ إلىٰ الله تعالىٰ بالأدعية الصالحة ، تقبَّلها الله تعالىٰ من المملوك ومن كلِّ داعٍ مخلِصٍ ، ببقاء مولانا ملكِ الأُمَراء ، أو بدَوام أيام مولانا ملكِ الأمراء ، وخُلُود سعادته ، ومزيد تأْييـده ، وعلُوِّ درَجاته فى الدنيـا والآخرة ، بمحمَّد وآله : أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ ، والمملوك يسأل الصَّدَقاتِ العميمة ، أو الصدقات الكريمة ، أعزَّ اللهُ تعـالىٰ أنصارها بُروزَ الأوامرِ المطاعةِ بكَيْتَ وكَيْتَ . ثم يقول : والمملوكُ مملوكُ مولانا ملكِ الأمراء وعبـدُ بابه ونَشْءُ إحسـانه ، ويسأل تشريفَه بمراسيمِه وخِدَمه ، أو والمملوك يستعرِضُ المَرَاسِيمَ الكريمة ، والخِدَم العالية ، ليُبادرَ إلىٰ امتثالها ، والفَوْز بقضائها ؛ أو والمملوك مملوكُ الأبوابِ العالية ونَشْؤُها وغلامُها ، ويسأل دوامَ النظَر الكريم عليه فى أحواله كلِّها ، ونحو ذلك ممـا يقتضيه الحال ؛ وقد جهَّز المملوكُ

بهذه المكاتبة فلاناً أو مملوكه فلانا . فإن كان قد حمَّله كلامَ مشافَهةٍ ، قال : وحمَّله من المشافَهة ما يسأل الصدقةَ عليه بسماعه والإصغاءِ إليه ونحو ذلك . ثم يقول : طالع بذلك والرأىُ العالى أعلاه الله تعالىٰ أعلىٰ . وإن كان المكتوب إليه أميرا غيرَ نائبِ سلطنة ، كتب « بدوام أيام مولانا المخدوم » بدل مولانا ملك الأمراء . وإن كان قاضيا ، كتب « ببقاء مولانا قاضِى القضاة ، أو بدوام أيام مولانا قاضى القضاة » . وإنْ كان من مشايخ الصُّوفيَّة ، كتب «ببقاء مَوْلانا شيخ الشيوخ» ونحو ذلك ، وباقى المكاتبة علىٰ ما تقدَّم بحسَب ما يقتضيه الحال . والعنوانُ فى هذه المكاتبة « الأبوابُ الفُلانيَّة ، مطالعةُ المملوك فلان » ويعبر عن ذلك بالأبواب بمُطالعة ، ويختلف الحال فى ذلك باختلافِ حالِ المكتوب إليه : فإن كان المكتوب إليه نائبَ سلطنةٍ ، كتب : الأبوابُ الكريمةُ ، العالية ، المَوْلَويَّة ، الأميرية ، الكبيرية ، المالكيَّة ، المخدوميَّة ، الكافلية ، بلقبه الخاص كالسيفية ونحوها ، أعلاها الله تعالىٰ فلان الفلانى ، باسمه وشهرته . وإنْ كان المكتُوب إليه أميرًا غير نائبِ سلطنة أسقط منه الكافلية . وإنْ كان وزيرًا ربَّ سيفٍ ، كتب بعد الأميرية : الوَزيريَّة . وإن كان وزيراً ربَّ قلم ، أسقط الأميرية ، وكتب قبل الفلانية الصاحِبيَّة . وإن كان من رؤساء الكُتَّاب ممن فى معنىٰ الوُزَراء : ككاتب السرّ ، وناظر الخاصّ ، وناظر الجَيْش ، ونحوهم ، أبدل لفظ الأميرية والوزيرية بالقاضَوِيَّة . وإن كان قاضىَ حُكْمٍ ، أتى مع القاضَوِيَّة قبل الفلانية بالحاكِميَّة . وان كان من مشايخ الصُّوفيَّة أبدل القاضَوِيَّة بالشَّيْخيَّة ونحو ذلك .

وصورته أن يكتب الألقاب من أوّل عَرْض الدَّرْج سطرا إلىٰ آخر المالِكيَّة ، ويخلِّىَ بياضًا فى آخر السطر بقَدْر رُبع الدَّرْج ، ثم يكتب المخدوميَّة الفلانية فى أول

السطر الثانى مُلَاصقًا للأوّل ، ثم يُخَلِّى بياضًا يسيرا ، ثم يكتُبُ : أعلاها الله تعالىٰ ، ثم يخلِّى بياضًا يسيرًا ، ثم يكتُبُ «فلان الفلانى» تحت آخر السطر الأوّل ، ثم يكتب فى آخر الدَّرْج من الجهة اليُسْرىٰ بعد خلُوِّ بياض «مطالعة المملوك فلان» ثلاثة أسطر علىٰ ماتقدّم فى العنونة بالفلانى بمطالعة كما فى هذه الصورة :

الأبوابُ الكريمةُ ، العاليةُ ، المَوْلويَّة ، الأميريَّةُ ، الكبيريَّةُ ، المالكيَّة ، المخدومية ، السيفِيَّة أعلاها الله تعالىٰ أمر دَوَادار الظاهرى مطـالعة المملوك فلان

والعلامة «المملوك فلان» بقلم ضئيل مُسامِت يَقَبِّل كما فى المكاتبة قبلها .

قال فى "التثقيف" : وبهـذه المكاتبة يُكْتَب عن أكابر أمراء الديار المِصْريَّة إلىٰ نائب الشام وحلب فيما أظُنُّ .

قال : وكذلك كان يَكْتُبُ المقرُّ العلائىُّ بن فضلِ الله كاتب السرِّ الشريف إلىٰ المشار إليـه ، يعنى نائبَ حلَبَ ، إلا أنه كان يكتب له العلامة أسفلَ الكتّاب دُونَ أعلاه .

قلت : وعلىٰ هذا يكون للعلامة فى هـذه المكاتبة رُتْبتان ، إن عظَّمه ، كتب له العلامة علىٰ سَمْت يقَبِّل ، وإلا ففى أسفَلِ الكتّاب ، ومن ثم ذكرت قولَ صاحب "التثقيف" هنـا وإن كان محلُّه رُتَب المكاتِبِين علىٰ ما سيأتى ذِكْره فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبـة الثـالثة — أن لا يُكْتَب فى أوّل المكاتبة عن يمين أسفل البسملة الفُلانى ويأتِى بذكر الدُّعاء والثناء مسجُوعا ، مثل أن يكتب بعد البسملة ولقب المكتوب عنه الذى هو المَلَكى الفلانى : يقَبِّل الأرضَ ، ويُنْهِى بعـدَ رَفْع دعائه ، وإخلاصه فى محبَّته ووَلَائه ، واعترافِه بإحسان مَوْلانا وجَزِيل آلائه ، أنّ الأمر كيتَ وكيتَ ،

والمملوك يسأل إحسانَ مولانا، أو صدقاتِ مولانا، أو إحسان المخدوم، أو صدقاته فى كيْتَ وكيْتَ ؛ ثم يقول : والمملوكُ فهو مملوك مولانا ومُحِبُّه، والداعى لإحسانه، ويسأل تشريفَه بمراسيمه وخِدَمه ؛ وقد جهَّز المملوكُ بهذه العُبُوديَّة فلانا، أو مملوكه فلانا، وحمَّله من الدُّعاء والوَلاء ماينْهيه من لسانه، ويُعْرِب عنه ببَيانه ؛ أو وقد حمَّله المملوكُ مايقومُ عنه به فى إنهائه، من رَصْف الأدعِيَة، ووَصْف الأثْنِية ؛ والمملوكُ يسألُ الإصغاءَ إليه، والتشريفَ بالمَراسِيم العالية والخِدَم الكريمة : ليَفُوزَ بإقبالها، ويُبادِرَ إلىٰ آمتثالها . طالَعَ بذٰلك ، أو أنهىٰ ذلك ؛ أو والمملوكُ يستعْرِضُ المراسِيمَ العاليه، والخِدَم الكريمة المتَوالِيه : ليتَشَرَّف بقضائها، ويتشوَّف إلىٰ إمضائها .

صـــدر آخر : ويُنْهِى بعـد رَفْع الأدْعيه، وبثِّ المَحامد والأثْنِيه، والمُوالاة التى يحِلُّ منها عالِىَ الألوِيه، أنَّ الأمر كيتَ .

آخـــر : ويُنْهِى بعد رَفْع دعائه الذى لا يفْتُر لسانُه عن رَفْعه، ولا يخفىٰ إن شاء الله إبَّانُ نَفْعه، وآبتهالِه الذى يرفَعُ السُّحُب، وشَوْقه الذى يَهْدِى النُّجُب ؛ أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ .

آخـــر : ويُنْهِى بعـد دُعائه المقبول، وشَوْقه الذى لا يحُولُ عنـه ولا يَزُول ؛ وسلامِه الذى يَعْجِز عن شرحه القلَمَ ويَضْعُفُ عن حمله الرَّسُول .

آخـــر : ويُنْهِى بعـدَ دُعاءٍ يرفَعُه بالغُدُوّ والآصـال ، ووَلاءٍ لايتغيَّر مادامَتِ الأيَّامُ والليال ، وثناءٍ أطْيبَ من عَرْف الرَّوْض إذا مرَّ عليه نَسِيمُ الشَّمال، أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ .

آخـــر : ويُنْهِى بعـد رَفْع الدعاء ، ونَصْب لِواء الوَلاء ، وجَرِّ ذُيُول الفَخْر بالآنتساب إلىٰ عبُودية مولانا والآعْتِزاء ، أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ .

آخــــر : ويُنْهِى بعدَ دعائه المرفُوع، وثنائِه الذى هو كالمسك يَضُوع، وشُكْرِه الذى يُسْمَع منه ويُسْمع أطْيَبُ مسمُوع، أنّ الأمر كيتَ وكيتَ .

والعُنوانُ لهذه المكاتبة «الأبواب الفلانية» بغير مطالعة، ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوبُ إليــه من أرباب السُّيوف وهو نائبُ سلطنةٍ، كتب «الأبوابُ الكريمةُ، العاليةُ، المَوْلَوِيَّة، الأميريَّة، الكبيريَّة، السيِّديَّة، المـالكيَّة، المخدوميَّة، الكافلية، الفلانية، أعلاها الله تعالىٰ» ثم يقال : نائبُ السلطنة الشريفة المحروسة؛ أو كافل المملكة الفلانية المحروسة؛ وباقى عُنْوانات أرباب الوظائف : من أرباب السيوف والأقلام علىٰ ما تقدّم فى العَنْونة بالأبواب بمطالعة .

وصورة وَضْعه أن يكتب « الأبواب الكريمة إلىٰ آخر الكافليــة » مثلا ســطرا واحدا من أوّل عَرْض الدَّرْج إلىٰ آخره؛ ثم يكتب « الفُلَانيَّة أعلاها الله تعالىٰ » فى أوّل الســطر الثانى ملاصِقًا له ؛ ثم يترك بياضا قدرَ رأس إبهـام ؛ ثم يكتب فى آخرِ السطر الثانى «كافل المَمَالك الشريفة الفلانية المحروسة» كما فى هذه الصورة:

الأبواب الكريمة ، العالية ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرية ، السيدية ، المالكية ، المخدومية ، الكافلية ،
السيفية ؛ أعلاها الله تعالىٰ   كافل الممالك الشريفة بالشام المحروس

والعلامة فى ذيل الكتاب مقابل تحت البسملة بقلم الرقاع «المملوك فلان» وكأنَّهم لـمـا انحطَّت رُتْبة المكتوب إليه عن أن تُكتب العلامةُ إليــه علىٰ سَمْت « يقبِّل » ليكون فى معنىٰ القِصَّة كما تقدّم ، أخذ المكتوب عنه فى التنازُل إلىٰ آخرِ المكاتبـة تواضُعًا للمكتوب إليه وتأدُّبا معه .

قال فى "التثقيف" وبذلك كان يُكْتَب عن الأمير يَلْبُغا العُمَرىّ: يعنى الخاصكىّ وهو أتابك العساكر المنصورة بالديار المصرية إلىٰ نائبَيِ الشام وحلَبَ .

قال : وكذلك كتب بعده إلى المذكورين : الأمير منكلى بغا ، والأمير الجاى ، ونُوّاب السلطنة بالديار المصرية .

المرتبة الرابعة — أن يأتى بصدر المكاتبة على ماتقدّم فى المكاتبة قبلها من الابتداء بيُقبّل الأرض ويُنْهى بعد رَفْع دعائه ومافى معناه على ماتقدّم من غير فَرْق : ولايختلف الحال فى الصدر ولافى مَتْن الكتاب، والعنوانُ «الباب الكريم» ولايكون إلا بغير مطالعة . فإن كان المكتوبُ إليه من أرباب السيوف، كتب « البابُ الكريم، العالى، المولوى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، المالكى، المخدومى، الفلانى، أعلاه الله تعالى، فلان الفلانى - باسم المكتوب إليه . وإن كان من أرباب الأقلام أو غيرهم فعلى ماتقدّم فى «الأبواب بمطالعة» من إبدال الأميرى بالقضائى، أو الشيخى، وزيادة قاضى الحُكم الحاكمى قبل الفلانى .

وصورة وضعه : البابُ الكريم - بالألقاب المتقدمة إلى آخر المالكى سطرا واحدا من أوّل عَرْض الدَّرْج إلى آخره، ثم يكتب المخدومى الفلانى أعلاه الله تعالى فى أوّل السطر الثانى، ويترك بياضا، ثم يكتب فلان الفلانى باسم المكتوب إليه أو شهرته كما فى هذه الصورة :

الباب الكريم العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، المالكى .

المخدومى ، السيفى ، أعلاه الله تعالى بهادر أميراخور الأشرفى .

تنبيه — كلُّ ما كان العُنوانُ فيه البابُ الكريم، كان العُنوان فيه للمسافر «المخيّم» بدل الباب ، وباقى الألقاب على حالها كما نبّه عليه فى "التثقيف" وغيره ؛ والعلامة فى آخر المكاتبة مقابل حَسْبى الله؛ إذ لمّا كانت العلامة فى أسفل الكتاب مقابِلَ

تحت الحَسْبلة كانت العـلامةُ فيما فَوْقَ ذلك أنزَلَ فى رُتْبـة المكتوب إليـه وأعلىٰ فى رُتْبة المكتُوب عنه .

المرتبة الخامســة — يُقَبِّل الأرض بالمَقر الشريف . والرسمُ فيـه أن يَتْرك بعد البسملة وما تحتها من المَلَكى الفلانى قدرَ سطر أو سطرين بياضًا، ثم يكتب يقَبِّل الأرض بالمَقَر الشريف ؛ ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السُّيوف، كتب « يقبِّـل الأرضَ بالمقر الشريف، العـالى، المَوْلَوِىِّ، الأميرىِّ، الكبيرىِّ، العالمىِّ، العادلىِّ، المؤيِّدىِّ، الذُّخرىِّ، الظَّهيرىِّ، المُسْندىِّ، الزَّعيمىِّ، المالكى، المخدُومىِّ، الفلانى، أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَه، وأعلىٰ مَنارَه، وضاعف مبَارَه، ويُنْهِى بعـد وصْف محبَّته، وبَثِّ أَثْنِيَتِـه، كيت وكيت، والمسْئولُ من إحسانه كيتَ وكيتَ » وربمـا كتب : « والممـلوكُ يسأل كيتَ وكيتَ » كما فى المكاتبات السابقـة ؛ أو « والمملوك يسألُ تشريفـه بمراسمه وخِدَمه، والله تعـالىٰ يُديم عليه سوابِـغَ نِعَمه » .

دعاء آخر لهذه المكاتبة : أعزَّ الله تعـالىٰ أنصارَه، وأدامَ آنتِصارَه، وجعل علىٰ غايات النُّجوم آقتصارَه، ويُنْهِى .

آخـــر : لازالتِ الرِّقابُ لمَهَابته خاضِعه، والرِّكابُ به فَوْق النُّجوم واضِعَه، وأجِنَّة السيوفِ بمَضَارِبه منْ ماءِ الأعداءِ راضِعه، ويُنْهِى .

آخـــر : لا زالتْ أعلامُه مُشَرَّفه، وأقلامُه مُصَرَّفه، وأيامُه بطِيب ثنائه بين الخافقَيْنِ مُعَرَّفة .

آخـــر : لا زالتِ الدنيـا ببقائه مُجَمَّـله، والعَلْيـاءُ لآرتقائه مُؤَمَّله، والنِّعَمُ علىٰ آختلافها جواهِرَ مكمَّله، ويُنْهِى .

قلت وربما أُتِى بصورة الإنهاء مسجُوعة أيضا، مثل أن يكتب : ويُنْهِى بعد تعبُّده بِوَلائه، وقيامِه بحقُوق آلائِه. أو ويُنْهِى بعد دعاء يقومُ بوظائِفه، وولاءٍ يتردَّى بمَطَارفه. أو ويُنْهِى بعد رَفْع أدعِيَته، وقَطْع العُمُر فى مُوالاته وعُبُوديَّته، ونحو ذلك. وعلىٰ ذلك جرىٰ فى "عرف التعريف" إلا أنَّ الغالب فى كتابة أهلِ الزمان إهمالُه. والعُنْوان إن قُصِد تعظيمه : البابُ العالى - بألقاب الباب الكريم فى المكاتَبة قبلَها، إلا أنه يُحْذَف منها الكريم. وإن لم يُقْصد تعظيمُه فالمقرُّ الشريف بالألقاب التى فى صَدْر الكتاب. وصورة وضعه فى الباب العالى علىٰ ما تقدّم فى الباب الكريم : أنْ يأتى به فى سطرَيْنِ كاملين من أول عَرْض الدَّرْج إلىٰ آخره، كما فى هذه الصورة :

المقرُّ الشريف، العالى، المولَوىُّ، الأميرىُّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، الذُّخرى، الظّهيرىّ، المسنَدىّ، الزَّعِيمى، المالكىّ، المخدومىّ، السيفىّ، أعزَّ الله تعالىٰ أنصاره أمير حاجب بالشام المحروس

والعلامة فى هذه المكاتبة «المملوك فلان» بقلم الرقاع، بأسافل الكتاب، مقابِلَ إن شاء الله تعالىٰ.

وآعلم أنَّ هذه المراتبَ الخمسَ هى الدائرةُ فى المكاتبات بين كُتَّاب زماننا بمملكة الديار المِصْريَّة وما جرىٰ علىٰ نَهْجها، والمعنىٰ فى ترتيبها علىٰ هذا الترتيب أنه فى المرتبة الأولىٰ منها حُذِف الدعاءُ والثناءُ المقتضِيان للدَّالَّة من المكتوب عنه علىٰ المكتوب إليه، وآقتُصِر علىٰ اليسير من الكلام دُونَ الكثير الذى فيه سآمةُ المكتوب إليه وإضْجارُه، عند قراءة الكتَاب، وعُنْوِنت بالفلانى كالسَّيْفىّ ونحوه، من حيثُ إنه لقَبٌ مؤدٍّ إلىٰ رِفْعة، وأُتِى فيه بمطالعة المملوك فلان، إشارةً إلىٰ التصريح بالرِّقِّ والعبوديَّة من المكتوب عنه للمكتوبِ إليه مع إقامته فى مَقَام الرِّفعة بذكر لقبه المؤدّى إلىٰ رفعة قدره - وفى المرتبة الثانية أُتِىَ فيها بالفُلانىِّ داخلَ المكاتبةِ دُونَ

العُنْوان فكانت أنزلَ ممـا قبلها : من حيثُ إنَّ العُنْوانَ ظاهرٌ وباطِنَ المكاتبةِ خفيٌّ والظاهر المؤدِّى إلى الرفعـة أعلى من الخفىِّ من ذلك ، وأُتِى بالدعاء فكانت أنزلَ رتبةً من التى قبلها لما تقدم من أنَّ الدعاء فيه معنى الدالَّة ، واجتنب فيه السجعُ من حيثُ إنَّ فى الإتيان به تفاصُحًا على المكتوب إليه ، وعُنْونَ بالأبواب إشارةً إلى شَرَف محلِّ المكتوبِ إليه من حيثُ الإشعارُ بأن له أبواباً يُوقَف عليها ؛ وجُعِلتْ دُونَ المرتبةِ الثانية من حيثُ إنَّ العَنْونة فى المرتبة الأولى باللَّقَب المؤدِّى إلى الرِّفْعة مع دِلَالته على الذات[1] . وفى الثانية عُنْوِن بالأبواب المُوصِّلة إلى محلِّ الشخص ؛ ولايخفى أنَّ مادلَّ على نفس الشَّخْص أعلى ممـا هو مُوَصِّل إلى محلِّه ، وأُتِى فيها بمطالَعةِ المملوكِ فلانٍ إشارةً إلى التصريح للمكتوبِ إليـه بالرِّقِّ والعبُوديَّة كما تقدم فى المرْتَبة الأُولى ــ وفى المرتبـة الثالثة حُذِف منها الفلانى المؤدِّى إلى الرِّفْعة من داخل المكاتَبة فكانت أنزلَ من التى قبلها فأُتِىَ فيها بذلك ، وأُتِىَ بالدعاء مسـجوعاً فكانَ أنزلَ ممـا قبلَهُ لمـا فى السجع من التفاصُح على المكتوب إليـه ، وأُسْقِط من عنوانه مطالعةُ المملوك فلان فكانَ أنزلَ من حيثُ إنَّه لم يقَعْ فيه تصريحُ بِرِقٍّ وعبوديةٍ كما فى المرتبـة الأُولى والثانية ــ وفى المرتبة الرابعة بقِى الصَّدْرُ على حاله وعُنْوِن فيها بالباب بلفْظ الإفراد ، فكانت أنزلَ ممـا قبلها ، من حيثُ إنَّ الإفرادَ دُونَ الجمع بدليلِ أنه بعضٌ من أبعاضه ــ وفى المرْتبة الخامسة قيل يُقَبِّل الأرضَ بالمقرّ ؛ يعنى مَقرّ المكتوب إليه ، فكانتْ أنزلَ ممـا قبلها من حيثُ إشعارُ ذلك بالقُرْب من محلِّه بخلاف يقَبِّل مطلق الأرض[2] فإنه لا ينْحصِر فى ذلك ، ثم إنْ عُنونَتْ بالباب العالى مجرَّدًا عن الكريم ، كانت أنزل ممـا عُنْوِنَ فيه بالكريم لمـا جرى عليه الاصطلاح من رفعـةِ رُتْبة الكريم العالى

(١) لعله دون المرتبة الأولى ، ومراده أن العنونة بالأبواب أقل من العنونة بالألقاب للعلة التى ذكرها .

(٢) مراده : يقبل الأرض بغير أن تقيد بالمقر .

على العالى المجرّد عن الكريم ، على ما تقدّم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة ، وإنْ عُنْوِنت بالمقرّ الشريف فهى على آنحطاطِ الرتبة عمّا قبلَها من حيثُ إشعارُه بقُرْب المحلّ من المكتوب إليه . على أنّ فى عنونَة هذه المكاتبة بالمقرّ الشريف نظرا ، فإنّ أعلى مَراتِبِ الابتداء فى المكاتبة بالدعاء هى الدعاء للمقرّ الشريف ،وهو بعد تقبيل الباسطِ والباسطةِ واليدِ على ما سيأتى ذكرُه فى الدّرجة الثالثة فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

فرُبّما آلتبس عنوانُ هذه بعُنْوان تلكَ قبل فَضّها ، والوقوفِ على صَدْرها هل هو مفْتتَح بيُقَبِّل الأرضَ بالمقرّ أو بالدعاء للمقرّ ، إلّا أنّ كُتّاب الزمان قد رفَضُوا المكاتبةَ بالدعاء للمقرّ الشريف وآقتصَرُوا على الدعاء للمقرّ الكريم ، إذ كان هو أعلى ما يُكْتَب به عن السلطان لأكابر أُمَراء المملكة على ماتقدّمَ ذِكرُه فى الكلام على مكاتَبَات السلطانِ إلى أهل المملكةِ فى المقالة الرابعة .

قلت : وفى الدساتير المؤلّفة فى الإخوانيّات فى الدولة التُّركية فى الزمنِ السابِق ما يخالِفُ بعضَ هذا الترتيب ، فجعل فى "عُرْف التعريف" أعلى المراتب يَقَبِّل الأرضَ ويُنْهِى كيتَ وكيتَ ، والعنوانُ «الفلانى بمطالعة» على ماتقدم ذكرُه فى الترتيب السابق . ودونه : الصدر بعَيْنه ، والعنوان «الأبوابُ بمطالَعَة» . ودونه : كذلك والعُنْوان «الأبوابُ» بغير مطالعة . ودُونه : « يقبِّل الأرضَ بالمقرّ الشريف ، والعُنْوان إما البابُ العالى أو المقرُّ الشريف» .

وفى دُسْتورٍ يُعزى لبعض بنى الأثير أنّ أعلى المراتب يقَبِّل الأرض ويُنْهِى كيتَ وكيتَ على ما تقدّم . ودُونَه : «يقبِّل الأرض ويدعو مثلُ يقَبِّل الأرض ويُنْهِى بعد رفع دعائه الذى لايفتُر لسانُه عن رَفْعه ، ولا يخفى إن شاء الله إنّ أنّ

نَفْعه » . ودونه : « يَقَبِّــل الأرض ويَدْعو لها ، مثــل : يقبِّل الأرضَ حماها الله تعالىٰ من غِيَرِ الزَّمان ، وٱكتنفها بالأَمَان ، من صُرُوف الحَدَثان ، ولا زالتْ محطَّ وُفُود الجَدَا ، وكعبةَ قُصَّاد النَّدا ، ويُنْهِي كيتَ وكيتَ » . ودونه « يقَبِّل الأرضَ ويصفُها ، مثل أن يكتب : يقبِّل الأرضَ التى هى ملْجأُ العُفَاه ، ومَلْثَم الشِّفاه ، ومحلُّ الكَرم الذى لايَخِيبُ مَن اقتفَاه، ومقصِدُ الراجى الذى إذا عوَّل عليــه كَفَاه ، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ » . ودونه « يقبِّل الأرضَ ويدعو لهـا (١) ، مثل أن يكتب : يُقَبِّــل الأرضَ لازالَتْ محروسةَ الرِّحاب، هامِيَــةَ السَّحاب، فَسِيحَة الجَنَاب، لِمَنْ أنابْ، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ » .

وجرىٰ فى "التثقيف" علىٰ الترتيب المتقدّم فى المرتبة الأُولىٰ والثـانية والثالثة والرابعة علىٰ ماتقدّم فى المراتب الخمس السابقة، وجعل المرتبةَ الخامسة يقبِّل الأرضَ مع وَصْفها علىٰ ماتقدّم فى الدُّسْــتُور المَنْسوب لبعض بنى الأثير مع العَنْونة بالبــاب العالى، وجعل يقبِّلُ الأرضَ بالمقَرّ الشريف مرتبةً سادسةً مع العَنْونة بالباب العالى أو المقَرّ الشريف .

وفى غير هـــذه الدَّساتير ما يخالفُ بعضَ ذلك فى الترتيب والتقــديم والتأخير؛ وفى بعض الدَّساتير بعــد تقبيلِ الأرض تقبيلُ العتَبات ، مثل أن يكتب : يُقَبِّــل العَتَباتِ الكريمة، لابَرِحَتْ مَطْلَع السُّعود، ومَنْبَع الجُود، ومَهْيَعًا لِلْمَقـام المحمُود . أو : يقبِّل العَتَبات الكريمة ، لازالَتِ الأفلاكُ تَتَمَنَّى أنها بهـا تَحُفّ، وأنها لنجومها إليها بحوض الوالدين (؟) تزف . أو : يُقَبِّل العَتَبات الكريمة، لا زالَتِ الآمالُ بها مُطِيفه، والسُّعُود لها حَلِيفه، وسعادتُها لاستخدامِ كلِّ ذى إلمـام مُضِيفه .

(١) هذه المرتبة تقدمت قبل بأسطر الا أن يكون انحطاطها من حيث صيغة الدعاء، تأمل .

ولا يخفى أنّ بعض هذه الاختيارات غير مُحكَم الأساس، ولا موضوع على أصل يقتضى صحةَ الترتيب فيه، بل الكثير من ذلك راجعٌ إلى التشهى، كلّما تقدم متقدم فى دولةٍ من الدُّوَل أحبَّ أن يُؤْثِر مخالفةَ غيره، ويجعل له شيئا يُحْدِثه لِيُنْسَب إليه ولا يُبالى وافق فى ذلك غرضًا صحيحًا أم لا، وقَلَّ مَنْ يصيب الغرَض فى ذلك . على أنّ تقديمَ بعض هذه المراتب على بعضٍ فى العُلُوّ والهُبُوط إنما هو من جهة آستحسانه، لو تكلّف المتكلّف تأخيرَ ما تقدّم فيها أو تقديمَ ما أخّر، لأمكنه ذلك .

الدرجة الثانيـــــــــة

(المكاتبة بتَقْبيل اليد، وقد رتّبُوا ذلك على ثلاثِ مراتبَ)

المرتبـة الأولى — يُقَبِّل الباسطَ الشريف ، وهى الأعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه . والرسمُ فيها أن يترك الكاتبُ تحتَ المَلَكِىّ الفلانى بعد البسملة قدرَ سطرينِ بياضا كما فى المسألة[1] قبلها ، ويختلف الحال فى ذلك : فإن كان المكتوبُ إليـه من أرباب السُّيوف، كتب : يقبّل الباسطَ الشريفَ، العالىَ، المَوْلوىَّ، الأميرىَّ، الكبيرىَّ، العالمىَّ، العـادلىّ، المؤيّدىّ، السيدىّ، المالكىَّ، المخدومىّ، المُحْسِنىّ، الفلانى، لا زالت ساحتُه مقبَّـله ، وسَماحتُه مؤمَّله ، ويُنْهِى بعـد وصف خِدَمه، وثُبوتِ قيامِه فيها على قَدَمه، أنّ الأمر كيت وكيت، والمسئولُ من إحسانه كيتَ وكيتَ، والله تعالى يحرُسُه بمنّه وكرمه .

دعاء آخـــر : يليق بهذه المكاتبة، يقال بعد تكملة الألقاب : لا زالتْ نِعمُه باسطه، وأيّامه لعُقود الأيام واسِطَه، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ .

---

(١) يعنى المرتبة الخامسة .

آخـــر : لازال جَنَاحُ كَرَمه مبسُوطا، وجَنَـابُ حَرَمه من المَخَاوِف محُوطا، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ .

آخـــر : لا زال يُصَرِّف الأعِنَّـة والأسِـنَّه ، ويقلِّد أعنـاقَ أعدائِه كُلَّ أجَلٍ وأعناقَ أوِدّائِه كلَّ مِنَّه، ويُنْهِى .

آخـــر : لا زالتْ حمائلُ السُّيوف تتسابَقُ إلىٰ بَنَـانِه ، وأعقابُ الرِّماح تأْوِى إلىٰ أنامله : لِيُمكِّنَها من قلُوب أعداءِ الله يَومَ طِعَانه، ومُتونُ الخيل متحصِّنةً بعزائمه فيقْوىٰ جَنَانُها بجَنَانِه .

آخـــر : لا زالتْ رَحىٰ حُروبِه علىٰ أعدائه تُدَار، وأسِنَّةُ رِماحه تُنادِى الأعداءَ البِدَارَ البِدَار ، وجُنودُه تقاتِلُ سَـفَرَةَ الوجُوه إذا قاتل الأعداءُ فى قُرًى محصَّنةٍ أو مِنْ وَرَاءِ جِدَار .

آخـــر : لازالتْ أعلامُ النصر معقودةً بأعلامه، وجَوارِى اليَمّ السعيدِ معدُودةً من خُدَّامه ، وسُـطورُ البأس والكرمِ مُثْبَتةً إما بأقلام الخطِّ من رِماحه وإمَّا بِرِماح الخط من أقلامه .

آخـــر : لازالتِ الأعنَّةُ والأسِـنَّة طوعَ يَمِينِه وشِمـاله ، والآمالُ والأحوالُ تحت ظِلاَل كرمه وكَرَم ظِلاَله ، والسيُوفُ والأقلامُ : هـذه جاريةٌ بعوائد بأْسه ، وهذه جاريةٌ بعوائد نَواله .

آخـــر : ولازالتْ وجوهُ النصر تَتَراءىٰ فى مِرْءَاة صِفَاحه، وثِمـارُ النَّصْر تُجْتَنىٰ مِن أغصانِ رِمَاحِه، ولا بَرِح السيفُ والقلَم يتَبَارَيَانِ فى ضَرِّ الأعداء ببأسه ونَفْع الأولياء بسَماحه — وان كان المكتوب إليه وزيراً ربَّ سيفٍ، كتب بعد الأميرىّ «الوزيرى» — وإن كان وزيراً ربَّ قلم ، كتب قبل الفلانى أيضا الصاحِبىّ —

وإن كان من أعيان الكُتّاب: ككاتب السِّرّ وناظر الخاصّ وناظر الجيش وناظر الدَّوْلة وكُتّاب الدَّسْت ونحوهم، كتب بدل الأميرى القَضائى؛ ثم يكتب للجميع بعد الوزيرى أو القضائى، العالمىّ، العادلىّ، الممهّدى، المشيّدىّ، المالكىّ، المخدومىّ، المحسنىّ، الفلانى، أسبغ الله تعالى ظِلالَه ومدَّها، وشيَّد به مبانىَ المُلْك وشَدَّها، ووهَبَ الأيامَ منه هِبةً لا تستطيعُ الليالِى رَدَّها؛ وينهى كيتَ وكيتَ .

دعاء آخر يليق بهذه المكاتبة، يقال بعد تكملة الألقاب، ولا زالتْ أقلامُه تُرَوِّع الأُسْدَ فى آجامِها، وتَزيد على الغُيُوث فى آنْسِجامها، وتُعَلِّم الرِّماحَ الإقدامَ إذا نَكَصَتْ لإحجامها، ويُنْهى .

آخر : ولازالتِ الدُّوَل مشَيَّدةً بتصريفه، مجدَّدةً لتشريفه، مؤيَّدة بين صرير القلم وصَريفه .

آخر : ولا زالتْ أقلامُه تَهْزأ بالغيوث الهامِيَه، وأنعامُه تفُوق على البِحار الطامِيَه، وموارِدُ إحسانه تأْوِى إليها الوفُودُ الظامِيَهْ .

آخر : وأدام القَصْدَ لِبابه، ونزُولَ الآمالِ برِحابه، وصُعودَها إلى سَحابه .

آخر : لازال فَسِيحا للمَقاصد جَنابُه، مُجَرَّبا للمَناجِح بابُه، صريحًا فى آبتغاء خير الدنيا والآخرة طِلابُه — وإن كان من القضاة الحُكّام، كتب : يُقَبِّل الباسطَ الشريف، العالى، المولوىّ، القَضائى، العالمىّ، الإمامىّ، العَلّامى، السيّدىّ، المالكىّ، المخدومىّ، المُحْسِنىّ، الحاكمىّ، الفلانىّ؛ أعزّ الله تعالى أحكامَه، وجَمّل به الدهْرَ وحُكّامه، وثبّت به الأمرَ وزاد إحْكامه، ويُنْهى كيتَ وكيتَ.

دعاء آخر يناسبه : يقال بعد تكملة الألقاب: أعزّ الله تعالى أحكامَه وأنفَذَها، وتَدارك به الأُمّة وأنقَذَها، وأسعَفَ به المِلّةَ الإسلاميّةَ وأسعَدَها، وينهى .

آخـــر : نَصَّر اللهُ الدِّينَ بنُوره ، وسـقَى الغَمَامَ باقِي سُوره ، وحَمَى حِمَى الشرعِ الشريف بما ضَرَبَ عليه من سُورِه .

آخـــر : وجَمَّل الدهرَ بمناقِبـه، وزيَّن سماءَ العلم بكَوَاكبه ، ولا زالَ الزمانُ يقول لمَنصِب الشرع الشريف بشخْصه ورأيه : * عِزٌّ يدُومُ وإقبالٌ لِصَاحِبه * .

آخـــر : وأمضَى بيده سُيوفَ الشَّرْع التى هى أقلامُه ، وأعلَى طُروسَ العَدْل والحقِّ فإنها أعلامُه، ولازالتْ يدُ القَصْد مُشيرةً إليه، ولا ينعقد إلا على ثنائه خِنْصرٌ ولا ينْجلى إلا بِهُداه إبْهام .

آخـــر : وسَـدَّد سِهامَ الحقِّ بأقْضِيَتِه، وشَـيَّد أركانَ الشَّرْع بأبْنِيَته ، وأيَّد الإسلامَ بأقلام سِجِلَّاته القائمـةِ للنَّصر مقـامَ ألْوِيَتِهِ — وإن كان المكتوب إليـه من مشايخ الصُّوفيَّة، كتب : يُقَبِّل الباسطَ الشريفَ، العالىَ، المَوْلوِىَّ ، الشيخىَّ، الإمامىَّ ، العالمىَّ ، العاملىَّ ، الخاشعىَّ ، الناسِكىَّ ، السيِّدىَّ ، المـالكىَّ ، المخدُومىَّ، المُحْسِنىَّ ، الفلانىَّ ؛ لا زال يقاتِلُ بِسلاحه، ويُقابَل فسادُ الدَّهْر بصَلاحه، ويجلو دُجىَ الظَّلْماء بصَباحه، ويُنْهى .

آخـــر : ونفَعَ ببركَاته فى الرَّوْحات والغَدَوات، وجَمَّل ببقائِهِ المحافلَ والمَلَوات، وبَسَط فى صالح الدُّوَل [يَدَه] : إمَّا فى مبـاشَرته بصالح التـدْبير وإمَّا فى ٱنقطاعه بصالح الدَّعوات .

والعنوان فى هـذه المكاتبة «الباسطُ الشريف» بالألقاب التى فى صَدْر المكاتبة على السَّواء، والدعاءُ له بأوّل سَجْعةٍ من دعاء الصَّدْر أونحوها، بحسَبِ حال المكتوب إليه ، مثل أن يكتب لمن هو من أرباب السيوف ، أعَزَّ الله تعالى نَصْره، أو عَزَّ

نَصْره . ولمن هو من رُؤَساء الكُتَّاب : أسبغ اللهُ ظِلالَه . ولمن هو قاضى حُكْم : أعزَّ الله أحكامَه . ولمن هو من مشايخ الصوفية : أعادَ اللهُ من بَرَكاته .

وصورة وضْعه فى الوَرَق أن تكتَبَ الألقابُ والدعاءُ والتعريفُ فى سطرين كاملين من أوّل عَرْض الورق إلىٰ آخره ، إلا أنه يُفْصَل بين الألقاب والدعاء ببياض لطيف ، وبين الدعاء والتعريف ببياضٍ لطيف كما فى هذه الصورة .

الباسطُ الشريف ، العالى ، المَوْلوىّ ، الأميرىّ ، الكَبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيَّدىّ ، السيِّدىّ ، المالكىّ ، المخدومىّ المحسنىّ ، الفلانىّ أعزَّ الله أنصارَه أمير حاجب بحَلَب المحروسة

وقد ذكر فى "عرف التعريف" : أنه إن قَصَد تعظيمَه ، عنونه بالمَقرّ الشريف بالألقاب المتقدّمة علىٰ السَّواء ، ولا تخفىٰ صورةُ وضعه بعد ما تقدّم ، والعلامة «المملوك فلان» بقَلَم الرِّقاع مقابلَ إن شاء الله كالمكاتبة بالمَقرّ الشريف المتقدّمة .

المرتَبة الثانية — [يُقَبِّل الباسطةَ الشريفةَ](١) والرسم فيها أن يَتْرك تحتَ المَلَكىّ الفلانى قَدْر سطرين بياضًا كما فى المكاتبة قبلَها ؛ ثم يكتُب يقَبّل الباسطةَ الشريفةَ بالتأنيث ، ويجرى الحالُ فى ذلك كما فى الباسط — فإن كان المكتوبُ إليه من أرباب السيوف ، كتب : يقبّل الباسطةَ الشريفةَ ، العاليةَ ، المَوْلَويَّة ، الأميريَّة ، الكبيريَّة ، العالميَّة ، العادليَّة ، المؤيّدية الذُّخْريَّة ، المالِكية ، المحسِنيَّة ، الفلانية ؛ لازالتْ سحائبُها مستَهِلَّة ، ومواهبُها للبحار مستقِلَّة ؛ ويُنْهى كيتَ وكيتَ ؛ والمستمَدُّ من محبَّته كيتَ وكيتَ . وربما قيل والمسئُولُ ، والله تعالىٰ يؤيّده بمَنّه وكرمه .

دعاء آخر يليق بذلك : لازالتْ سُيُولُها تملأ الرِّحاب ، وسُيوفُها تُسْرع السَّلَّ إلىٰ الرِّقاب .

---

(١) زدنا هذه العبارة أخذا مما سيأتى علىٰ الأثر ولعلها سقطت من قلم الناسخ تأمل .

آخـر : لا زالتْ خَناصِرُ الحَمْدِ علىٰ فَضْلِ بَنانِها معْقُوده، ومآثِرُ البأْس والكَرمِ لهـا ومنها شاهِـدَةً ومَشْهُوده ، وبَوَاتِرُ السُّـيوف مُسَيَّرَةَ القصد إلىٰ مُناصَرةِ أقلامِها المنْضُوده .

آخـر : ضاعف اللهُ تعـالىٰ مَوَادَّ نِعَمِها، وجَوَادَ كَرَمِها ، واتِّصـالَ الآمال بمَسَاقِط دِيَمِها .

آخـر : لا زالَتِ الآمالُ لائذةً بكَرَمِها ، عائذةً بحَرَمِها ، مستنْجِدةً علىٰ جَدْب الأيَّام بسَقْيِ دِيَمِها.

آخـر : لازالتْ لرُسُوم الكرم مُقِيمه ، ولصَـنائع المعْرُوف مُدِيمه ، ولأَيادِى الإحْسان متابِعةً إذا قَصَّرتْ عن البُروقِ دِيمَه — و إن كان المكتوب إليه من رءوس الكُتَّاب كتب بدل الأميرىّ القضائىّ، والباقى علىٰ ماتقدم، ثم يُدْعىٰ له بما يناسبه .

دعاء يناسب ذلك : لا زالتِ السـيوفُ خاضِعةً لأقلامِها ، والنجومُ خاشِعةً لكَلامِها، والجبالُ متواضعةً لإعلاءِ أعلامِها .

آخـر : لا زالتْ مُوالاتُها فريضَه ، وأجنِحةُ أعدائِها مَهِيضه ، ومُقَلُ الأسِنَّة إذا خاصمَتْها ألسنةُ أقلامها غَضِيضه .

آخـر : أسبغ اللهُ ظِلَّها، وهَنَّأ بهـا أُمَّةً قَرُبَ مبعَثُ زمانها وأظَلَّها، وهَـدىٰ الآمالَ وقد حيَّرها الحرمانُ وأضَلَّها .

آخـر : لازال قلَمُها مِفْتاحَ الرِّزق لطالبه ، والجاه لكاسِبِه ، والنصْر لمستَنِيب كُتُبها عن كتائبه .

آخـر : لا زال رِفْدُهـا المطْلُوب ، وسَـعْدُها المكتوب ، وقلَمُها المُخاطب فى مصالح الدول والمخْطُوب .

آخــر : بَسَط الله ظِلَّها ولا قَلَّصها، وزادها من فَضْله ولا نَقَصها ، ولا جَرَّع كِبدَ حاسدِها الظامِيَةَ إلا غُصَصَها .

آخــر : ولازال عميماً إنعامُها، قديمـاً وحديثا دِيَمُها و إكرامُها، قاضيةً بِسَعْدها النجُومُ التى هى خُدَّامها.

آخــر : لا زالتْ بَسيطًا ظِلُّها ، مديدًا فضْلُها، سريعًا إلىٰ داعى النَّدىٰ والرَّدىٰ قلمُها فى المهمَّات وَنَصْلُها ـ و إن كان من قُضَاة الحُكم زاد مع القاضَوى" قبل الفلانى الحاكِمى" ودعا بما يُناسب .

دعاء : أعزَّ الله شانَها، وأذلَّ مَنْ شانَها، وأغصَّ بأدْمُع أعدائها الضَّريحة شانَها[1] .

دعاء آخــر يليق بذلك : ولا زالت الآمالُ إليها وافده، والصِّلاتُ عائِده، ومعانى الفضل عن أخبار مَعْنِها زائِده .

آخــر : لازالتْ خناصِرُ الحمد معقودةً علىٰ فضل بَنَانها، وفَصْل بيَانها، وعوائدُ الفضل والكَرَم شاهدةً بالحسنَيَيْنِ من فَضْلهـا وآمتِنانِها ـ و إن كان من مشايخ الصُّوفِيَّة أبدل القَضائِيَّـة بالشيخِيَّة وأسقط العادليَّة والحاكميَّة ودعا له نحو قوله : ومَتَّع الإسلامَ ببقيَّته الصالحه ، وبَيَّض صحائفَ أعماله التى لأيْدى الملائكةِ الكرام مُصافِحه .

آخــر : لا أخلىٰ الله من بركات خَلَواته ، وأعادَ من نَوَامى دَعَواته، وسَوَامى دَرَجاته وتوجُّهاته، ونحو ذلك .

والعنوان الألقـابُ التى فى صَدْر المكاتبـة، والدعاءُ بالسَّجْعة الأولىٰ من الدُّعاء باطنَه أو نحوها .

(١) الشأن مجرى الدمع الى العين. قاموس.

وصورة وَضْعه أنْ تكتَبَ الألقابُ والدعاء والتعريف فى سطرين كما تقدّم فى الباسط كما فى هذه الصورة .

الباسطة ، الشريفة ، العالية ، المولَوِيّة ، الأميريّة ، الكبيريّة ، العالميّة ، العادليّة ، الذُّخرية ، السنَديّة ، الكامليّة ، المحسِنيّة أعزَّ الله تعالىٰ أنصارها أميرحاجب بحماة المحروسة .

والعلامة « المملوك فلان » بقلم الرِّقاع فى أوّل الوصل الثالث علىٰ القُرْب من اللَّصاق .

المرتبة الثالثة — يقبِّل اليدَ الشريفةَ بألقاب الباسطة المتقدّمة ، ثم اليدَ الكريمة ، ثم اليدَ العـاليةَ مع حذف الكريمة رُتبـةً بعد رُتْبـة ، والألقابُ بحالها ويُدْعىٰ له ، ثم يقال والمستمَدُّ من محبّته كيْتَ وكيْتَ ، والله تعـالىٰ يؤيّده . والحالُ فى آختلاف بعض ألقابها بالنِّسبة إلىٰ أرباب السيوف وغيرهم علىٰ ماتقدّم فى الباسطة .

وهذه أدعية لأرباب السُّيوف فى هذه المكاتبة

دعاء من ذلك : يقال بعد آستكمال الألقاب : لازالتْ مقبِّلةَ البَنانِ ، مؤمَّلةَ الإحسانِ ، مفضَّلةً علىٰ أنواء السُّحُب بكل لِسان ، ويُنْهِى .

آخـــر : لا زالت تَرُدّ بالسـيف صُدورَ الكتائب ، وتَرِد الظُّماةُ منهـا مَوارِدَ السحائب ، وتُحدِّث عن البحر وكم فى البحر من العَجائب .

آخـــر : لا زالتْ بِرُّها مأمونَه ، وبذْلُها ممنونه ، وأيامُها تصبِّح الأعداءَ بأسنّتها الزُّرْق المسنُونه .

آخـــر : لا أخلىٰ اللهُ من وُدّها ، ولا قطع وظائفَ حَمْـدها ، ولا قضىٰ مَغيبَها إلّا جعل لهـا ذِكرىٰ بُعْدها .

آخـــر : لازالتْ مصالحها تظْفَر بالمُنىٰ، وتحصُـل علىٰ الغِنىٰ ، وتُطلِق لسانه بعاطر الثَّنا .

آخـــر : لا زالَتْ لتقليد المِنَن سابقةً فى الجُود العَدْل ، مقَسَّمةً فى مكارم التكريم : باطِنُها للنَّدىٰ وظاهرُها للقُبَل .

وهذه أدعية تناسب أرباب الأقلام

يقال بعـد آستيفاء الألقاب : لازالت مستهِلَّة بالنَّدا ، مستقِلَّةً بكَبْت العِـدا ، مُطِلَّةً علىٰ النجوم علىٰ بُعْد ما بينهما من المَدىٰ .

آخـــر : لابرِحَتْ مفاخرُها مفَصَّله ، ومَحَبَّتُها فى الخواطر ممَثَّله ، والكواكبُ تَوَدّ لو فارقَتْ فلكَها وأصبحتْ لدَيْها مسبله .

آخـــر : لا زالتْ لصحائف الإحسان مسَـطِّره ، ولقلوب الأعداءِ مُفَطِّره ، ولصنائع المعروفِ إذا أمسكَتِ الأنواءُ مُمْطِره .

آخـــر : أعلىٰ الله تعالىٰ شانَها ، وضاعف إحسانَها .

والعنوان . اليدُ الشريفة ، أو اليد الكريمة ، أو اليد العاليةُ ، بالألقاب التى فى صَدْر الكتاب من غير زيادةٍ ولا نقص ؛ والدعاء بأوّل سَجْعة من المدعُوِّ به فى صدر الكتاب أو نحوها ؛ والتعريف بعد ذلك .

وصورة وضعه فى الكتابة أن يكتب سطران علىٰ ماتقدّم فى الباسط والباسطة كما فى هذه الصورة :

اليد الشريفة ، العالية ، المولويّة ، الأميريَّةُ ، الكبيريَّة ، العالمية ، العادليَّة ، الذُّخْرية ، المـالكيَّة ، المحسنيَّة ، الفلانية . أعلىٰ الله تعالىٰ شأنها نائبُ ملَطْيَةَ المحروسة

والعلامة «المملوك فلان» بقلم التوقيعات، فى آخر الوصل الثانى من الكتاب، على القُرْب من موضع لِصاقه[١].

وآعلم أنه ربما وُصِف التقبيل فى هذه المراتب بعد الدُّعاء بالأوصاف الدالّة على زيادة التأدُّب ورِفْعة قَدْر المكتوب إليه، وعلى ذلك جرى فى "عُرْف التعريف". وقد يستعمله بعضُ كُتّاب الزمان، وذلك مثل أن يقول فى تقبيل الباسط بعد آستعمال الدعاء: تقبيلًا يَحُوم على مَناهِله، ويحلّق نَسْرُ السماء على مَنازِله؛ أو يقول: تقبيلَ محبٍّ أخلَص ولاءَه، ومحّض الصِّدقُ وفاءَه ـ أو تقبيلًا يُواليه، ويُنَظِّم لآليه ـ أو تقبيلا يُواصل به الخِدَم، ويَوَدّ لو سعى لأدائه على الرأس إن لم تُسْعِف القَدَم ـ أو تقبيلًا لا يُروى الكرَمُ إلّا عنه، ولا تُستفاد المكارمُ إلّا منه ـ أو تقبيلَ واردٍ على ذلك الزُّلال، رائدٍ فى ذلك الروض الممتدّ الظِّلال ـ أو تقبيلَ مُسارِعٍ إليها، مزاحِمٍ عليها.

وربما أتى فى الإنهاء بما يلائم المَقام، مثل أن يقول: ويُنْهى بعد وَصْف خِدَمه، وتمنّيه لو وَقَف فى صَفّ خَدَمه؛ وما أشبه ذلك.

قلت: وفى بعض الدّساتير بعد تقبيل اليد العالية، يُقبِّل يدَ الجناب الكريم، العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المؤيّدىّ، النصيرىّ، الزَّعيمىّ، الفلانىّ؛ وبعد ذلك: يخدُم الجنابَ الكريم بنحو هذه الألقاب؛ وفى "التثقيف" يقبّل يد الجناب العالى، ويخدم الجنابَ العالى، بدُون الكريم؛ ثم يقال بعد ذلك ويُبْدى لعلمه كيتَ وكيتَ، والقَصْد من محبّته كيت وكيت؛ فيُحيط علمًا بذلك. وبعضُ الكُتّاب يستعمل ذلك إلى الآنَ؛ وهو ذُهُول، إذ سيأتى فى أوّل الدرجة الثالثة أنّ أعلى المراتب المفتتحة بالدعاء الدعاءُ للمقرّ الشريف على المصطلَح الأوّل، وللمقرّ الكريم على ما آستقرّ عليه الحالُ الآنَ؛ وإذا كان كذلك فكيف يتأتّى أن تكون مرتبةٌ من مراتب الجناب الكريم، أو الجناب العالى قبل المقرّ الشريف أو المَقرّ الكريم.

(١) الأظهر من موضع لصقه.

الدرجة الثالثة

(المكاتبة بالدعاء)

وقد رتّبوا المكاتبةَ بالدعاء على [ثلاث](١) مراتب :

المرتبة الأولى — الدعاء للمقرّ ، والرسمُ فيه أن يُترك بعد «الملكى الفلانى» قدر عَرْض ثلاثة أصابعَ بياضًا، ثم يؤتى بصَدْر المكاتبة على سَمْت البسملة .

ويختلف الحالُ فى ذلك : فإن كان المكتوبُ إليه من أرباب السُّيوف ، كتب أعزّ الله تعالى أنصارَ المَقرّ الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، العادلىّ ، العَوْنىّ ، النَّصيرىّ ، الفلانىّ ؛ ثم يُدْعىٰ له بما يُناسب ، نحو : ولا زالَتْ جُيوشُه جائلةٌ ، وجنودُه بين الأعداء وبين مَطَالبها حائله ، وأولياؤه على صَهَوات خَيْلها لَدَيْه قائله ؛ أصدرناها إلى المَقرّ الكريم ، تُهْدى إليه من السَّلام أطيبَه ، ومن الثَّناء أطْنَبه ، وتُبْدى لعلمه الكريم أنّ الأمرَ كَيْتَ وكَيْتَ ؛ والقصدَ من اهتمامه كيتَ وكيتَ ؛ فيُحيط علمُه بذلك ، والله تعالى يؤيِّده بمنّه وكرمه .

وهذه أدعيةٌ تُناسِب ذلك :

دعاء يليق بذلك : يقال بعد تكملة الألقاب : وأيَّد عزائمَه ونَصرها ، وأعلى أعلامَه ونَشَرها ، ودقّق فى مَقَاتل الأعداء حيثُ تَزُورُ الأسنّةُ نظَرَها ، ويُنْهى .

آخر : ولابَرِحتِ الآمالُ بكرمه تعترف ، وبَوارِق صَوارِمه لأبصار الأعداءِ تختَطِف .

(١) بياض فى الأصل .

آخـــر : وأعلى قَدْره ، وأنفذَ أمْرَه ، أصدَرْناها .

وإن كان من رؤساء الكُتّاب، كتب : بسطَ اللهُ ظِلَّ المقرّ . أو أسبغَ الله ظِلَال المَقرّ الكريم ، العـالى ، القَضَائىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، السيّدىّ ، السَّـنَدىّ ، المـالِكىّ ، المخدُومىّ ، المُحْسنىّ ، الفلانىّ ؛ وباقى المكاتبة كما فى أرباب السيوف .

وهـــذه أدعيةٌ تنـاسب ذلك :

دعاءٌ يليق به : ولا زالتِ الأمورُ إليه مفوَّضه ، ومَضَارِبُ العِزِّ إلا عنه مُقوَّضه ، وصحائفُ الحَسَنات بتسويده على أثناء الدَّهْر مُبيَّضه ، أصدرناها .

آخـــر : وصَرَّفَ لسانَ قلمه ، وشرَّف مكانَ قَدَمه ، وعَرَّف من كان يُناوِيه أنّه أصبحَ لا يُعدّ من خَدَمه .

قلت : وقد ذكر فى " عرف التعريف " أن القُضاة والحُكّام لا مَدْخَل لهم فى المكاتبة بالمَقرّ ، وعلى ذلك جرى فى مشايخ الصوفيّة . على أنه قد كُوتب بذلك . وقد رأيتُ المكاتبـةَ بذلك فى بعض الدساتير ، وحينئذ فيُكْتَبُ : أعزَّ الله تعـالى أحكامَ المَقرّ العالى ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العلّامىّ ، الإمامىّ ، المالكىّ ، المحْسنىّ ، الحاكمىّ ، الفلانىّ ؛ ويُدْعى له بمـا يناسب . مثل : وجدّد له إقْبـالا ، وبلّغه من الدّارَيْنِ آمالا ، وأحسَنَ إليه مَبْدَأ ومآلا ، ونحو ذلك . والباقى على نحو ما تقـــدّم .

وهـــذه أدعيةٌ تناسب ذلك :

لا برِحت الشريعةُ محُوطَةً بأقلامه ، مضبوطةً بأحكامه ، منُوطةً بمـا يُشَيِّد مَبانِيَها ومَثانِيَها من أحكامه ، مؤرّخةً أيامَ سُعودها بأيامه .

آخــر : حرس اللهُ بأحكامه سَرْحَ المَدىٰ ، ولا برِحَتْ فتاوِيه بها يُقْتدىٰ ، ويُظْهِر علىٰ المُناوِين والمبتَدِعين من تجريدها مُهنّدًا مُهَنّدا .

آخــر : لابرِحَتْ أنوارُ فتاويه لامِعَه ، وسيُوفُ أقْلامِها بها قاطِعه ، وحُدودُها إلىٰ [مَوَارد] أحكام الشريعة المحمَّدية شارعه .

والعنوان لهذه المكاتبة المقرّ الكريم بنظير ما فى الصَّـدْر ، والدعاء بأوّل سجعةٍ فى الصدر من الدعاء .

وصــورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين الألقـاب والدعاء والتعريف كما فى هذه الصورة :

المقَرّ الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، العادلىّ ، العَوْنىّ ، النَّصيرىّ ، الفلانىّ ؛ أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَه . فلان الفلانىّ

والعلامة « المملوك فلان » بقلم الثلث مقابل السطر الثانى من المكاتبة .

المرتبة الثانية : الدعاءُ للجناب ، وهو علىٰ ثلاث طَبَقات :

الطبقة الأولىٰ — أعزَّ الله تعـالىٰ نُصْرةَ الجناب الكريم . والرسمُ فيـه أن يُتْرك تحتَ «المَلَكىّ الناصرىّ» عَرْض ثلاثة أصابع بياضا كما فى المسئلة قبلها .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السُّـيوف ، كتب : أعزَّ الله تعالىٰ نُصْرة الجناب الكريم ، العـالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، العادِلىّ ، العَوْنىّ ، الذُّخْرىّ ، العَضُدىّ ، الفلانىّ ؛ ويُدعىٰ له ، نحو : وأعلىٰ قَدْره ، وأنفَذَ أمْره ، صدرتْ هــذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب الكريم ، تُهْدى إليه سلاماً رائقا ، وثناءً عابِقا ، وتُوضِّح لعلمه الكريم كَيْتَ وكَيْتَ ، والقَصْد من آهتمامه كيتَ وكيتَ ؛ فيُحيط علمُه بذلك ، والله تعالىٰ يحرُسُه بمنّه وكرمه .

وهـــذه أدعية تُنَاسِبُ ذلك .

دعاء منـــه : ولا زالتْ عزائِمه تُعِير السُّـيوفَ المَضَاء ، وتُعَـلِّم السِّهامَ النُّفُوذَ في القَضَاء .

آخـــر : ولا زال جنَـابُه مَرْتَعا ، وسحابُه مَرْبَعا ، ورُعْبُـه لايَدَع من قلوب الأعداء مَوْضِعا .

آخـــر : ولا زالتْ عزائمُه تُبَارِى السُّـيوف ، وتَشُقُّ الصُّفُوف ، وتُجارِى إلىٰ مَقَاتِل الأعداء الحُتُوف ، صدرت .

وإن كان من الكُتَّاب ، كتب : أدام الله تعالىٰ جَلَال الجناب الكريم ، العالى ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، الصَّدْرِىّ ، الرَّئيسىّ ، العَوْنىّ ، الغِيَاثى ، المَلَاذىّ ، الفلانىّ ؛ ويُدْعىٰ له بمـا يناسبه ، والباقى من نِسْبة أرباب السُّيوف .

دعاء يناسبه : وحرَس سَماءَه التى تَغْنىٰ عن المَصَابيح ، ونَعْماءه التى هى للنِّعَمِ مَفَـاتِيح .

آخـــر : وبَلَّغهُ أشرفَ الرُّتَب ، وملأ به قُلوبَ الأعداءِ غايةَ الرَّهَب ، وشَكَر نَدىٰ قلمه الذى لم يَدَعْ للغَمَام إلا فَضْلَ ماوَهَب ، صدرت .

وإن كان قاضـيًا ، كَتَبَ : أعزَّ الله تعـالىٰ أحكامَ الجناب الكريم العـالِى ، القَضَائى ، الإمامىّ ، العالمىّ ، العَلَّامىّ ، الأوْحَدىّ ، الفلانىّ . ويدعو له ، نحو : ونَوَّر بعلْمِه البصائر ، وسَرَّ بحُكْمه السَّرائر ، وجعل فَيْض يَمّه ممـا لا تُودَع دُرَرُه إلا فى الضمائر . والباقى من نِسْبة ما تقدّم .

وإن كان من مشايخ الصُّوفيَّـة ، كَتَبَ : أعاد اللهُ تعـالىٰ من بَرَكَات الجناب الكريم ، العالى ، الشَّيْخِىّ ، الإمَامِىّ ، العالمىّ ، العامِلِىّ ، الوَرَعِىّ ، الزاهِدِىّ ، الفلانىّ .

ويُدْعىٰ له ، نحو : ولا زال يُقاتِلُ بسِلاحه ، ويُقابِل فَسادُ الدَّهْر بصَلاحه ، وتُجْلىٰ دُجىٰ الظَّلْماء بصَباحه ، صدرت هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب الكريم تُهْدِى إليه سلامًا يزدان بعَرْض بخِدْمته ، ويزدادُ نَضْرة بنَظْرته .

والعنوان لكلٍّ منهم بألقاب الصدر ، والدعاء بأوّل سَجْعة من دعائه أو نحو ذلك .

وصورة وَضْعه أن يكتب فى سطرين ألقابَه ودعاءَه وتعريفَه كما فى هذه الصُّورة :

الجناب الكريم ، العالِى ، الأَميرىّ ، الكَبِيرىّ ، العالمىّ ، العادِلىّ ،

النَّصيرىّ ، الفلانىّ ، أعز الله تعالىٰ نُصْرته فلان الفلانىّ

والعلامة « المملوك فلان » بقلم الثلث مقابِلَ السطر الثانى كما فى المكاتبة التى قبلها .

الطبقة الثانيـة — من المرتبة الثانية : ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى .

والرسمُ فيه أن يترك تحتَ المَلَكىّ الفلانىّ قدر أربعةِ أصابعَ بياضًا . ثم يختلف الحال فى ذلك .

فإن كان المكتوبُ إليه من أرباب السُّيوف ، كُتِبَ : ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، الأميرىّ ، الكَبِيرىّ ، العالمىّ ، العادِلىّ ، المؤيَّدىّ ، العَوْنىّ ، النَّصيرىّ ، الذُّخْرىّ ، الفلانىّ ؛ ثم يدعىٰ له ، نحو : ونَصَره فى جِلاده ، وأيَّده فى مَواقِف جِهاده ؛ صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى تُهْدِى إليه سلامًا تَشُوق ، وثناءً يَرُوق ، وتُوضِّح لعلمه كيتَ وكيتَ ؛ فالجناب العالى ، يتقدَّمُ بكيتَ وكيتَ ، فيُحيط علمُه بذلك ، واللهُ تعالىٰ يؤيِّده بمنّه وكَرَمه .

دعاء آخر يناسب هذه المكاتبة : يقال بعد آستيفاء الألقاب ، ولازالَ عَزْمه مؤيَّدا ، وعِزُّه مؤبَّدا ، وآجتهادُه وجِهاده : هذا يسرُّ الأولياءَ وهذا يَسوء العِدا ؛

صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العـالى تخُصُّه بالسَّـلام، والثناءِ الوافرِ الأقسام، وتُوضِّح لعلمه كيتَ وكيتَ .

آخـــر : ولا زالتْ آراؤُه كواكبَ يهتـدىٰ بلوامِعِها ، وتُقْـرأ سُـورةُ النصر فى جَوامعها ، وتَسير كالسُّحُب فترْمِى الأعداءَ بصَواعِقِها وتأتى الأوْلياءَ بِهَوامِعِها .

وإن كان من الكُتَّاب، كتب : ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى، القَضَائىّ، الكبيرىّ، الصَّدْرىّ، الرَّئيسىّ، القَوَامىّ، النِّظامىّ، الفلانىّ ؛ ثم يُدْعىٰ له نحو : ولا زال يُرْجىٰ لكلِّ جَليل ، ويُؤَمَّل لكلِّ جميل ، ويُؤَهَّل لكلِّ منتَهًى تقصرُ دُونَه أصابعُ النَّيل ؛ صدرتْ هذه المكاتبةُ، والباقى علىٰ ماتقدّم فى أرباب السيوف .

وإن كان من القُضاة، كتب : ضاعف الله تعالىٰ نِعمةَ الجناب العالى، القَضائىّ، العالمِىّ، الفاضلىّ، الأوْحدىّ، الصَّـدْرىّ، الرَّئيسىّ، الفلانىّ ؛ ويُدعىٰ له نحو : ودَفَع عنه الأبَاطِيل، وأرشدَ بهُداه من الأضَالِيل .

وإن كان من مشايخ الصُّوفيَّة، كتب : أعاد اللهُ تعالىٰ من بَرَكة الجناب العالى، الشَّيْخىّ، الإمامىّ، العالِمىّ، الكامِلىّ، الوَرَعىّ، الزاهِدىّ؛ ويُدْعىٰ له،نحو: ولا زال تُكْشَفُ به اللَّأْواء، وتُطَبُّ به الأدْواء . صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدى إليه سلامًا، وتُفَضّ عن مِثْل المِسْك ختاما، وتوضِّح لعلمه .

دعاء آخر : نفَع اللهُ بدَعَواتِه التى لاحاجبَ لها عن الإجَابه، ولاعارضَ يمنَعُها عن الإصابه، وأمتع ببرَكَاته التى هى أَمْنٌ للناس ومَثَابه . صدرت .

والعنوانُ الألقاب التى فى صـدر المكاتبة . والدعاءُ : ضاعف الله تعالىٰ نِعمَتَه، ثم التعريف .

وصورة وضعه فى الورَق أن يُكْتَب فى سطرين ألقابه ودعاؤه وتعريفه كما فى هذه الصــورة :

الجنـاب العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيّدى، العونى، النّصيرى، الذُّخرى، الفلانى . ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه فلان الفلانى

والعلامة «المملوك فلان» بقلم الثلث الثقيل مقابِلَ السطر الأوّل من المكاتبة .

الطبقة الثالثـة — أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ومافى معنىٰ ذلك . والرسمُ فيه أن يُتْرَك تحتَ المَلَكى الفلانى بحيثُ يبقىٰ من الوصـل الذى فيـه البسملةُ مايسَعُ سطرين فقطْ . ثم يختلف الحال فيه .

فإن كان المكتوبُ إليـه من أرباب السـيوف ، كتب : أدام الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمىّ ، المجاهدى ، المؤيّدى ، العونى ، النّصـيرى، الذُّخرى ، الفلانى . ويُدْعىٰ له ، نحو : وأيَّد عزْمَه وأظهَرَه، وكَبَتَ عدوَّه وقهَرَه؛ صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدِى إليه سلاما طيِّبا، وثناءً مُطْنبًا، وتوضِّح لعلمه كيتَ وكيتَ ؛ فالجناب العالى يتقـدّم بكيْتَ وكيْتَ ؛ فيحيطُ علمُه بذلك، والله تعالىٰ يؤيّده بمنّه وكرمه .

دعاء آخر يناسبه : وموّه بجهاده كُلَّ سِنَان ، ونَبَّـه بجِلاده جَفْنَ كلِّ سـيف وَسْنَان . صدرتْ هـذه المكاتبةُ تحيّيه بسلامٍ يَطِيب ، وثناءٍ يهتزُّ غُصْنُه الرَّطيب، وتوضِّح لعلمه .

وإن كان من الكُتّاب ، كُتِب : أدام الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالِى، القضائى . والألقابُ من نِسبة ما تقدّم فى ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العـالى . والدعاء، نحو : ولا زال قلَمُه لِأبوابِ الأرْزاق فاتحا ، ونَجْمُ رِفْده [لأنواء الفضـل مانحا](١) صـــدرتْ .

(١) بيض فى الأصل لبقية هذه السجعة فاثبتناها ليلتئم الكلام .

وإن كان من القُضاة ، كتب : أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، والألقابُ من نِسْبة ما تقدّم فى ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجنابِ العالى . والدعاءُ ، نحو : ولا أخْلىٰ اللهُ أُفُقَ الفضل من كَوْكبِه ، ولا مَجالَ الجِدال من مَرْكَبِه . صدرت .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : أدام الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى الشيخىّ . وبقيّةُ الألقاب من نِسْبة ما تقدّم مع ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب . والدعاء، نحو : نفعَ الله ببركات خَلَواته التى كَمِ ٱنجلَتْ عن الرَّشاد، وبان فى مِرْءاتِها نُورُ الهدىٰ للعِباد، وأنارَتْ إنارَةَ الشمس لَاإنارَةَ الزِّناد .

والعنوانُ بنظير الألقاب التى فى صَدْر المكاتبة ، والدعاء أدام الله تعالىٰ نعمتَهُ .

وصورة وضعه فى الورق أن يُكْتَب فى سطرين الألقابُ والدعاءُ والتعريفُ كما فى هذه الصورة :

الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمى، المجاهِدىّ، المؤيّدى ، العَوْنى، النِّصيرى ، الذُّخْرى، الفلانى؛ أدام الله نعمتَه فلان الفلانىّ

والعلامة «المملوك فلان» تحت البسملة بقَلَم مختصرِ الطُّومار .

المرتبة الثالثة — الدعاءُ للمجلس ، ويختَصُّ بالمجلس العالى ، والبياضُ فيه تحتَ المَلَكى الفلانى بحيث يبقىٰ من الوصل قدرُ سطرين كما تقدّم فى الجناب العالى. ويختلف الحال فيه .

فإنْ كان من أرباب السُّيوف، كتب : أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيّدى، الذُّخْرىّ، العَوْنى، الفلانى، ويدعىٰ له ، نحو : وأيّد عَزْمه، ووفَّر من الخيرات قِسْمَه ؛ صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى تُهْدى إليه سَلَاما، وتُوفِّر له من الخير أقساماً، وتوضح لعلمه المبارك

كيتَ وكيتَ ، فالمجلسُ يتقـدَّم بكيتَ وكيتَ ، فيحيط بذلك عِلْمـا . والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه .

وهـــذه أدعية تليق بهذه المكاتبة .

دعاء من ذلك : ولا زالَ مَشْكورَ الاهْتِمام ، موصوفَ المحاسِن وَصْفَ البَدْر التَّمام ، معروفًا بجميل الأَثَرِ مثلَ ما تُعْرف مواقِعُ الغَمَام . صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى تُهْـدى إليه سـلاما ، وتُسـدِّد لرأيه الصـائِبِ سِهَاما ، وتوضِّح لعِلْمه الكريم .

آخـــر : ولا زال سَيْفًا يُدْفَع بحَدِّه ، ويَجْرِى ماءُ النصر من فِرِنْده ، ويتنوعُ به الظَّفَر فيَقْتُل بتجريده ويُخافُ وهو فى غِمْده .

وإن كان من الكُتَّاب ، كتب : أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى ، القَضَائى ، الأجلِّ ، الكبيرىّ ، الرئيسىّ ، المـاجِدىّ ، الأوحَدىّ ، الأثيرىّ ، الفـلانى ؛ ويُدْعىٰ له ، نحو : وسدّدَ رأْيَه ووَفّقه ، وصَدَّق فيـه الظَّنَّ وحقّقه ، وجمع له شَمْلَ السعادةِ ثم لافَرَّقه . صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى تَشْكُرُ مَسَاعيه ، واهتمامَهُ الذى باتَ طَرْفُ النَّجْم وهو يُرَاعِيه ، وتُوَضِّح لعلمه الكريم .

آخـــر : ولا نَزَع عنه ثوبَ سَعاده ، ولا غَيَّر منه جميلَ عادَه ، ولا عُرِف سِوىٰ بابه الذى لو كان له الحقُّ فى جَبْهةِ الأسـدِ لاسْتعادَه . صدرتْ هـذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى تُهْدى إليه السـلام ، والثَّناءَ الذى تَنْطِق به أَلْسِـنَةُ الأقلام ، وتوضح لعلمـــه .

وإن كان من القُضاة ، كتب : أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى ، القَضَائى ، الكبيرىّ ، العـالمىّ ، العاملىّ ، الفاضـلىّ ، الأوْحدىّ ، الفلانىّ ؛ ويُدْعىٰ له ،

نحو : ولا بَرِحتْ طُلْبته(١) مفيدةَ المَطالب، مُورِيَةَ الهُـدىٰ فى الغَيَاهِب، قائمةً أقلامُ هدايتها فى ليالى الحَيْرة مَقامَ الكوا كِب .

آخـــر : ولا بَرِحتِ الدنيا ممطورةً بغَمَامِه، محبورةً بدخُولها تحتَ ذِمَامه .

وإن كان من مشايخ الصوفيــة ، كتب : أدام الله تعـالىٰ بركَةَ المجلس العالى ، الشَّيْخى، الإمَامى، العالمى، العامِلى، العابِدى، الوَرَعِى، الزاهِدى، الأوْحدى، الفلانى، ويدعىٰ له نحو : ولا زال نُورُه يسْعىٰ بين يديه، ويُدْعىٰ بآسمه إليه .

آخـــر : أعاد اللهُ من بركاته علىٰ الراعى والرَّعِيَّــه ، وجعل خَلَواته خلواتِ كلِّ نفسٍ راضيةٍ مَرْضِيَّه؛ والباق علىٰ ماتقدّم .

والعنوانُ الألقاب التى فى الصَّدْر ؛ والدعاءُ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه. ثم التعريف.

وصورة وضعه فى الورق أن تُكتب ألقابُه والدعاءُ والتعريفُ كما فى هذه الصورة:

المجلس العـالى ، الأميرى، الكبيرى، العـالمى، المجاهـدى، المؤيَّدى، الذُّخرى، العَوْنى، الفلانى، أدام الله تعالىٰ نعمَتَه فلان الفلانى

والعلامة « المملوك فلان » بقلم مختصَر الطُّومار تحت المَلَكى الفلانى، علىٰ ماتقدّم فى المكاتبة قبلها .

وآعلم أنَّ ترتيبَ هذه الدرجة علىٰ هذه المراتب : من الدُّعاء بأعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم؛ ثم أعزَّ الله تعـالىٰ نُصرةَ الجناب الكريم؛ ثم ضاعفَ الله تعالىٰ نعمة الجناب العـالى ؛ ثم أدام الله تعـالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، ثم أدام الله تعالىٰ نِعمةَ المجلس العالى ــ هو المستقرُّ عليه الحال بين كُتَّاب الزمان بالديار المصرية . وجعـل فى "عُرْف التعريف" أعلىٰ المراتب فى الدعاء : أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقرّ الكريم؛

(١) الطلبة من معانيها السفرة البعيدة ولعلها المرادة إن لم تكن مصحفة عن طلعته .

ثم أعزّ الله تعالىٰ نُصْرة المَقر الكريم ؛ ثم أعزّ الله تعالىٰ نَصْرَ المَقرّ الكريم ؛ ثم أدام الله تعالىٰ نُصْرةَ الجناب الشريف ؛ ثم أدام الله نُصْرة الجناب الكريم ؛ ثم ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، وحَرَسَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، مع ٱختصار الألقاب وحَذْف بعضها ؛ ثم أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجْلس العالى . وعلىٰ كثيرٍ من ذلك كان الحال جاريا إلىٰ آخر الدولة الأشرفيّة «شعبان بن حسين» ثم أخذ الناس فى التغيير إلىٰ أن صار الأمرُ علىٰ ماهو عليه الآن .

قلت : وكانوا فى الزَّمَن السالف فى الدولة الناصرية «محمدِ بن قلاوُون» وما والاها لا يأْتُون مع المَقرّ الشريف ، والمَقرّ الكريم ، والمَقرّ العالى ، والجناب الشريف ، بأصدرناها ولا بصَدرتْ هذه المكاتبةُ كما هو الآن ؛ بل بعد الدعاء يقولون مع «أعزّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الشريف» : المملوكُ يقبّل الباسطةَ . ثم يأتى بالإنهاء بعد ذلك مثل أن يقولَ : المملوكُ يُقَبِّل الباسطةَ الكريمةَ التى هى مَعْدِن السَّماح ، ومَوْطِن مايُوهِن العِدَا من صدور الصِّفَاح ، وينهى . أو يقول : يُقَبِّل الباسطةَ الكريمه ، ويَرْتَع منها فى كلِّ دِيمه ؛ ويُنْهى . أو والمملوك يقبِّل اليد الشريفَه ، ويلْجأ إلىٰ ظِلالها الوَرِيفَه ، ويُنْهِى . ومع «الجناب الشريف» لفظُ «المملوك يخْدُم» . ثم يقول : ويُبْدى مثل أن يكتُب : المملوك يَخْدُم بأثْنِيَتِه ، ويفُضُّ عقودَ الشُّكْر علىٰ أنديتِه ، ويبدِى لعلمه الكريم . أو المملوكُ يخدُم بأثنِيَتِه التى تَزِيدُ الطِّيب طِيبا ، وتَسْرِى سُرىٰ السُّحُب فلاتدَعُ فى الأرض جَرِيبا ، ويبدى لعلمه الكريم . وربما أعاض ذلك بقوله : صدرتْ هذه الخدمةُ ، مثل أن يقول : صدرتْ هذه الخدمةُ وسلامُها يتضَوّع ، وثناؤُها السافِرُ لايتَبرْقَع .

الدرجة الرابعـــة

(الأبتداءُ بصِيَغ مُخْتَرَعة من صدُور مكاتباتِ الأدعية)

اعلم أن صُـدورَ المكاتبات المفتتحةِ بالأدعية يقال فيها بعـد الدُّعاء المعطوف : أصدرناها أو صدرَتْ هـذه المكاتبة ؛ ثم يقال : وتُبْدِى لعلمه أو وتوضِّح لعلمه . ومن أجل ذلك جُعلتْ هـذه الدرجةُ دونَ درجة الأفتتاح بالدعاء ؛ لأنَّ هـذه فرعٌ من فروع تلكَ ، وحينئذٍ فيكون الصدر مُشْتَمِلا بعد الدعاء على ثلاثة أشياءَ .

أحدهـا — [أفتتاح] صدور المكاتبة بقوله : أصدرْناها أو صدرتْ .

والثـانى — الإشارةُ إلى المكاتبة بقوله : هذه المكاتبةُ .

والثالث — الإعلامُ بما صدرتْ بسببه المكاتبةُ . فأنتظم من ذلك ثلاثُ مراتِبَ .

المرتبة الأولى — الأفتتاحُ بصدور المكاتبة ، وفيها طبقتان .

الطبقة الأولى — صدرتْ والعالى ؛ وهى أن تُفْتَتَح المكاتبةُ ، بأن يقال : صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى . ويختلف الحال فيها .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السُّيوف ، كتب : صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدىّ ، الذُّخرىّ ، الأوحدىّ ، الفلانىّ ، ويدعى له نحو : أدام الله تعالى نعمتَه ، ووَفَّر من الخير قِسْمتَه ، تتضمَّن إعلامَه كيتَ وكيتَ . فالمجلس العـالى يتقدّمُ بكيتَ وكيتَ ؛ فيعْـلَم ذلك ويعتمِدُه والله الموفِّق .

وإن كان من الكُتّاب ، كتب : صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى ، القضـائىّ ، الكبيرىّ ، الرئيسىّ ، الكاملىّ ، المـاجدىّ ، الأثيرىّ ، الأوحَدىّ ، الفلانىّ ، ويدعى له ، نحو : حرَسَ اللهُ مَجْده ، وأنجح قَصْده ؛ والباقى على ماتقدّم .

وإن كان من القُضاة، كُتِبَ : صدرَتْ هـذه المكاتبةُ إلى المجلس العـالى، القَضَائىّ، الأجَلِّىّ، الإمامىّ، الصَّدْرىّ، الفَقِيهىّ، الكاملىّ، الفاضِلىّ، الفلانىّ؛ ويدعى له، نحو : أيَّد الله أحكامَه، ووَفَّر من الخير أقسامَه؛ والباقى على ماتقدّم .

وإن كان من مشايخ الصوفيَّة، كتب : صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى، الشَّيْخىّ، الإمامىّ، العالمىّ، العامِلىّ، الزاهِدىّ، العابدىّ، الوَرَعىّ، الأوحَدىّ؛ ويدعى له نحو : أعاد اللهُ من بركَتِه، ونَفَعَ المسلمين بصالح أدْعِيَتِه؛ والبـاقى على ماتقدّم .

والعنوان بالألقاب التى فى الصَّـدْر وأوَّلِ سَجْعةٍ من الدعاء فيه . وتكون الألقابُ والدعاء والتعريف فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، المجاهدىّ، المؤيّدىّ، الذُّخْرى،

الأوحدىّ، الفلانىّ   أدام الله رِفْعَتَه   فلان الفلانىّ

والعلامة «المملوك فلان» تحت «المَلَكىّ الفلانى» بقلم مختصر الطُّومار الثقيل، وربما جعل بعضُهم العلامةَ «أخوه» .

الطبقة الثـانية — صـدرَتْ والسامى . وهى أن تُفتتح المكاتبةُ بأن يقـال : صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلى المجلس السامىّ، والبياض فيها تحت المَلَكِىّ الفلانىّ كما فى المكاتبة التى قبلهـا : بحيث لا يبقى من الوَصْـل إلّا ما يسَعُ سطرين فقط على ماتقدّم .

ثم إن كان المكتوبُ إليه من أرباب السُّيوف، كتب : صدرتْ هذه المكاتبة إلى المجلس السـامِى، الأَميرىّ، الكَبِيرىّ، المجاهِـدِىّ، العَضُدىّ، الذُّخْرىّ، الأوحَدىّ، الفلانىّ؛ ويُدعى له نحو : أدامَ الله سعْدَه، وأنجح قَصْده . ثم يقال :

تتضمّن إعلامَه كيتَ وكيتَ . فالمجلس السامى يتقـدّم بكيتَ وكيتَ، فيعلَمُ ذلك ويعتَمِدُه ويبادِرُ إليه، والله الموفِّق .

وإن كان من الكُتّاب، كُتِب : صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى القضائىّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، الزّينىّ، الماجدىّ، الأثيرىّ، الأوْحدىّ، الفلانىّ؛ ويدعى له، نحو : ضاعفَ الله تعالى إقبالَه، أو أدام الله سعادَتَه، وبلّغه إرادتَه؛ والباقى على ماتقدّم .

وإن كان من القُضاة، كُتِب : صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى، القضائىّ، الصّدْرىّ، الفَقيهىّ، الإمامىّ، العالمىّ، الفاضِلىّ، الكَامِلىّ، الأوْحَدِىّ، فلان الدين . والباقى من نسبة ماتقدّم .

وإن كان من مشايخ الصوفيـة، كُتِب : صدرَتْ هـذه المكاتبة إلى المجلس السامى، الشّيْخىّ، العالِمِىّ، العامِلىّ، الوَرَعىّ، الزاهِدىّ، الأوحَدِىّ، الفلانىّ؛ ويدعى له، نحو : لا أخلاه الله من أُنْسِه، ولا أبعدَهُ من حَضْرة قُدْسه . والبـاقى على نحو ماتقدّم .

والعُنوانُ الألقابُ التى فى صَـدْر المكاتبة بالسَّجْعة الأولى ممـا فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه فى الورَق أن يكتَب فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى، الأميرىّ، الكبيرىّ، المجاهِدىّ، العضُدىّ، الذُّخرىّ، الأوحدىّ، الفلانىّ . أدام الله سعدَه فلان الفلانى

والعلامة «أخوه فلان» تحت المَلَكىّ الفلانىّ، بقلم مختصر الطُّومار الثقيل .

المرتبة الثانية — الافتتاح بالإشارة إلىٰ المكاتبة ، وهى أن يُكتَب : هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامِى بغير ياء فى ألقابه ، و يعبَّر عنه بالسامى بغير ياء ، والبياض فيها تحت المَلَكِىّ الفلانىّ متَّسع أيضا : بحيث لا يبقىٰ من الوصل إلا ماتَسَع سطرين فقط .

ثم إن كان المكتوبُ إليه من أرباب السُّيوف ، كُتِبَ : هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى ، الأميرِ ، الأجَلِّ ، الكبيرِ ، المجاهِدِ ، المؤيَّدِ ، الأوحدِ ، الذُّخْر ، فلان الدين ، ويُدعىٰ له نحو : أدامَ الله إقبالَه ، وبلَّغه آمالَه ؛ أو أنجحَ الله قَصْدَه ، وأعْذَبَ وِرْدَه ، تُعْلِمه كيتَ وكيتَ : فالمجلس يتقدَّمُ بكيتَ وكيتَ : فيعلَمُ ذلك ويعتَمِده ويبادر إليه ، والله الموفِّق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِب : هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى ، القاضى ، الأجَلِّ ، الكبيرِ ، الصَّدْر ، الرئيس ، الأوْحد ، ويدعىٰ له ، نحو : أدام الله سعادَتَه ، وبلغه من الخير إرادَتَه ، تُعلِمه كيتَ وكيتَ . والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كان من القُضاة ، كُتِب : هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامِى ، القاضى ، الأجَلِّ ، الكبيرِ ، العالم ، الفاضلِ ، الكامِلِ ، الأوحدِ ، فلان الدين . والباقى من نسبة ماتقدّم .

وإن كان من مشايخ الصُّوفية ، كتب : هذه المكاتبة الى المجلس السامى الشيخ ، الصالح ، الوَرِع ، الزاهِد ، فلان الدين ، نفع الله تعالىٰ ببركتِه ، ولا أخلىٰ مجالِسَ الذِّكر من محاسن سَمْتِه وسِمَتِه . والباقى من نِسْبة ما تقدّم .

والعُنْوان الألقاب التى فى صَدْر الكتاب ، وأوّلُ سَجْعةٍ من الدعاء الذى فيه وتعريفُه ، ويكون فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيّد ، الأوحَد ،
الذُّخر ، فلان الدين .　　　أدام الله إقبالَه　　　فلان الفلانىّ

المرتبـة الثـالثة — الافتتاحُ بالإعلام بالقَصْد ، وهو أن يكتب : يعلَمْ فلان ، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقدّمة المكاتبات من هـذه المقالة أنّ الصوابَ فيها لِيَعْلَمْ بإثبات لام الأمْر فى أوله ، فحذَف كتّابُ الزمان منهـا اللامَ اللازم إثباتها وأجرَوْها مُجْرىٰ الخبر. والرسمُ فيه أن يُتْرَك تحت المَلَكىّ الفلانىّ بياضٌ: بحيثُ لايبقىٰ من الوَصْل إلّا ما يسَعُ سطرين كما فى المكاتبة قبلَها وما قبْل ذلك .

ثم إن كان المكتوب له من أرباب السُّيوف ، كُتِب : يَعْلَمْ الأميرُ، الأجلُّ، الكبيرُ، المؤيَّد، الذُّخْر، المُرْتضىٰ، المختارُ، فلان الدين، ويدعىٰ له، نحو : أدام الله عزّه، ووفَّر من الخير كَثْرَه ، كَيْتَ وكيتَ ، فمجلس الأمير يتقـدّمُ بكيت وكيتَ ، فيعلَمْ ذلك ويعتَمِدهُ ويبادِر إليه، والله الموفّق بمنّه وكرمه .

وإن كان من الكُتّاب ، كُتِب : يعلم مجلسُ القاضى ، الأجلّ ، الكبيرِ ، العالِم ، الفاضـلِ ، الكامل ، الأوحدِ ، فلان الدين ، كيتَ وكيتَ ، والبـاق من نسـبة ما تقـدّم .

وإن كان من القُضاة ، كتب : يعلَم مجلس القاضى، الأجلّ، الكبيرِ، العالم، الفاضـلِ ، الكاملِ ، الأوحد ، فلان الدين ، كيتَ وكيتَ ، والبـاق من نسـبة ما تقـدّم .

وإن كان من مشايخ الصُّوفية ، كتب : يعلم مجلِسُ الشيخ ، الصالح ، الوَرِع ، الزاهِـدِ ، الأوحدِ ، الكامل ، فلان الدين ، كيتَ وكيتَ ، والبـاق من نسـبة ما تقـدّم .

والعُنْوان لهذه المكاتبـة الألقابُ التى فى الصَّدر والدعاء بأوّل سَجْعة ممـا فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه فى الورق أن يكتب ذلك فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس الأمير، الأجلّ ، الكبير ، المؤيّد ، الذخر ، المرتضى ، المختار ،

فلان الدين . أدام الله عزّه فلان الفلانى

والعلامةُ تحت البسملة الاسمُ بقلم مختصر الطُّومار الثقيل .

قلت : ومما يجبُ التنبيهُ عليه أنّ الألقاب المذكورةَ فى صُدور المكاتبات وعُنواناتها ليست موقوفا عندها ، بل لكلّ واحد فيها آختيارٌ من تقديم وتأخير، وتبديل لقبٍ بلقبٍ، وزيادةٍ ونَقْص، إلا أن الزيادةَ والنقصَ يكونان على المُقاربة، مثل زيادة لقبٍ ولقبين وثلاثة، ونَقْصها . على أنهم فى الزمن السابق كانوا يتعاطَون فى الإخوانيّات الألقابَ المركّبة فى الصُّدور والعُنْوانات فيما يُبْدأ فيه بالدعاء وما بعد ذلك إلى آخر المراتب كما هو فى السُّلْطانيّات .

فإن كان من أرباب السيوف قيل مع الدعاء للمَقرّ الشريف لأرباب السُّيوف بعد آستيفاءِ الألقابِ المفْردة : عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيّدُ الأُمَراء فى العالَمين، زعيمُ الجيوش ، مقدَّمُ العساكر، عَوْنُ الأمة ، غِياثُ الملة ، ممهّدُ الدُّوَل ، مشيّدُ الممالك ، ظهيرُ الملوك والسلاطينِ ، عضُدُ أمير المؤمنين . ومع الدعاء للمقرّ الكريم : عزُّ الإسلام والمسلمين ، سيّدُ الأمراء فى العالَمين، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحِّدين، عمادُ الدولة، عونُ الأُمّة ، ذُخرُ الملة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين ، وعلى ذلك إلى آخر كل مرتبة بحسَبها .

وإن كان من رُؤساء الكُتّاب ، قيل : جَلالُ الإسلام والمسلمين ، سيّدُ الكُبَراء فى العالمين ، رئيسُ الأصحاب ، قِوامُ الأمة ، نِظامُ المِلّة ، مدبّرُ الدولة ، ذُخْرُ الممالك ، ظَهيرُ الملوك والسلاطين ، وكذلك إلى آخر المراتب كُلُّ مرتبةٍ بحسَبها . وكذلك القولُ

فى القُضاة ومشايخ الصُّوفية كلٌّ أحد منهم بمـا يناسبُه من الألقاب لوظيفته ورُتْبته .
ثم ٱقتصروا بعد ذلك علىٰ ٱستعمال اللَّقَبِ المضافِ إلىٰ الملوك والسلاطِين، مثل ظَهِير الملوك والسلاطين ونحو ذلك ؛ فحذف كُتَّاب الزمان هذه الألقابَ المرَكَّبَة جملةً ٱختصارًا، وهو مستحْسَن : لمـا فى ذلك من مَيْل النُّفُوس إلىٰ الاختصار، ولتُخالف المكاتَباتِ الصادرةَ عن السلطان ، فتكون مختصَّةً بالألقاب المركَّبة دُونَ غيرها .

القســـم الثـانى

(من المكاتبات الإخوانيَّات الدائرةِ بين أعيان المملكة وأكابر أهل الدولة، الأجوبةُ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يُفْتتح من ذلك بمـا تُفْتتح به الأبتداءاتُ المتقدمةُ الذكر)

والرسم فيها أن يكتَبَ صدرُ الكتّاب كما يُكْتَب أن لوكان ٱبتداءً، ثم يذكر وُرودُ الكتاب المجاوَب عنه، ويُؤْتىٰ بالجواب عما تضمَّنه ؛ وهو علىٰ أربع مراتب :

المرتبــةُ الأولىٰ — وهى أعلاها فى تعظيم الكتابِ الوارِد، أن يعبَّر عنه بالمِثَال . وذلك مع الأبتداء بلفظ يقَبِّل الأرض ويُنْهى كيتَ وكيتَ. وصورتُه أن يقول بعد كمال الصَّــدْر : ورودُ[1] المثالِ الكريمِ العالى أعْلاه الله تعالىٰ علىٰ المملوكِ علىٰ يد فلان، ويذكُر ما يليق به من المجلس العالى أو المجلس السامى أو غيرهما ؛ ثم يقول : فقَبَّــل المملوكُ لوروده الأرْض، وأدّىٰ من واجبــه الفرْض ؛ وتضاعَف دعاءُ المملوك لتأهيلِه لغِلْمانية الأبواب الكريمة ، وٱبتهج بوُرُوده، وحَمِد اللهَ وشكَرَه علىٰ ما دلَّ عليــه : من عافيةِ مَوْلانا ملِكِ الأمراء أعزَّالله أنصاره ــ إن كان المثال قد ورد من نائب سلطنة ــ أو من عافيةِ مَوْلانا قاضى القُضاة ــ إن كان قاضيا ــ أو من عافية المخدوم وصحةِ مِزَاجه

(١) أى الذى منه و ينهى و رود المثال الخ وهكذا فى الآتى .

المحروس . وقابَلَ المملوكُ المراسيمَ الكريمةَ بالامتثال ؛ ففهِم مارُسِم له به من كَيْتَ وكَيْت ، والمملوكُ لم يكن عنده غَفْلةٌ ولا إهمالٌ فيما رُسِم له به . وإن كان ثَمَّ فصولٌ كثيرةٌ ، قال : فأما مارُسِم له به من كَيْتَ وكَيْتَ فقد امتثله المملوكُ ، ويُجاوبُ عنه . ثم يقول : وأما مارُسِم له به من كيتَ وكيتَ ، فالأمرُ فيه كيتَ وكيتَ ، حتىٰ يأتىَ علىٰ آخر الفُصُول ؛ فإذا انتهىٰ إلىٰ آخرها ، قال : وسؤالُه من الصَّدقات العَميمة ، إمدادُه بمراسيمِه الكريمة وخِدَمِه ، ليفُوزَ بقضائها ، ويُبادِرَ إلىٰ امتثالها ؛ والمملوكُ مملوكه وعبدُ بابِه الشريف .

المرتبة الثانية — أن يعبَّر عن الكتاب الوارد بالمثال العالى بدُون الكريم ، وذلك مع الابتداء بلفظ يُقَبِّل الأرضَ ويُنْهِى بعد ابتهاله إلىٰ الله تعالىٰ ، والابتداءِ بيقَبِّل الأرضَ بعد رَفْع دُعائه ، ويقبِّل الأرضَ بالمَقرّ الشريف ، ويُقبِّل الباسطَ الشريف . فأما مع يُقَبِّل الأرضَ بعد ابتهاله ، فالأمرُ علىٰ ما تقدّمَ فى جواب المكاتَبة قبلها ، إلا أنه يقتصر علىٰ المثالِ العالى دُونَ الكريم كما تقدمت الإشارةُ إليه . وأما مع يُقَبِّل الأرض بعد رَفْع دعائه ، فإنه يقول بعد تكملة الصَّدْر : ورودَ المثالِ العالى أعلاه الله تعالىٰ علىٰ يد فلان ، فقبَّله حينَ قابَلَه ، ووقَفَ علىٰ ما تضمَّنه من كيتَ وكيتَ ، وفَرِح بما دَلَّ عليه من عافيةِ المَخْدُوم ، وحمِدَ الله تعالىٰ وشكَره علىٰ ذلك ، وفَهِمَ ما أشار إليه من كيتَ وكيتَ ، ويجاوب عنه ، ثم يقول : والمملوكُ يسأل إحسانَ المخدوم بتشريف المملوك بمهمَّاته ومَراسيمِه ليفُوزَ بقضائها ، فإنّ المملوكَ وقْفُ المالك ، طائعٌ بذلك ، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه ، أو نحو ذلك . وأما مع يُقبِّل الأرضَ بالمَقرّ الشريف ، ويُقبِّل الباسطَ الشريف ، فإنه يُقال وُرُودَ المثال العالى أيضا ، وربما قيل ورودَ مثالِه العالى . وقد يقال المشرَّف الكريم العالى علىٰ ماتقتضيه رتبةُ المكتوب إليه ، ويرتَضيه المكتوبُ عنه ؛ والباقى علىٰ نحو ماتقدّم .

المرتبة الثالثة — أن يعبَّر عن الكتّاب الوارد بالمُشَرَّفة، علىٰ التأنيث؛ وذلك مع يُقَبِّل الباسطةَ ويُقَبِّل اليدَ. ويختلف الحال فى ذلك بحسَب المراتب. فيقال: يقبّل الباسطةَ ويُنْهِى وُرودَ المشرَّفة الكريمة،ومع اليدِ الشريفةِ،والكريمةِ، والعاليةِ؛ وفى معنىٰ ذلك يخدُم إذا كتب بها؛ وكذلك أعزّ الله تعالىٰ أنصار المَقرّ الكريم، وإن كان المكتوبُ عنه يكنّى عن نَفْسه بنون الجمع المقتضيةِ للتعظيم. ثم يقول: فى كلٍّ منها فقبّلها المملوكُ حينَ قابَلَها، ووَقَف علىٰ ماتضمَّنَتْه من محبَّته ومَوَدّته،وفَهِم ما شرحه من أمرِ كيتَ وكيتَ، ويجاوب عنه؛ ثم يقول: والمستَمَدُّ من محبَّته تشريفُ المملوك بمَراسيمه ومُشَرَّفاته وخِدَمه: ليفُوزَ بقضائها، ويُبادِرَ إلىٰ آمتثالها؛ فإن المملوكَ ماعنده غَفْلَةٌ فيما يَقْتَضِيه رأيُه العالى، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنّه وكرمه.

المرتبة الرابعة — أن يعبَّر عن الكتّاب الوارد بالمكاتبة. وذلك مع الاَبتداء بالدعاء بلفظ: ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى؛ وأدامَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلِس العالى؛ وصدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلِس العالى، أو المجلس السامِى؛ أو هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى؛ أو يعْلَم مجلِس. فيقال: وتُوضِّح لعلمه، أو موضِّحةً لعلمه، أوتتضمَّن إعلامَه، أو تُعْلِمُه، أو يعلم علىٰ حَسَب المراتب المتقدّمة،وُرودَ مكاتبته، فوقَفْنا عليها، وأحَطْنا علمًا بما تضمَّنَتْه من كيتَ وكيتَ، ويجاوِبُ عنه؛ ثم يقول: فيتقدَّمُ الجناب أو المجلس أو مجلسُ الأمير ونحو ذلك ممـا يقتضيه الحال، بإعلامنا بأخباره وضروراته وحوائجه.

وآعلم أنّ لكاتب السرّ أجوبةً لنُوّاب السَّلْطنة وغيرِهم ممن تَرِدُ عليه مكاتباتُهم بطَلَب الملاحظةِ عند عَرْض مكاتَباتهم علىٰ الحضرة السُّلْطانية؛ وتحسينِ السِّفَارة فى ذلك؛ ويقَعُ الخطابُ فى جواب كلٍّ منهم علىٰ حسَب رُتْبته.

ففى جوابِ نائبِ السلطان بالشام المحرُوس يُكْتب ما صورته : ويُنْهِى بعد رَفْع أدعِيَته الصالحةِ تقبلَّها اللهُ تعالىٰ من المملوك ومن كلِّ داعٍ مُخْلِص، بدَوَام أيام مولانا ملكِ الأمراء، أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَه ، وخُلُودِ سعادته عليه ، أنَّ المثالَ الكريمَ وردَ علىٰ المملوك علىٰ يَدِ فلان ؛ فنَهَض له المملوكُ ، وأجمل فى تلقِّيه السُّلُوك ، وفَضَّه عن صَدَقاتٍ عميمه ، وتفَضُّلاتٍ جسيمه ؛ وفَرِح بما دَلَّ عليه من سلامةِ مولانا ملكِ الأمراء ـ أعزَّ الله أنصاره ـ وعافيَته ، وصحَّة مِزاجه المحروس ؛ وتضاعَفَ سرورُ المملوك بذلك ، وتزايَدَ ابتهاجُه به ، وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُديم حياةَ مولانا ملكِ الأمراء ، أعز الله أنصاره ، ويُبْقِيَه ؛ وانتهىٰ إلىٰ ماتضمَّنته الإشارةُ الكريمةُ فى معنىٰ تجهيز المشارِ إليه إلىٰ خِدْمة الأبواب الشريفةِ بما علىٰ يَدِه من المكاتبة الكريمة ، وما رَسَم به من القيام فى خِدمتها وعَرْضها بين يَدَىِ المَواقف الشريفة شرَّفها اللهُ تعالىٰ وعظَّمها ؛ وقابَلَ المملوكُ الإشارةَ الكريمةَ بالامتثال بالسَّمْع والطاعة ، وبادَرَ إلىٰ ما رَسَم به ؛ وقد عَرَض المملوكُ المكاتبةَ الكريمةَ علىٰ المَسامع الشريفة ، وكُتِب الجوابُ الشريفُ عن ذلك بما ستُحِيط به العلومُ الكريمة ؛ وعادَ بذلك إلىٰ خِدْمة مولانا ملك الأمراء أعزَّ الله أنصاره . والمملوكُ مملوكُ مولانا ملكِ الأمراء عزَّ نصرُه ، ومُحِبُّه القديم ، والمعترفُ بإحسانه وصَدَقاته ؛ ويسأل تشريفَه بالمهمَّات والخِدَم ، أنهىٰ ذلك ، إن شاء الله تعالىٰ .

وفى جواب بقيَّة النُّوَّاب بالممالك الشامية : كنُوَّاب السلطنة بحَماةَ وطَرابُلُس وصَفَد والكَرَك ، ومقدِّمِ العسكر بغزَّة ، يكتب : ويُنْهِى بعد رَفْع دُعائه ، وإخلاصه فى محبَّته ووَلائه ، واعترافه بإحسانِ مولانا وآلائه ، أنَّ المثالَ العالى ـ أعلاه الله تعالىٰ ـ وردَ علىٰ المملوك علىٰ يَدِ فلان ، فقبَّله المملوك ، وأحسن فى تلقِّيه السُّلُوك ؛ وفَرِح بما دَلَّ عليه من عَافِيةِ مولانا وسلامتِه ، وصِحَّة مِزاجه المحروس ، وحَمِدَ اللهَ تعالىٰ علىٰ ذلك ،

وآنتهى إلىٰ ما أشارَ إليه : من تجهيز المطالعةِ الكريمة إلىٰ الأبوابِ الشريفةِ ، شرَّفها الله تعالىٰ وعظَّمها ، وفهِمَ المملوكُ ذلك ، وآمتثل ماأشار إليه بالسَّمْع والطاعة ، ووَقَفَ فى خدمَتِها عند العَرْض علىٰ المَسَامع الشريفة ، وأحاطت العلومُ الشريفةُ بمضمونها ، وكتبَ الجوابَ الشريفَ عن ذلك بمـا سَيُحيط به علمُ مولانا ؛ وقد عاد فلان بالجواب الشريف وبهـذه الخِدمة ، وحمَّـله المملوكُ من السـلام والشوقِ والدعاءِ والوَلَاءِ وتَقْبيل الأرضِ ما يُبْديه لمَسَامع مولانا . والمملوكُ يسأل إحسانَه الإصـغاءَ إلىٰ ذلك ، والتشريفَ بمراسيمه وخِدَمه : ليبادِرَ إلىٰ قبولهـا . والله تعـالىٰ يؤيِّده ويحرُسُه بمنِّه وكَرَمه .

وعلىٰ قياس ذلك فى غيرهـذه من المكاتبات بحسبِ ما تقتضيه رُتبةُ كلِّ واحدٍ من أصحابها .

الضـــرب الثـانى

(من الأجوبة مايفتتح بوُرُود المكاتبة مصدَّرا بلفظ : وردَتْ أو وصلَتْ أو وقفْتُ علىٰ المكاتَبة ، وما أشبه ذلك)

مثل أن يكتب : ورد المثالُ الكريمُ الفلانىّ ، وذِكْرُ سَلَامته أحلىٰ من ذِكْرِ الأوائل ، وقد تطرَّز منه طِرازا أشرفَ من طِراز الغلائل ، وما سكَن القلبُ إلىٰ شىءٍ كسُكُونه إليه ، ولا رأىٰ وارِدًا أكرَمَ منه عليـه ؛ فقابل نِعمةَ قُدُومه بدوام شُكْرِها ، وطوىٰ صحائفَ الآمالِ إلّا من نَشْرِها ؛ وإذا كان وجه الأيّام مُقطَّبا اسـتغنىٰ بِبِشْرِ وجْهه المَيْمُون عن بِشْرِها ؛ فإنْ حسُنَ فى رأيه الإجراءُ علىٰ عوائد إحسانه [من التشريف بمراسيمه وخِدَمه] والمواصلةِ بها ، [نالتِ] النفسُ من وُرُودها نِهايةَ أرَبِها .[1]

---

(١) بياض فى الأصل قليل ، وما أثبتناه مأخوذ من المقام .

قلت : أما الأجوبةُ المطلَقة : وهى الدائرة بين الأصدقاء والأصحاب من أفاضل الكُتَّاب، وعيون أهل الأدبِ، ممن له مَلَكَةٌ فى الإنشاء، وقُوَّة فى النظم والنثر، فإنها لا تتوقَّف على ٱبتداءٍ مخصوصٍ، ٱبتداءً ولا جوابا ؛ بل قد تكون مبتدأة بما تقدّم من الٱبتداءات، وقد تكون بغير ذلك من الٱفتتاحات التى يختارُها صاحبُ الرسالة ، بل أكثرها مفتَتح بالشعر المناسبِ لحال المكتوبِ فيها ، بل رُبَّما ٱقتُصِر فيها على الشعر خاصَّةً دونَ النثر .

المَهْيَــعُ الثانى

(فى بيان رُتَب المكتوب عنهم والمكتوبِ إليهم : من أعيان الدَّوْلة بمملكة الديار المصرية، وما يَسْتَحِقُّه كلٌّ منهم من رُتَب المكاتبات السابقةِ على ما ٱلحال مستقرٌ عليه فى زماننا)

اِعلم أنَّ المكتوبَ عنهم من أعيان الدولة على طَبَقات ، لكلٍّ منهم مكاتبات بصَدْرٍ يختصُّ به، إلى مَنْ فوقَ رُتْبته أو مساوٍ له فى الرتبة أو دُونَه فيها ، مُرَتَّبَةٌ على ترتيب المكاتبات الصادرةِ عن الأبواب السلطانية إلى أهل الدولة :

الطبقة الأولى — مِن المكتوبِ عنهم مَنْ يُكْتَب إليه عن السلطان «أعزَّ الله تعالى أنصار المقرّ الكريم» ككَافِلِ السلطنة : وهو نائبُ السُّلطان بالحضرة، وأتابكِ العساكر، ونائبِ السلطنة بالشام . والمكتوبُ إليهم عن هذه الطبقة على مراتبَ :

المرتبة الأولى — من يكتب له عن هذه الطبقة «الفلانىّ بمطالعة»، وممن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام فيما رأيته — أتابِكُ العساكر بالأبواب الشريفة ؛وكان ما كتب له «المخدُومىّ الأتابِكىّ فلان الفلانى» باللّقب المضافِ إلى لَقَب السلطان، «أتابك العساكر المنصُورة» .

المرتبة الثانية — من يُكْتَب إليه « الأبواب بمطالعة » وممن يُكْتَب إليه بذلك عن النائبِ الكافلِ بالحضرة، والأتابكِ، نائبُ السلطنة بالشام. فقد قال فى "التثقيف": إنَّ بهــذه المكاتبة يكتَبُ عن أكابر أمَراء الديار المصرية إلىٰ نائبِ الشام وحَلَب فيما أظُنُّ؛ وممن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام ـ الدَّوادَارُ، وأميراخُورُ، ومقدَّمُو الألوفِ بالديار المصرية، وأكابرُ الأمراء مقــدَّمِى الألوف بالشام، وكافلُ المملكة الشريفة الحَلَبية .

المرتبة الثالثة — من يُكتَب له عن هذه الطبقة «الأبوابُ بغير مطالعة» وبذلك يكتَبُ عن كافل السلطنة بالحَضْرة إلىٰ نائب السلطنة بحَلَب . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان يكتَب بذلك عن الأمير يَلْبُغا العُمَرى (يعنى الخاصِكىّ) وهو أتابكُ الديار المصرية، إلىٰ نائب الشام أيضا . ثم قال: وكذلك كُتِب بعده إلىٰ نائبَى الشام وحلَب، الأميرِ منكلى بُغا، والأمير الجاى؛ ونُوّابِ السلطنة بالديار المِصْريّة؛ وبذلك يكتَبُ عن نائب الشام إلىٰ كلٍّ من قُضاة القُضاة الأربعة بالديار المصرية؛ وكذلك الوزيرُ وكاتبُ السِّر بها .

المرتبة الرابعة — من يكتَبُ له عن هذه الطبقة «البابُ الكريم والبابُ العالى» أما الباب الكريم، فإنه يكتَبُ بذلك عن النائب الكافل والأتابك[1]

وبذلك يكتَبُ عن نائب الشام إلىٰ الأُمَراء الطبلخاناه بالديار المصرية، وإسْتَادار الأملاك الشريفة، وناظرِ الجُيوش المنصورة بالأبواب السلطانية، وناظرِ الخواصّ، وناظرِ الدَّوْلة، وحاجب الحُجّاب بالشام، وقاضى القُضاة الشافعىّ بالشام، وكاتبِ

(١) بياض فى الأصل بقدر سطر والساقط هو المكتوب إليهم . ولعله الى نائب الشام ونائب طرابلس الى آخر ما يأتى بعد . وحرر .

السِّرِّ به، ونائبِ السلطنة بطرَابُلُس، ونائب السلطنة بحَمَاةَ، ونائب السلطنة بصَفَد، ونائب السلطنة بالكَرَك .

أمّا مَن يكتب له عن نائب الشام البابُ العالى بدُون الكريم ، فمقدَّمُ العسكر المنصور بغَزَّة ، والقُضاةُ الثلاثةُ بالشام، ما خلَا الشافعىَّ المقدّم ذكرُه ؛ والوزير بالشام .

المرتبة الخامسة — مَنْ يكتَبُ إليه عن هذه الطبقة «يقبِّل الأرضَ بالمقرّ الشريف» وبذلك يكتَبُ عن النائب الكافل والأتابك ، إلى نائب طرابُلُس ، ونائب حَماة، ونائب صفَد، ونائب الإسكَنْدريّة، وأُمراء الأُلوف بالديار المِصريّة؛ وبه يُكتَب عن نائب الشام .

المرتبة السادسة — مَنْ يكتَبُ إليه عن هذه الطبقة «الباسِطُ الشريف» وبذلك يكتب عن النائب الكافِل والأتابك، إلى مقدّم العسكر بغَزّة، ومقدّمِ العسكر بِسِيس، ونائبِ السلطنة بالكَرَك، وحاجبِ الحُجّاب بالشام، وحاجب الحُجّاب بحلَب .

المرتبة السابعة — من يكتَبُ له عن هذه الطبقة «الباسِطَة الشّريفة» وممن يكتب له بذلك عن نائب الشام قاضِى القُضاة الشافعىّ بحَلَب .

المرتبة الثامنة — مَنْ يكتَب له عن هذه الطبقة «اليَدُ الشريفة» أو «اليَدُ الكريمة» أو «اليَدُ العالية» . وبذلك يكتَب عن النائب الكافل والأتابك، إلى نائبَى الوجه القِبْلىّ والوجه البَحْرىّ بالديار المصرية ؛ ونائب القُدْس، ونائب حِمْص، ونائب الرَّحْبة، ونائب البِيرَة، ونائب قَلْعة المسلمين، ونائب ملَطْية، ونائب دَبْرَكى، ونائب الأَبُلُسْتين، ونائب طَرَسُوس، ونائب أَذَنَة، ونائب بَهَسْنَى ؛ وأُمراء الألوف بالشام وحلَب . وبذلك يُكتَب [أيضا] عن نائب الشام إلى أُمَراء العشَرات بالديار المِصريّة، وقُضاة

العسكربهـا ، وحاجب الحُجّاب بحَلَب ، والقُضاة الثلاثة : الحنفىّ ، والمـالكى ، والحنْبَلىّ ، بها .

المرتبة التاسعة — مَنْ يكتَبُ له عن هـذه الطبقة « أعزَّ اللهُ تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم » . وبذلك يكتب عن نائب الشام إلىٰ كاشف الصَّفْقة القِبْلِيَّة ، وإلى الأُمَراء مقدّمِى الألُوف بالشام ، وناظرالجيش به ، وأميرآلِ فَضْل ، ونائب حِمْص ، وكاتب السرّ بحَلَب ، ونائب المملكة بها ، ونائب دَوْرَكى ، ونائب دَرَنْدة .

المرتبة العاشرة — مَنْ يُكتب له عن هـذه الطبقة «أعزَّ الله تعـالىٰ نُصْرة المقرّ الكريم» . وبذلك يكتَبُ عن نائب الشام إلىٰ نائب قلْعة دِمَشْق ، والحاجبِ الثانى بها ، ووكيلِ بيتِ المال بها ، ومقدّمِى الألُوف بحَلَب ، ونائب الجيش بها ، ونائب الرَّحْبة ، ونائب الأَبُلُسْتَيْن ، ونائب ملَطْيَة ، ونائب قلعة المسلِمين ، ونائب بَهَسْنىٰ ، ونائب البِيرة ، ونائب جَعْبر ، ونائب الرُّها ، ونائب حُسْبَان .

المرتبة الحاديةَ عشرةَ — مَنْ يُكتَب له عن هـذه الطبقة «أعزَّ الله تعالىٰ نُصرةَ الجناب الكريم» . وبذلك يُكْتَب عن نائب الشام إلىٰ أمراء الطَّبْلخاناه بالشام ، ونائب القُدس ، ونائب بَعْلَبَكّ ، ومتولّى صَـيْدا ، وأمراء الطَّبْلخاناه بحَلَب ، ووكيلِ بيت المـال بها ، والمحتَسِب بها ، وناظرِ خاصّ البريد بها ، وأمير حاجب بصَفَد .

المرتبة الثانيةَ عشْرةَ — مَنْ يكتَب إليه عن هذه الطبقة : « ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى» . وبذلك يُكْتَب عن نائب الشام ، إلىٰ والى قَطْيا ، ورُبَّمـا زيد فيه الكَرِيم .

المرتبة الثالثةَ عشْرةَ — مَنْ يكتَبُ إليه عن هذه الطبقة : «أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى» . وبذلك يكتَبُ عن نائب الشام إلىٰ أُمَراء العشَرات بمصر ، وأمراء

العِشْرينات بالشام، والمحتَسِب بها، والحاجب الكبير بغَزَّة، ومقدَّم عَرَب بنى عُقْبة، وأكابر عَرَب آلِ فَضْل، وأميرِ عَرَب آلِ علىّ، وأمير آلِ مُوسَى، ونائب مِصْياف، ومتولِّى بَيْرُوت .

المرتبة الرابعة عشْرة — مَنْ يكتب إليه عن هـذه الطبقة : «المجلس العالى مع الدُّعاء» . وبذلك يُكْتَب عن نائب الشام إلى العَشَرات بدِمَشْق، ووالى المَدِينة، ووالى البَرِّبها، والحاجب الثانى بغزَّة، وأميرِ آلِ مِرَا، ومقدَّمِ عَرَب جَرْم، ومقدَّم بنى مَهْدِىّ، وأمراء العِشْرينات بحَلَب .

المرتبة الخامسة عَشْرَة — مَنْ يكتب إليه عن هذه الطبقة : «صدرَتْ والعالى» . وبذلك يكتَبُ عن النائب الكافل والأتابك، إلى كاشـف الوجْه البَحْرِىّ من الديار المِصْريَّة، وكاشفِ الفَيُّوم والبَهْنَساويَّة، ووالى أُسْوان، وكُشَّاف الجُسُور من أمراء الطَّبْلَخاناه بالوجهين : القبلىّ والبحْرِىّ بالديار المصرية، ونائب قَلْعة حَلَب، ونائب آيَاس، ونائب جَعْبَر، ونائب دَرَنْدَة، وحاجبِ الحُجَّاب بطرَابُلُس، وحاجب الحُجَّاب بحَمَاة، وحاجب الحُجَّاب بصَفَد، وبذلك يكْتَب [أيضا] عن نائب الشام إلى أجناد الحَلْقة بمصر، والحاجب الكبير بحِمْص، وأمراء العَشَرات بحَلَب .

المرتبة السادسة عَشْرَة — مَنْ يُكتَب إليه عن هذه الطبقة : «صدرتْ والسامى» . وبذلك يكتب عن النـائب الكافِل والأتابك، إلى والى قُوص، ووالى مَنْفَلُوط، ووالى الأُشْمُونَيْن، ووالِى البَهْنَسى، ووالى مَنُوف، ووالِى الغَرْبية، ووالِى الشَرْقيَّة، ووالى قَطْيَا، ونائب مِصْياف، ونائب بَعْلَبَكّ، ونائب قلعة صَفَد، ونائب عَيْنتَاب، والحاجب الكبير بغَزَّة . وبذلك يُكْتَب [أيضا] عن نائب الشام إلى مقدم الحَلْقة بالشام، وأعيان الجُنْد بها، ومقـدَّمِ بنى مَهْدِىّ، ومتولِّى الصَّلْت وعَجْلُونَ، ومتولى صَرْخَد،

والحاجب الصغير بحمْص، ووالى تدمُر، ومقدّم إقليم الخَرُّوب بِصَيْدا، ومقدّم إقليم النّعاج، ووالِى البِقَاعين، ووالِى بُلُنْيَاس.

المرتبة السـابعةَ عَشْرَة — مَنْ يكتَبُ إليه عن هـذه الطبقة «هذه المكاتبةُ» وبذلك يكتَبُ عن النائبِ الكافل والأتابك، إلىٰ والِى الجِيزِيَّة، ووالى إطْفِيح، ووالِى قَلْيُوب، ووالى أُشْمُوم الرُّمَّان بالديار المصرية. وبذلك يكتَبُ أيضـا إلىٰ نائب الكَخْتَا، ونائب كَرْكَر، ونائب حَجَر شُغْلان، ونائب سِرْفَنْدكار، ونائب القُصَيْر، ونائب بَغْراس، ونائب الرَّاوَنْدان، ونائب الشُّـغْر وبَكَاس، ونائب الرُّها، ونائب الدَّرْبَسَاك، ونائب شَيْزَر بالمملكة الحلبية؛ وإلىٰ نائب اللّاذقِيَّة، ونائب صَهْيُون، ونائبِ حِصْن الأَكْراد، ونائبِ حِمْص، ونائبِ المَرْقَب، ونائبِ بَلاطُنُس، ونائبِ الكَهْف، ونائبِ القَـدْمُوس، ونائب الخَوَابِى، ونائب العُلَيْقَة، ونائب المَيْنَقة: من أعمال طرابُلُس، ونائبِ شَقِيف تِيرُونَ من معاملة صَفَد. وبذلك يكتَبُ [أيضا] عن نائب الشام إلىٰ صِغار الأجناد بمصر، وإلىٰ كاشِف الرَّمْلة، ومتولِّى حُسْبان، وحامى الخَرِبَة.

المرتبة الثامنة عَشْرَة — مَنْ يكتَبُ إليه عن هذه الطبقة «يَعْلَم». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلىٰ صِغَار الأجناد بالشَّام.

وآعلم أنّ وراءَ ماتقدّم من المكاتبات عن نائب الشام مكاتَباتٍ أخرىٰ إلىٰ مَنْ هو خارجٌ عن المملكة؛ وهم علىٰ مراتب.

المرتبَــةُ الأولىٰ — من يكتب له عنه: «يقَبِّل الأرض» ـ صاحبُ بَغْدادَ: كما كان يُكْتَب للقان أحمدَ بنِ أُوَيْس، كان يُكْتَبُ إليه فى ورَق قَطْع نصف الحموىّ بقلم الثلث الصـغير: يقبِّل الأرضَ لدىٰ الحضرة الشريفـة، العاليـة، المَوْلَوِيَّة،

السلطانية، العالمّية، العادليّة، المؤيّدية، المالكية، القانيّة؛ ولا زالت عزماتُها مؤيّدة، وآراؤها مسدّده؛ ويُنهى إلى العِلْم الكريم — صاحبُ السَّراى: ودَشْت القَبْجاق مثله بأبسطِ ألقاب.

المرتبة الثانية — مَنْ يكتب إليه: «أعزّ الله تعالى أنصارَ المقرّ الشريف» آبنُ السلطان أحمدَ بنِ أُوَيْس المذكور. وورقُه نظيرُ ورق والده، وقلمُه نظير قلمه — صاحب هَراة: مثلُه.

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه: «أعزّ الله أنصارَ المقرّ الكريم» — صاحبُ مارِدِين: أعزّ الله تعالى أنصارَ المقرّ الكريم العالِى، المولوىّ، الكبيرىّ، العادلىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ؛ ورَفَع مِقْداره، وأجزل مَبارّه. المملوك يجدّد الخِدْمة العاليه، ويصفُ أشواقَهُ المتواليَه؛ ويُنْهِى لعلمه الكريم — صاحب بُرْصا: من بلاد الروم، وهو آبن عُثْمان. والرسم فيه على ما كان يكتب لأبى يَزِيدَ بن مراد بك بن عثمان: أعزّ الله تعالى أنصارَ المَقرّ الكريم، العالى، المَوْلوىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، العَوْنىّ، الغِيَاثىّ، الممهّدىّ، المشيّدىّ، الزَّعيمىّ، الغازى، المجاهِدىّ، المثاغِرىّ، المرابطىّ، العابِدىّ، الناسِكىّ، الزاهِدىّ، المقدّمىّ، الأتابكىّ، المحسنىّ، الظهيرىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ؛ مُعزّ الإسلام والمسلمين، سيدِ الأمراءِ فى العالمين، ناصر الغُزاة والمجاهدين، زعيم جيُوش الموحّدين، مُبيد المشركين، قامع أعداء الدين، مقتلِع الحُصون من الكافرين؛ عونِ الأمّة، عمادِ الملة، ذُخر الدولة، ظهير الملوك والسلاطين، حاكم البلاد الرُّوميّة، صاحب بُرْصا وقَيْسَرية؛ سيفِ أمير المؤمنين؛ قَهر [الله] أعداء الدين الحنيفىّ بعزائمه وسَطواتِه، وجعله مؤيَّدا فى حركاتِه وسَكَناته، وأيّده فى جِهاده وآجتهاده بالنصر الذى لا يُفارق ألوِيَةَ أعلامه وراياته،

ولا زالتْ رعاياه مجبُوره، وعساكِره منصوره، هؤلاء بجُودِه [وهِبَاتِه]، وهؤلاء بوُجُوده وحَيَاتِه . الملوكُ يقبِّل اليدَ التى لازال القصْدُ بها يَزِيد، وبحرُ البرِّ من أناملها مَدِيد، ونوالُها ينَالُه الوافدُون حيثُ أمُّوه من قريبٍ وبعيد، وبِصِف صَفاءَ محبَّةٍ يتضاعفُ نَمـاؤها كلَّ يوم جديد، وتترادَفُ تحيَّاتُ أشـواقها بالمُوالاةِ والتَّحميد، ويُتَوَّامَر بهادِي رسائِلها بِصدْقِ المودةِ الدائمةِ علىٰ التأبيد، ويُبْدِى إلىٰ العِلم الكريم .

قلت : كذا رأيته فى دُسْـتور بخطِّ القاضى ناصر الدين بن أبى الطيِّب : كاتب سرِّ الشأم كان . وفيه آضطرابٌ وتخليطٌ من نَعْته فى ألقابه [بقوله] المَلَكيّ الفلانىّ ؛ وقوله سـيد الأمراء فى العـالمين، حيث وصَفَه أوّلا بأوصاف الملوك، ثم وصـفه بأوصاف الأمراء، إلىٰ غير ذلك من الخَبْط الذى لايخفىٰ علىٰ متأمل .

المرتبة الرابعة — « أعز الله أنصـار المقرّ العالى » — وزير صاحب بَغْداد ، وورقُه فى قَطْع الحموىّ بقلم الثُّلُث الخفيف — قاضى بَغْداد : مثله سواء — صاحب لارندا : من بلاد الروم بمملكة بنى قرمان . ويقال فى ألقابه : الأصيلىّ نُوَيْن التَّوامين ، مجهزُ المقانب ، ذُخْرُ القانات — صاحب سِيوَاس : من البلاد الرومية أيضا — صاحب آيَاس لوق : من البلاد الرُّوميَّة — صاحب جُولْمَرك : من بلاد الأكراد .

المرتبة الخامسة — « الجناب الكريم » — صاحب حِصْن كَيْفا : من بلاد الجزيرة، ويقال فيه : المَلَكِيّ الفلانىّ — مقدّم التُّرْكُمان البياضية .

المرتبة السادسة — « الجناب العالى » — صاحب أَرْزَنْجان — صاحب جزيرة آبن عُمَر من بلاد الجزيرة — صاحب أَنْطَالِيَا من بلاد الروم — إبن الشيخ عبد القادر الكيلانى شيخ الجبال .

المرتبة السابعة — « المجلس العالى » — صاحب مَيَّافَارِقِين : من بلاد الجَزِيرة — صاحب أَكِلّ : من الجزيرة أيضا — صاحب أَرْقَنِين — صاحب قَلْعَة الجَوْزِ — صاحب جرموك — صاحب أَمَاسِيَا : من بلاد الروم — نائب مَارِدِين — خادم صاحب مَارِدِين — صاحب بُطْنَان — صاحب سِنْجَار : من بلاد الجزيرة — صاحب حاسك(؟) — صاحب أَزْبَك — صاحب المَوْصل — صاحب سَنُوب — صاحب بوشاظ — صاحب الدَّرْبَنْد — صاحب عَيْن دَارَا — صاحب الحَمَّة — صاحب خِلَاط — صاحب طلان — صاحب تاخ — صاحب جمشكزاك — نائب كربزاك — صاحب القَنْطَرَة — نائب خَرْتْ بِرْتْ — صاحب البَارِعِيَّة — صاحب حَرَّان — صاحب العِمَادية — صاحب حَانِى — نائب مازكرد — نائب صالحية مَارِدِين — أمير التركمان الشهرية — صاحب أشنو .

الطبقة الثانية — ممن يكتب عنهم من أعيان الدولة بالديار المصرية، مَنْ يُكْتَب إليه عن السلطان : « أعزّ الله تعالى نُصْرة الجناب الكريم » وهو نائب السلطنة بحَلَب .

والكتابة عنه على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانى بمطالعة » وهو النَّائِب الكَافِلُ بالحضرة السلطانية، وأتَابِكُ العساكر المنْصُورة .

المرتبة الثانية — «الأبواب بمطالعة» وهو نائب السَّلْطَنَة بالشام، والامير الدَّوَادَار بالأبواب السلطانية، واسْتَادُ الدَّارِ بها، وأكابرُ الأمراء المقدَّمين الخَاصِكِيَّة .

المرتبة الثالثة — «الأبواب بغير مطالعة» . وبذلك يكتب إلى نائب الشَّام .

المرتبة الرابعة — «البَابُ الكريم» . وبذلك يكتب إلى نائب السلطنة بطَرَابُلُس، ونائبِ السلطنة بحَمَاة، ونائب السَّلطنة بصَفَد، وكذلك يكتب به إلى الطبقة الثانية من الأمراء المقدّمين بالحَضْرة ممن دون الخاصكية ؛ وفى معنى ذلك الوزيرُ، وكاتبُ السِّرّ، وناظرُ الخاصّ، ونَاظِرُ الجَيْش، ومَنْ فى معناهم .

المرتبة الخامسة — «يُقَبِّلُ الأرضَ بالمَقَرّ الشريف» . وبذلك يُكتب إلى حاجب الحُجّاب بالشأم .

المرتبة السادسة — «يُقَبِّلُ البَاسِطةَ» وبذلك يُكتب إلى الحاجب الثانى بالشأم، وحاجبِ الحُجّابِ بحَلَب، وحاجبِ الحُجّاب بحَمَاة، وحاجبِ الحُجّاب بطَرَابُلُس، وقاضى القُضَاة الشافعيّ بحَلَب، وكاتبِ السِّرّ بها .

المرتبة السابعة — «يقبلُ اليدَ الشريفة» . وبذلك يُكتب إلى نائبِ البِيرَة، ونائبِ مَلَطْيَة، ونائبِ قلعةِ المسلمين، ونائبِ جَعْبَر، ونائبِ الرُّهَا، ونائب الأَبُلُسْتَيْن، ونائبِ حِمْص، وأمراءِ الطَّبْلَخَانَاه بدمَشْق .

المرتبة الثامنة — «أعز الله تعالى أنصارَ المقرّ الكريم» . وبذلك يكتب إلى نائب طَرَسُوس، ونائب الرَّحْبةِ، والحاجبِ الثانى بطَرَابُلُس، ومقدّمى الألوف بها، والقضاةِ الثلاثة : المالكيّ، والحنفيّ، والحَنْبليّ بحلَب . إلا أنه يقال : «أعز الله تعالى أحكام المقرّ» .

المرتبة التاسعة — «أعز الله تعالى أنصار المَقرّ الكريم العالى» وبذلك يُكتب إلى نائب بَهَسْنَى، ونائب الرَّحْبَةِ، وأكابر الطبلخاناه بالشام، ومن تولّى الإمرةَ من عرب آل فَضْلٍ ثم عُزِل، وقضاةِ العساكر المنصورة بحَلَب، وناظرِ المملكة بها، وأمير آل عَليّ .

المرتبة العاشرة — « أعز الله تعالى نُصْرَةَ الجناب الكريم » . وبذلك يُكتب إلى أعيان أمراء الطبلخاناه بحَلَب ، والحاجبِ الثالث والرابع بها ، وأكابر أولاد أمراء عرب آل فَضْلٍ .

المرتبة الحادية عشرة — « ضَاعَفَ الله تعالى نِعْمَةَ الجناب العالى » وما فى معناه مما يُكتب به إلى أرباب الأقلام وغيرهم . وبذلك يكتب إلى نائب شَيْزَر ، وأمراء الطبلخاناه بحَلَب ، غير الأعيان ، وناظر الأملاك الشريفة بحَلَب ، وناظر خاصّ البريد ومُوقّعى الدَّسْتِ بها .

المرتبة الثانية عشرة — « صَدَرَتْ والعالى » . وبذلك يُكتب إلى نائب عَيْنتَاب ، ونائبِ الرَّاوَنْدانِ ، ونائبِ الكَخْتَا ، ونائب كَرْكَرَ ، ونائبِ بَغْرَاس ، ونائبِ الدَّرْبَساك ، ونائب الشُّغْرِ وبكَاسَ ، ونائب القُصَيْر ، وأمراءِ العِشْرِيناتِ بحَلَب ، وأعيان العَشَرات بها .

المرتبة الثالثة عشرة — « صدرتْ والسامى » . وبذلك يُكتب إلى مُقَدَّمى الحَلْقَة بحَلَب ، ومقدّمى البَرِيدِيَّة بِها ، وأعيانهم .

المرتبة الرابعة عشرة — « السامى » بغير ياء . وبذلك يُكتب إلى والى سَرْمِينَ ، ووَالِى البَابِ ، ووالى عَزَازَ ، ووالى أَنْطاكِيَةَ ، ووالى حارِم ، ووالى كَفْر طَاب ، ووالى الجَبُولِ ، ووالى مَنْبِج ، ووالى تَلّ بَاشِر ، وأجنادِ الحَلْقَةِ بحَلَب ، وصِغار البريدية بها ، وعِدَاد التركمان وعِدَادِ الأكراد .

وٱعلم أن وراء ما تقدّم من المكاتبات الصادرة عن نائب حَلَبَ [مكاتبات أخرى] إلى من هو خارج عن المملكة ، كما تقدّم فى المكاتبات الصادرة عن نائب الشام ؛ وهى على مراتب :

المرتبة الأولى — المكاتبة بـ«يُقَبِّلُ الأرضَ» — القان صاحب بَغْدَادَ : كما كان يُكْتب إلىٰ القَان أُوَيْسٍ ، وآبنِه أحمدَ : يُقَبِّـلُ الأرضَ بالمقام الشريف العـالى ، المَوْلَوِىّ ، السُّلْطانىّ ، الأعْظَمِىّ ، الأوْحَدِىّ ، الملاذىّ ، العَطُوفِىّ ، المُحْسِنِىّ ، القَانىّ ، المَلَكِىّ الفلانىّ ، الجَلَالىّ ؛ أعلىٰ الله تعالىٰ شانه ، وأعزّ سلطانه ، وأمكن من رِقاب الأعداء مكانه ، ولا زال لِوَاؤه يتأزَّرُ بالنصر ويَرْتَدِى ، وفِنَاؤُه يَرُوحُ إليـه العِزُّ ويَغْتَدِى ، وعَزْمُه يَثَقِّفُ صرفَ الزَّمان فلا يعتاد أنــ يَعْتَدِى ؛ ولا بَرِحَ محموداً فى مَوْقِفِ النصرِ موقفُه ، مَاضِياً فى هامات أعدائه مُرْهَفُه . ويُنْهِى بعد أدْعِيةٍ رفعها إلىٰ مواطن الإجابة ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَـا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ ومُوَالاةٍ شَفَعها بالإخلاص ، فعجَزَ عن وصفها ذَوُو البلاغة واللَّسَن ، وأَثْنِيَةٍ جمعها فَلَذَّتْ بها الأسماعُ لَذَاذَةَ الأعْيُنِ الساهرة بالوَسَن ؛ أن الأمر كَيْتَ وكَيْتَ .

المرتبة الثانية — من يُكْتب له «أعزّ الله تعالىٰ أنصار المَقرّ الشريف» — صاحب مَارِدِين . والرسم أن يُكْتب إليه : أعزّ الله تعالىٰ أنصار المَقَرّ الشريف ، العـالى ، المَوْلَوِىّ ، الكبيرىّ ، العالِىّ ، العَادِلىّ ، السُّلْطانِىّ ، المَلَكِىّ ، الفلانىّ ؛ ويدعىٰ له ، نحو : لازَالَتْ أيامُه مَسْـعُوده ، وأبوابه مقصوده ، وألْوِيَةُ النَّصْرِ بنواصى خَيْـله معقوده ؛ المملوكُ يُقَبل اليَدَ الشريفه ، ويقوم من الخِدْمَة بأكمل وَظِيفَه ؛ ويُنْهِى لعلمه الكريم بعـد السلام الزكىّ ، والثناء المِسْـكِىّ ؛ كيت وكيت ، فيحيط بذلك علمـه الكريم ، ويُتْحِفُ بالمُشَرَّفات علىٰ عادة فضله العميم .

المرتبة الثالثة — «أعزّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم» . وبذلك يكتب إلىٰ آبن قرمَانَ نائبِ السلطنة بالبلاد القَرْمَانِيَّة — حاكم جولمرك — صاحب بُرْصا وهو آبن عثمان — صاحب آيَاس لوق .

المرتبة الرابعة — « المَقَرُّ العالى » وبذلك يكتب إلىٰ صاحب حِصْنِ كَيْفا، والوزيرِ بالممالك القانية وقاضيها .

المرتبة الخامسة — « أعز الله تعالىٰ نُصْرَةَ الجناب الكريم » . وبذلك يكتب إلىٰ صاحب أَنْطَاليا من بلاد الروم .

المرتبة السادسة — «ضاعف الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى». وبذلك يُكْتَب إلىٰ نائب كربزاك، وحاكم جمشكزاك، وحاكم سِيوَاس، وحاكم أَمَاسِيَا، وحاكم سَنُوبَ، والحاكم بخِرْتْ بِرْتْ .

المرتبة السابعة — «أدام الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى». وبذلك يكتب إلىٰ نائب صاحب مَارِدِينَ، ونائب الصَّالِحِيَّة، وبعض خدّام صاحب مَارِدِينَ .

المرتبة الثامنة — «صَدَرَتْ والعالى» . وبذلك يكتب إلىٰ حاكم حَرَّانَ، ونائب ماز كرد، وحاكم قَلْعَة الجَوْزِ .

الطبقة الثالثة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية — مَنْ يكتب إليه عن السلطان: «ضاعف الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» كوزير المملكة بالديار المصرية، ونَاظِر الخَاصّ، علىٰ ما آستقر عليه الحال آخرا، وأرباب الوظائف من الأمراء المقدّمين بها: كأمير سِلاح، وأمير مَجْلِس، وأميراخُور، والدَّوَادَار، وإسْتَادَار، وحاجب الحُجَّاب، ونائب الإسكندرية، وكذلك نوّاب السلطنة بطَرَابُلُس، وحَمَاة، وصَفَد، من الممالك الشامية .

والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة علىٰ [تسع] مراتب :

المرتبة الأولىٰ — «الفلانىّ بمطالعة» وهم : النَّائب الكَافِل، وأتابكُ العساكر، ونائب الشأم .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب حَلَبَ .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائب طَرَابُلُس، ونائبِ حَمَاةَ، ونائبِ صَفَدَ، ونائب الكَرَك، وأمير سلاح وغيره مِنْ سائرِ مَنْ فى هذه الطبقـــة .

المرتبة الرابعة — « الباب الكريم » . وبذلك يكتب إلى نَائبَيِ الوجهين القِبْلِيّ والبَحْرِيّ بالديار المصرية ، ومقدّمى العسكر بغَزّةَ وسِيسَ ، والأمراءِ المقدّمين المتوجهين من الأبواب السلطانية لكَشْفِ الجُسُور والمساحة وقَبْضِ الغِلَال .

المرتبة الخامسة — «يُقَبِّل الأرضَ بالمقرّ الشريف» إن قُصِدَ تعظيمُه، أو البَاسط الشريف إن لم يُقْصَد، وبذلك يكتب إلى (١)

المرتبة السادسة — «يُقَبِّل اليَـدَ العاليَةَ» . وبذلك يكتب إلى أمراء الطبلخاناه المتوجِّهين من الأبواب السلطانيـة لكَشْفِ الجسور والمساحة والقَبْض . وربمـا انْحَطَّتْ رتبةُ أحد هؤلاء فكُتِب إليه : أعزَّ الله تعالى أنصار المقرّ الكريم، أونُصْرَةَ الجناب الكريم ؛ أو ضاعف الله تعالى نِعْمَةَ الجَنَاب العالى .

المرتبة السابعة — «ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى» . وبذلك يُكْتَب إلى كَاشِفِ الوجه البَحْرِيّ وكاشف الفَيُّوم والبَهْنَساوِيَّة .

المرتبة الثامنة — «أدام الله تعالى نِعْمَةَ المَجْلِسِ العالى» . وبذلك يكتب إلى الولاة الطبلخاناه بالوجهين القبليّ والبحْرِيّ بالديار المصرية : كقُوص والمَحَلّةِ ، وغيرهما . وربمـا كُتب "صدرت والعالى" لأحدهم .

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

المرتبة التاسعة — « صَدَرَتْ والسامى » . وبذلك يكتب إلى وُلاة العشرات بالوجهين القبلىّ والبحْرىّ بالديار المصرية .

الطبقة الرابعة — ممن يكتب عنه من أعيان الدَّوْلة بمملكة الديار المصرية ، من يكتب إليه عن السلطان « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى » . ككاتب السرّ وناظر الجَيْش ، وكذلك الحُجَّاب الطبلخاناه بالديار المصرية . وعلى ذلك كان ناظر الخاصّ فى الزمن المتقدّم . فلما جُمِعَ للصاحب شَمْسِ الدّين المقسى بين الوِزَارة ونظر الخاصّ ، كان يُكْتب عنه بما يُكْتب به عن الوزراء كما تقدّم . فلما انفصل الخاصّ عن الوزارة رُوعِىَ فى الخاصّ ذلك القَدْرُ ، فكُتِب عن ناظر الخاص كما كتب عن الوزير ، والأمر على ذلك إلى الآن .

والمكاتبات الصادرة عن هذه الطبقة على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانىّ بمطالعة » . وبذلك يُكْتب إلى النَّائِب الكَافِل ، والأتَابِك ، ونائب الشَّام ، وألحقوا بهذه الرتبة نائبَ حَلَبَ ، فكتبوا إليه الفلانىّ .

المرتبة الثانيـة — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب عن هـذه الطبقة إلى نوّاب السلطنة بطَرَابُلُسَ ، وحَمَاةَ ، وصَفَدَ ، وثَغْرِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ .

المرتبة الثالثـة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائبَىِ الوجهين القبلىّ والبحْرىّ بالديار المصرية ، ومُقَدَّمى العسكر بغَزَّةَ وسِيس ، وربما كُتِب إلى أحدهم « الباب الكريم » .

المرتبة الرابعـة — « الباسط الشريف » . وبذلك يكتب إلى نائب الكَرَك .

المرتبة الخامسة — « يُقَبِّل الباسطة » . وبذلك يكتب إلى نائب القُدْس الشريف ، ونائب الرَّحْبَة ، وكاشف الوجه البحْرىّ ، وكَاشِف الفَيُّوم بالديار المصرية .

المرتبة السادسة — «يقبل اليَدَ العالية». وبذلك يكتب إلىٰ الولاة الطبلخاناه، بالوجهين القِبليّ والبَحْريّ، بالديار المصرية .

المرتبة السابعة — «يخدم الجناب العالى». وبذلك يكتب إلىٰ الولاة العشرات بالوجهين القبليّ والبَحْريّ أيضا .

قلتُ : وعلىٰ هــذه الطبقات الأربَع يُقَاس مَنْ دونهم ممن يكتب إليه عن السلطان ، صدرت والعـالى ، كنائبَي القُدْس والرَّحْبَة؛ ومَنْ يُكْتب له : صدرت والسامى ، كالكاشف بالوجه البَحْرىّ، وكاشِف الفَيُّوم ؛ ومن يكتب له : هــذه المكاتبة ، كالولاة الطبلخاناه بالوجهين القبليّ والبَحْرىّ ؛ ومن يكتب له : «يَعْلَم» كالولاة العشرات بالوجهين أيضا . علىٰ أن الغالب فى مثل هؤلاء أن تكونَ الكتابةُ عنهم لأعيـان الدولة « الفلانىّ بمطالعـة » وفيمن هو مثلهم أو دونهـم يقاس علىٰ ما تقـــدّم .

وٱعلم أن هــذه المراتبَ المُضَمَّنَةَ للطبقات ليست علىٰ سبيل اللُّزوم فى الوقوف عنـد حدّها ، بحيثُ لا يجوز تجاوُزُها بزيادة ولا التأخُّرُ عنها بنقص ، بل هى علىٰ سبيل التقريب ، والأمرُ فى زيادة رتبـة المكتوب إليـه زيادةً لا تُخْرِجُه عن حدّه فى المقـدار مَوْكولٌ إلىٰ آختيار الكاتب، يزيد فى ذلك وينقص، بحسب مايقتضيه الحـال: من رفعة قدر المكتوب إليه، لمزيد رفعته عن نوعه ، أو محاباته لأَسْتمالته إلىٰ القصد المطلوب منه، أو الغَضّ منه بحَطيطَة رُتْبته أو نحو ذلك .

الفصـــــل السابع

من البـاب الثانى من المقالة الرابعة

(فى مقاصد المكاتبات ، وهى الأمور التى تكتب المكاتبات بسببها)

وهى الجزء الأعظم من صِناعة التَّرَسُّل ، وعليها مَدَارُ صنعة الكتابة ، إذ الولايات من مقاصد المكاتبات ، وهى أهمُّ ماتَضَلَّعَ به الكاتبُ ، وألْزَمُ مامَهَرَ فيه ؛ وهى قسمان :

القســـــم الأول

(مقاصد المكاتبات السلطانيات ، وهى على نوعين)

النـــــوع الأول

(ما يُكْتَب عن الخلفاء والملوك ، وهو على ثلاثة أضرب)

الضـــرب الأول

(ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضَاهَاهُم)

ممـا هو مستعمل الآنَ ممَّـا كان عليه الحال فى الزمن القديم ممـا يَقِلُّ ويَكْثُر ، ويَتَكَرَّر تداوُلُه فى الكتابة وسائر المكاتبـات فى الحوادث المألوفة التى يكثر تداولها ، وتتكرر الكتابة فيهـا بتكرر وقائعها ؛ وما رَسْمُ الكتابة به بَاقٍ إلى زماننا ، وإن تغـير مصطلح الابتداء والخطاب وغيرِهما من رسوم المكاتبات . وهو على أصناف :

الصـــنف الأول

(الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة)

قال فى "مواد البيان" : جرت العادة أن تُنَفَّذَ الكتبُ إلى وُلاة الأعمال فى مثل هــذه الحالة ، مُتَضَمِّنَةً ماجرى عليـه الأمر بالحضْرة : من انْقِيَاد الأوليـاء والرعايا

إلىٰ الطاعة، ودُخولِهم فى البَيْعة بصدورٍ مُنْشَرِحة، وحَضَّ مَنْ بالأعمـال من رجال السلطان ورعيته علىٰ الدخول فيما دخل فيه أمثالُهم، وإعطاءَ الرَّعايا علىٰ ذلك صَفْقَةَ أيمـانهم .

وقد كان الرسمُ فيها أن تُصَدَّر بحمد الله تعالىٰ علىٰ عَوارِفِه التى لم تَزَلْ تَكْشِفُ الخَطْب، وتَرْأَبُ الشَّعْب، وتدفع المُهِمّ، وترفع المُلِمّ، وتجبر الوَهْن، وتُسْبِغُ الأَمْن؛ والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم، وذِكْرِ خصائصه ومناقبه، وتشريفِ الله تعالىٰ له بإقرار الإمامة فى أقاربه، وتخصيصها ببنى عَمِّه الذين هم أحَقُّ الناس به؛ وما أمر به الله تعـالىٰ رسولَه صلىٰ الله عليه وسلم من طَلَبِ مودّتهم من الأمة بقوله جَلَّ من قائل : ﴿ قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ ﴾ . وما أشار إليـه صلىٰ الله عليه وسـلم من بقاء الخلافة فيهم بقوله لعَمِّه العباس : «أَلا أُبَشِّرُكَ يَاعَمّ، بِي خُتِمَتْ النُّبُوَّةُ وبولدك تختم الخِلافَة» وما يجرى مجرىٰ ذلك . ثم يتـلو ذلك بالإفصاح عن شرف الخلافة وفضلها، والإبانةِ عن رفيع مكانهـا ومَحَلّها، وأنها ظِلُّ الله الممدود، وحَبْلُه المشدود، ومِسَاكُ الدِّين ونظامُه، ومِلَاكُ الحق وقِوامُه. وٱمْتِنَانَ الله تعـالىٰ علىٰ العباد بأن جعل فيهم أئمة يُقْسِطُونَ[(١)] العدلَ عليهم، ويُقِيمُونَ الحدودَ فيهم، ويُقَوِّمون أديانهم، ويُهَذِّبون إيمانهم، ويُرْهِفُون بصائرهم، ويَهْدُونَ حائرَهم، ويَكُفُّونَ ظَلُومَهم، ويُنْصِفُونَ مظلومَهُم، ويجمعون كَلِمَتَهم، ويَحْمُونَ ذِمَارَهم، ويَحُوطُونَ دِيارَهم، وما يجرى مجرىٰ ذلك . ثم يذكر ما أوجبه الله تعـالىٰ علىٰ أهل الإسـلام للإمام من الطاعة وحسن التِّباعة أيام حيـاته، والانْقياد لأمره فى طاعة من يَنُصُّ عليـه فى القيام مقامه بعد وفاته : ليتَّصِلَ حَبْلُ الإمامة بينهم، ويمتدَّ ظِلُّ الخلافة عليهم. فإن كان قد تَلَقَّىٰ الخلافة بعهد عن خليفة قد مات : من أب أو غيره، أتىٰ بمقدّمة فى ذكر الموت، وأن الله تعـالىٰ سوّىٰ فيه بين بَرِيَّتِهِ، وجعل فى تطرّقه

(١) لعله يفيضون العدل .

إلى رسوله أُسْوَةً لخليقته، وتفرّد بالبقاء، وآمتنع عن الفناء. ثم يقال : وإن الله تعالى لما آختار لعبده ووليه فلان النُّقْلَةَ إلى دار كرامته، والحُلُولَ بِفِناءِ طاعته، وأعانه على سياسة بريته، وأنهضه بما حَمَّلَه، وأيده فيما كَفَّلَه، من الذبّ عن المسلمين، والمراماةِ عن الدّين، والعملِ بكتابه وسنّته فى القول والفعل، وآستشعارِ خِيفَته ومُراقبته فى السرّ والجهر، وما يليق بهذا ـ استخلص عبده ووليّه فلاناً الإمامَ الفلانىّ لخلافته، وأهمى سماءَ الرحمة بإمامته، وأحَلَّ عزيزَ النصر بولايته، وألقى فى نفيس رأيه النصَّ عليه، والتفويضَ إليه؛ لِما علم سبحانه فى ذلك من شمول المصلحة للعباد، وعموم الأَمَنَةِ للبلاد، فأمضى ـ قدس الله رُوحَه ـ ما أَلْهَمَه، وكلّه قبل خروجه من دار الدنيا وتممه؛ عالماً بفضل آختياره، وأنه لم يَمِلْ به الهوى فى إيثاره، فقام أمير المؤمنين الإمامُ الفلانىّ مقامه، وحَفِظ نِظَامَه، وسدّ ثُلْمَتَه، وعفّى رَزِيَّتَه، وأقر الله تعالى الإمامة به فى نِصَابها ومقرّها، وزاد باستخلافه فى صِيتِ الخلافة وقَدْرها .

وأميرُ المؤمنين يسأل الله تعالى أن يخص وَلِيّه السعيدَ بقُرْبِه بأفضل صلواته، وأشرفِ تحياته، ويُحْسِنَ جزاءه فى سعيه فى صلاح العباد، وسِدادِ البلاد، وأن يُلْهِم أميرَ المؤمنين الصبر على تجرُّع الرَّزِيَّةِ فيه [ويجزيه] أفضل ماجزى به صابرا مُحْتَسِبا، وأن يَجْبُرَ كَسْره فى فقده، ويُوفّقه لجميل العزاء من بعده، ويُسَدِّده فى مصادره وموارده، ويَهْدِيَه لما يُرْضيه فى جميع مقاصده، ويُعِينَه على تأليف الأهواء، وجَمْع الآراء، ونَظْم الشَّمْل، وكَفِّ القتل، وإرخاء الظل .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد آجتمع مَنْ بحضرته، من ذَوِى جهته وأمراء دولته، وكافّة جُنْده وجماعة حَوْزَته على بيعته، وإعطائه صَفْقَةَ أيمانهم على طاعته

ومشايعته ، عن صدور مُخْلِصة نقيَّة ، وسرائر صافية سليمة ، وعقائد مشتملة على الوفاء بما عَقَدُوا عليه ، وانقادوا مختارين إليه ؛ وشملتهم بذلك الرحمه ، وضَفَتْ عليهم النعمه ؛ فما بَرِحُوا الرَّزِيَّه ، حتّى فَرِحُوا بالعطيه ، ولا وَجَمُوا للمصيبه ، حتى بَسَمُوا للرغيبه ، ولا أظلموا لفقد الماضى ، حتّى أضاء الوجود بالآتى .

فلله الحمد على هذه النعمة التى جَبَرَتِ الوَهْن ، وحققت فى فضله المَنّ ، حمدا يَسْتَدِرّ أخلاف فَضْله ، ويستدعى سابغ طَوْله ؛ وصلّى الله على محمد وآله . وأميرُ المؤمنين يراك من أهل مخالصته ، والمتحققين بطاعته ؛ وهو يأمرك أن تأخذ البَيْعَةَ له على نفسك ، وعلى جميع أوليائه المقيمين قِبَلك ، وكافّة رعاياه الذين هم فى عملك ؛ وتُشْعِرهم بما عنده للمسارعين لطاعته ، المبادرين إلى اتّباعه ؛ من تيسير الإنصاف والعدل ، وإفاضة الإحسان والفَضْل ؛ وما لمن نَكَبَ عن الطريقة المُثْلى ، وحادَ عن الأُولى ، من الكَفِّ الرَّادِع ، والأَدَب الوَازِع ؛ ويَتَوَسَّعُ فى هذا المعنى توسُّعاً يشرحُ صدورَ أهلِ السلامه ، المستمرِّين على نَهْج الاستقامه ؛ ويَرْدَعُ أهلَ الفساد ، ويَغُضّ من نواظر ذَوِى العِناد . ويُحَلّى الكتاب بآيات من القرءان الكريم تَحْسُنُ استعارتها فى باب العَزَاء ، ويليق ذكرها فى باب الإشادة بالخلافة والخُلَفاء . فان كان الكتاب مما يقرأ بالحَضْرة . قال فى موضع «وكتاب أمير المؤمنين إليك» : «وأنتم معاشرَ أقارب أمير المؤمنين : من إخوته وبنى عمه وخَوَاصّ الدولة وأمرائها وأجنادها وكُتَّابها وقُضَاتها وكافَّة رعيتها ، ومن اشتمل عليه ظل مملكتها ــ أَحَقُّ مَنْ حافظ على عوارف أمير المؤمنين واعتدّ بلطائفه ، وقام بشكر نعمته ، وسَارَع إلى اتباعه واعتصم بحبل دعوته ؛ فَأَجْمِعُوا على متابعته ، وإعطائه صَفْقَةَ أيمانكم على مبايعته ، ليجمعَ الله على التأليف كلمتكم ، ويحمىَ بالتآزُر بَيْضَتكم » ويُتْبِعُ ذلك من وعد أهل الطاعة

بما يضاعف جُدُودهم ، ومن وعيد أهل المعصية بما يُصَفِّرُ خُدودهم ؛ على نسق ما سبق فى الترتيب .

وهذه نسخة كتاب فى المعنى ، كُتِب به عن الآمر بأحكام الله تعالى عند آستقراره فى الخلافة بعد أبيه المُستَعْلِى بالله ، والدَّولةُ مشتملة على وزير ؛ من إنشاء آبن الصَّيْرَفِىّ ، وهى :

الحمد لله المتوحِّد بالبقاء ، القاضى على عباده بالفَنَاء ؛ الذى تَمَجَّد بالأزليَّة والقِدَم ، وتفرَّد بالوجود وتَنَزَّه عن العَدَم ؛ وجعل الموت حَتْمًا مقضيًّا على جميع الأمم .

يحمده أمير المؤمنين على ماخصَّه به من الإمامة التى قَمَّصَه سِرْبالَهَا ، وورّثه فخرها وجمالَهَا ؛ حمدَ شاكرٍ على جزيل العطيَّه ، صابرٍ على جليل الرَّزيَّه ، مُسَلِّمٍ إليه فى الحُكْم والقضيه ؛ ويسأله أن يصلِّىَ على جدّه محمد الذى ثبتت حجّتُه ، ووضَحت مَحَجَّتُه ؛ وعَلَتْ كلمته ، وأنافت على دَرَج الأنبياء دَرَجتُه ؛ صلّى الله عليه وعلى أخيه وآبن عمّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب الذى جعل [الله] الإمامةَ كلمةً فى عقبه باقيه ، وحُبَّه جُنَّةً يوم الفَزَع الأكبر واقيه ؛ وعلى الأئمة من ذرّيتهما الطاهرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدِّين .

و إن الإمام المستعلىَ بالله أميرَ المؤمنين قدّس الله رُوحَه وصلّى عليه ، كان من أوليائه الذين آصطفاهم لخلافته فى الأرض ، وجعل إليهم أَزِمَّة البَسْط والقَبْض ؛ وقام بما حُمِّلَه من أَوْقِ[1] الإمامه ، ولم يزل عاملاً بمرضاة الله إلى أن نقله إلى دار المُقَامه ؛ فإنا لله و إنا إليه راجعون ، رِضًا بقضائه ، وصبرا على بلائه ؛ و إلى الله يرغبُ أميرُ المؤمنين فى إلهامه حُسْنَ الصبر على هذا المُصَاب ، و إجزال حَظِّه عليه من الأَجر والثواب ؛ و إمدادِه فى خلافته بموادّ الإرشاد والصواب ؛ بكرمه .

(١) الأوق الثقل . قاموس .

وكتاب أمير المؤمنين يوم كذا من الشهر الفلانىّ من سنة كذا، بعـد أن جلس للحاضرين بحضرته من الأمراء: عُمُومَتِه وأوليائه وخَدَمِ دولته، وسائرِ أجناده وعبيدِ مملكته، وعامة شيعته، وأصنافِ رَعِيَّته؛ وأنوارُ الخلافة عليـه مُشْرِقه، وأغصانُ الإمامـة مُثْمِرَةٌ مُورِقه؛ والسـيد الأجلّ الأفضـلُ الذى أمدّه الله فى نُصْرة الدولة العلوية بالتأييد والإظهار، وأبان به برهانَ الإمامة الآمرية فوضَحَتْ أنوارُها للبصائر والأبصـار، وشَهَرَ له من المناقب ما سار مَسِـيرَ الشمس فى جميع الأقطار؛ يتولّى الأمرَ بحضرته تَوَلِّىَ الكافلِ الزَّعيم، ويباشرُ النظرَ فى بَيْعَتِه مُبَـاشرة القَسِيمِ الحَميم؛ والناس داخلون فى البَيْعَة بانشراح صدور، وإظهار ٱبتهاجٍ وسرور؛ يُعْطُون صَفْقَة أيمـانهم، ويعلمون مالهم من الحَظِّ فى طاعة إمام زمانهم؛ قد تحققوا شُمُولَ السَّعد وعُمُومَ الرشاد، وتيقنوا الخِيَرَة لهم فى العاجلة والمَعَاد؛ وأمير المؤمنين يُعَزِّيك ومن قِبَلَك من أولياء دولته، وسائر رعيته، عن المصيبة فى الإمام المستعلي بالله — صلى الله عليه — التى قطعت من النفوس أمَلَها، وأسكنت الألباب جَزَعا ووَلَهـا، ويُهَنِّيك وإياهم بمُتَجَدِّد دولته التى تَهَلَّلَ لها وجهُ الزمان، وٱستهلت بها سحائبُ الفَضْلِ والإحسان. وأمير المؤمنين يحمـد الله الذى أقَرَّ الحقَّ فى مَنْصِـبِه، وأفرده بمـا كان والدُه الإمامُ المستعلى بالله أُفْرِدَ به.

فٱعلم ما أعلَمَكَ أميرُ المؤمنين من هـذا الخَطْب الجسيم، والنَّبَإ العظيم؛ وٱشكر الله علىٰ ما جدّده لك ولكافَّة المسلمين، من النعمة بامامة أمير المؤمنين؛ التى أَوْفَتْ باساءة الزمان وجِنَايته، وشَفَتْ من داء كَلْمه ونِكَايته؛ وتَقَدَّم إلىٰ الدعاء(؟) قِبَلَكَ بأخذ البيعة علىٰ نفسك وعلىٰ كافّة مَنْ فى وِلايتك، وٱستحمد إلىٰ أمير المؤمنـين أنت وهم بالإخلاصِ فى طاعتــه، والاجْتهاد فى مُنَاصحته، والتَّمسُّك بعِصَمِ مشايعتــه؛ لتنالوا

فى العاجلة حظًّا جسيما، وتحرِزُوا فى الآجلة أجرًا كريما : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وطالعْ بالكائن منك بعد قراءة كتاب أمير المؤمنين على الحاضرين قِبَلك ، وإذاعته فى الواردين عليك والمستوطنين عَمَلك ؛ ليَحْمَدُوا الله على ما أنالهم بخلافة أمير المؤمنين من جميل الصُّنْع العائد على العباد ، وصلاح البلاد ـ وكتب فى اليوم المذكور .

وهـذه نسخة كتاب عن الآمر بأحكام الله المقـدّم ذكره ، كُتِبَ به إلى وُلاة الأطراف بعد قراءة عهده ، مهنئا بخلافته ، وتجديد ولايته ؛ من إنشاء ابن الصَّيْرَفِيّ أيضا ، وهى .

أما بعـدُ ، فالحمد لله مُولِى المنائح من نِعَمِه ، ومُجْزِلِ العطايا من مواهبه وقِسَمِه ، ومُعَوِّد الصُّنْع الجميـل من لُطْفه وكَرَمه ، الذى له الحكم الظاهر عَدْلُه ، ولَدَيْه الطَّوْل الفائض فَضْلُه ، وعنده مفاتحُ الغيب وإليه يَرْجِعُ الأمر كُلُّه .

يحمده أمير المؤمنين على ما أفرده به من سَنِيّ المواهب ، ونَظَمه له من عُقُود المناقب ؛ ونَقَلَه إليـه من تُرَاث آبائه الكِرام الذين جَلَا ضياؤُهم ظلامَ الغَيَاهب ؛ وتزينت بهم الأرضُ تَزَيُّنَ السماء الدنيا بِزِينَةِ الكواكب ؛ ويسأله أن يصـلِّى على جدّه محمد الذى نشر الله به الرحمه ، وكشف الغُمَّه ، وأنقذ الأمَّه ؛ صلَّى الله عليه وعلى أخيه وابن عَمِّه علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين ، والمذكور فى زُبُرِ الأوّلين ، وعلى الصَّفْوَة من ذرّيتهما الهُدَاة الراشدين ، صلاةً باقيةً إلى يوم الدين .

وإن النِّعَم تتفاضل أقدارُها بحسب مواقِعِها ، وتتفاوت أخْطَارُها بقَدْر مواضعها ؛ ومِنْ ألطفها مكانا ، وأشرفِها محلًّا وشانا ، وأولاها بأن تُسْتَنْطَقَ به الأقلام ، وأحقّها بأن يتناقلَ ذكرها الخاصّ والعام ؛ ما خصّ الله به أميرَ المؤمنين من المِنَنِ الظاهره ،

وتولَّاه من المِنَح المتظاهره ، وأصارَه إليه من الخِلافة فى أرضـه ، وآستَخْلَفَه عليه من القيام بسُنَنِ دينه وفَرْضه ، وآسترعاه إيَّاه من حِياطَة بلاده ، وأوجبه من طاعته علىٰ كافَّة خلقه وعباده ، وذَخَره لدولته من كفيله وخليله ، ومقيمِ أدِلَّة حقه ومُوضِّح سبيله ، السـيدِ الأجلِّ الأفضلِ الذى آرتضاه الله للذَّبِّ عن الإسلام ، وآنتضاه لنُصْرة إمام بعد إمام ، وشهر مناقبَه فى كُلِّ مَوْقِف ومقام ، وخصَّـه بفضائلَ لم تُرَ مجتمعةً لملك من ملوك الإسلام ، لاجَرَمَ أنَّ أمير المؤمنين قد أحلَّه منـه محلَّ الرُّوح من الجَسَـد ، والوالد من الوَلَد ، وفوَّض الأمور إليه تفويضَ معوِّل علىٰ يُمْن نقيبته معتمد ، مبالِـغ فى حسن الآختيار للأمة مُجتهد ، والله تعالىٰ يُمَتِّع أمير المؤمنين ببقائه الكافل ببلوغ الأمل ، ويجازيه عن تشييد مملكته أحسنَ ما جزىٰ به مُخْلصا جَمَعَ فى الإيمان بين القَوْل والعمل ، بكرمه .

ولمـا وقف أميرُ المؤمنين بما طالعه به السيدُ الأجلُّ الأفضلُ عند مثوله بحَضْرته ، وإنهائه أمورَ دولتـه وأحوال مملكته ، علىٰ أمرِك الذى آسـتحمده فى الخدمه ، وآستحققْتَ به إفاضةَ الإحسان وإسباغَ النعمه ، وأن لك فى الدولتين : المسْتَنْصِرِيَّة والمُسْـتَعْلِيَّة من الخدم المشكوره ، والمساعى المبروره ، ما يدلُّ علىٰ مُنَاصحتك وإخلاصك ، ويبعثُ علىٰ آصطناعك وآستخلاصك ـ أمَرَ بكَتْبِ هذا السِّجلِّ لك مؤكِّدًا لأَواخيك ، ومُعْرِبا عن رأيه الجميل فيك ، ومجدِّدا من ولايتك ، ومُجْرِيا لك فيهـا علىٰ مُسْتَمِرِّ رسمك ومستـقِرِّ عادتك . فقابلْ نعمة أمير المؤمنين من الإخلاص فى طاعته بمـا يرتبطها ، ووَفِّهَا من حَقِّ الآجتهاد ما يُقِرُّها عندك ويُثَبِّطُها ، وآجعلْ تقوىٰ الله تعالىٰ عِمَادك ، وآطْوِ عليها طَوِيَّتك وآعتقادَك ، ومَكِّنْ فى نفوس الأولياء جميلَ رأْيِ أمير المؤمنين فيهم ، وإحْمَادَه لمواقفهم فى الخدمة ومساعيهم ، وحَقِّقْ عند كافَّة المُسْـتَقِرِّين لديك ، والواردين عليك ، ما يَكْتَفُون به من الأمر الشامل ،

ويغمرون به من حُسْنِ النظر المتواصل؛ وأجْرِ على العادة المألوفة في إفاضة العدل والإنصاف، وتنكّبْ سبيلَ الجَوْرِ والإجحاف؛ ومهّد السُّبُلَ قبلَك، واحْمِ من أسباب الفساد ولايتَك وعَمَلك؛ واخْصُصْ مُتَوَلِّيَ الحكم والدعوة الهادية ـ ثبّتها الله تعالى ـ بالإعْزاز والرعايه، ووفّرْ حَظَّهم من الملاحظة والعنايه؛ وخُذ المُسْتَخْدَم في الخطبة العَلَويّة بإقامتها في أوقاتها، على أفضل قوانينها وواجباتها، مُعْلِناً فيها بذكر أمير المؤمنين الذي يتَوَّجُ فرُوقَ المنابر، ويُشَنِّفُ أسماع البوادي والحواضر؛ وتوفَّرْ على ما تَمَّرَ الأموال وأنْماها، وغزّرها ورخّاها، وقضَى بوُفُورها وحصولها، ودعا إلى دُرُورها ومواصلة حُمُولها؛ وانظر في أمر الرجال المستَخْدَمين معك نظرا يؤدّي إلى مصلحتهم. فاعلم هذا من أمير المؤمنين، واغتبط بما أصاره الله إليه اغتباط أمثالك من المخلصين، واعتقدْ طاعتَه اعتقادَ مَنْ يجاريك من أهل اليقين، واعمل بوصاياه ومراشده تَحْظَ في الدنيا والدين؛ وطالعْ بالكائن منك بعد قراءة هذا السِّجِلّ على كافة الناس أجمعين؛ وكُتب في كذا وكذا.

واعلم أن العادة جارية بينهم أنه إذا كتب كتاب عن الخليفة بانتقال الخلافة إليه، يُكْتب ملطف عن الوزير، يُلَفُّ كتاب الخليفة ضِمْنَه، ويُوجَّه به إلى حَيْثُ المَقْصد:

⁂

وهذه نسخة مُلَطَّف في هذا المعنى، كُتِبَ به عن وزيرٍ في الدولة الفاطمية، ليُلَفَّ كتابُ الخليفة طيَّه؛ وهو:

ينْطَوِي هذا الأمرُ الوارد على الأمير، على كتاب مولانا وسيدنا الإمامِ الفلانيّ لدينِ الله، أميرِ المؤمنين؛ صلواتُ الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، أو أبنائه المُنتَظِرِينَ، إن كان لا ولد له ـ بما أصاره إليه من شَرَف

الإمامه، وبوّأه إيّاه من مقام العظمة والكرامه، إثرَ انتقالِ الإمامِ فلانٍ أمير المؤمنين ـ قدّس الله رُوحَه ـ إلىٰ جوارِ ربّه. فاعتَمِد العملَ بمضمونه فى أخذ البَيْعـةِ علىٰ نفسك ومن يَليك، وتلاوته علىٰ رءوس الأشهاد، وإذاعة مكنونه فى الحاضر والبَاد، علىٰ الرسم المعتاد، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالىٰ.

قلت : وهذا المعنىٰ فى الكتابة بانتقال الخلافة إلىٰ الخليفةِ جارٍ فى زماننا بانتقال السَّلْطَنَة إلىٰ السلطان، ويعبَّر عن ذلك بجلوسه علىٰ تَخْت الملك، والأمر علىٰ ماتقدّم فى الخلافة من التعزية بالماضى، والتهنئة بالمُسْتَقِر، ونحو ذلك ممـا يجرى مجراه.

⁂

وهذه نسخةُ مكاتبـة بالبشارة بجلوس الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون علىٰ التخت، فى شهر رجب الفرد سـنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، بعد خَلْع أخيه الملك الناصر [حسن]. وصورتها بعد الصَّدْر والألقاب :

وأوردَ عليه من البشائر أسنىٰ البُشَر، وأسمعه من التَّهَانى ما انتشىٰ حديثُـه بين البرايا وانتَشَر، وحفِظَ عليـه وعلىٰ الأمة ما أراد لهم من الخـيرِ وولّى عليهم خِيَارَهم وجعل مليكهم صالِـحَ البَشَر.

صدرت هذه المكاتبة إلىٰ فلان وبصرها[(1)] مقدمًا بالظّفَر، وذكرها قد ملأ الأقطار بجَمْعِ عليه كُلَّ قلبٍ كان قد نَفَر، تُهدى إليه سلاما عن وجه الشُّكْر سَفَر، وثناءً يحصُـل منه علىٰ النَّصيبِ الأوفر، وتُوَضِّح لعلمه أن الجنابات العـالية الأمراءَ الأكابرَ، أمراءَ الدولة الشريفـة، ضاعف الله نِعَمـتَهم، كانوا قد عَظَّمُوا أخانا الناصرَ، وحَكَّمُوه، ومَشَوْا إلىٰ خِدْمته علىٰ أحسن سَـنَن، وما أبقَوْا فى خدمته مُمكنًا من التعظيم، والإجلال والتحكيم، وامتثالِ الأمر فى كل جليلٍ وحقير، فلم يَرْعَ لهم

(١) كذا بالأصل على هذه الصورة.

ذلك، ولا آلتفت إلى مالهم عليه من حقوق الخدمة ؛ وآتفق مع الصبيان، وأراد القَبض على الأمراء ، وإمساكَ الجنابات العالية الأمراءِ الأكابرِ والإيقاعَ بهم .
فلما تحققوا منه ذلك ، آجتمعت الأمراء ، وآتفقت الكلمة على خَلْعه من الملك الشريف وإقامتنا . فخلع المشارُ إليه ؛ وكان جلوسُنا على تخت المُلْك الشريف وكرسيِّ السَّلْطنة المعظمة فى يوم الآثنين المبارك ، بحضور الإمام المعتَضِد بالله أميرِ المؤمنين أبى الفتح أبى بكر، آبن الإمام المرحوم أمير المؤمنين أبى الرَّبيع سليمان المُسْتَكْفِى بالله، ومبايعته لنا ، وحضورِ المجالس العالية قُضَاةِ القضاة بالأبواب الشريفة ، أعز الله تعالى أحكامهم ؛ وحَلَفَ لنا أمراءُ الدولة الشريفة على جارى العادة فى ذلك ؛ وضُرِبَتْ عند ذلك البشائر، وشهد هذا الهناءَ كلُّ بادٍ وحاضر، وتَشَنَّفَتِ الأسماعُ وقرَّتِ العيون وآستقرّت الخواطر، وآبتهجت بذلك الأمم، وتباشرت بهذا السَّعْدِالذى كُتِبَ لنا من القِدَم؛ وأصبح كُلٌّ من أنصار دولتنا الشريفة مبتهلا بالدعاء مبتهجا .

فليأخُذِ المَقَرُّ حظَّه من هذه التهنيه، وليُذِعْ خَبَرَها لتكون المسارُّ مُعِيدة ومُبْدِيَه ؛ و يتحققْ ماله عندنا من المكانه، والمحلَّ الذى زان بالإقبال الشريف زَمَانَه؛ و يتقدّمْ أمرُه الكريمُ بتهنئة المجالس العالية والسامية ومجالس الأمراء بالمملكة الفلانية، ويتقدّمْ أيضا بضَرْب البشائر وبالزينة على العادة .

وقد تَجَهَّز إلى الجناب العالى نسخةُ يمين شريفة يحلف عليها، و يكتُبُ خَطَّه، و يجهزها إلينا صُحْبَةَ المجلس السامى، الأميرِ، الأجلِّ ، الكبيرِ، العَضُد، الذُّخرىِّ، النَّصِيرىِّ، الأوحدىِّ، عَضُد الملوك والسلاطين، يلبغا الحَمَوىِّ الصالحىِّ، أدام الله عُلُوَّه، المتوجِّهِ بهذا المثال الشريف . وقد جهزنا نسخةَ يمين شريفة ليحلف عليها لنا الأمراءُ بطَرابُلُس ويكتبوا خطوطهم، و يجهزها إلينا على العادة صُحْبة المشار إليه .

وقد جهزنا للجناب العالى صحبة المشار إليه تَشْرِيفًا شريفا كاملا؛ فيتقدّم الجنابُ العالى بتسلمه منه ولُبْسه، و يتحقق ماله عندنا من المكانة والمَنْزِلة، و يُعيدُ الأمير سيفَ الدِّين يلبغا المشار إليه إلىٰ الباب الشريف، فيحيط علمه بذلك .

الصـــنف الثـانى

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ فى الدعاء إلىٰ الدِّين ، وهو من أهمّ المهمات)

قال فى "موادّ البيان" : أشرف ما يُنْشئه الكاتبُ الدعاءُ إلىٰ دِينِ الإسلام الذى أظهره الله تعالىٰ علىٰ كُلِّ دِينٍ ، وأعزّه علىٰ كُرْهِ المشركين ، وٱسْتِجْرَارُ مُخَالفيه إليه ، وٱجتذابُ الخارجين عن دائرته إلىٰ الدخول فيه ؛ عملا بما كان عليه رسولُ الله صلّىٰ الله عليه وسلم والخلفاءُ من بعده ، لأنه قِوَامُ الملك ونِظَامُ السلطان اللّذان لايَصِحّان إلا به .

قال : والكاتب يحتاج فى إنشاء هذه الكُتُب إلىٰ عِلْمِ التوحيد و براهينه ، وشَرْعِ الرسول صلّىٰ الله عليه وسلم خاصّه وعامّه ، ومعجزاتِه ، وآياتِ نُبُوّته : ليتوسَّعَ فى الإبانة من ظهور حجته ، ووضوح مَحَجَّته .

ثم قال : والرسم فيها أن تُفْتَتَح بحمدِ الله الذى ٱختار دينَ الإسلام فأعلاه وأظهره، وقدّسه وطَهَّره ، وجعله سبيلا إلىٰ رِضَاه وكرامته ، وطريقا إلىٰ الزُّلْفىٰ فى جَنّته ، وشفيعا لا يُقْبَلُ عملُ عاملٍ إلا به ، وبَابًا لا يَصِلُ واصلٌ إلامنه ، فلا تُغْفَرُ السيئاتُ إلا لمن ٱعتَصَم بِحَبْلِه ، ولا تُتَقَبَّلُ الحسناتُ إلا من أهله . وشُكْرِه تعالىٰ علىٰ الهداية إليه ، والتوقيف عليه ، وذِيَادَته عن مجاهلِ الضلالة بما أوضحه من برهانه ، ونَوَّره من تِبْيانه ، وتَمْجِيـده من تعظيم آياته ، و باهرِ مُعْجِزاته ، وحكيم صَنْعَتِـه ، وبديع فطرته . وتَنْزِيهه عما لايليق بسُلْطانه ، ولا تجوز إضافته إلىٰ عظيم شأنه . وتَسْبِيحه

عما يَصِفُه به المُلحدون، ويَختلقه الجاحدون، والصَّلاة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والإفصاح عن دلائل نُبُوّته، وبَراهين رسالته، وما خصَّه الله تعالى به من إعلاء ذكره وإمداده بالمعجزات الباهره، والآيات الظاهره .

ثم يُتْبِعُ ذلك بالدعاء إلى الدِّين والحَضِّ عليه. وإيضاح ما في التَّمسُّك به من الرَّشاد في دارَي المَبْدَإ والمَعاد . والتَّبشير بما وعد الله به المستجيبين له، والداخلين فيه؛ من تَمْحيص السَّيِّئات، ومُضاعَفة الحسنات، وعِزِّ الدنيا وفَوْزِ الآخرة. والإنذارِ بما أوعد الله به النَّاكِبين عن سبيله، العَادِلين عن دَلِيله؛ من الإذْلال في هذه الدار، والتَّخْليد بعد العَرْض عليه في النار؛ وتَصْرِيف المُخَالفين بين الرَّغْبة والرَّهْبة، في العاجل والمَغَبَّة .

قال : وينبغي أن يَتَأتَّى الكاتبُ فيما يُورِدُه من هذه الأغراض، لِيَقَعَ في المواقع اللّائقة به، ويَجْلُوَ الحجج في أحسن المعاريض، ويُفْصِحَ عنها بأقرب الألفاظ من النفوس . فإنه إذا وُفِّقَ لذلك، ناب كِتَابُه مَنابَ الجُيُوش والأجناد، وأقرَّ السيوفَ في الأغماد . ثم قال : ومن صَدَقَتْ في هذا الفَنِّ رغبَتُه، أيد الله تعالى غريزته، وعَضَّدَ بَدِيهته ورَوِيَّته .

قلت : وهذا الصِّنف من المكاتبات السلطانية قد بَطَلَ في زماننا، فلم يُعْهَدْ أنَّ مَلِكًا من الملوك كَتَب إلى بلاد الكُفْر بالدَّعاية إلى الدين . إذ مثل ذلك إنما يصدر مع الغَلَبَة والقُوَّة والقَهْر . كما كان الخلفاء في الزمن المتقدم، والكُفْر مقهور معهم، مذلول لديهم . أما الآنَ فلولا ما أخبر به صلى الله عليه وسلم بقوله : «ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» وفي رواية «ونُصِرَتْ أُمَّتي» لاجْتاحَ أهلُ الكُفْرِ الإسلامَ؛ ولكن الله وعد دينه أن لايُخْذَل .

الصـــنف الثـالث

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ بالحثّ علىٰ الجهَاد)

قال فى " موادّ البيان " : كما أن الدِّين يَنْتَظِم بالدعاء إليه والترغيب فيه، كذلك يَنْتَظِم بصِـيَانة حَوْزَته ، وما دخل فى مملكته، وكَفِّ أعدائه عن تَنَقُّص أطرافه ، والتَّغَلُّبِ علىٰ بلاده . ولهـذا فرض اللهُ تعـالىٰ الجهادَ وأوجبه ، وأكَّدَ الأمْرَ فيـه وشدّده، والسلطانُ يحتاجُ عند الحوادث التى تَحْدُثُ من تَطَرُّقِ المخـالفين إلىٰ بعض الثُّغُور ، أو شَنِّ الغَارَةِ علىٰ أهل الإسـلام ، ان يَدْعُوَ إلىٰ الجهَاد ومُقَارَعَةِ الأعداء، وصَوْنِ حريم المله ، وحِفْظ نظام الدوله .

ثم ذكر أن الرسم فيها أن تفتتح بحمـد الله تعالىٰ علىٰ جَمِيل صُـنْعِه : علىٰ إعزاز الكَلمة، و إسْبَاغ النِّعْمة باظهار هذه الملة، وما وعد الله به من نصر أوليائه، وخِذْلانِ اعدائه، و إدالة الموحدين، و إذَالة المُلْحدين، والصلاة علىٰ رسوله صـلىَّ الله عليه وسـلم وعلىٰ آله ، وذِكْرِ طَرَفٍ من مواقفه فى الجهادِ ، ومُقَارعته لِشِيَعِ الإلحاد ، وتأييد الله تعالىٰ أنصارَه علىٰ أهْلِ العِنَاد . ثم يذكر الحادثة بنَصِّها ، ويشرح القصة علىٰ فَصِّها، ويَنْدُبُ من جاوره ودناه من أهل المِلَّة أجمعين، ويخاطبهم بمـا يُرْهِفُ عَزَائمَهُم فى نُصْرة الدين وكَافَّةِ المسلمين ، واتِّبَاعِ سبيل السَّلَف الصالحين ، الذين خَصَّهم الله تعالىٰ بِصِدْقِ الضَّمائر، ونَفَاذِ البَصَائر، وصِحَّة الدين ، ووَثَاقَةِ اليقين، فلم يكونوا لِيَرُومُوا مَرَامًا إلا سَهَّل لهم ماتَوَعَّر، ويَسَّر عليهـم ما تَعَسَّر، وسما بهم إلىٰ ما هو أقصىٰ منه مَرْمًى وأبعدُ مَدًى ، رغبةً فيما رغَّبهم فيه من نُصْرته ، وتَعَرُّضًا لمـا عرَّضهم له من جزِيل مَثُوبَتِه ، وأن يَحُضَّهم علىٰ التمسك بعزائم الدين، والعملِ علىٰ بصائر المخلصين، واقتراض مافرضَ اللهُ عليهم من جِهَاد أعدائه، وتنجيز ماوَعَدَهم به

من الإظفار بهم والإظهار عليهم ؛ وأن يجاهدوا مُسْتَنْصِرين ، ويُؤَدُّوا الحَقّ مُحْتَسِبين ، ويُقدِمُوا رسلًا لا ناكصين ولا شاكّين ولا مُرْتابين ، مُتَّبِعين الحَقّ حَيْثُ يمم وقصد ، ومضاربين دونه من صدّ عنه وعَنَد ، ويُبَالِغ فى تَنْخِيَة أهل البسالة والنَّجْده ، والبَأْس والشِّدّه ، ويبعثهم على نَصْر حَقِّهم وطاعةِ خالقهم ، والفوز بِدَرْك الثواب والرِّضْوان ، وتَنَوُّر البصائر فى الإيمان ، وفضيلةِ الأَنَف من الضَّيْم ، والبُعْد من الذَّيْم ؛ إلى غير هذا مما يَعْدِل الأرواحَ والمُهَج ، والإقدامِ على مصارع التَّلَف . فإن الملوك الماضين ـ لعلمهم بأن الناس إنما يَجُودون بذلك للفوائد التى تُوجِبُه ـ كانوا يبذُلُون لمن يدعونه إلى المكافحه ، ويُعَرِّضُونَه للمذابحه ، الرغائبَ التى تُهَوِّن عليهم إلقاء نفوسهم فى المهالك تارة ، ويُذَكِّرونهم الأحقاد والضغائن ويخوفونهم من الوقوع فى المَذَلَّة أخرى .

ثم قال : وينبغى للكاتب أن يُقَدِّم فى هذه الكُتُب مُقَدِّمات ، يرتبها على ترتيب يَهُزُّ الأَرْيَحِيَّات ، ويُشْحِذُ العزائم ؛ ليَجْمَع بين خِدْمة سلطانه والفوزِ بنصيب من الأجر .

قلت : وهذا الصِّنْف من المكاتبات السلطانيات مستمر الحكم إلى زماننا . فما زالت الملوك يَكْتُبون إلى ماليهم بالحَثّ على الجِهَاد ، والقيامِ بأوامره ، والحضّ على مُلاقاة العَدُوّ ، والأخذِ بنُصْرة الدين . وقد تقدّم فى الكلام على مقدمات المكاتبات فى أوّل هذه المقالة : أن الشَّيخَ شهابَ الدين محمودًا الحلبى ذكر فى "حُسْنِ التوسل" أنه إذا كُتِبَ عن الملك فى أوقات حركات العدوّ إلى أهل الثغور ، يُعْلِمُهم بالحركة لِلقاء عدُوّهم ـ أنّه يبسُط القولَ فى وَصْف العزائم ، وقُوَّة الهِمَم ، وشِدَّة الحَمِيَّـة للدِّين ، وكثرةِ العساكر والجيوش ، وسُرْعَة الحركة ، وطَىِّ المراحل ، ومُعَاجلةِ العدوّ ، وتَخَيُّل أسباب النَّصْر ، والوُثُوقِ بعوائد الله فى الظَّفَر ، وتقويةِ القلوب منهم ، وبسط آمالهم ، وحَثِّهم على التَّيَقُّظ ، وحَضِّهم على حِفظ ما بأيديهم من ذلك وما أشبهه . وأنه يُبْرِزُ

ذلك فى أبْيَنِ كلام وأجَلِّه ، وأمْكَنِه وأقربِه من القوّة والبسالة ، وأبعـده من اللِّين والرِّقّة ، ويبالِغُ فى وصف الإنابة إلى الله تعالى وآستنزالِ نَصْرِه وتأييده ، والرجوعِ إليه فى تَثْبِيتِ الأقدام ، والاعتصامِ به فى الصَّبْر ، والاستعانة به على العَدُوّ ، والرَّغْبة إليه فى خِذْلَانِهم ، وزَلْزَلَةِ أقدامهم ، وجَعْلِ الدائرة عليهم ، دون التصريح بسؤال بُطْلان حَرَكَتِهم ، ورجاءِ تأخيرهم ، وآنتظارِ العَرَضِيَّات فى تَخَلُّفهم ، لِمَا فى ذلك من إيهام الضَّعْفِ عن لِقَائِهم ، وآستشعار الوَهْنِ والخَوْفِ منهم ؛ وأن زيادةَ البَسْطِ ونقصَها فى ذلك بحسب المكتوب إليه .

وهـذه نسخةُ مُكَاتبة من ذلك عن السلطان إلى بعض نوّاب الثُّغُور ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبِيّ ، أوردها فى "حسن التوسل" وهى :

أصدرناها ومُنَادِى النَّصْرِ(١) قد أعلن بيا خَيْلَ الله آرْكَبِى ، وياملائكةَ الرحمن آصْحَبِى ، وياوُفُودَ الظَّفَرِ والتأييد آقْرُبِى ، والعَزَائِمُ قد رَكَضَتْ على سوابق الرَّكْض إلى العـدا ، والهمم قد نَهَضَتْ إلى عَدُوّ الإسـلام فلو كان فى مَطْلَع الشمس لآستقربتْ ما بينها و بينه من المَدَى ، والسُّيُوفُ قد أَنِفَتْ من الغُمُود فكادت تَنْفِرُ من قُرُبِها ، والأَسِنَّةُ قد ظَمِئَتْ إلى موارد القلوب فتشوّفت إلى الآرتواء من قُلُبِها ، والكُمَاة قد زَأَرَتْ كالُّليُوثِ إذا دَنَتْ فرائسُها ، والجِيـادُ قد مَرِحَتْ لِمَا عوّدتْها من الآنتعال بجماجم الأبطال فوارسُها ، والجيوشُ قـد كاثَرِتِ النجومَ أعْدادُها ، وسارتها للهجوم على أعداء الله من الملائكة الكرام أَمْدَادُهـا ؛ والنفوسُ قد أضْرمتِ الحَمِيَّةُ للدِّين نارَ غَضَبِهـا ، وعَدَاها حَرُّ الإشـفاق على ثُغُور المسلمين عن بَرْدِ الثغور وطِيبِ شَنَبِها ؛ والنَّصْرُ قد أشرقت فى الوجود دلائله ، والتأييـدُ قد ظهرت على الوجوه مَخَايِلُه ؛ وحُسْنُ اليقين بالله فى إعزاز دينه قد أنْبَأَتْ بحُسْن المآل أوائلُه ، والألْسُنُ باستنزال

(١) فى حسن التوسل (ص ٩٤) "النفير" .

نَصْرِ الله لَهِجَه ، والأرجاءُ بأرواح القَبُول أَرِجَه ، والقُلُوب بعوائد لُطْف الله بهذه الأمة مبتهجه، والحُمَاةُ وما منهم إلا من آستظهر بإمكان قُوّته وقُوّة إمكانه، والأبطال وليس فيهم من يسأل عن عَدَدِ عَدُوّه بل عن مَكَانِه ، والنِّيَّاتُ علىٰ طَلَب عدوّ الله حيث كان مُجْتَمِعه ، والخواطرُ مطمئنةٌ بكونها مع الله بصدقها و «مَنْ كان مَعَ الله كَانَ الله مَعَه» ، وما بَقِيَ إلا طَيُّ المراحل، والنزولُ علىٰ أطراف الثُّغُور نزولَ الغَيْث علىٰ البَلَد الماحِل، والإحاطةُ بِعَدُوِّ الله من كل جانب، وإنزالُ نفوسهم علىٰ [حُكْم](١) الأمرين [الآخرين](١): من عذابٍ وَاصِب وهَمٍّ نَاصِب، وإحالةُ وجودهم إلىٰ العَدَم، وإجالة السُّيوف التي إن أنكرتْها أعناقُهم فما بالعَهْدِ من قِدَم، وآصْطِلامُهم علىٰ ما بأيدى العِصَابَة المؤيَّدَة بنصر الله فى حربها ، وآبتلاؤهم من حَمَلاتها بريحِ عَادٍ التى تُدَمِّرُ كلَّ شَيْءٍ بأمْرِ رَبِّها ، فليَكُنْ مُتَرَقِّباً طلوعَ طلائعها عليه ، مُتيقِّناً من كَرَم الله آستئصالَ عدوّه الذى إن فرّ أدْرَكَتْه من ورائه وإن ثبت أخَذَتْه من بين يديه ؛ ولْيَجْتَهِدْ فى حِفْظ ماقِبَلَه من الأطراف وضَمِّها، وجَمْعِ سَوَائِم الرعايا من الأماكن المَخُوفَة ولَمِّها، وإصلاحِ مايُحْتاجُ إلىٰ إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرِّفة ورَمِّها، فإن الآحتياط علىٰ كل حال من آكَدِ المصالح الإسلامية وأهمها، فكأنَّه بالعَدُوّ وقد زال طَمَعُه، وزاد ظَلْعُه ، وذَمَّ عُقْبىٰ مسيره، وتَحَقَّق سُوءَ مُنْقَلَبِه ومصيره، وتبرأ منه الشيطانُ الذى دَلَّاه بغُرُوره، وأصبح لحمُه مُوَزَّعاً بين ذِئَاب الفَلَا وضِبَاعِها وبين عِقْبَان الجَوِّ ونُسُورِه ، ثِقَةً من وعد الله وتَمَسُّكاً منه باليقين ، وتحققا أن الله يَنْصُر من يَنْصُره والعاقبةُ للمتقين .

* * *

وهذه نسخة مَرْسُوم كريم فى المعنىٰ ، بل هو أصرحُ فى ذلك مِمَّا قبله ، كُتِبَ به عند ظهور الفَرَنْجِ اللوسارية والشوال بالبحر: من إنشاء الشيخ بدر الدين حبيب

(١) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ٩٤) .

الحَلَبِي ؛ وهو وإن لم يكن عن السلطان فإنه فى معناه ، لقيام النائب بالمملكة قيام السلطان الذى آستنابه ، وهو :

المرسوم بالأمر العالى أعلاه الله تعالىٰ ، لازالت مراسمُه النافذة تُبَلِّغُ أهلَ العِصابة المُحَمَّدية غَايَةَ الآمال ، وأوامرُه المُطَاعَةُ تَقْضِى بكسر اللُّوسارِيَّة وشَيْنِ الشوال ؛ أن تتقدم العساكرُ المنصورةُ بالمملكة الطَّرَابُلُسِيَّة أيد الله تعالىٰ عزائمهم القاهره ، وأذَلَّ بسيوفهم الطائِفَةَ الكافره ؛ بارتداء ملابس الجهاد ، والتَّحَلِّى بمرارة الصَّبْرِ علىٰ آجتلاء الجِلَاد ، وأن يجيبوا داعىَ الدِّين ، ويَكُفُّوا أيدى المُعْتَدِين ، ويُفَوِّقُوا سِهَامَهُم ، ويجعلوا التَّقْوىٰ أمَامَهم ، ويُشْرِعُوا رماحَهُم ، ويَحْمِلُوا سلاحَهُم ، ويُومِضُوا بروقَ السيوف ، ويرسلوا نِبَالَ الحُتُوف ، ويَهْدِمُوا بُنْيَانَ الكُفَّار ، ويُطْلِعُوا أهِلَّةَ القِسِىِّ بَمدِّ الأوتار ، ويَهْضِمُوا جانبَ أهلِ العِنَاد ، ويقابلوا البحْرَ بملْءِ بحْرٍ من الجِياد ، ويناظروا أمْوَاجَه بأمواج النِّصَال ، ويقاتلوا الفِرْقَةَ الفَرَنْجِيَّةَ أشدَّ القتال ، ولايهملوهم بالنهار ولا بالليل ، ويُعِدُّوا لهم ما آسْتَطَاعُوا من قُوَّةٍ ومن رِبَاطِ الخَيْل ، ويُنَوِّرُوا بمصابيح الرِّبَاطِ فى سبيل الله ظَلَامَ الدُّجُنَّة ، وأن يُصَابِرُوا ويَصْبِروا ، فإذا استُنْفِرُوا فلْيَنْفِرُوا ، ويبالغوا فى الغُدُوِّ والرَّوَاح لِيُبَلِّغُوا الرَّعِيَّةَ من الأمْنِ أمانِيها . فقد قال صلّى الله عليه وسلم : «لَغَدْوَةٌ فى سبيل الله أو رَوْحَةٌ خَيْرٌ من الدنيا ومَا فِيهَا» . ويعتمدوا علىٰ القريب المجيب ، ويجتهدوا فى كَسْرِ أصْلَابِ أهل الصَّلِيب ، وينافسُوا فى أمرِ الآخرة ويَدَعُوا الدنيا ، ويقاتلوا لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هى العُلْيَا ؛ ويَشْهَدُوا المَوَاقِفَ ، ويَبْذُلوا التَّالِدَ والطَّارِف ؛ ولْيَبْرُزِ الفارسُ والراجل ، ويظهر الرَّامِحُ والنَّابِل ؛ فإن الجِهَاد ، سَطْوة الله تعالىٰ علىٰ ذَوِى الفَسَاد ، ونِقْمَتُه القائمة علىٰ أهْلِ الشِّرْكِ والعِنَاد ؛ وهو من الفُرُوض الواجبه ، التى لم تَزَلْ سهام أصحابه صَائِبَه ؛ فواظِبُوا علىٰ فعْله ،

ولاتذهبوا عن مذاهبه وسُبُلِه ، واطلبوا أعداءَ الله برًّا وبحرا ، وقسّموا بينهم الفتكاتِ قتلًا وأسرا ، وفاجئوهم بمكروه الحَرب ، وناجوهم برسائل الطّعنِ والضّرب ، وخذوا من الكُفّار باليمين ، وجِدُّوا فى تحصيل الرِّبح الثّمين ، ولازموا النزولَ بساحل البحر لمنازلة الطُّغاةِ والمشركين ﴿ يَأَيُّها الَّذينَ آمنوا قاتِلُوا الَّذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفّارِ ولْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً واعْلَموا أنَّ اللهَ مَعَ المُتّقينَ ﴾ وسابقوا الأَعنّة ، وهُزّوا أعطافَ الأسنّة ، وشمّروا عن سَاقِ العزائم ، ولا تأخُذْكُمْ فى الله لَوْمَةُ لائم ، واتّخذوا الخيامَ مساكِن ، واجعلوا ظُهورَ الخيل لكم مَواطِن ، وانصبوا الألوِيَةَ والأعلام ، وأطفئوا جمرةَ الشِّرْذِمةِ الغائِظَة للإسلام ، ولا تخشَوْا من جمعهم الآئِلِ إلى التّفريق ، وحَشْدِهم الذى هو عمّا قليلٍ إن شاء الله تعالى غريق ؛ ولاتَعْبَئُوا بسُفُنِهم البَحْرِية ، فإن سفنكم الخيلُ المخلوقة من الرِّياح ؛ ولا تنظروا إلى مجاديفِهم الخَشَبِيّة ، فإن مجاديفكم السيوفُ والرماح ؛ فاقلَعوا قُلُوعَهم ، وشتّتوا جُموعَهم ؛ وأذهبوا الجَنف والحَيْف ، وخاطبوهم بألسِنَةِ السَّيْف ؛ وأوقِدوا فى قُلوبهم بالتّحصين والاحتراز نارا ، وادعوا الله أن لايَذَرَ على الأرض من الكافرين دَيّارًا ؛ ونكّسوا صليبهم المنصوب ، وبادروا إلى حرب حِزْبهم المغلوب ؛ وارفعوا باليقين شكَّ هذه المِحْنَه ، وقاتلوهم حتّى لا تكونَ فِتْنَه ؛ واهجروا فى ذات الله طِيبَ المنام ، وانقلُوا الأقدام إلى الاقدام ، واكشفُوا عنكم أستارَ المَلالِ والمَلام ، واهتموا بما يُعْلى كلمةَ الإسلام والسلام ؛ فليرفعنكم الله إلى منازل العِزّ والتمييز ، ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

الصِّـنْفُ الرابع

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ فى الحَثّ علىٰ لزوم الطاعة وذَمّ الخلاف)

قال فى "موادّ البيان" : طاعةُ السـلطان والانقيادُ إليـه ، والرجوعُ إلىٰ رَأْيِه والاعتمادُ عليه ، أَبْدَىٰ الأسباب ، فى استمرارِ الاتّساقِ والاستتباب ؛ وهى فرضٌ أوجبه الله تعـالىٰ . فقال : ﴿أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ولا تصح مملكةٌ ولاتدوم دَوْلَةٌ إلا بأمرين : أحدهما عدلُ السلطان ، والآخر طاعة الرَّعِيَّة له ، فمتىٰ ارتفع أحدهما ، فَسَدَ السَّائِس والمَسُوسُ . ولم تزل ملوك الأزمنة يقـدّمون إلىٰ الرعايا لُزُومَ الطاعه ، والاعتصامَ بحَبْلِ الشريعـة والنَّهْىَ عن مفارقة الجماعه .

قال : والرسم فيهـا أن تفتتح بالحمد لله علىٰ النِّعَم فى تأليف قلوب أهـل الدِّين ، وجَمْعِ كلمة المُوَحِّدين ، ورِعَايَةِ أهوائهم إلىٰ الاتّفاق ، وصِيَانة عَصَاهم عن الانشقاق ، والصلاةِ علىٰ رسوله صلّى الله عليه وسلم ، والتنبيه علىٰ فضائل الطاعة ، فإنهـا العُرْوَةُ الوُثْقَىٰ ، والمَعْقِلُ الذى لا يُرْقَىٰ ، والحِصْن الحصين ، والكَنَف الأمين ، والحِمَىٰ الأَمنع ، والمَرْقَب الأرفع ، وأَنَّ مَنْ حافَظ عليها فاز وسَلِم ، ورَبِح وغَنِم ، ومَنْ فارَقها خَسِر وخَاب ، ونَكَبَ عن سبيل الصَّواب ، وإيضاح مافى سبيل الطاعة من اتّفاق الكلمه ، وانتظامِ شَمْلِ الأمه ، وشُمُولِ الخيرات ، وعمومِ البركات ، وعِمَـارةِ البلاد ، وصَلَاح العباد ، وما فى المُشَاقَقَة من الفساد العـام ، العائد بانْتِثَارِ النِّظَام ، وانْبِتَات الحَبْل ، وتَفَرُّق الشَّمْل ، واجْتِثَاث الأَصْل ، وطُمُوس الديار ، وصِيَال الأشرار ، وانْقِمَاع الأخيار ، وتوالى الفِتَنِ التى لاتُصِيبُ الظالمَ خاصَّةً دون العادل ، ولا المُشَاقِقَ دون الموافق ، وحلولِ النَّوائب المُزِيلَةِ للنعم ، وإتباعِ ذلك بمـا يجب من إعذار وإنذار ، وترهيب وترغيب ، وتذكير وتبصير ، ووَعْظٍ وتخويف ، وبَعْث العُلَمـاءِ

الحُصَفَاء، على رَدْع الجُهلاء السُّخَفَاء، وتنبيه أهلِ السلامة والصلاح، على كَفّ ذوى العَيْث والطِّلاح، إلى نحو هـذا ممـا يجاريه . وأن يبالغ فيما يُورِدُه من هـذه المعانى ، فإن هـذه الكتبَ إذا كانت بليغة مُسْتَوْفاة جَيِّـدة العبارة، أخذت بمجامع القلوب، وأغنَتْ عن الكَتَائِبِ فى إدراك المطلوب .

✦✦✦

وهذه [مكاتبات] فى معنىٰ ذلك أوردها أبو الحسين بن سعد فى تَرَسُّلِه ، وهى :

أما بعد ، فإن الله آفترض الطاعة وأوجبها، وأمر بها ورَغَّب فيها؛ وجعلها عِصْمَةً من كل فِتْنَه، وضياء من كل شُبْهَه، وسَلَامة من كل هَلَكَه؛ وسببا للظَّفَر بخير الدنيا والآخره؛ من أراد الله به خيرا وفَّقه لهـا ، وألزمه المحافظةَ عليها والاعتصامَ بحَبْلها ؛ فتَعَجَّل عزَّها وشرفَها ، وسَعَتَها وأَمْنَها، وآستحق السـعادة فى الدار الآخرة بهـا، والمَثُوبَةَ عليها .

آخــر : وقد علمتم ما جعل الله فى الطاعة ولزومِها، والمحافظةِ عليها : من العز والمَنَعَةِ والأَيْد والقُوَّةِ والفَوْزِ بخير الدنيـا والآخرة [وما] فى خلافها من صُنُوف المخاوِف، وأنواع المَتَالِف .

آخــر : وقد كانت الطاعة أَنَافَتْ بك علىٰ كُلِّ ظَلِيـل، وأَفْضَتْ بك إلىٰ لِينِ مِهَادٍ عند إِقْضَاضِ المضاجع، وصفاء المشارب عنـد تكَدُّر المناهل ، وآتصال أَمْنَةٍ عند حدوث المخاوف؛ حتى فعلت كذا وكذا .

آخــر : فلم يَمْرُق من طاعتـه مَارِق، ولا فارقها مُفَارِق؛ إلا صَرَعَ الله خَدَّه، وأتعَسَ جَدَّه؛ وخَضَد شَوْكَته، وأكذب ظَنَّه وأُمْنِيَّتَه، وجعله لسيوف الله غَرَضا، ولأوليائه غنيمة .

آخـــر : والطـاعة هى العُرْوَةُ الوُثْقىٰ ، والطريقـة المُثْـلىٰ ، والغنيمة لاهلها فى الأُخْرىٰ والأولىٰ .

«عبد الحميد» : — فان الفِتْنة تتشوّف لأهلها بآنَقِ مَنْظَرٍ، وأزْيَنِ مَلْبَسٍ، تُجَرِّر لهم أذيالَهَا، وتَعِدُهم تتابع لَذّاتها، حتّى تَرْمِيَ بهم فى حَوْمات أمواجها، مُسْلِمَةً لهم: تَعِدُهم الكَذِبَ وتُمَنِّيهم الخُـدَع، فاذا لَزِمَهم عِضاضُها، ونَفَر بهم شِمَـاسُها، تَخَلَّتْ عنهم خاذلةً لهم، وتبرأت منهم مُعْرِضَة، قد سُلِبوا أجمل لِبَاس دِينِهم، وٱسْتُنْزلوا عن أحْصَنِ معاقل دُنْياهم : من الغَنَاءِ البَهِىِّ مَنْظَرُه ، الجميـل أثَرُه ، حتّى تَطْرَحهم فى فضائح أعمالهم ، والإيجاف فى التَّعَب ، وسوء المُنْقَلَب ، فمن آثر دينَه علىٰ دنياه تمسك بطاعة وُلَاته ، وتَحَرَّز بالدخول فى الجماعة ، تاركًا لأثقل الأمرين، وأوْبَلِ الحالَين .

« اِبن عبد كان» فى ذَمِّ الخلاف : — وإن فلانا كان عبدا من عبيدنا ، ٱعْتَوَرَه إنعامنا ، ونوّه به إكرامنا ، وشرّفه وَلَاؤنا ، وحسن عنده بَلَاؤنا ، وٱبتنينا له الأموال ، وأسنينا له الأعمال ، وأوْطَأْنا عَقِبَه الرجال ، فلم تقع النِّعَمُ منه عند شاكر ، ولا الصنيعة عنـد مُحْتَمِل ، فلما رفع الله بمكاننا خَسِيسَتَه ، وبلّغه من شَرَف الذِّكر ونباهة القَدْر وٱنبساط يَدِه ما كانت هِمَّتُه تَعْجِزُ عنه ، وآماله تَقْصُر دونه ، أَضْراه ذلك وأبْطَرَه ، وأطْغاه وأكْفَره ، فٱخْتَال زَاهِيًا ، وٱستكبر عَالِيًـا ، وغدَر باغيا ، وشَاقّ عَاصِيًا ، وأوضع فى الفِتْنَة لنا حَرْبا ، ولأعدائنا حِزْبا ، ولمن ٱنحَرَف عنا يدًا ، ولمن مال إلينا ضِـدًّا ، من غير سَبَبٍ أوجبه ، ولا أمر دعاه إليه ، فكان كما قال الله عزّ وجلّ فى كتابه : ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ وكقوله : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأَرْضِ﴾ فلما ورده الخبر بمـا هَيَّأَ الله لنا من الرجوع إلىٰ الفُسْطَاط علىٰ الحال السارّة لأوليائنا ، الغائظة لأعدائنا ، سُقِطَ فى يده ، وفكّر فى غليظ جُرْمِه

وخيانته ؛ فأدّاه الخوفُ الذى آستشعره ، والإشفاقُ الذى خامَرَه ؛ إلىٰ أن رَكِبَ عظيما من الأمور ، وكاشف بالعَصَبِيَّة والغُرور ، مُكاتفًا أعداء (١) ، وموالِيًا ذوى العداوة والشَّنَآرَه ؛ ونرجو بحَوْل الله وقُوَّته ، وإرادَته ومشيئته ، وما لم يَزَل الله ـ تقدّس آسمه ـ يُجْرِيه عندنا من جميل عاداته فِيمَنْ سَفِهَ الحق ، وزَاغَ عن القَصْد ؛ أن يُبْسِلَ هذا الخائنَ بخَبَائِثِ أعماله ، ويُسْلِمَه لقبائح أفعاله ، وأن يَصْرعه بأسوإ مصارع أمثاله ؛ فإنَّ أحدًا لم يَجْحَد النعمه ، إلا آستدعىٰ النِّقْمه ؛ ولم يَدَع الشكر ، ويستعمل الكفر ؛ إلا كانت العَثْرَة منه قريبه ، والبلايا محيطه ؛ قولا لا يُبَدَّل رسمه ولا يُحَوَّل .

من كتاب موسىٰ بن عيسىٰ .

أما بعـد ، فإن آمرأ لو خَلَص من فَلَتَاتِ الخَطَإ وخُطُوَاتِ المَلإِ (٢) ، بفضيلة رَأْيٍ ولطافة بَصَرٍ بالأمور ، كُنْتَ أحجىٰ بذلك دون أهل زمانك ، للذى جَرَتْ لك عليه تصاريف التبع ، وتعرَّضَتْ لك به وجوهُ العِبَر ؛ ولما آستقبلتَ من موارد أمور نفسك ، وتَعَقَّبْتَ من مصادر أمور غيرك ؛ ولٰكنَّ الله إذا أراد أمرا جعل له من قضائه سببا ، ومن مقاديره عِلَلا ؛ فمن مقادير عِلَلِ البلاء تضييع المعرفه ، وإلغاء ما تُفِيدُه التَّجْرِبَه ؛ ومن أسباب السَّلامة الآنْتِبَاهُ بالعِبَر ، والآستدلال بما كان علىٰ ما يكون . وأنت آمرؤ جَرَتْ لك وعليك أنحاء من النعم ، وأنحاء من المِحَن ، عرفْتَ بها مالك وعليك : فان تأخُذْ بها ، عرفتَ كيف تَسْلُكُ مسالكه ، وإن تَدَع الأخذ بذلك ، تَدَعْه علىٰ عِلْم . وقد رأيتَ الذى آنقادتْ لك به النِّعْمَة ، ووهبت لك به العافية ؛ فيما ألهمك الله من طاعة وُلَاة أمورك ، والصبرِ لها علىٰ مواطن الحَقِّ التى رَفَع الله بها ذِكْرَك ، وأحسن عليها عُقْباك وذُخْرَك ؛ فلم تَمْضِ بك فى طاعتهم رُتْبَه ، إلا قرَّبَكَ الله بها فى الخير عَقَبَه ، ولا تَبْذُل من نفسك نُصْحًا ، إلا أوجب

(١) بياض فى الأصل ولعله الامارة .
(٢) الملأ هنا معناه الظن والطمع .

لك به نُجحا، ولم تَفْتأْ تُواتِرُ ذلك : من مناصحتك وحُسْنِ طاعتك، حتّى طُلْتَ بها علىٰ من طاولك، وفَضَلت بها من فاضلك؛ وجريت ممدودا عنانُكَ إلىٰ قُصْوىٰ غايات أملك، فأصبحْتَ قَريعَ المسلمين، بعد خليفة الله أمير المؤمنين، وخِيرَتَه من خَلْقِه، بعد ذَوِى الفَضْل من أهل بيتـه؛ حتّى مَالَكَ من رِجَالاتِ العرب نظير فى مَنْزِلَةٍ، ولا نَدِيدٌ فى حال ولا رُتْبة؛ بل هم فيك رجلان : إما رَاهِبٌ منك، وإما راغب فيك.

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمرّ الكتابة إلىٰ زماننا. فما زالت الملوك يكتبون إلىٰ من يَتخَيَّلُونَ منه خَلْعَ الطاعة من النوّاب ومن فى معناهم، ويحثّونهم علىٰ لزوم الطاعة، ويُحَذِّرُونهم المخالفةَ والخروجَ عن الجماعة.

✣

ومن ذلك ما كتب به الشيخ شهـاب الدين محمود الحلَبى إلىٰ متملك سِيس عند كَسْرَةِ التتار، بعد قيامِه معهم فى المَصَافّ، ومساعَدَتِه إياهم، وهو:

بَصّره الله بِرُشْـدِه، وأراه مواقعَ غَيِّه فى الإصرار علىٰ مخالفته ونَقْض عهده، وأَسْلاهُ بسلامة نفسه عمن رَوَّعَتْه السيوفُ الإسلامية بفَقْدِه.

صـدرت تُعَرِّفُه أنه قد تُحُقِّقَ ما كان من أمرِ العَدُوّ الذى دَلّاه بغُرُورِه، وحمله التمسك بخِدَاعِه علىٰ مجانبة الصواب فى أموره؛ وأنهم آستنجدوا بكل طائفه، وأقدموا علىٰ البلاد الإسلامية بنفوس طامعة وقلوب خائفه؛ وذلك بعد أن أقاموا مدّة يَشْتَرُون المخادعة بالموادعة، ويُسِرُّون المُصَارَمة فى المسالمه؛ ويُظْهِرون فى الظاهر امورا، [ويُدَبِّرون فى الباطن أمورا] [(١)] ويَعِدُونَ كُلَّ طائفة من أعداء الدين ويُمَنُّونَهم وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا؛ وكَانَا بمكرِهم عالمين، وعلىٰ معاجلتهم عاملين؛ وحين

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩٧).

تبيّن مرادُهم، وتكمّل احتشادُهم، استدرجناهم إلى مصارعهم، واستجررناهم ليقربوا في القتل من مضاجعهم، ويبعدوا في الهرب عن مواضعهم؛ وصدمناهم بقوّة الله صدمة لم يكن لهم بها قِبَل، وحملنا عليهم حملة ألجأهم طوفانُها إلى ذلك الجَبَل: وهل يَعْصِمُ من أمر الله جَبَل؟ فحصرناهم في ذلك الفضاء المتّسع، وضايقناهم كما قد رُؤِى ومزّقناهم كما قد سمع؛ وأنزلناهم على حُكم السّيف الذى نَهِل من دمائهم حتى رَوِى وأكل من لحومهم حتى شَبِع؛ وتبعتهم جيوشنا المنصورة تتخطّفهم رِماحُها، وتتلقّفهم صِفاحُها؛ ويبدّدهم في الفلوات رُعْبها، ويفرّقهم في القِفار طَعنُها المتَدارِكُ وضَربُها؛ ويَقتُل مَنْ فات السيوفَ منهم العَطَشُ والجوع، ويُخيَّل للحىّ منهم أنّ موضعه كالدنيا التي ليس للَميّت إليها رجوع؛ ولعله قد رأى من ذلك فوق ماوصف عِيانا، وتحقّق من كُلّ ما جرى مالا يحتاج أن نَزيده به عِلْمًا ولا نُقيم عليه بُرْهانا.

وقد عَلِمَ أن أمر هذا العدو المخذول ما زال معنا على هذه الوتيره، وأنهم ما أقدموا إلا ونصرنا الله عليهم في مَواطِن كثيره؛ وماساقتهم الأطماعُ في وقت مّا إلا إلى حُتُوفهم، ولا عادمنهم قطُّ في وقعة إلا آحادٌ تُخبر عن مصارع ألوفهم؛ ولقد أضاع الحَزْم من حَيْثُ لم يَستَدِمْ نعمة الله عليه [بطاعتنا](1) التي كان في مِهاد أمْنِها، ووِهاد يُمْنِها؛ وحِمايَة عَفْوها، وبَرْدِ رأفتها التي كدّرها بالمخالفة بعد صَفْوها؛ يَصُونُ رَعاياه بالطاعة عن القتل والإسار، ويَحْمِى أهلَ مِلّته [بالحَذَر عن الحركات](1) التي ما نهضوا إليها إلا وجرّوا ذُيول الخَسار؛ ولقد عرّض نفسه وأصحابه لسيوفنا التي كان من سَطَواتها في أمان، ووثق بما ضَمِن له التّتار من نَصْره وقد رأى ماآل إليه [أمر] ذلك الضمان؛ وجرّ لنفسه بموالاة التّتار عناءً كانعنه في غِنى، وأوقع روحه بمظافرة المُغْل في حَوْمة السيوف التي تخطّفت

(1) بياض بالأصل والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ٩٨).

أولياءه من هنا ومن هنا، واقتحم بنفسه مَوَارِدَ هَلَاكٍ سلبت رداءَ الأمنِ عن مَنكِبَيْه، واغترّ هو وقومه بما زيّن لهم الشيطانُ من غروره ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وما هو والوقوفَ فى هذه المَوَاطِنِ التى تتزلزل فيها أقدام الملوك الأكاسره؟ وأنّى لضِعَافِ النُّقَّادِ قُدْرَةٌ على الثبات لِوَثَبَاتِ الأسود الضّارية واللُّيُوث الكاسره؟ لقد اعترض بين السَّهْم والهَدَفِ بنَحْرِه، وتعرّض للوقوف بين نَاب الأسدِ وظُفْره؛ وهو يعلم أننا مع ذلك نرعى له حقوق طاعة أسْلَافِه التى ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التى بذلوا نفوسهم ونفائسهم فى التَّوَصُّلِ إليها؛ ونُجْرِيه وأهلَ بلاده مُجْرَى أهل ذمتنا الذين لانُؤْيِسُهم من عَفْوِنا ما استقاموا، ونَسْلُكُ فيهم حُكْمَ مَنْ فى أطراف البلاد من رعايانا الذين هم فى قبضتنا: نَزَحُوا أو أقاموا؛ ونحن نتحقق أنه ما بقى ينسى ملازمةَ رِبْقَةِ الحَتْفِ خُنَاقَه، ولا يرجع يُورِد نفسه فى موارد الهلاك وهل يَرْجِعُ إلى الموت مَنْ ذَاقَه؟ فيَسْتدرك باب الإنابة قبل أن يُغْلَق دونه، ويصون نفسه وأهله قبل أن تَبْتَذل السيوفُ الإسلاميةُ مَصُونَه؛ ويبادر إلى الطاعة قبل أن يَبْذُلَها فلا تُقْبَل، ويتمسّك بأذيال العفْوِ قبل أن تُرْفَع دونه فلا تُسْبَل؛ ويُعجّل بحَمْلِ أموال القطيعة وإلا كان أهله وأولاده فى جملة مايحمل منها إلينا، ويُسلّم مَفَاتِحَ ما عَدَا عليه من فتوحنا وإلا فهو يعلم أنها وجَمِيعَ ما تأخّر من بلاده بين يدينا؛ ويكون هو السببَ فى تَمَزُّقِ شَمْلِه، وتفرّقِ أهله، وقَلْعِ بَيْتِه من أصله؛ وهَدْمِ كنائسه، وابتذال نفسه ونفائسه؛ واسترقاق حُرَمِه، واستخدام أولاده قبل خَدَمِه؛ واستقلاع قِلَاعِه، وإحراق رُبُوعِه ورِبَاعِه؛ وتعجيلِ رؤية ما وُعِدَ به قبل سماعه. ومن لغازان أن يُجابَ إلى مثل ذلك، أو يُسْمَح له مع الأمْنِ من سيوفنا ببعض مافى يده من الممالك؛ لينتفع بما أبْقَتْ جيوشنا المؤيدة فى يده من الخَيْلِ والخَوَل، ويعيش

فى الأمْنِ ببعض ما نسمح له به ومَنْ للعُورِ بالحَوَل ؛ والسيوف الآن مُصْغِيَة إلىٰ جوابه لتَكُفَّ إن أبصر سبيل الرشاد، أو تتعوّض برءوس حُمَاته وكُمَاته عن الإغماد إن أصَرَّ علىٰ العِنَاد، والخير يكون إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الخامس

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ إلىٰ مَنْ نَكَثَ العهدَ من المخالفين)

قال فى "مواد البيان" : إذا نقض مُعَاهَدٌ عهده ، أو نَفَضَ من شروط الهُدْنَةِ يَدَه ، فالرسم أن يصدّر ما يكاتَبُ به بالحمد لله تعالىٰ علىٰ مَوْهِبته فى إظهار الدين ، وإعزاز المسلمين ، وما تكفَّلَه من النصر علىٰ الباغين ، ووعد به أهلَ العدل من الإدالة والتَّمكين ، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد النبىّ صلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله أجمعين ، وإيرادِ طَرَف من معجزاته وفضائله ، وآياته ومناقبه ، التى تنخرط فى هذا النظام ، وتليق بهذا النَّمَط من الكلام ، ثم يُتْبِع ذلك بمقدمة تدلُّ علىٰ متانة البصائر فى الدين ، وَوَثاقةِ العقائد فى إذالة المُحَادِّين ، ومَضَاءِ العزائم فى مجاهدة المُعْتَدِين ، والاستطالةِ علىٰ المعاندين ، مع ما تَضَمَّنه الله تعالىٰ من نَصْره وإظْفاره ، ووَعَدَ به من تأييده وإقراره ، وسَهَّلَه من إهواء الأهْوِيَة إليه ، وجَمْع الكلمة عليه ، بما خوّله من بَأْسٍ وشِدَّه ، وعديد وعُدّة . وما يليق بذلك مما يُعْرب به عن عُلُو السلطان ، ووُفُور الإخوان ، واتّساع القُوّة والأيْد ، وصدقِ العَزْم والجدّ . ثم يذكر الحال التى انعقدت الهُدْنَةُ عليها ، وأن الإجابة إليها لم تقع قصورا عن غَزْوِهم فى عُقْر دارهم ، وتَشْرِيدِهم بالغارات المبثوثة برًّا وبحرا عن قرارهم ، وإنما قبولًا لمسالمتهم ، وامتثالًا لأمر الله تعالىٰ فى مُسَالمتهم . ويأخذ فى تعديد الوقائع التى أوقعها أهل الإسلام بهم ، والمشاهد التى نصر الله تعالىٰ فيها عليهم ، والمَعَاقل المُنْتَزَعَة من أيديهم ،

وأن تلك العزائم مُضْطَرمة متوقده ، وتلك السيوف مُشْحَذَةٌ مهنَّده ؛ وأن الله تعالىٰ قد أباح حَرَمَ مَنْ نقض عهدَه ، ونَفَض من الذِّمام يدَه ؛ وأن كتائب الله مُوجفَةٌ وراء هذا الكتاب ، فى جيش يُلحق الخَبْتَ بالهضاب ؛ مالم يكن منهم مبادرة إلىٰ الإقلاع والإنابه ، ومكاتبةٌ فى الصَّفْح والاَستتابه ؛ وأنه قد قدَّم الأعذار ، وبدأ قبل الإقدام بالإنذار ؛ وما يقتضيه الحال من هذا ومثله .

قال : فإن كان الكتاب جوابا عن كتاب وَرَدَ ، أجيبَ بما ينقضه ، وبُنِى الأمرُ فيــه علىٰ مايبسط الهَيْبَة ، ويدعو إلىٰ النزول علىٰ أحكام الطاعة . ويختلف الحـال فى ذلك بآختلاف الأمور الحادثة ، والأسباب العارضة ؛ فينبغى للكاتب أن يَحْتاطَ فيما يطلق به قَلَمَه من هذه المعانى الخطيرة : لأنهـا مزاحمة بالدُّوَل والملك ، وحُجَجٌ تحصُلُ من كل دولة عند الآخرين ؛ ودَرَكُ ما يقع فيها عائِدٌ عليه ، ومنسوب إليه .

✤

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به عن الحافظ لدين الله الخليفة الفَاطمىّ بالديار المصرية ، إلىٰ بَهْرَام النَّصرانِىّ الأَرْمَنِىّ الذى كان آستوزره ، ثم خرج عليه رِضْوَان بن ولخشى ، آرتغاما للديـن ، لتحكُّم نَصْرانِىّ فى أهل الملة ، ووَلِىَ الوزارةَ مكانه ؛ فَفَرَّ هاربًا إلىٰ الشام ناقضا للعهد ، وكتب إلىٰ الحافظ يطابُ أهلَه وجماعتَه من الأَرْمَنِ الذين كانوا معه فى جملة جُنْد الديار المصرية ، مظهرًا للطاعة والرغبة إلى التَّخَلِّى عن الدنيا ، والآنقطاع فى بعض الدَّيَرَةِ للتَعَبُّد مَكْرًا وخديعة ؛ فكَتب له بذلك جوابا عن كتابه الوارد منه . ونَصُّ ما كتب إليه :

عُرِضَ بحَضْرة أمير المؤمنين الكتابُ الواردُ منك أيهـا الأمير، المقدَّم، المؤيد، المنصور ؛ عزُّ الخلافة وشَمْسُها ، تاجُ المملكة ونِظَامُها ، فَخْرُ الأمراء ، شيخ الدَّوْلة

وعمادها، ذُو المَجْدَيْنِ، مصطفىٰ أمير المؤمنين . ووقف علىٰ جميعه، وآستولىٰ بحكمه علىٰ مضمونه .

فأما ماوَسَّعْتَ القولَ فيه وبسطتَه، وتَفَسَّحْتَ فيما أوردتَه منه وذَكَرْتَه؛ ممَّا فحواه ومحصوله ما أنت عليه من الطاعه، والولاء والمشايعه، والآعْتِرافِ بنِعَم الدولة عليك، والإقرار بإحسانها إليك؛ فَلَعَمْرُ أمير المؤمنين إن هذا الذى يليق بك ويَحْسُن منك، ويَحْسُن أن يَرِدَ عنك، ويجب أن يعرف لك؛ وقد كانت الدولة أسْلَفَتْكَ من حُسْنِ الظَّنِّ قديما، ونقلتك فى درجة التَّنْوِيهِ حديثا؛ حتّىٰ رفعتك إلىٰ أعلىٰ المراتب، وبَلَّغَتْك مالم تَسْمُ إليه هِمَّةُ طالب؛ وأوْطَأَتِ الرِّجالَ عَقِبَكَ، وجعلت جميع أهل الدولة تَبَعَك؛ ممَّا أغنىٰ آعترافُك به عن الإطالة بشرحه، والإطناب فى ذِكْرِه .

وأما ماذكرتَه مما كان أمير المؤمنين أعطاك التَّوْثِقَةَ عليه، فأجابك منه إلىٰ مارغبت فيه، فآستَقَرَّ بينه وبينك فى معناه ماآطمأننت إليه؛ فلم يزل أمير المؤمنين علىٰ الوفاء باطنا وظاهرا، ونية وعَلَانِيَة؛ وآعتقادُه أن لا يَرْجِعَ عنه، ولا يُغَيِّرَ ما أحكمه منه؛ وإنما حال بينه وبين هذا المراد أن كَافَّةَ المسلمين فى البُعْدِ والقرب غَضِبُوا لمِلَّتِهم، وآمتَعَضُوا ممَّا لم تَجْرِ به عادةٌ فى شريعتهم؛ ونَفَرَتْ نفوسُهم ممَّا يعتقدون أن الصَّبْرَ عليه قَادِحٌ فى دينهم، ومضاعِفٌ لآلامهم؛ وأنه ذَنْبٌ لا يُغْفَر، ووِزْر لا يُتَجَاوَزُ ولا يُصْفَح [عنه] حتّىٰ إن أهلَ المَشْرِقِ أخذوا فى ذلك وأَعْطَوْا، وعزموا علىٰ ما آتفقوا عليه ممَّا صرفه الله وكفىٰ مئونتَه والآشْتِغَالَ به .

وأما ما آلتمستَه من تَسْيِيرِ مَنْ بالباب من طائفتك إليك، فهذا أمرٌ لا يسوغُ ولا يمكن فعله، ولو جاز أن يُؤْمَرَ به لمنعَ المسلمون منه فلم يَفْسَحُوا فيه . والآن فان

يَخْلُو حالُك من أحد قسمين : إما أن تكون مُتَعَلِّقا بأمور الدنيا وغيرَ منفصل عنها، فأمير المؤمنين يُخَيِّرك فى ولاية أحد ثلاثة مواضع : إما قُوص، أو إخْمِيم، أو أَسْيُوط ، فأيها آخترت ولَّاكَ إيَّاه ، وردّ أمره والنظرَ فيـه إليك ؛ علىٰ أن تقتصر من الذين معك علىٰ خمسين أو ستين فارسا ، وتُسَيِّرَ الباقين إلىٰ الباب ليُجْرَوْا علىٰ عاداتهم، ورسومهم فى واجباتهم وإقطاعاتهم ؛ إذ كانوا عبيـدَ الدولة ومتقلبين فى فَضْـلها ، وأكثرهم متولِّدون فى ظِلِّها . وإما أن تكون علىٰ القضية التى ما زِلْتَ تذْكر رغبتَك فيها وإيثارَك لها : من التَّخَلِّى عن الدنيا ولزومِ أحد الدِّيَرَة، والآنقطاعِ إلىٰ العبادة ؛ فإن كنتَ مقيما علىٰ ذلك فتَخَيَّرْ ضَيْعَةً من أىِّ الضِّياع شِئْتَ يكون فيها دَيْرٌ تقِيم فيه وتنقطع إليـه ؛ فتُعَيِّن الضيعة ليجعلَها أمير المؤمنين تسويغا لك مُؤَبَّدا ، وإقطاعا دائما مُخَلَّدا ، وتَجْرى مجرىٰ المِلْك ، ويُكْتَب لك بذلك ماجرت العادة بمثله ، مما تطمئن إليه وتَستحكم ثِقَتُك به . وإن أبَيْتَ القِسْمَيْنِ المذكورَيْنِ ولم يُرْضِكَ الأوَّلُ منهما ، ولا رَغِبْتَ فى الثانى ، فتَحَقَّقْ أن المسلمين بأجمعهم ، وكافَّتهم وأسْرهم ؛ وكُلّ من يقول بالشهادتين : من قَاصٍ ودانٍ ، وقريبٍ وبعيدٍ ، وكَبيرٍ وصغيرٍ ، يَنْفِرُونَ إليك ، ويتَّفقون علىٰ القصد لك ، ولا يَتخلفون فى التوجُّهِ نَحْوَك ، وهو عمل دِينِىٌّ ، لا يُرِيشُه أمرٌ دُنْيَوِىٌّ ؛ فتأمَّل ماتضمنته هذه الإجابة من الأقسام ، وطالِـعْ بمـا عندك فى ذلك .

قلتُ : وهذا الصِّنْف من المكاتبات السلطانية لا وجود له فى زماننا لعدم وقوع الهُدَنِ المترتب عليها هذا الصِّنف من المكاتبات ؛ فإن آحتيج إلىٰ ذلك مَشَّاه الكاتبُ علىٰ القاعدة القديمة المتقدمة .

الصنف السادس

(من الكتب السلطانية ، الكتب إلى مَنْ خلع الطاعة)

قال فى "موادّ البيان" : وهذه الكتب تختلف رسومُها بحَسَبِ آختلاف أقدار المُكاتَبِين وأحوالهم فى الخروج عن الطاعة . قال : وجَمْعُ أوضاعِها كلِّها فى قانون كُلِّىّ عسيرُ المرام ، إلا أننا نَرْسُم فيها رسومًا يمكن الزيادة فيها والنقص منها . ثم قال : والعادة أن تنفذ هذه الكتبُ إلىٰ من تُرْجىٰ إنابتُه، وتُؤَمَّل مراجعته . فأمّا مَنْ وقع الإياسُ من آستصلاحه ، ودعَت الضرورةُ إلىٰ كِفَاحِه ، فلا حاجةَ إلىٰ معاتبتـه ، ولا وجه لمكاتبته .

قال : والرسم فيها أن تفْتَتح بالتحميد المناسب لمعنىٰ الكتاب ، والصلاةِ علىٰ النبىّ صلّى الله عليـه وسلم ، بمـا يَدْعُو إلىٰ إيناسه ، ويزيلُ أسبابَ اسْتِيحَاشِه ، ويعودُ بثَبَاتِ جَاشِـه ؛ ويَبْعثُه علىٰ مراجعـة فِكْرِه ، ومعاودة النَّظَر فى أمره ؛ ويُذَكِّرُه ما أُسْدِىَ من العوارف إليه ، وأُفِيضَ من النِّعم عليـه ؛ وأنه لايُنَفِّرُ سِرْبَها بجَحْدِها وكُفْرِها ، ويُوحِشُ رَبْعَهَا بإهْمال حَمْدِها وشُكرِها ؛ ويَرْبِطُها بحسن الطاعه ، ويستَرْهِنُها بالتأدّب فى التِّبَاعه ؛ ولا يجترّ الوبالَ إلىٰ نفسه بالخروج عن العِصْمه ، فى عَاجِل ذميم الوَصْمة وفى آجل أليم النِّقْمه . ويُبَصِّره بعاقبته ومن يَلِيـه من ذوِى الجُنْد بما يقتضى رَبَّ الإنعامِ لديهم ، وإقرار الفَضْـل عليهم ؛ وأن يَسْلُبَهم مَلْبَسَ الظِّل الظليل ، وأن يُعَطِّلَهم من حَلْىِ الرَّأْىِ الجميل ، ويَتَدرّعَ فى أثناء ذلك بشِعَارِ النِّفاق ، ويَتَّسِم بمِيسَمِ الشِّقَاق ؛ ويَتَعجَّل إزعاجَه من داره ، وبُعْدَه من قَرَارِه ؛ وهَدْمَ ماشَيَّدَه الإخلاصُ من ذِكْرِه ، وتَقْوِيضَ ما رَفَعَتْهُ الطاعة من قَدْره ؛ ويعود بعد أن كان مُجاهدا عن الحوزة مُجَاهَدا بحدّها ، وبعد أن كان مُرَامِيًا عن السُّدَّةِ مَرْمِيًّا بيَدِها ؛ ويضيع

ماأسْدِىَ إليه، وأُفِيضَ من الإحسان عليه، وماذَهَبَ من اليقين فى تدريجه إلى مَراقى السياده، ومن الرغائب فى إلحاقه بأهل السعاده، ولا يغترّ بمن يُزيّن له عاجلَ الآجل، ويتقرّبُ إليه بخِدَع الباطل، ويجعلُ أقوالهم دَبْرَ سَمْعِه، ويُبْعد أشخاصَهم عن نَظَره، ناظرًا فى عاقبته، وحارسًا مُهْجَته، وراغبا فى حَقْنِ دمه، وصِيانةِ حُرَمه، ولْيَرْجِعْ إلى الفِناء الذى لم يَزَلْ يُحْرِزُه، والكَنَف الذى لم يَزَلْ يُعِزُّه، ولا يجعل مُسالمَه بالعُنود منازعا، ومُواصِلَه بالجُحُود مقاطعا، وواهِبَه بالكُفْر سالِبا، ومَطْلَعَ النعمة بضَياعه حَقَّها مَغْرِبًا، وقد بَقِىَ فى الحَبْل مُمْسك، وفى الأمر مستدرك، لأن يَهُبَّ من رَقْدَته، ويستبدل من لقاء أمير المؤمنين بلقاء حَضْرَته . ثم يقول : فإن كان ماجناه قد هَدَّ سِرْبَه، وكَدَّر شِرْبَه، وأحس فى نفسه سُوءَ الظن، وأخافَه بعد الأَمْن، فلْيَبْعَثْ رسولَه يَسْتَوْثِق ويُعاقِدْ، ويَتَوكَّدْ ويُعاهد، فإذا عاد إليه بما يَملأُ فؤاده أمْنًا، ويكون عليه حِصْنا، سارع إلى امتثال المَراسِم، وجرى فى الطاعة على سَنَنه المُتقادِم، ولا يستمرّ على المُدافعة والمطاوله، ويقتصر على المُغايَظة والمماطله .

ثم يقال بعد هذا : وقد قَدَّم أميرُ المؤمنين كتابَه هذا إليك نائبًا عنه فى استصْلاحك، وقائدًا يقودُك إلى طريق نَجاحك، قبل تجريد مَواضيه، وإلحاق مُسْتأنَفه فى الحرب بماضيه، وخُيولُه تُجاذِبُ الأعِنّة، وذَوابِلُه مُشْرَعَةُ الأسِنّه، ولم يَبْقَ إلا قَصْدُك فى عُقْر دارك التى بَوَّأكها، وانتزاعُ نعمته التى أعْطاكها، لتذوقَ مَرارةَ المخالفه، وتَزِنَها بحلاوة الموافقه، فكُنْ على نفسك لنفسك حاكما، ولا تَكُنْ لها ظالما، ونحو ذلك مما يليق به .

وإن كانت المكاتبةُ إلى رجلٍ قد سَبَقَتْ له سابقةٌ بخَلْع الطاعة، ثم سأل الإقالةَ فأُقِيلَ بعد مُشارَفَة الإحاطة به والنِّكاية فيه، ثم راجع العصيان، فالرسم أن تُفْتَتَح

بحمد الله جاعلِ العاقبةِ للمتقين، والعُدْوانِ على الظالمين، والعِزَّةِ لحِزْبِه، والذِّلَّةِ لحَرْبِه، والإظهارِ لأهلِ طاعته، والخَسارِ لأهل معصيته، ودائرةِ السَّوءِ على الخالعين طاعةَ خُلفائه، القائمين بحُجَّته . ثم يقال : أمير المؤمنين على مايراك تَخوَّلَه به مِنْ تصديق آماله، وتوفيق أفعاله، وتسديد مَراميه، وهداية مساعيه، وإجابةِ دَعْوَته، وتحقيق رَغْبته، بإدالة مُواليه، وإذالة مُعاديه، ومَعُونته على ماولَّاه، وتمكينه ممن ناواه، ويسأله الصلاةَ على سيدنا محمد نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

ثم يؤتى بمقدمة تدل على جميل عاقبة الطاعه، وذَمِيمِ مَغَبَّةِ المعصيه، يبسط القول عليها، ويتوسع فيها، لتكون فِراشا لما يتلوها . ثم يقال بعدها : وإنما يَحمِلُ ذلك أهلَ الغَرارَةِ الذين لم يَلُوكوا شكائم التَّجارِب، ولم يُمارِسُوا ضرائم النوائب؛ وأنت فقد تَذوَّقْتَ من كراهة المعصية ومرارتها، وعُذُوبَةِ الطاعة وحلاوتها، ما يرجو أميرُ المؤمنين أن يكونَ قد وَعظَك وأدَّبك، وقوَّمك وهذَّبك، وكشف لك عن عاقبتهما، وعرَّفك بغايتهما، فدعَتْك الطاعةُ إليها بما أسْبَغَتْه عليك من لِباس شَرفها ومجْدِها، واستخْدَمَتْه لك من أنصار إقبالها وسَعْدِها، ونَهَتْكَ المعصيةُ عنها بما أبْلَوْتَه من نوائبها وصنائعها، وجَرَّبْتَه من مرمض مراميها ومواقعها، لأنها أقلَّتْ عَدَدَك، ومزَّقتْ مُطْرَفَك ومُتْلَدك، حتى تداركَك من عَطْفِ أمير المؤمنين ما أنبتَك بعد الحَصْد، وراشَك بعد الحَصّ، وانتهى إلى أمير المؤمنين أنك حَنَيْتَ إلى أتباع الضلالة الذين غَرُّوك، وملْتَ إلى أشياع الفِتْنة الذين استهْوَوك، فأصغيْتَ إلى أقوالهم التى ظاهرها نُصْحٌ وباطنها غِشّ، وآرائهم التى مواردها صَلاحٌ ومصادرها فساد، وملْتَ إلى معاودة الشِّقاق والارتكاس فى العِصْيان، ومُقابَلَة النُّعمى بالكُفْران، فقدَّمَ كتابَه إليك مُذَكِّرا، ومَنحك خطابه مُعْذِرا مُنْذِرا، ليُعرِّفك حظَّك، ويَهْديك رُشْدَك، [ويَدُلَّك] على الأحسن لك فى مَبْدَئك وعاقبتك، ويُحذِّرك من مراجعة

ماقارفته ، وأن تَنْزِلَ عن المنزلة التى رَقَّاك إليها ، وتُجْدِبَ رِباعَك من النعمة التى أرتعك فيها ، وتَخَلّى عن مرابع الدَّعةِ التى أَوْردك عليها ؛ فانظر لنفسك حَسَنا ، وكُنْ إليها مُحْسِنا ، وآنتفعْ بمراشد أمير المؤمنين ، ولا تُفْسِدَنَّ بخلافك عن أمره نَصِيبَك من الدُّنيا والدِّين ؛ فارجِعْ إليه مسترغِماً فإنه يَقْتَدى بالله فى الرحمة للمحسنين ، مادام مُؤْثِراً لِرَبِّ النعمة لديك ، وإقْرارِها عليك . فاعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالىٰ .

قال : وإن كانت المكاتبة إلىٰ رَعِيَّة قد خرجت عن الطاعة كُتِبَ إليها بما مثاله :

أما بعد ، وَفَّقَكُم الله لطَاعَتِه ، وعَصَمَكم من معصيته ؛ فإنَّ الشيطانَ يُدْلى الإنسان بغُرُوره ، ويقيم له الضلال فى صورة الهدىٰ ببُهْتَـانِه وزُوره ، مُسْتَخِفّاً لطَائِشِى الألباب ، ومُسْتَزِلًّا للأقدام عن مَوْقِفِ الصواب ، مُحَسِّناً بكيده لآعتقاد الأباطيل ، مُزَيِّناً بغَيِّه آتِّبَاعَ الأضاليل ، صارفا بمَكْره عن سواء السبيل ، مُصَوِّراً للحق فى صورة المَيْن ، مُغَطِّياً علىٰ القلوب بشِغَافِ الرَّيْن ، والحَـازِمُ اليَقِظُ من تحرَّزَ من أشراكه وحَبَائله ، وتحفَّظَ من مَخَايله وغوائله ، وآتَّهم هَوَاجِسَ فِكْره ، وآسْتَرَابَ بوساوس صَدْره ، وعرض مايَعْرِضُ له علىٰ عَقْله ، وكَرَّر فيه النظر مُتَحَرِّزاً من مَكْرِ الشيطان وخَتْله ؛ فإن أَلْفَاه عَادِلا عن الهوىٰ ، مائلا إلىٰ التقوىٰ ؛ بريئا من خُدَعِ الشيطان ، آمنا من عوادى الآفْتِتَان ؛ أمضاه وَاثِقًا بسلامة مَغَبَّتِه وعاقبته ، وشُمُولِ الأَمْنِ فى أُولَاهُ وأُخراه .

وآنتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين أن الشـيطان المَريد آسْتَخَفَّ أحلامَ جماعة من جُهَّالِكم ، وآسـتولىٰ علىٰ أفهام عِدَّة من أراذِلِكم ، وحَسَّن لهم شَقَّ عصا الإسلام ، ومَعْصِيةَ الإمام ، ومفارقةَ الجماعه ، والآنْسِلَاخ من الطاعه ؛ التى فرضها الله تعالىٰ علىٰ الجمهور ، وجعلها نظامَ الأمور ؛ فقال جَلَّ قائلا : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ وآختيارَ الفُرْقَة التى نهىٰ الله عنها . فقال :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ ومُجانَبـة الألفة التى عدّها فى جلائل نِعَمه ، فقال مُمْتنًّا بها على عباده : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ وسوّل لهم التّعرّى من آداب الدين ، والمُجاهَرَةَ بالخلاف على أمير المؤمنين ؛ فنبذُوا ما بأيديهم من بَيْعَته ، وسلِبوا من ظِلّ دَعوته ؛ وركِبُوا من ذلك أوْعَر المراكب ، وسلكوا أخْشَنَ المسارب ؛ وسَعَوْا فى البلاد بالفَسَاد ، وقاموا فى وَجْه الحقّ بالعِنَاد ، واسْتَخَفُّوا بحَمْل الآثام ، وبَسَطُوا أيديهم إلى الدّماء الحرام ، وشنُّوا الغَارَاتِ على أهل الإسلام .

وقد عَلِمْتم أن من أقْدَمَ على تأثير مثل هذه الآثار ، فقد استنزل فى هذه الدار سُخْطَ الجَبَّار ، وتبوّأ فى الآخرة مَقْعَدَه من النار ، وجَرى على غير الواجب فى إقامة الفروض والصّلوات ، وتأدِيَة العبادات والزّكوات ، وعَقْد العقود والمناكحات ؛ لأن هذه الأحوال إنّما تُرْضِى وتُرْفَع ، وتُجاب وتُسْمَع ، إذا تولّاها أمير المؤمنين ، أو مَنْ يَسْتَخْلِفُه من صُلَحاء المسلمين ؛ فأما إذا استبْدَدْتُم فيها بأنفسكم ، واقتديتم فى تأديتها بناكِبٍ عن سبيله ، مُجانِبٍ لدليله ؛ فقد تسكّعتم فى الضلاله ، وتطابقتم على الجهاله ؛ وكُلُّ راضٍ منكم بذلك ، عاصٍ لله ورسوله وللإمام .

ولمّا اطّلع أميرُ المؤمنين على ما ذهبتم إليه بسُوء الاختيار ، ورَكِبْتُمُوه من مراكب الاغْترار ، لم يرَ أن يُلْغيكم ويَهْجُرَكم ، ويُغْفلكم ولا يُبَصّرَكم ؛ فقدّم مكاتبتكم مُعْذِرًا مُنْذِرًا ، ومُخوِّفًا مُحذِّرًا ، وبدأكم بوعْظِه مُشْفِقًا عليكم من زَلّةِ القَدَم ، ومَوْقِف النّدَم ، وجاذِبًا لكم عن مَضَالّ الغَوَايه ، إلى مَراشد الهِدَايه ، وافتتحكم باللّفْظ الأحسن ، والقَوْلِ الألين ، وهداكم إلى السبيل الأوضح ، والمَتْجَر الأربح ؛ واختار أن يَهْدِيَكم الله تعالى إلى طريق الرشاد ، ويدُلّكم على مقاصد السّداد ، ويُعيدكم إلى الأولى ،

وَيَبْعَثكم على الطريقة المُثْلى ؛ وأن تعرِفُوا الحقّ فتعتصموا فى أيديكم من بيْعَتِه، وتقوموا بما فرض عليكم من طاعته ، وترْجِعوا إلى إجماع المسلمين ، وما ٱتفقت عليه كلمة إخوانكم فى الدِّين ، وتَتَّبِعوا مذاهبَ أهل السلامه ، وأُولى الٱستقامه ؛ فإن وقع ما ألقاه إليكم المَوْقِعَ الذى قـدَّره فيكم ، وسألتم الإقالَةَ ، فالتَّوْبة تنفعكم ، والعَفْوُ يَسَعكم ؛ وإن تمـاديتم فى غَيِّكم وباطِلِكم ، وغُرُورِكم وجَهْلِكم ، تقدّمت إليكم جيوش أمير المؤمنين مُقَوَّمَه ، ومن عُصَاتكم منتقمه ؛ وذلك مَقَامٌ لا يتميز فيه البَرىءُ من السقيم ، ولا الجاهل من العليم ؛ ألا تسمعون الله تعالى يقول : ﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾؟ وأىّ فِتْنة أشدُّ من طاعة الشيطان ، ومعصيةِ السلطان ، وشَقِّ العصا ، وإراقة الدِّما ، وإثارة الدهما ؟ فٱتّقوا الله وٱرجعوا ، وتأملوا وراجعوا ، وتبَصَّروا وٱستَبْصِروا ؛ وقد أوضح لكم أميرُ المؤمنين المَحَجَّه ، وبدأكم بالحُجَّه ، فأَوْجِدُوه السبيلَ إلى مايَنْوِيه لكم ولكافة أهل الإسلام : من حَقْنِ الدماء ، وصيانة الحَريم ، وتحصين الأموال ، وشمول الأَمنِ والأمان ؛ وأجيبوا عن كتابه هذا بمـا يُوَفِّقكم الله تعالى [إليه] : من إجابة دعائه والعَمَلِ برأيه ، إن شاء الله تعالى .

✤

وهذه نسخة ما كتب به عبدالحميد إلى بعض مَنْ خَرجَ عن الطاعة ، وهو :

أما بعد : بلغنى كتابك تذكر أنك تَحْمِلُ المُرْدَ على الجُرْد ، فستَرِدُ عليك جنودُ الله المقرّبون ، وأولياؤه الغالبون ؛ ويَرِدُ عليك مع ذلك حِزْبُه المنصور من الكهول ، على الفحول ، كأنَّها الوُعُول ، تخوض الوُحُول ، طِوَالُ السِّبال ، تختضب بالجِرْيال ، رجال هم الرجال ؛ بين رامح وناشب ، ليس معهم إلا كَاِبٌ محارب ، ولا ينكُلُون عن الأصحاب . قد ضَرُوا بضَرْب الهَام ، وٱعتادُوا الكَرّ والإقدام ، ليسوا بذوى هِينَة ولا إحجام ؛ يَقْضُون بالسيوف ، ويخالطون الزُّحُوف ، فى أعناقهم الحُتُوف ؛ يَزْأَرُونَ زئيرَ الأسود ،

ويَلْبَسُون ثُوب الفُهُود، ليس فيهم إلا شاكٍ مُحْتَبِكٌ، فى الحَرْب مُجَرَّب، قد شرِب على ناجِذِ الحرب وأكل، ذو شِقْشِقةٍ وكَلْكَل، كأنّما أُشْرِبَ وجْهُه نَقيعَ الحنّاء، قد ربِمَ الحربَ ورَضَعها، وغذَّته وألِفَها، فهى أمُّه وهو ابنها، يَسْكُن إليها ويأنَس بقُربها، فهو بطلبها أَرِب، وعلى أهلها حَرِب، لايروعه مايروع، ولا يَزيغه مايزيغ الغُمْر الجَبَان، حين يَشْتَدُّ الوغى، وتخطر القَنَا، وتَقَلَّص الشِّفاه، وتُسْفِر الكُماه، فعند ذلك تُسْلِمك المُرْد، وتُكْشَف عن الجُرْد .فتأهبْ لذلك أُهْبَتَك، واخْطُب له خِطْبَتَك، من المساكين والحَوكة، ثم كِيدُونِى جميعًا فلا تُنْظِرُون، فما أسرنا إكْثَارُك الجموع، وحَشْدُك الخيول، فإنك لا تَكْثَف جمْعا، ولا تُسَرِّب خَيْلا، إلا وثِقْنا بأن سيَمُدُّنا الله من ملائكته، ويزيدنا من نَصْره، بما قد جَرَتْ به سُنَّتُه، وسلفت به عادته، ونحن نجرى من ذلك على نَقِمات من الله ونَكال وسَطَوات مُهْلِكة، فرأيتم ذلك فى المنازل، وعرفتموه فى المواطن التى يجمعها الحق والباطل، فأبْشِرْمنا بما ساءك صُبْحا، ومَسَّاك تُقادُ كما يُقادُ الجَمَل المخشوش .

✣ ✣ ✣

ومن أحسن الكُتُب المكتتبة فى هذا الباب ما كُتب به قِوَام الدِّين (يحيى بن زيادة) وزير أمير المؤمنين الناصر لدين الله الخليفة ببَغْدادَ إلى (طغرل) مُقْطَع البَصْرة بأمر الخليفة له فى ذلك، وقد بلغه أنه نَزَح عنها، قاصدًا بعض الأطراف، مفارقا لطاعة الخليفة، عند ما طُلِبَ من ديوانه شىءٌ من المال، فأوجب ذلك انْثناءه عن عَزْمه وتوجُّهه إلى بَغْدادَ داخلا تحت الطاعة، ومُقَابلته بالصَّفْح وتَلَقِّيه بالقَبول . وهذه نسخته :

أصدرْتُ هذه الخدمة إلى الجناب الكريم، الأميرىّ، الاسْفَهْسَلارىّ، الأجلىّ، الكَبِيرىّ، السَّيِّدىّ، العِمادىّ، الرُّكْنِىّ، الظَّهِيرىّ، المُحْتَرَمىّ، العزّىّ، الجَمالىّ، أميرِ الجُيُوش، أطال الله بقاءه، وأدام عُلُوَّه ونِعْمَته، وأنا أوقع الأقوال المتواتره،

والأموال المتناصره، مُسْتَغرِبًا لها، مُتَعَجِّبًا منها، كأنى أسمعها فى المنام، وتخاطبنى بها أَضْغَاثُ أحلام؛ فلولا أن الأيام صَحَائِفُ العجائب، ولا يأنس بمُتَجَدِّدَاتِها إلا مَن حَنَّكَتْه التَّجَارِب؛ لم أُصدِّق هـذه الحركةَ المباركةَ التى وقعت منه بسعادته؛ فإنى ما أراها إلا عَثْرَةً من جَوَاد، وعورة علىٰ كماله؛ وإلا فمِنْ أَيْنَ يدخل الزَّلَلُ علىٰ ذلك الرَّأْيِ السديد، والعقل الراجح، والفكر الصائب؟ الذى يَعْلَمُ الآرَاءَ كَيْفَ تُثِير، ويُعْرَفُ النجومَ كَيْفَ تَسِير، ويهدى غيره فى المُشْكِلات إلىٰ صواب التدبير. والفائتُ لا كَلَامَ فيه، غير أن العَقْلَ يقضِى باستدراكِ المُمْكِن وتَلَافِيه؛ بالانحراف عن الهوىٰ إلى الرَّأْي الصادق، والرُّجوع عن تأويل النفس إلىٰ مراجعة الفِكْر الناصِح؛ فالعَوْدُ إلىٰ الحق أولىٰ من التَّمادى علىٰ الباطل، وأُحِبُّ أن تسمعَ ما أقولُ بأُذُنٍ واعية وقَلْبٍ حاضر؛ وحُوشِيَ أن تَسْتَدفِعَهُ الكواذبُ عن تَدَبُّرِ الحقائق، وعِرْفانِ النصائح؛ فإن من القول ما بُرْهانُه لا يحتاج إلىٰ شاهد من غيره .

قبل كُلِّ شَيْءٍ: ما الَّذى أحوجَ إلىٰ هذه الحال القبيحة السُّمْعَه، ورُكوبِ الخَطَر فى هذه الحَرَكه؛ واحتمال هذه المَشَاقّ، والانزعاج من غير أن تَدْعُوَ إليـه حاجة؟ هَلْ هو إلا شيءٌ جَرَت العادة بمثله، وبمطالبة ديوانه بمـا كان يَنْدَفِع الأمر ببعضه؟ كما جَرَتْ عادةُ الدواوين، وخَدَمُ السلاطين؛ ثم إنَّه عَمَد ـ أدام الله نِعْمَتَه ـ بأول خاطره، وبادئ رأيه فى هذه العَجَلة، من غير تثبت ولا رَوِيَّة. لِمَ لَا راجعَ فِكْرَه الكريمَ، ويقول لنفسه : إلىٰ أين أمضِى؟ ولمن أَخْدُم؟ وعلىٰ أىِّ باب أَقِف؟ وتحتَ أىِّ لِوَاءٍ أَسِير؟ وبأىِّ غُبارٍ أَكْتَحِل؟ وفَضْلَ مَنْ أطلُب؟ وعلىٰ حُكْمِ مَنْ أنزِل؟ بعـد أن رُبِّيتُ فى عَرْصَـةِ الخـلافة، ودار النبوّة، وحِضْـنِ المملكة؛ أنْشَأَنِى نعيمُها صغيرا، وقَدَّمَنِى كبيرا، وكُنْتُ مأمورا فجعلنى أميرا، وطار صيتِى فى الدنيا ولم أكن شيئا مذكورا؛ فأنا خَيْرٌ من مَلِكٍ أقصده، وأمثَلُ من كُلِّ

مَنْ أرجوه وأستنجدُه، أَفَأَنْزِلُ من السَّماء إلىٰ الحَضِيض، وأَهْدِمُ ما بَنَىٰ الإنعامُ عندى فى الزمن الطويل العريض؟! هذا هو المكروه الأعظم، الذى تعوَّذَ منه رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلم، حين قال: "اللَّهُمَّ إنِّى أَعُوذُ بِكَ من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ" ومن يكون حَضِينَ خلافة كيف يرضىٰ أن يكون تَابِعَ إمارة؟ ولو لم يكن ماهجم عليه إلا هـذا لكَفَىٰ. ثم لِمَ لايَلْتَفِتُ فى هذه الحال التى هو عليها، التى صَحِبَتْه بوفائها، ويَسْمَع خطابها بلسان حالها ثَمَّ؟ تقول له: ياعماد الدين! أمَا هـذه خِيَامُ الإنْعَامِ عليك؟ أمَا هذه الخَيْلُ المُسَوَّمَةُ تحتَك؟ أمَا هـذه ملابسه الفاخرة مُفَاضَةٌ عليك؟ أمَا هذه مماليكه حَافَّةٌ بك؟ أليس الاصطنَاعُ رَفَع قدرَك إلىٰ المنزلة التى تَقُل عليك بعضُ الانحطاط عنها، ووهبَ لك الهمةَ التى أبَيْتَ الضَّيْمَ بها؟ فَخُوشِيتَ أن تكون مِمَّنْ تواترتْ عليه النعم فَمَلَّهَـا، وتكاثَرتْ عليه فضَعُفَ عن حملها؛ فياليت شعرى! ماذا يكون جوابها؟ والله إنى أقول له بسعادته ولا أُعَقِّبُ: ولو أنه قد تَحَقَّق ـ والعِيَاذُ بالله ـ وقوعَ كُلِّ محذور، وحُلُولَ كُلِّ مكروه، لم يكن فى هـذه الحركة معـذورا، فكيف بظَنٍّ مُرَجَّم، وقولِ مُسَوِّفٍ مُتَوَهِّم، ورَأْيٍ فَطِيرٍ غيرِ مُخْتَمِر. ولقد كان استسلامُه لمالك الرِّقِّ ـ صلوات الله عليه وسلامُه ـ أَحْسَنَ فى الدنيا وأَحْمَدَ فى العُقْبىٰ، واقعا ذلك من أحواله حيثُ وقع. والآن فالوقت ضَاقَ فى إصْدَار هذه المُكَاتبه، عن استِقْصَاء العِتَاب والمُحَاققه، وإيراد كُلِّ ماتلزم به الحُجَّة، لكِنِّى أقول علىٰ سبيل الجملة:

إننى أخاف علىٰ سديد ذلك الرَّأْىِ إجابَةَ داعى الهوىٰ، فإنَّ اللَّجَاجَ من أوسع مَدَاخل الشَّيْطان علىٰ الإنسان، وحُوشِىَ كمالُهُ من هذا القِسْم.

والثانى استِشْعَارُه بسعادته من بَادرَتِه، واستيحَاشُه من عَجَلته، وهذا أيضا من أدَقِّ مكَايِدِ النَّفْس الأمَّارَة بالسُّوء، فإنها تُؤَمِّنُ من المَخُوف، وتُخَوِّفُ من المأْمُون،

وتَسْحَرُ العَقْل بالتحيُّرِ والشَّـك ، فلا تَصِحُّ له عَزِيمه ، ولا تَصْفُو له فِكْرَه ، وهـذا النَّوْعُ إذا عَرَضَ فى الصَّدْر يجب دفعه بالنَّظَر إلىٰ الحَقّ وشجاعةِ القلب ، والإخلادِ إلىٰ مُناظَرة النَّفْس ؛ فإنّ الإنسان ليس بمعصوم ، والزَّلَلُ فى الرَّأْى ليس من أوصاف الجَمَاد ، بل من الأوصاف اللَّازِمَة للبَشَرِيَّة ؛ وليس الكمال لأحد إلا للواحدِ الصَّمَد . فإذا عَرَض له بسَعادَته هذا الاستشعار ، فيدفعه عن نَفْسه ؛ فليس سُلْطَان الوَسْوَاس الخَنَّاس ، إلا فى صدور النَّاسِ ؛ فلهـذا لاينبغى لِمُذْنِبٍ أن يَقْنَطَ ، ولا لِمُسِىءٍ أن يَسْتَوْحِشَ ، لاسِيَّما إذا أتبعَ الذَّنْبَ بالاستقالة والاستغفار ، والاعتذار والإقلاع ؛ وعلىٰ الخصوص إذا كانت الخيانة عنـد من لا يَتَعاظَمُه عَفْوُها ، ولا يَضِيقُ حِلْمُه عنها ؛ فإن كُلَّ كبـيرة تُوجِبُ المخافه ، تَغْرَقُ فى بَحْرِ عَفْوِ الخلافه ؛ فيجب أن يُقَرِّر بسعادته ذلك فى نفسـه ، ويُخْرِجَ سوءَ الظَّنِّ والاستشْعَارَ من خَيَاله ؛ فإن مثله من خُلْصَانِ المماليك لايُسْمَحُ به ، ولا يُشْغَبُ عليه عند هَفْوَةٍ بادرَة .

والثالث الانقباض والحياء . فانه رُبَّمَا يقول فى نفسه : بأىِّ وَجْهٍ ألقىٰ مولاى؟ وبأىِّ عَيْنٍ أُبصر مواطن الدَّارِ العزيزة؟ رَبَّانِى وأنشانى ! . وهذا أيضا لايَصْلُحُ خُطُوره ببَالِه فى هذا المقام ، فإنَّه من ضَعْفِ النَّحِيزَة ، والمَيْلِ مع خَوَادِعِ الطَّبْع ، عن نصائح العَقْل والشَّرْع ؛ فإن الحَيَاء إتباعُ زَلَّة القَدَم بالنَّدَم والاعتذار ، لا التَّهَوُّكُ(١) فى اللَّجَاج والإصرار . فقد قال بعض الملوك لخصيصٍ من خَوَاصِّه ، عصاه فى شَىْءٍ من أمره : «بأىِّ عينٍ تلقَانِى وقد عصيتَ أمرى ؟» فقال : «بالعينِ التى ألقىٰ بها رَبِّى فى الصَّلوات الخَمْسِ ، وهو سبحانه يرانى علىٰ فَوَاضِحِ المعاصِى» . وقد أثنىٰ الله سبحانه علىٰ من أذْنَبَ ثم تَاب ، وشَرَدَ عن طاعتـه ثم أنَاب . وبحمـد الله تعـالىٰ ما جرىٰ ما يقتضى فَرْطَ الاستشعار . هل هو إلا عَبْدٌ خاف بادِرَة مَوْلاه ، فتنحَّى من مكانه إلىٰ أن يَعْطِفَ

(١) فى الأصل "بل" ولا معنىٰ لهـا .

عليه برَحْمَتِه؟ وليس هذا ببديع، ولا من الصَّفْح ببَعِيد. علىٰ أنه بسعادته لو أنْصَف من نفسه لَمَا آسْتَشْعَر. فكم أخرجت الخزائنُ الشريفة عليه من الأموال حتّىٰ نَبَت عِرْقُه، وأورق غُصْنُه، وكَبُر شأنُه، وجميع ضمانِ البَصْرة عُشْر معشار ذلك.

والرابع إصْغَاؤه — والعياذ بالله — إلىٰ قَوْلِ مَنْ لاينصَحُه، ويُغْوِيه ولا يُرْشِـدُه، ويتقرَّب إليه بمتابعةِ هواه. وهذا مالايخفىٰ عن لَمْحَةِ النَّاقِث، ولا يحتاج فى الإعراض عنه إلىٰ باعث، فقديما قيل: «صَدِيقُكَ مَنْ نَهاكَ، وعَدُوُّكَ مَنْ أغْراكَ» والله تعالىٰ يوفِّقه لتحقيقه النَّظَر فى هـذه الأقسام الأربعة، التى أحْذَرُها عليه، وأُحَذِّره منها، ويُيَسِّره لليسرىٰ.

وبعـد ذلك فأنا أُنْصِفُه من نفسى، وأقول الحقّ: إن نَفْسًا رَبَّاهَا خليفةُ الله فى أرضه — صلوات الله عليه وسلامه — بإنعامه، وأعلىٰ هِمَّتَها بآختصاصه، وشرَّفها بنَسَبِ عُبُودِيَّتِـه، لا تحتمل الهَوَان، ولا تَقِرُّ علىٰ الآبْتِذَال، فغالبُ ظَنِّى أنَّ نُفُورَه بسعادته إنما هو من ديوان الزِّمَامِ المعمور. والآن فأنا وهو بسعادته عَبْدَانِ، ولٰكِنِّى أنْفَرِدُ عنه بالسِّنِ والتَّجْرِيب، وطريقتى هو بسعادته يعرفها، وإنى لاأدَّخِر عن أحد نُصْحا. فالصواب أن يَقْبَل قَوْلِى، ويتحقق صِحَّة مَقْصَدِى فى نصيحته ومَقْصَدِه، فإنى أُوجِبُ ذلك له علىٰ نفسى، وأَرَاهُ من واجبات خِدَمِ مالك الرِّق — صلوات الله عليه وسلامه — أيضا.

وقد علم الله تعالىٰ أنى قد أوضَحْتُ من عُذْره، وأحْسَنْتُ المَناب عنه بسعادته، مالو حَضَره وتَوَلَّاه بنفسه لَمَا زاد عليـه؛ ورأيتُ الإنْعَامَ يسـتغنِى عن كُلّ شرط ولا يحتاج إليـه، وتقرّرت قاعدتُه بسعادته أن لا يكونَ له مع ديوان الزِّمَام المعمور حديث، ولا مع غيره ممَّنْ لا يَعْرف حَقَّه، ولا يُوَفِّيه من الآحترام وَاجِبَه؛ فإن أمر

أن أتولّى وَساطَتَه فأنا أعتمد ذلك فى مَرَاضيه، وتَمْشِيَة أمره أكثر مما فى نفسه . وإن آختار بسعادته أن يَكُونَ غيرى وَسِيطَهُ وسفيره ، فيُعَين مَنْ يختاره : ليكونَ حديثُه معه . وقد أسْلَفْتُ من وظائف إحسان المَنَابِ أنى تَنَجَّزْتُ له بسعادته أمانًا مُتَوَّجًا بالقَلَم الأشرف المقدّس ، على نفسه الكريمة ومَالِه وأوْلادِه ـ والأمان المذكور طَىَّ كتابى هذا ـ مَقْرُونًا بخاتم أمَانٍ ثان ، فيجب أن يكون هو بسعادته جوابَ ذلك . إذ لا يجوز أن يكونَ الجوابُ إلا هُوَ بنفسه الكريمة ؛ فلا يَشْعُر به أحَدٌ إلا وهو مُقَابِل التّاج الشريف ، مُلْقِيًا نفسه بين يَدَىْ مالكها الذى هو أرْحَمُ لها ، وألْطَفُ بها ، وأشْفَقُ عليها منها ، تاليًا ما حكاه القرءان المجيد عن يُونُسَ عليه السلام ، إذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ : ﴿ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فإنّه يرى ـ بمشيئة الله تعالىٰ وتوفيقه ـ كُلَّ مايُحِبُّ ، ويأمَنُ كُلَّ مايَحْذَر . وأنا أسْتَسْرِعُ وُصولَه عن آستعراض مُهِمَّاتِهِ ، ولرأيه كَرَمُه ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : فإن آتفقَتِ المكاتبة فى معنىٰ ذلك فى زماننا ، راعىٰ الكاتبُ فيه صُورةَ الحال ، وجَرىٰ فى ذلك علىٰ ما يلائم حاله ، ويناسب ما هو فيه ؛ مع النظر فى كلام مَنْ سَبَقَه إلىٰ شىء من ذلك ، والنَّسْج علىٰ مِنْوَالِ المُجِيد ، والآقتداء بالمُحْسِن فى إيراده وإصــداره .

الصِّـــنفُ السابع

(الكُتُب فى الفُتُوحات والظَّفَــر بأعداء الدَّولة وأعداء المِـلّة ، وآسترجاع المعاقل والحُصُون ، والآستيلاء علىٰ المُدُن)

وأصلها من فَتْح الأقفـال ودُخُول الأبواب . كأنَّ المدينةَ أو الحِصْنَ كان مُقْفَلًا مُمْتَنِعًا بالأغلاق علىٰ قاصـده حتّى يُفْتَح له فيدخل .

قال فى " موادّ البيان " : وهو من أعظم المكاتبات خَطرا، وأجلّها قَدْرا؛ لاشتمال أغراضها علىٰ إنجاز وَعْد الله تعالىٰ الذى وعَدَ به أهْلَ الطاعة فى إظهار دينهم علىٰ كل دين، وتوفير حَظّهم من التأييد والتَّمْكين، وما يمرّ فيها من الأساليب المختلفة التى يشتمل هذا القانون عليها .

قال : والكاتبُ يحتاج إلىٰ تصريف فِكْره فيها، وتَهْذيب معانيها : لأنها تُتْلىٰ من فوق المنابر علىٰ أسماع السامعين، وتُجعَل نُصْبَ عيون المُتَصَفِّحين .

ثم قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله العَفُوّ الحليم، الغَفُور الرحيم، العليم الحكيم؛ ذى البُرْهان المُبين والفضل الجسيم، والقوة المَتين والعقاب الأليم؛ مُبيد الظالمين، ومُبير القَاسِطين؛ ومؤيِّد العادلين، وجاعل العَاقِبة للمُتَّقين؛ المُملى إمهالا وإنْذارا، والمُعاقِب تنبيها وإذكارا؛ الذى لا يُنْجِى منه مَهْرَبٌ، ولا يبعد عليه مَطْلَب؛ وكَيْفَ يُعْتَصم منه وهو أقرب من حَبْل الوَرِيد، وله علىٰ كُل لافِظٍ رقيبٌ وعَتِيد ؟ . والصلاة علىٰ رسوله الأمين، الذى خَتَم به النَّبِيِّين، وفَضّله علىٰ المرسلين، وأيده بأوليائه التَّابعين؛ الذين قاموا فى نُصْرَتِه، وإعزاز رَايَتِه؛ المَقَامَ الذى فَازوا فيه بالخَصْل، فاستَوْلَوْا به علىٰ قَصَبات الفَضْل؛ فشركهم معه فى الوَصْف والثناء، فقال جَلَّ قائلًا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثم يُؤتىٰ بمُقَدِّمَة تشتمل علىٰ التَّحدُّث بنِعْمَة الله فى شَحْذ العزائم لنُصْرَتِه، وتثبيت الأقدام فى لِقَاء عَدُوِّه ومجاهدته، وإنْجازه وَعْدَه فى الإعزاز والإظهار، والظَّفَر والإظْفَار، والاسْتِبْشار بمَوْقِع النِّعمة فى الفَتْح الجليل، والإشادَة بإبقاء هذا الأثَرِ الجَمِيل . ثم يفيض بما جرت العادة به فى مُقَارَبة العَدُوّ ومُدَانَاته، وبَثّ الطَّلَائِع لتنفيذ السَّرَايَا فى مَبَادى مُلاقاته، وما أفضىٰ إليه الأمر فى التَّقابل

والمُواثَبه ، والتَّواشُجِ فى المُطَاعنة والمُضارَبه ؛ وذِكْرِ مواقف الشُّجعان فى الكِفَاح والمُجاهَده ، والذَّبِّ والمُجالَده ، وثبوت الأقدام ، والجُودِ بالنُّفُوس ، واَشْتِدَاد الأيدى ، وقُوَّةِ الشَّكَائِم ، واَسْتِصْحَاب العَزائِم ، وتَفْخِيم أمْرِ العَدُو : بوصفه بكثرة الرِّجال والأجْنَاد ، والقُوَّة والاَستعداد : لأنَّ تَوَقُّعَ الظَّفَر بمَنْ هذه صِفَتُه أعظمُ خَطَرا ، وأوقع فى النفوس أثرًا .

ثم يذكر ماجَالَ بين الفريقين من قِرَاع ومِصَاع ، ومُضَارَبَة ودِفَاع ، ومُصَاوَلة ومناضله ، ومُناهَدَة ومُكَافَحه ، وحِمَايَةٍ ومُنَافَحه ، وثَبَات ومُصَافَفه ، ومُقَاوَمَة ومُوَاقفه ، ومُخَادَعَة ومطامعه ، وينعت المَوَاكب والكَتَائب ، والخيول والأسْلِحة ، والجَرْحَى والمُجدَّلين ، والأسرى والمُقتَّلين . واَستعمال التشبيهات الفَائقه ، والاَستعارات الرَّائِقه ، وإرْدَافِ المعَانِى فى الإبانة عن لَمَعَانِ أسِنَّةِ الذَّوابل ، وبَرِيقِ صَفَحَاتِ المَنَاصِل ، وإعمال المَقَاصِلِ فى القِمَم ، وظهور نجوم السُّيُوف من لَيْلِ الحرب فى دَيَاجى الظُّلَم ، وينعت الدماء المُنْبَعِثةِ من الجراح ، على متون الرِّماح والصِّفاح .

ويذكر ما أظهره الله تعالى : من تَكَامُلِ النَّصْر ودلائل الظَّفَر ، وما اَنجلت عنه الحرب : من قَتْلِ من قُتِل وأَسْرِ من أُسِر ، وهَزِيمة من هُزِم ؛ وما فاز به الرجال من الأسْلاَب والأموال ، والدَّوابِّ والرِّحَال ، وماجَرَتْ عليه الحالُ من اَنْفِلال العدو عند المقاتلة ، أو أَسْرِ العَدُوِّ إن أُسر ، أو اَعتصامه بمَعْقِلٍ لايُحَصِّنُه ، أو اَمتِنَاعه بحَيْثُ يحتاج إلى مُنَازلته باَستنزاله قَسْرًا ، أو حِيَازَةِ المعقل الذى كان بيَدِه ، وما اَعتمد فيه : من حُسْن السِّيره ، وتَخْفِيف الوَطْأة عن الرَّعِيَّة وحَسْم أسباب الفتنة ، أو رَغْبَتِه فى المُسَالمه ، وسُؤاله فى المُهَادَنه ، لخَوْف أظَلَّه ، وهَلَع اَحْتَلَّه ، وما تردّد من رسائل ، وتَقَرَّر من شروط وعُقُود ، وإنفاذِ الأمر فى ذلك كما أوجبه الحَزْم ، واَقتضاه صَوَابُ الرأى .

وإن كان السِّلْم قد وقع، والتَّنازُع قد ارتفع، ذكر اتّفاقَ الحِزْبَيْن(١)، واتّحادَ الكَلِمه، وشُمُولَ النعمه .

وإن كان لم يجبه إلى المهادنه، حَذَرًا من المَكْر والمخادعه، ذكر ما مَرّ فى ذلك من رَأْيٍ وتدبير، وتسديدٍ وتقرير .

وإن كان طلب المهادنة ليَجِدَ فُسْحَةَ المَهْل فيُكَثِّر عدده، ويُجِمّ عُدَدَه، وتَتِمّ حيلتُه؛ فاطَّلَعَ منه على ذلك، فبَادَرَهُ مُقَلِّلًا لكَيْده ومَكْره، مُذِيقًا له وبَالَ أمْرِه؛ شَرَحَ الحالَ على نَصِّها وما انتهى إليه آخرها .

قال : وقد يَقَع من هذه الأمور مالا يُحْتَسَبُ، وسبيلُ جميعه هذا السبيل .

ثم قال : ويُخْتَم الكتابُ بحمد الله القَاضِي لأوليائه بالإداله، ولأعدائه بالإذَالَه؛ الذى يستَدْرِج بحِلْمِه إمْهَالا، ولا يَلْوِى العادلُ عن حكمه إهْمَالا؛ والصلاةِ على رسوله صلّى الله عليه وسلم وعلى آله .

وقد تقدّم فى الكلام على مقدمة المكاتبات فى أوائل المقالة الرابعة من الكِتَاب، أن هذه الكُتُب مما يجب بَسْطُها والإطنابُ فيها؛ وأن ماوقع فى كِتَاب المُهَلَّب ابن أبى صُفْرَة، من كِتَابه إلى الحَجّاج فى فَتْح الأَزَارِقَة من الخوارج، على عِظَم الفَتْح وبُعْد صِيته، على سبيل الإيجاز والاختصار، حيث قال فيه :

أما بعد، فالحمد لله الذى لا تَنْقَطِعُ موادّ نِعَمِه عن خَلْقِه حتّى تنقطعَ منهم موادّ الشُّكْر . وإنا وعَدُوَّنا كُنَّا على حال يسرّنا منهم أكثر ممّا يَسُوءُنا، ويَسُوءُهم منّا أكثر مما يَسُرُّهم؛ ولم يزل الله جل ثناؤه يَزِيدُنا ويَنْقُصُهم، ويُعِزُّنا ويُذِلُّهم، ويُؤَيِّدُنا ويَخْذُلُهم، ويُمَحِّصنا ويَمْحَقُهم؛ حتّى بلغ الكتابُ أجلَه . ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ

(١) فى الاصل "اتساع الحربين" وهو غير مناسب .

ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فإنّما سَلَك فيه سبيلَ الإيجاز، لكونه من التابع إلى المتبوع ؛ إذ الحَجّاجُ كان هو القائمَ بأمْرِ العِرَاقِ وما وَالَاه لعَبْدِ المَلِكِ بن مَرْوان، على شدّة سَطْوَته، وما كان عليه من قوّة الشَّكِيمة وشِدّةِ البَأْس؛ مع كون الأدبِ فى مكاتبة المرءوسِ الرئيسَ الإتْيانَ بقليل اللفظ الدال على المَقْصَد؛ حتّى لا يكون فيه شَغْلٌ للرئيس بطول الكلام وبَسْط القول، على ما تقدّم بيانه فى موضعه .

وآعلم أن الكتابة فى فتوحات بلادِ الكُفْر ومَعَاقِلِهم والاستيلاءِ على بلاد البُغاةِ تَكَادُ أن تكون فى الكتابة على[(1)] نَسَقٍ واحد ؛ إلا أنَّ مَجال الكاتب فى فتوحات بلاد الكُفْر أوسع ،من حيثُ عِزّةُ الإسلام على الكفر، وظهورُ دينه على سائر الأديان .

وهذه نسخة كتاب بفتح فَتَحَه الخليفة وعاد منه ، وهى :

الحمد لله مُديلِ الحَقِّ ومُنيرِه ، ومُذِلِّ الباطل ومُبيرِه؛ مُؤيِّد الإسلام بباهر الإعْجاز، ومتمّ[(2)] وعْده فى الإظهار بوَشِيكِ الإنجاز؛ وأخْمَدَ كُلَّ دين وأعْلاه ، ورفض كُلَّ شرع وآجْتَباه؛ وجعله نُورَه اللّامع ، وظِلَّه الماتِع؛ وآبْتَعَثَ به السراجَ المُنِير، والبَشيرَ النَّذير؛ فأوضح مَنَاهِجَه ، وبَيَّنَ مَدَارِجَه ؛ وأنارَ أعلامه ، وفَصَّلَ أحكامَه؛ وسَنَّ حَلَالَه وحَرَامَه ، وبَيَّن خاصّه وعامّه؛ ودعا إلى الله بإذنه ، وحَضّ على التَّمَسُّك بعَصَمِ دينه ؛ وشَمَّر فى نَصْره مُجَاهدا مَنْ نَدَّ عن سبيله ، وعَنَدَ عن دَلِيله؛ حتّى قَصَدَ الأنْصابَ والأصنام، وأبطل المَيْسِرَ والأزلام؛ وكَشَفَ غَيَابَاتِ الإظلام، وآنْتَعَلَتْ خَيْلُ الله بقبائل[(3)] الهَام .

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

(٢) يؤيد ما ورد هنا التصحيحَ الذى أوردناه بهامش (١) من (ج ٦ ص ٤٤٠) من هـذا المطبوع فليراجع هناك .

(٣) يؤيد ما ورد هنا أيضا التصحيحَ الذى أوردناه بهامش (٢) من (ج ٦ ص ٤٤٠) .

يحمده أميرُ المؤمنين أنْ [جَعله مِن وُلاة أمرِه، ووَفّقَه لاتّباع سُنَّة رسوله واقتفاءِ أثَرِه،وأعانه علىٰ تمكين الدين،وتوهين المشركين، وشفاء صدور المؤمنين و] (١) أنهضه بالمُرَامَاةِ عن المِلَّة ، والمحاماة عن الحَوْزه، وإعزازِ أهْلِ الإيمان، وإذلالِ حِزْبِ الكُفْران ، ويسأله الصلاةَ علىٰ خِيرَتِه المُجْتبىٰ ، وصَفْوَته المنتَصَىٰ ، محمد أفضلِ من ذَبَّ وكافَح، وجاهد ونافَح، وحمىٰ الذِّمار، وغزَا الكُفَّار، صلّى الله عليه وعلىٰ أخيه وآبن عمه أمير المؤمنين عَلِيِّ بن أبي طالبٍ سَيْفِه القاطع ، ومِجَنِّه المُدَافِع ، وسَهْمِه الصَّارِد، ونَاصِرِه المُعَاضِد، فارسِ الوقائع ، ومُفَرِّقِ (٢) الجمائع ، مُبِيدِ الأقران ، ومُبَدِّد الشُّجْعَان، وعلىٰ الطَّهَرَةِ من عِتْرَتِه أئِمة الأزمان، وخالصة الله من الإنْس والجَان .

وإنَّ أوْلىٰ النِّعَم بأن يُرْفَلَ في لِبَاسِها ، ويُتَوَصَّلَ بالشُّكْرِ إلىٰ إينَاسِها (٣) ، ويُتَهَادىٰ طِيبُ خَبَرِها ، ويُتَفَاوَضَ بحسْنِ أثَرِها ، نِعْمَةُ الله تعالىٰ في التوفيق لمُجَاهَدة أهل الإلحَادِ والشِّرْك ، وغَزْوِ أُولِي البَاطِل والإفْك ، والهُجُومِ عليهم في عُقْرِ دارهم ، وآجْتِثَاث أصْلِهم والجِدِّ في دَمَارِهم، وآستنزالهم من مَعَاقِلهم، وتَشْريدِهم عن منازلهم، وتَغْمِيضِ نواظرهم الشُّوسِ [وإلْبَاسِهم لِبَاسَ البُوس] (٤) لما في ذلك من ظهور التوحيد وعِزِّه، وخُمُود الإلحاد وعَرِّه، وعُلُوّ ملة المسلمين ، وآنخفاض دَوْلَة المشركين، ووضوح [مَحَجَّة] (٤) الحَقِّ وحُجَّته، وصُدُوع بُرْهَانِه وآيته .

وكتاب أميرالمؤمنين هذا إليك وقد آنكفأ عن ديار الفلانيِّين المشركين إلىٰ دَسْتِ خِلَافته، ومَقَرِّ إمامته، بعد أنْ غَزَاهم بَرًّا وبَحْرا، وشَرَّدَهم سَهْلًا ووَعْرا، وجَرَّعَهم

(١) الزيادة عما تقدم (ج ٦ ص ٤٤٠) .

(٢) ورد بدل هذه الكلمة في (ج ٦ ص ٤٤١) "معبوس" وقد وضع بجانبها هناك علامة توقف لعدم ظهور معناها .

(٣) كذا هنا، والذي في (ج ٦ ص ٤٤١) "لباثها" .

(٤) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١) .

من عواقب كُفرهم مُرًّا ، وفرّق جمائعهم التى تُطَبِّق سهوب الفضاء [خيلا و رجلا ، وتضيق بها المَهَامه حزْنًا وسهلًا ، ومزّق كتائبهم التى تُلحِق الوِهَاد بالنِّجَاد ، وتختطفُ الأبصار ببوارق الأغماد] (١) وتجعل رعود سنابكها فى السماء ، وسبى الذَّرَارِىَّ والأطفال ، وأسر البَطَارِيق والأقيال ، وآفتتح المَعَاقل والأعمال ، وحاز الأسلاب والأموال ، وآستولى من الحُصُون على حصْن كذا وحصن كذا ، ومحا منها رُسُومَ الشِّرْك وعفّاها ، وأثبت سُنَن التوحيد بها وأمضاها ، وغَنِمَ أولياءُ أمير المؤمنين ، ومُتَطَوِّعَةُ المسلمين [من الغنائم] (١) ما أقرّ العيون ، وحقّق الظُّنُون ، وآنفصلوا وقد زادت بصائرهم نَفَاذًا فى الدِّين ، وسرائرُهم إخلاصًا فى طاعة أمير المؤمنين ، بما أولاهم الله من النَّصْر والإظْفَار ، والإعزاز والإظهار ؛ ووضَحَ للمشركين بما أنزل الله عليهم من الخِذْلان ، وأنالهم إيّاه من الهوان ، أنهم على مَضَلّةٍ من الغىّ والعمى ، ومَنْحَاة (٢) من الرُّشْد والهُدى ؛ فضَرَعُوا إلى أمير المؤمنين فى السِّلْم والموادعه ، وتحمّلوا بَذْلًا بذلوه [تفاديا] (٣) من الكِفَاح والمقارعه ؛ فأجابهم إلى ذلك مُتَوَكِّلًا على الله تعالى ، وآمتثالًا لقوله إذ يقول : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ وعاقد طاغيتهم على كتاب هُدْنَةٍ كتبه له ، وأقره فى يده ، حُجّةً بمضمونه .

أشعرك أمير المؤمنين ذلك : لتأخُذَ من هذه النِّعْمَة بنصيب مثلك من المُخْلِصين ، وتعرف مَوْقِع ما تفضّل الله تعالى به على الإسلام والمسلمين ؛ فيحسن ظَنُّك ، وتقرّ عينُك ، وتشكر الله تعالى شُكْرَ المُسْتَمِدّ من فضله ، المُعْتَدّ بطَوْله ، وتتلو كتاب

(١) الزيادة عما تقدم فى (ج ٦ ص ٤٤١) .

(٢) فى (ج ٦ ص ٤٤٢) من هذا المطبوع "وبُعد" .

(٣) الزيادة عما تقدم فى (ج ٦ ص ٤٤٢) .

أمير المؤمنين، علىٰ كَافَّة مَنْ قِبلَك من المسلمين : ليعلموا ما تولاهم الله به من نَصْرِه وتمكينه ، و إذْلالِ عَدُوّهم وتَوْهِينه ؛ فٱعلم ذلك وٱعمل به، إن شاء الله تعالىٰ .

ثم الفتوح إما فتح لبعض بلاد الكُفْر ، وإما فتح لِمَا استولىٰ عليه البُغَاةُ من المسلمين .

فأما فَتْح بلاد الكُفَّار فكان سبيلهم فيه أن يُصَدِّرَ الكتّاب بحمد الله تعالىٰ علىٰ عُلُوّ دين الإسلام ورِفْعَته، و إظهاره علىٰ كل دين؛ ثم علىٰ بَعْث النبيّ صلّى الله عليه وسلم بالهِدَايَة إلىٰ الدِّين القويم ، والصِّراطِ المُسْتقيم ؛ ويذكُرَ ما كان من أمره صلّى الله عليه وسلم من جِهَاد الكُفَّار . ثم علىٰ إقامة الخُلَفَاء فى الأرض حِفْظًا للرَّعيَّـه ، وحِيَاطة للبرِيّة ، وصَوْنا للبَيْضَه ؛ ويخصّ خليفة زَمانه من ذلك بما فيه تفضيلُه ورفعةُ شأنه؛ ثم يؤخذ فى تعظيم شأن العدو وتهويل أمره، وكثرة عَدَدِه، ووُفُور مَدَده؛ ثم فى وصف جيوش المسلمين بالقوّة والٱستعداد، والٱشْتِدَاد فى الله تعالىٰ، والقِيَام فى نُصْرة دينه؛ ثم تذكر المَلْحَمَة وما كان من الوَقِيعَة وٱلْتِحَام القِتَال ، وما ٱنْجَلَتْ عنـه المَلْحَمَةُ من النُّصْرَة علىٰ عَدُوّ الدين وخِذْلانه، والإمكان منه، وقَتْل من قُتِل منهم ، وأسر من أُسِر ، وتفريق شَمْلِهم ، وٱنتظام كلمة الإسلام ، وطَمَاعِيَتِهم بهَلَاكِ عَدُوّهم ، وما فى معنىٰ ذلك .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به إلىٰ الدِّيوان العزيز، أيام النـاصر لدين الله، عن السـلطان صَلَاح الدِّين يُوسُف بن أيُّوبَ، بفتح القُدُس الشريف ، و إنْقاذه من يدِ الكُفْر، فى آخر شعبان سـنة ثلاث وثمـانين وخمسمائة، من إنشاء القَاضِى الفَاضِل ، وهو :

أدام الله أيام الدّيوان العزيز النّبوىّ الناصرىّ، ولا زال مظفَّر الجدّ بكُلّ جاحد، غَنِىّ التّوفيق عن رَأْى كُلّ رائد (١)، موقوفَ المساعى على اقْتناء مُطْلَقات المحامد، مُسْتَيقظَ النّصر والسيفُ فى جَفْنه رَاقد، وَارِدَ الجُود والسَّحابُ على الأرض غيرُ وَارِد، متعدّدَ مساعى الفَضْل و إن كان لا يُلْقَى إلا بشُكْرٍ واحد، مَاضِىَ [حُكْم القَوْل] (٢) بعزم لايمضى إلا بنَسْل غَوِىّ ورَيْش رَاشد، ولا زالت غيوث فضله [إلى الأولياء] (٢) أنْواءً إلى المَرَابع وأنوارًا إلى المساجد، وبُعُوثُ رُعْبِه إلى الأعداء خَيْلًا إلى المَرَاقِب وخَيالًا إلى المراقد .

كَتَبَ الخادمُ هذه الخِدْمَةَ تِلْوَ ماصدر عنه ممّا كان يجرى مجرى التباشير لصُبْح هـذه الخدمه، والعُنْوانِ لكِتَاب وَصْف هذه النعمه، فإنها بَحْرٌ للأقلام فيه سَبْحٌ طويل، ولُطْف تحمّل الشكر فيه عِبْءٌ ثقيل، وبُشْرَى للخواطر فى شَرْحها مآرب، ويُسْرى للأسرار فى إظهـارها مَسَارِب، ولله فى إعادة شكره رِضًا، وللنعمة الرّاهنة به دَوَامٌ لايُقَال معه: هذا مَضَى، وقد صارَتْ أمورُ الإسلام إلى أحْسَنِ مصايِرها، وٱسْتَتَبَّتْ عقـائدُ أهـله على أبْيَنِ بَصَائِرها، وتَقَلَّص ظِلُّ رَجاء الكافر المبسوط، وصَدَقَ اللهُ أهلَ دِينـه فلمّا وقع الشرطُ حَصَلَ المشروط، وكان الدّينُ غَريبًا فهو الآنَ فى وَطَنِه، والفَوْزُ مَعْروضًا فقد بُذِلَت الأنفسُ فى ثَمَنِه، وأَمَرَ أمْرُ الحَقّ وكان مُسْتَضْعَفًا، وأَهِلَ رَبْعُهُ وكان قد عِيفَ حين عَفَا، وجاء أمرُ الله وأنوفُ أهلِ الشّرْك رَاغِمَه، فأَدْلَجَتِ السيوفُ إلى الآجال وهى نَائِمَه، وصدَقَ وعدُ الله فى إظهار دينه

(١) كذا هنا وفيما تقـدم، والذى فى وفيات الأعيـان لابن خلكان (ج ٢ ص ٥٨٤) "غنيًا بالتوفيق" .

(٢) الزيادة عن رسائل القـاضى الفاضل الفتوغرافية المحفوظة بدار الكتب السـلطانية نمرة ٢٢٩٤ أدب .

علىٰ كُلِّ دين ، وآسْتطارَتْ له أنوارُ أبانَتْ أنَّ الصَّباح عندها حيَانُ الحين (١) ، وآستردَّ المسلمون تُراثًا كان عنهم آبِقا ، وظَفِروا بقظَة بِمَا لم يُصَدِّقوا أنهم يَظْفَرونَ به طَيْفًا علىٰ النَّأْيِ طارِقا ، وآستقرَّتْ علىٰ الأعلىٰ أقدامُهم ، وخفقَتْ علىٰ الأقصىٰ أعْلامهم ، وتلاقَتْ علىٰ الصَّخْرةِ قُبلُهُم ، وشُفِيَتْ بها وإن كانت صَخْرة [قُلُوبِهم] (٢) كما تُشفىٰ بالماء غُلَلُهم .

ولما قَدِم الدِّين عليها عَرَف منها سُوَيْداءَ قَلْبِه ، وهَنَّأ كُفْؤَها الحَجَرَ الأَسْوَدَ بِبَتِّ عِصْمَتِها من الكافر بِحَرْبه ؛ وكان الخادمُ لا يسعىٰ سَعْيَه إلا لهذه العُظْمىٰ ، ولا يقاسى تلك البُؤْسىٰ إلّا رجاءَ هذه النُّعْمىٰ ، ولا يُناجِزُ من يَسْتَمْطِلُه فى حَرْبه ، ولا يُعاتِب بأطراف القَنا مَنْ يَتَمادىٰ فى عَتْبِه ، إلا لتكونَ الكلمةُ مجموعه ، والدَّعْوة إلىٰ سامعها مرفوعه ، فتكون كلمةُ الله هى العُلْيا ، وليفوزَ بجوهرِ الآخرة لا بالعَرَضِ الأدنىٰ من الدُّنيا ، وكانت الألْسِنةُ رُبَّما سَلَقَتْه فأنْضج قُلُوبَها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ربَّما غَلَتْ عليه مَراجِلُها فأطْفأَها بالاحتمال والاصطبار ، ومَنْ طَلَبَ خَطيرًا خاطَرَ ، ومن رامَ صَفْقَة رابحةً تَجاسَر ، ومَنْ سَمَا لأَنْ يُجَلِّىَ غَمْرةً غامَر ، وإلّا فإنّ القُعُود يُلِينُ تحتَ نُيُوبِ الأعداء المعاجِمَ فتَعَضُّها ، ويُضْعِفُ بأيديها مَهزَ القوائم فتَقُضُّها ، هذا إلىٰ كَوْنِ القُعُود لا يَقْضِى فرضَ الله فى الجِهاد ، ولا يُرْعىٰ به حَقُّ الله فى العِبَاد ، ولا يُوفىٰ به واجبُ التقليد الذى تَطَوَّقه الخادمُ من أئمَّةٍ قَضَوْا بالحَقِّ وبه كانوا يَعْدِلُون ، وخُلَفاءُ الله كانوا فى مثل هذا اليوم لله يسألون ؛ لا جَرَمَ أنهم أورثوا سِرَّهم وسَرِيرَهم خَلَفَهُمُ الأطهر ، ونَجْلَهُم الأكبر ، وبَقِيَّتَهم الشريفه ، وطَلْعَتَهم المُنيفه ، وعُنْوانَ صحيفة فَضْلِهم لا عَدِم سَوادَ العَلَمِ وبَياضَ الصحيفه ؛ فما غابوا

(١) كذا فيما تقدم أيضا (ج ٦ ص ٤٩٧) وفى وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) "عند حسان الجبين".
(٢) الزيادة عن وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) .

لَمَّا حضر، ولا غَضُّوا لَمَّا نَظَر، بل وصَلَهُم الأَجْرُ لِمَا كان به موصولا، وشاطروه العَمَلَ لِمَا كان عنه منقولا ومِنْه مقبولا، وخَلَصَ إليهم إلى المضاجع ما اطْمَأَنَّتْ به جُنُوبُها، وإلى الصحائف ما عَبِقَتْ به جُيُوبُها، وفاز منها بذِكْرٍ لا يَزالُ اللَّيلُ به سميرا، والنهارُ به بصيرا، والشَّرْقُ يهتدى بأَنْوارِه، بل إن أبدىٰ نُوراً من ذَاتِه هتف به الغَرْبُ بأَنْ وَارِه، فإنَّه نُورٌ لا تُكِنُّه أَغْسَاق السُّدَف، وذِكْرٌ لا تُوَارِيه أَوْرَاقُ الصُّحُف .

وكتاب الخادم هذا، وقد أظفر اللهُ بالعَـدُوِّ الذى تَشَظَّتْ قَنَاتُه شَقَقا، وطارت فِرَقُه فَرَقا، وفُلَّ سَيفُه فصار عَصًا، وصُدِعَتْ حَصَاتُه وكان الأَكْثَرَ عَدَداً وحَصًا، وكَلَّتْ حَمَلَاتُه وكانت قدرة الله تُصَرِّفُ فيه العِيانَ بالعِنَان، عُقُوبَةً من الله ليس لصاحب يَدٍ بها يَدَان، وعثَرَتْ قَدَمُه وكانت الأرض لها حَلِيفَه، وغُضَّتْ عَيْنُه وكانت [عُيُونُ](١) السيوف دونها كَسِيفَه، ونام جَفْنُ سَيْفه وكانت يَقَظَتُه تُرِيقُ نُطَفَ الكَرَىٰ من الجُفُون، وجُدِعَتْ أُنُوفُ رِمَاحه وطالَمَا كانت شامِخَةً بالمُنَىٰ أو رَاعِفَة بالمَنُون، وأَضْحَتِ الأرض المقدّسة الطاهرةَ وكانت الطَّامِث، والرَّبُّ المعبودُ الواحدَ وكان عندهم الثالث، فبُيُوت الشِّرْكِ مهدومه [ونُيُوبُ الكُفْر مَهْتُومـه](٢) وطوائفه المُحَامِيَه، مُجْتَمِعَةٌ(٣) علىٰ تسليم البلاد الحاميه، وشُجْعَانُه المتوافيه، مُذْعِنَةٌ لبَذْل المطامع الوافيه، لا يَرَوْنَ فى مَاءِ الحديد لهم عُصْرَه، ولا فى فِنَاءِ الأفنية لهم نُصْرَه، وقد ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّة والمَسْكَنَه، وبَدَّل الله مكانَ السَّيِّئة الحَسَنَه، ونَقَل بَيْتَ عبادته من أيْدى أصحاب المَشْأَمَة إلىٰ أيدى أصحـاب المَيْمَنَه .

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان .

(٢) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل .

(٣) فى وفيات الأعيان "القلاع" .

وقد كان الخادم لَقِيَهُم اللَّقاةَ الأولىٰ فأمَدَّه الله بُمُدَارَكَتِه، وأنجده بملائكته، فكسرهم كَسْرَةً مابعدها جَبْر، وصرعهم صَرْعَةً لايَنْتَعِش بعدها بمشيئة الله كُفْر، وأَسَر منهم من أُسِرَت به السلاسل، وقَتَل منهم من فَتَكَتْ به المَنَاصِل، وأَجْلَتِ المَعْرَكَةُ عن صَرْعىٰ من الخَيْلِ والسِّلاح [والكُفَّار، وعن أنصاف محيل فإنَّه قَتَلَهُم بالسُّيوف الأفلاقِ والرِّماح الأَكْسار، فنِيلُوا بثأْرٍ من السِّلاح ونالوه أيضـا بثار] [(١)] فَكَمْ أَهِـلَّةَ سيوفٍ تَقَارَضَ الضِّرَابُ بهـا حتّىٰ صارت كالعَرَاجِين، وكم أَنْجُم أَسِـنَّةٍ [(٢)] تبادلت الطِّعَانَ حتّىٰ صارت كالمَطَاعِين، وكَمْ فارِسِيَّةٍ ركض عليهـا فارسُها الشَّهْمُ إلىٰ أَجَلٍ فَاخْتَلَسه، وفَغَرَتْ تلك القَوْسُ فَاهَا فإذا فُوهَا قد نَهَش القِرْنَ علىٰ بُعْدِ المسافة فافترسه، وكان اليَوْمُ مَشْهُودا، وكانت الملائكة شُهودا، وكان الكُفْر مفْقُودا والإسـلام مَوْلُودا، وجعل الله ضُلُوعَ الكُفَّار لنـارِ جَهَنَّمَ وُقُودا، وأُسِرَ المَلِكُ وبيـده أَوْثَقُ وثائِقِه، وآكَدُ وَصْلِه بالدِّين وعَلَائِقِه، وهو صَلِيبُ الصَّلَبُوت، وقائد أهل الجَبَرُوت، وما دُهِمُوا قطُّ بأمْرٍ إلَّا وقَامَ بين دَهْمَائِهم يَبْسُط لهم بَاعَه، ويُحَرِّضُهم وكان مدُّ اليَدَيْنِ فى هذه الدَّفْعَة وَدَاعَه، لاجَرَمَ أنَّهم يَتَهَافَتُ علىٰ ناره فَرَاشُهُم، ويَجْتَمِعُ فى ظِلِّ ظَلَامه خَشَاشُهم، ويُقاتلون تحت ذلك الصَّلِيبِ أَصْلَبَ قِتَالٍ وأَصْدَقَه، ويَرَوْنَه مِيثاقاً يَبْنُونَ عليه أشَدَّ عَقْدٍ وأَوْثَقَه، ويَعُدُّونَه سُورًا تَحْفِرُ حَوَافِرُ الخَيْلِ خَنْدَقَه .

وفى هذا اليوم أُسِرَتْ سَرَاتُهم، وذَهَبَتْ دُهَاتُهـم [ولم يُفْلِتْ منهم معروف إلا القَوْمَص، وكان لعنه الله مَلِيًّا يوم الظَّفَر بالقِتَال، ومَلِيًّا يَوْمَ الخِذْلَان] [(٣)] بالاحتِيَال، فنجا ولٰكِنْ كَيْف، وطار خَوْفاً من أن يَلْحَقَـه مِنْسَرُ الرُّمْحِ أو جَنَاح السَّـيْف،

(١) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل .

(٢) فى وفيات الأعيان وفى رسائل القاضى الفاضل الفتوغرافية "قنا" .

(٣) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ومن وفيات الأعيان .

ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، فكان لعدّتهم فذالك، وانتقل من ملك الموت إلى مالك .

وبعد الكسرة من الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغا، البيضاء صنعا، الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالبة هي [وعزائم أوليائها][1] المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها البشر، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر، فافتتح بلد كذا وكذا وهذه [كلها][1] أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلادا وهى مزارع وفدن، وكل هذه ذوات معاقل ومعاقر، وبحار وجزائر، وجوامع ومنائر، وجموع وعساكر، يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها، ويحصد منها كفرا ويزرع إيمانا، ويحط من منائر جوامعها صلبانا ويرفع أذانا، ويبدل المذابح منابر والكنائس مساجد، ويبوئ بعد أهل الصلبان أهل القرءان للذب عن دين الله مقاعد . ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور، وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النفخ فى الصور . ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله ما نعتهم، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم[2]؛ فلما نازلها الخادم رأى بلدا كبلاد، وجمعا كيوم التناد، وعزائم قد تألبت وتألفت على الموت فنزلت بعرصته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته، فزاول البلد من جانب فإذا أودية عميقه، ولجج وعرة غريقه، وسور قد انعطف عطف السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار، فعدل إلى جهة أخرى

(١) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) جواب لما الأولى مفهوم من المقام . أنظر ما كتبناه عند الكلام على هذه الرسالة فيما تقدم (ج ٦ ص ٥٠١) .

كان للطامع عليها مُعَرَّج، وللخَيْل فيها مُتَوَلَّج؛ فنزل عليها، وأحاط بها وقَرُب منها؛ وضَرَب خَيْمَتَه بحَيْثُ ينالُه السِّلاح بأطرافه، ويُزاحِمُه السُّور بأكتافه؛ وقابلها ثم قاتَلها، ونزلها ثم نازَلها، وبَرَز إليها ثم بارَزها، وحاجَزها ثم ناجَزها؛ فضَمَّها ضَمَّةً ٱرْتَقَب بعدها الفَتْح، وصَدَعَ أَهْلَها فإذا هُمْ لا يَصْبِرُون – على عُبُودِيَّة الحَدِّ – عن عِتْق الصَّفْح؛ فراسلوه ببَذْل قَطِيعَةٍ إلىٰ مُدَّه، وقصدوا نَظْرَةً من شِدَّةٍ وٱنتظارًا لِنَجْده؛ فعرَّفَهُم الخادمُ فى لَحْنِ القَوْل، وأجابهم بلسان الطَّوْل؛ وقدّم المَنْجَنِيقَات التى تتولّىٰ عُقُوبات الحُصُون عِصِيُّها وحِبالُها، وأَوْتَرَ لهم قِسِيًّا التى تَضْرِب فلا تُفارِقُها سِهامُها ولا يفارق سِهامَها نِصالُها؛ فصافَحَتِ السُّورَ بأكفافه فإذا سَهْمُها فى ثَنايا شُرُفاتِها سِواكٌ، وقدَّم النَّصْرُ نَسْرًا من المَنْجَنِيق يُخْلِدُ إخْلادَه إلى الأرض ويَعْلُو عُلُوَّه إلىٰ السِّماك؛ فشجَّ مرادِعَ أبراجها، وأسمع صَوْتُ عَجِيجِها [صُمَّ أعْلاجِها](١) ورفع مَنارَ عَجاجِها؛ فأخلىٰ السُّورَ من السَّيّاره، والحَرْبَ من النَّظّاره؛ فأمكن النَّقّابُ، أن يُسْفِر للحَرْب النِّقاب، وأن يعيد الحَجَر إلىٰ سِيرته [الأولىٰ](١) من التُّراب؛ فتقدّم إلىٰ الصَّخْر فمَضَغ سَرْدَه بأنياب مِعْوَلِه، وحَلَّ عَقْدَهُ بضَرْبِه الأَخْرَق الدّالّ علىٰ لَطافة أَنْمُلِه، وأسمع الصَّخْرة الشريفةَ حَنِينَه وٱستغاثته إلىٰ أن كادت تَرِقُّ لمُقَبِّلِه؛ وتَبَرَّأ بعضُ الحجارة من بَعْض، وأخذ الخَرابُ عليها مَوْثِقًا فلَنْ تَبْرَحَ الأَرْض؛ وفتح فى السُّور بابا سَدَّ من نَجاتِهم أبوابا، وأخذ ينقب فى حَجَره فقال عنده الكافر: ﴿يَالَيْتَنِى كُنْتُ تُرابا﴾ فحينئذ يَئِسَ الكفار من أصحاب الدُّور، كما يَئِسَ الكُفّارُ من أَصْحابِ القُبُور، وجاءَ أَمْرُ الله وغَرَّهُمْ بالله الغَرُورُ.

وفى الحال خرج طاغيةُ كُفْرِهم، وزِمامُ أَمْرِهم؛ ٱبن بارزان سائلا أن يُؤْخَذ البَلَد بالسَّلام لا بالعَنْوه، وبالأمان لا بالسَّطْوه؛ وألقىٰ بيده إلىٰ التَّهْلُكه، وعلاه ذُلّ

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان .

المَلَكَةِ بعد عِزِّ المملكه ، وطرح جَبِينَه فى التراب وكان جَبِينًا لا يَتَعَاطَاه طَارِح ، وبذل مَبْلَغًا من القطيعـة لا يَطْمَحُ إليـه طَرْفُ آمِلٍ طَامِح ، وقال : هاهنا أُسارىٰ مؤمنون يتجاوزون الألوف ، وقد تعاقد الفَرَنْج علىٰ أنهـم إن هُجِمَتْ عليهم الدار ، وحَمَّلت الحَرْبُ علىٰ ظهورهم الأوزار ، بُدِئَ بهم فعُجِّلُوا ، وثُنِّىَ بنساء الفَرَنْج وأطفالهم فقتَلُوا ، ثم ٱستقْتَلُوا بعد ذلك فلم يُقْتَلْ خَصْمٌ إلا بعد أن يَنْتَصِف ، ولم يُسَلَّ(١) سيفٌ من يدٍ إلا بعد أن تنقطِعَ أو ينقَصِف ، وأشار الأمراءُ بالأخذ بالميسور ، من البَلَد المأسور ، فإنَّه إن أُخِذَ حَرْبًا فلا بُدَّ أن تقتَحِمَ الرجالُ الأنجاد ، وتَبْـذُل أنفُسَها فى آخر أمرٍ قد نِيلَ من أوَّلِه المُراد ، وكانت الجِرَاحُ فى العساكر قد تقدم منها ما ٱعتَقَل الفَتَكَات ، وٱعْتَاقَ الحَرَكَات ، فقُبِلَ منهم المَبْذُولُ عن يَدٍ وهم صَاغِرُون ، وٱنصَرَف أهلُ الحَرْب عن قُدْرَةٍ وهم ظاهرون ، ومَلَكَ الإسلامُ خِطَّةً كان عهدُه بها دِمْنَةَ سُكَّان ، فخدمها الكُفْرُ إلىٰ أن صـارت رَوضَـةَ جِنَان ، لا جَرَمَ أنَّ الله أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضىٰ أهلَ الحقِّ وأسخطهم ، فإنَّهم خَذَلَهم الله حَمَوْها بالأَسَـلِ والصِّفَاح [وبَنَوْها بالعَمَدِ والصُّفَّاح(٢)] وأودعوا الكنائس بهاوبُيُوت الدَّيوية والأستبارية منها كُلَّ غريبةٍ من الرُّخَام الذى يَطَّرِدُ ماؤه ، ولا يُطْرَدُ لَأْلاؤه ، قد لَطُفَ الحديدُ فى تجزيعه ، وتفَنَّنَ فى توْشيعه ، إلىٰ أن صار الحديدُ ، الذى فيه بَأْسٌ شـديد ، كالذَّهَبِ الذى فيه نَعِيمٌ عَتِيد ، فما تَرىٰ إلا مقاعدَ كالرِّيَاض(٣) لها من بَيَاض الترخيم رَقْرَاق ، [وعَمَدًا كالأشجار لها من التَّنْبِيت أوراق(٤)] .

(١) فى وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٨) ورسائل القاضى الفاضل "يفك" .

(٢) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ووفيات الأعيان وٱنظر ما تقدم من هـذا المطبوع (ج ٦ ص ٥٠٣) .

(٣) فى الأصل "كالأسمار" وفى رسائل القاضى الفاضل "للرياض" والتصحيح من وفيات الأعيان .

(٤) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ووفيات الأعيان .

وأوعز الخادمُ بردّ الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفّيه ورده المورود، وأقيمت الخُطْبة يوم الجمعة رابعَ شهر شعبان فكادت السموات يتفطّرن للسُّجوم لا للوُجوم، والكواكبُ [منها] ينتثرن للطَّرب لا للرُّجوم، ورُفعت إلى الله كلمةُ التوحيد وكانت طرائقُها مسدوده، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنّجاسات مكدوده، وأقيمت الخمسُ وكان التثليث يُقعدُها [وجهرتْ الألسنُ بالله أكبر وكان سِحْرُ الكُفْر يعقدُها][1] وجُهر بآسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحّبَ به ترحيبَ مَنْ بَرّ بمَنْ بَرّ، وخفق علَماه في حفافَيْه، فلو طار به سرورا لطار بجناحَيْه .

وكتابُ الخادم وهو مُجِدٌّ في آستفتاح بقيّة الثُّغور، وآستشراح ما ضاق بتمادي الحَرْب من الصُّدور، فإنّ قُوَى العساكر قد آستُنفدتْ مواردُها [وأيامَ الشّتاء قد مَرَدتْ مواردُها][1] والبلادُ المأخوذة المشارُ إليها قد جاست العساكرُ خلالَها، ونهبتْ ذخائرَها وأكلت غلالَها، فهي بلادٌ ترفِد ولا تُسترفَد، وتُجِمّ ولا تُستنفَد، ويُنفَق عليها، ولا يُنفَق منها، وتُجهَّز الأساطيلُ لبحرها، وتُقام المرابطُ لبرّها، ويُدأَب في عمارة أسوارها، ومرمّات معاقلها، وكلُّ مشقّة فهي بالإضافة إلى نعمة الفتح محتمَلَه، وأطماعُ الفرنج فيما بعد ذلك مذاهبُها غيرُ مُرجئة ولا مُعتزِله، فلن يدعُوا دعوةً يرجو الخادمُ من الله أنها لا تُسمع، ولن تزول[2] أيديهم من أطواق البلاد حتى تُقطَع .

وهذه البشائرُ لها تفاصيلُ لا تكادُ من غير الألسنة تتشخّص، ولا بما سوى المُشافَهة تتلخّص، فلذلك نفّذنا لسانا شارحا، ومبشّرا صاحا، ينشر الخبرَ على سياقته، ويعرِض جيش المسرّة من طليعته إلى ساقته .

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) وفيات الأعيان ورسائل القاضي الفاضل "ولن يفكّوا" .

قلتُ : وقد وقفْتُ على نسخة كتاب كُتِبَ به عن المُكْتَفِى بالله، عند ما بَعَثَ محمدَ بن سليمان الكاتبَ إلى الديار المصرية، فانتزعها من يد بنى طولون واَسْتَولىٰ عليها للخليفة، فى نحو كُرَّاسةٍ، تاريخها سنة ثمان وستين ومائتين، أولها : أما بعدُ فالحمد لله العَلِيِّ الكبير، العزيز القدير، أضْرَبْتُ عن ذكرها لطولها .

الصنف الثامن

(المكاتبة بالاعتذار عن السلطان فى الهزيمة)

قال فى "مواد البيان" : من أخلاق العامة تقبيحُ سِيرَةِ السلطان إذا زَلَّ فى بعض آرائه ، والإزْراءُ على تدبيره فى جَيْشٍ يُجَهِّزه فيُكْسَر ، ونحو ذلك : مما لا يَسْلَمُ من مثله ، والإفاضة فيه والتشنيع به . فيحتاج إلى مكاتبتهم بما يَتَلافَى الوَهْنَ ويقيم العُذْر، كما يكاتبهم بتفخيم المِنَح ، وتعظيم الفُتُوحات ، والتَّحَدُّث بمواقع المواهب . وشكر الله تعالى على إسباغ النِّعَم ، والإظْفَارِ بأعداء الدين والدَّوْلة : لِيُقَوِّى بذلك مُنَّتهم ، ويُرْهِفَ بَصَائِرَهم ويَسْتَخْلِصَ طاعتهم ، ويملأ صدورَهم رَهْبَة . قال : وليست لهذه الكُتُب رسومٌ ينتظم كُلَّ ما وقع فيها : لاختلاف ما يلام فيه ويعتذر .

ثم قال : ونحن نَرْسُم فى أصوله قولا وجيزا : وهو أن يَقْتَضِبَ الكاتبُ له المعاذيرَ التى تُحَسِّن أُحْدُوثَتَه ، وتستر زَلَّتَه ، والحُجَجَ التى تُعيدُ اللائم عاذرا ، والذَّامَّ شاكرا ، وتُوجبُ التقريظ من حَيْثُ يجب التأنيب ، والإحْمادَ من حيث يُسْتَحَقُّ التَّذْنيب . مِثْلُ أن يعتذرَ عن هزيمة جَيْش ، فيقول : وقد عَلِمْتم أن الحَرْبَ سِجَال ، والدنيا دُوَلٌ تُدَال ، وقد تَهُبُّ رِيحُ النَّصر للقاسِطين على المُقْسِطين آمتحانًا من الله وبَلْوىٰ ،

ليَجزِىَ الَّذِينَ أَساءُوا بِمَا عَمِلُوا ويَجزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنىٰ - من غير أن يُصَرِّح بباطلٍ، ولا يُطْلِق كذبا مَحْضًا، ولا يَختلِق زُوراً يعلم الناسُ خلافَه، فتتضاعفُ الهُجْنه، وتتكاثفُ المِحْنة؛ فإنه لاشْىْءَ أقبح على السلطان، وأقدحُ فى جَلالة الشان؛ من أن يُعثَرَ فى كُتُبه على إِفْكٍ قد يعلمه بَعْضُ مَنْ يَقِفُ عليه؛ بل ينبغى أن يعتمدَ فى ذلك حُسْنَ التَّخَلُّص والتَّوْرِيَة عن الغَرَض، وآستعمالَ الألفاظ التى تَدُلُّ على أطراف الحال ولا تُفْصِح بحقائقها .

وهذه نُسْخَةُ كتاب من ذلك .

الحمد لله الذى ساسَ الأمورَ بحِكْمَته، وأبان فيها مَواقِعَ قُدْرته؛ وسلك فيها طريقَ مَشِيئَته، وصَرَّفها على ماراٰه عَدْلًا بين العباد فى أقسام نِعْمَته ومِحْنَته، وأحوال بَلْواه وعافيته؛ وجعلَ الأيامَ فيهم نُوَبا، والأحوالَ بينهم عُقَبا؛ فخَصَّ أولياءَه وأهلَ طاعته بالنَّصْر فى المُحاكمه، والفُلْج عند المُخاصمه، والظُّهور على من شاقَّهم وعاداهم، والقَهْر لمن ضادَّهم وناواهم؛ إنجازا لما وَعَدبه الصابرين المُحْتَسبين، وإعزازا للدِّين وأنصاره من المؤمنين؛ ولم يُخْلِ أعداءَه من دَوْلَةٍ أدالها لهم، وجَوْلَةٍ على الحق زادها فى طُغْيانهم؛ ووصل الإمْلاءَ لهم فيها بخِذْلانهم: لِيَجبَ الثوابُ للمحسنين، ويَحِقَّ العذابُ على الكافرين. فقال فى مُحكم كتابه - وقد ظهر المشركون على المسلمين - ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾. وقال: ﴿لِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ وناوب بين الفريقين فى المصائب، والمواهب، والمَسارّ، والمَضارّ؛ لِيَشفِىَ الله صدورَ المؤمنين، ولِيُمَحِّص مافى قلوبهم؛ ويوجبَ لهم إخلاصُ السرائر فى طاعته، والجهاد فى سبيله، والنُّصْرة

لرسوله ، والمُراماةِ عن دينه ، والمدافعةِ عن حريمه ؛ ضِعْفَ الثَّواب وحُسْنَ المآب ، ويُحِلَّ بالمشركين ماأعدّ لهم فى دار الجزاء من أليم العذاب .

و إذا كان الحال بين الفريقيْن المُتلاقِيَيْن ، والفِئَتَيْن المُتَجاوِرَتَيْن ، والحِزْبَيْن المُتَحاكِمَيْن ، فى تَعاوُر الغَلَبَه ، وتَعاقُب الدَّوْلَه ؛ جاريا علىٰ تقديرالله ومتصرفا علىٰ حُكْمِه ، ومُسْتَوسِقًا علىٰ ماسبق فى عِلْمه ؛ فليس يُغْنِى فى ذٰلك زيادةُ عَدَد ، ولا آتصال مَدَد ، ولا قُوَّةُ أَيْد ، ولا لُطْفُ كَيْـد ، ولا آختيارُ وَقْتٍ مَحْمُودٍ للقتال ، ولا الآنتخابُ لأهل البَسالَة والنَّجْدَةِ من الرجال ؛ ولا يجبُ أن يَسْتَرِيثَ النَّصْرَ مَنْ أَبْطَأَ عنه ، ويَسْتَشْعِرَ الجَزَعَ من نَالَ خَصْمُهُ منه ؛ بعد تحصيلِه السلامةَ فى نفسه ، وقِيامِ العُذْرِله بعنايته وجِدِّه ؛ وقد جمع الله للأمير من المناقبِ ـ التى وَرِثَها عن آبائه ، وحازها فى صدره ؛ والحيازَة فيما بَانَ من فَضْل بأْسه ، وثبات جَأْشه ، وأَصالَةِ رَأْيه ، وصِحَّةِ تدبيره ؛ و إيفائِه الحَرْبَ شروطها ، والهَيْجاءَ حُقُوقَها : من الحَزْمِ والتُّؤَدَه ، والإقدامِ عنـد الفُرْصَه ، والإصابةِ فى التَّقْديرِ والتَّعْبِير ، والآحتياط فى سَـدِّ مواقع الخَلَلِ والعَوْره ، و إعمـالِ النَّظَر والرَّوِيَّه ؛ لولا آعتراض القَضاء الذى هو مَالِكُ نَوَاصِى العبـاد ، وغيرُ مدفوعٍ بِمِحَالٍ ولا جِلَاد ، ولا قُوَّةٍ ولا عُدَّةٍ ولا عَتَـادٍ ـ ما أَوفىٰ حُسْنُهُ علىٰ مَزِيَّةِ الظَّفَر ، وزاد عُظْمُه فى السَّناءِ والخَطَر ؛ إلىٰ ماشَمِلَ عَسْكَرَه فى مُنْقَلَبِه بمراعاتِه لهم ، ومُدَافَعَتِه من ورائهم ؛ حتّى تَوَافَى الجَمْعُ مَوْفُورِين ، وآبُوا سالمـين غانِمين ؛ و بالله الحَوْلُ والقُوَّةُ وعليـه ضَمَانُ الإدالة علىٰ ما جرى به وَعْدُه الصادق ، وأخبر عنه كِتابُه الناطق ؛ وهو حَسْبُ أمير المؤمنين وكَافيه ، ونَاصِرُه ووَالِيـه ، ونِعْمَ الوَكِيلُ والظَّهِير ، والمَوْلىٰ والنَّصِير ؛ وصلّىٰ الله علىٰ سـيدنا محمد سَـيِّدِ المرسلين ، و إمام المتَّقين ، وآله الطيبين أجمعين ؛ وسَلَّمَ تسليما .

وفى مثله من إنشاء أحمد بن سعيد .

احكام الله جَلَّ جَلَاله جارِيَةٌ علىٰ سُبُلٍ جامعةٍ لوجوه الحِكَم، مُنْتَظِمَةٍ لأسباب الصلاح والمَعْدَلة . فمنها ما عَرَّف الله أَوْلِيَاءه والمندوبين بطاعته، والمجموعين بِهِدَايَتِه، طَرِيقَ المُرَادِ منه ، وسَبَبَ الدَّاعى إليه، والعِلَّةَ فيما قُضِى من ذٰلك لِحِينه، والصُّورَةَ المقتضية له . ومنها ما ٱسْتَأْثَر بِعِلْمِه، وطَوىٰ عن الخَلْقِ معرفةَ حالِه ؛ فهو ـ وإن أشكل عليهم مَوْضِعُ الحاجة إليه ، ومَوْقِعُ العائدة به؛ ورُؤِىَ بهم ٱضْطِرَابًا فى ظاهره عند تَأَمُّلِهِم إياه بمقادير عقولهم، ومَبَالِغ أفهامهم ـ مَبْنِىٌّ علىٰ أَوْثَقِ آساس الحِكَم، وأثبتِ أركان الصَّوابِ علىٰ الجملة ؛ وكيف لايكون كذلك ؟ والله خالق الأشياء كُلِّها، وعالم بها قبل كَوْنِها ؛ فى أحوال تَكْوِينِه إياها وبَعْدَه فى منزع غاياتها ومَقْضِىّ عواقبها ؛ فليس تخفىٰ عليه خَافِيَه، ولاتَعْزُبُ عنه دَانِيَةٌ ولاقَاصِيَه ؛ ولايسقط عن معرفته فَضْلُ مابين الخاطِرَيْن والوَهْمَيْن فى الخَيْر والشَّر، ومابين الجَبَلَيْن والذَّرَّتَيْن فى الوُفُور والغمور، فكيف بما يبرزه الظهور، ويُخْبِرُ فيه عن موضع التدبير، المُحْتَاج فيه إلىٰ إحكام الصَّنْعَة وإتقان التقدير ؛ ومَنْ ظَنَّ أنَّ شيئا من ذلك يخرج عن نَهْج الصواب، ويخالف طَرِيقَ الصَّلاح ؛ فقد ضَلَّ من حَيْثُ ضَلَّل ، وغَلِط من حيثُ غَلَّط ، وٱتَّصَل سُوءُ ظَنِّه، وفساد فِكْرِه، بالزِّرَايَةِ علىٰ فِعْلِ رَبِّه، تعالىٰ عن قَوْلِ المُبْطِلِين، ورَجْمِ الشَّيَاطين .

ثم إن لله جَلَّ جَلَالُه عادةً فى الجَيْشَيْن المتحاربين، والحِزْبَيْن المتحاكمين : من عباده المؤمنين، وأَضْدَادِهم المفسدين المُلْحِدين ؛ فى المُدَاوَلَة بينهما ، والمُعَاقَبَة بين الفِئَتَيْن منهما ؛ فى العجز والظُّهور، والوَفَاء والقُصُور ؛ والمُعَافاة والامْتِحَان ،

والنَّصر والخِذْلَان ، والإعلاء لِرَايَةِ الحَقِّ فى حال ، والإمْلَاء للباطل فى أخرىٰ ، بتضْمين الخِيرة لأوليائه ، والدائرة علىٰ أعدائه ، عاجلا بالتَّمحيص لهؤلاء ، وبالمَحْق لأولئك ، بما يَصِلُ إليهم من مُصيبَتِه ، وينُوبُهم فى حاضر الدنيا من رَغْبَتِه ، ويُحِلُّ العَادين من المشركين دَارَ الفَاسِقين ، ويَجْعَلُ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِين ؛ ومن سَعِدَ بِقِسْمٍ من التوفيق ، وحَظٍّ من فائدة الإرشاد ، فليس (١) فى هذه الحالة بزيادة أنْصَارٍ وعدّه ، وفضل عَتَادٍ وعُدّه ، وبَسَالةٍ ونَجْدَه ، وأيْدٍ وقُوّه ، وسَعَةٍ وبَسْطَه ، ولا يَعْدُو أن يُسَلِّمَ لله تعالىٰ قَاضِيًا له وعليه ، ويُوقِنُ بإحدىٰ الحُسْنَيَيْن من عُلُوِّه ، أو غَلَبَةِ عَدُوِّه ، أو يتوكل عليه ؛ وهو حَسْبُه مُنْعِمًا ، ومُمْتَحِنا ومُعَافِياً ومُسَلِّما ، ونِعْمَ الوكيل .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مُسْتَعْمَلٌ بين الكُتَّاب ، دائر فى مُصْطَلَحَاتِهم إلىٰ الآن . وللشَّيْخ شِهَابِ الدين محمود الحَلَبِي فى ذلك تَفَنُّنَاتٌ كثيرةٌ ، أورد بعضها فى كتابه "حُسْنِ التوسُّل" .

فمن ذلك ما أنشأه فيمن هُزِمَ هو وجَيْشُه ، يَتَضَمَّنُ إقامة عُذْرِه ، ووَصْفَ اجْتِهادِه ، ويَحُثُّ علىٰ معاودة عدوّه ، والطَّلَبِ بِثَارِه ، وهو :

هذه المكاتبة إلىٰ فلان : لازَالَ مأْمُونَ الغِرّه ، مأْمُولَ الكَرَّه ، مُجْتَنِيًا حُلْوَ الظَّفَرِ من أكْمَامِ تلك المَرَّةِ المُرَّه ، راجيا من عواقب الصَّبْر أن يُسْفِرَ له مَسَاءُ تلك المَسَاءَةِ عن صُبْحِ المَسَرَّه ، واثقا من عوائد نَصْر الله بإعادته ومن معه فى [القُوَّةِ و] (٢) الاستظهار كما بدأهم أوّل مَرَّه .

(١) بياض فى الأصل ولعله "فليس انتصاره" تأمل .

(٢) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

أصدرناها وقد اتّصل بنا نَبأُ ذلك المقام الذى أوضحتْ فيه السيوفُ عُذْرَها ، وأبدتْ به الكُماةُ صَبْرَها ، وأظْهرتْ فيه الحُماةُ من الوَثَبات والثَّبات ما يجب عليها، وبذَلَتْ فيه الأبطالُ من الجِلاد جُهْدَها ولكنْ لم يكُن الظَّفَرُ إليها ، وكان عليهم الإقْدامُ على غَمَراتِ المنُون ، والاصْطلاءُ بجمراتِ الحَرْب الزَّبُون ، ولم يكُنْ عليهم إتْمامُ ماقُدِّر أنَّه لايكون ، فكابرتْ رِقابُ الأعداء فى ذلك المَوْقِف السُّيُوف، وكاثَرتْ أعْدادُهم الحُتُوف ، وتدفَّقتْ بِحارُهم على جَداوِلِ مَنْ معه ولولا حُكْمُ القَدَرِ لانتصفتْ تلك الآحاد من تِلْكَ الألوف ، فضَاقَ بازْدِحام الصفوف على رجاله المَجَالُ ، وزاد العدد على الجَلَد فلم يُفِد له الإقدام على الأوجال مع قُدُوم الآجال ، وأُمْلِى للكافرين بما قُدِّر لهم من الإنْظار ، وحصَلَ لهم من الاستظهار ، وعُوِّضُوا بما لم يَعْرِفوه من الإقْدام عمَّا أَلِفوه من الفِرَار . ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ وقد ورد أنهم يُنْصَرُون كما نُنْصَر ، وإذا كانت الحُرُوب سِجَالًا فلا يُنْسَبُ إلى مَنْ كانت عليه [وَبَالا][1] إذا اجتهد ولم يُساعِده القَدَرُ أنه قصَّر . مع أنه قد اشتهر بما فعله فى مَجاله ، من الذَّبِّ عن رِجَاله ، وما أبداه فى قِتَالِه ، من الضَّرْب الذى ما تَرَوَّى فيه خَصْمُه إلا بَدَرَه بارتجاله ، وأن الرِّماحَ التى امتدت إليه أخْرَسَ سَيْفُه أَلْسِنَةَ أسِنَّتِها ، والجِيادَ التى أقدمت عليه جعل طَعْنَةَ أكْفَالِها مكانَ أعِنَّتِها ، فأثبت فى مُسْتَنْقَع الموت رِجْلَه ، ووقف وما فى الموت شَكٌّ لواقفٍ ليَحْمِىَ خَيْلَه ورَجْلَه ، حَتَّى تَحَيَّزَ أصحابُه إلى فِئَةٍ مَأْمَنِهم ، وأقام نَفْسَه دونهم دريئةً لمن بَدَر من سَرَعَان القوم أو ظهر من مَكْمَنِهم ، وهـذا هو المَوْقِفُ الذى قام له مَقَام النَّصر ، إذ فاته النُّصَراء وفاته النَّصر ، والمَقَامُ الذى أصيب فيه من أصحابه آحاد يدركهم أدْنَى العَدَد وفُقِد

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

فيه من اعدائه مع ظهورهم ألوفٌ لايدركهم الحَصْر، [وكذا فليكن قَلْب[(١)]] الجيش كالقَلْب يَقْوىٰ بقُوَّته الجَسَد، وإذا حقَّ اللِّقاءُ فلا يَفِرُّ عن كَأْسه إلا الظَّبْيُ ولا يَحْمى [عَرِينَه[(١)]] إلا الأسَـد ، وما بَقِيَ إلا أن تَعْفُوَ الكُلُوم ، وتَثُوبَ الحُلُوم ، وتَنْـدَمِلَ الجِرَاح، وتَبْرَأَ من فُلُول المَضارِب صُـدُورُ الصِّفَاح، وتنهضَ لاقتضاء دَيْنِ الدِّين، من غُرَمائه المُعْتَدِين، وتُبادِرَ إلىٰ آستنجاز وعد الله بأن الله يُمَحِّصُ المؤمنين، ويَمْحَقُ الكافرين، واللَّيْثُ إذا جُرِح كان أشَـدَّ لثَبَاتِه، وأمَدَّ لوَثَبَـاتِه، والمَوْتُورلايُصْطَلىٰ بناره، والثَّائرُلا يَرْهَبُ الإقدامَ علىٰ المَنُونِ فى طلب ثَارِه، والدهر ذُو دُوَلٍ، والزمان مُتَلَوِّن إن دَجَتْ عليكم منـه بالقَهْر ليلةٌ واحدةٌ فقـد أشْرَقت لكم منه بالنصر لَيـالٍ أُوَل ، فالمَوْلىٰ لا يلتفت إلىٰ مافات ، ويُقْبِـلُ بفكْرِه علىٰ تدبير ما هو آت ، ويُعِـدُّ للحرب عُدَّته ، ويعجل أَمَدَ الاستظهار ومُدَّته ، ولا يؤخر فُرْصَةَ الإمكان ، ولا يعيد ذِكْرَ مامَضىٰ فإنه دخل فى خَبَرِكان ، ولا يُظْهِرُ[(٢)] بما جَرىٰ عَجْزًا ، فإن العاجزَمَنْ ظَنَّ أنه يُصيب ولا يُصَاب ، ولا يَتَّخِذُ غيرظَهْرِحِصَانِه حِصْنًا فلا حِرْزَ أمنعُ من صَهْوةِ الجَوَاد ولا سُلَّمَ أسْـلَمُ من الرِّكَاب ، وليَعْلَم أن العاقبة للمتقين ، ويَدَّرِعْ جُنَّةَ الصَّـبر ليكون من النَّصْرعلىٰ ثِقَةٍ ومن الظَّفَرعلىٰ يَقِين ، فإن الله مع الصابرين ، ومن كان الله معه كانت يَدُه الطُّولىٰ ، وإذا لقِيَ عَدُوَّ الله وعَدُوَّه فلْيَصْبِرلِحَمْلته فإنَّ الصبرَعند الصَّدْمَة الأُولىٰ ، والله تعـالىٰ يَكْلَؤُه بعَيْنه ، ويُمِـدُّه بعَوْنه ، ويجعلُ الظَّفَربعدُوِّه موقوفا علىٰ مطالبته له بدَيْنِه .

---

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) "حسن التوسل" ولا يظن ماجرىٰ الخ .

⁂

ومن ذلك ما كتبه على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار ، ويصف الاحتفال بأخذ الثار .

هذه المكاتبة إلى فلان : أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره ، وبلغه عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح وألسنة الرماح سره ، وأراه من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقق به أن كسوف الشمس لا ينال طلعتها وان سرار القمر لا يضره . توضح لعلمه أنه ربما اتصل به خبر تلك الوقعة التى صدقنا فيها اللقاء ، وصدمنا العدو صدمة من لا يحب البقاء ، وأريناه حربا لو أعانها التأييد فلت جموعه ، وأذقناه ضربا لو أن حكم النصر فيه إلى النصل أوجده مصارعه وأعدمه رجوعه . وحين شرعت رياح النصر تهب ، وسحاب الدماء من مقاتلهم تصوب وتصب ، وكرعت الصفاح فى موارد نحورهم ، وكشفت الرماح خبايا صدورهم ، وما بقى إلا أن تستكمل سيوفنا الرى من دمائهم ، وتقف صفوفنا على ربوات أشلائهم ، وتقبض بالكف من صفحت الصفاح عن دمه ، وتكف بالقبض يد من ألبسه الجراح حلة عندمه ، أظهروا الخرع فى عزائمهم ، وحكموا الطمع فى غنائمهم ، فحصل لجندنا عجب أعجل سيوفنا أن تتم هدم بنائهم ، وطمع منع جيوشنا أن تكف عن النهب إلى أن تصير من ورائهم ، فاغتنم العدو تلك الغفلة[1] التى ساقها المهلكان ، العجب والطمع ، وانتهز فرصة[2] الإمكان ، التى أعانه عليها [المطمعان][3] إبداء الهلع ، وتخلية ما جمع ،

(١) كذا فى حسن التوسل وفى الأصل "الفقرة" ولعلها مصحفة عن «الغفوة» .

(٢) فى حسن التوسل "فرصة "الكرة" .

(٣) الزيادة عن حسن التوسل (ص ١١٩) .

فانتثر [من جَمْعنا](١) بعضُ ذلك العقْدِ المُنظّم، وآنتقض من حزبنا رُكْنُ ذلك الصَّفّ الذى أخذ فيه الزّحامُ بالكَظَم؛ وثبت الخادم فى طائفة من ذَوِى القُوّة فى يقينهم، وأرباب البصائر فى دِينهم، فكسّرنا جُفُون السُّيوف، وحطّمنا صُدُور الرِّماح فى صدور الصفوف، وأرَيْنا تلك الألوفَ كيف تُعَدّ الآحاد بالألوف؛ وحُلْنا بين العَدُوّ و بين أصحابنا بضَرْبٍ يَكُفّ أطْماعَهم، ويَرُدّ سِرَاعَهم، ويُعْمِى ويُصِمّ عن الآثار والأخبار أبْصارَهم وأسْمَاعَهم؛ إلى أن نَفّسْنا للنهزم عن خِناقه، وآيَسْنا طالبَه عن لَحاقِه، ورَدَدْناه عنه خائباً بعد أن كادتْ يدُه تَعْتلِق بأطواقه؛ وأحْجَم العدُوّ مع ما يرى من قِلّتنا عن الإقدام علينا، ورأى منا جِدّاً كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا؛ وعادوا ولنا فى قلوبهم رُعْبٌ يَثْنِيهم وهم الغالبون، [ويُدْرِكهم وهم الطالبون](١) ويَسْلُبهم رداء الأمْنِ وهم السالبون؛ وقد لَمّ الخادم شَعَثَ رجاله، وضمّ فِرَقهم(٢) بذخائر ماله؛ وأمدّهم بنَفَقات أصلحت أحوالهم، وأطلقت فى طلب عَدُوّ الله أقوالهم؛ وسِلاحٍ جَدّد آستِطَاعتهم، وأعَانَ شَجَاعتهم؛ وخُيُولٍ تكاد تسابِقُهم إلى طَلَبِ عَدُوّهم، وتَحُضُّهم على أخذ حَظّهم من اللقاء كأنّها تساهمهم فى أجْرِ رَوَاحِهم وغُدُوّهم؛ وقد نَضُوا رِداءَ الإعجاب عن أكتافهم، وآعتَصَمُوا بعَوْن الله وتأييده لا بقُوّةِ جَلَدِهم ولا بحِدّةِ أسيافهم؛ وسيُعْجِلُون العدوَ - إن شاء الله تعالى - عن آندِمَال جِراحه، ويتعجّلون إليه بجيوش تسوءه طَلائعُها فى مَسائه وتُصَبّحه كَتَائبها فى صَبَاحه؛ والله تعالى لا يَكِلُنا إلى جَلَدنا، ولا يَنْزِع أعِنّةَ نَصْره من يَدِنا.

---

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩١٩).

(٢) الأصل "وضربهم" والتصحيح عن حسن التوسل.

الصنف التاسع
(المكاتبة بتوبيخ المهزوم وتقريعه والتهكم به)

وهذا النوع من المكاتبات قليل الوقوع، ولذلك لم يتعرّض إليه فى "موادّ البيان".

والذى ينبغى أن تُبنىٰ المكاتبة فيه عليه ذِكْرُ هَزيمة المهزوم وما اسْتولىٰ عليه من الغَلَبة والقَهْر، وصورةِ الحال فى النُّصْرَة عليه، والاستيلاء علىٰ بلادِه وأموالِه وسائرِ ذات يَدِه، وأسْرِ رجاله، واسترقاق ذراريِّهم ونِسَائهم، ومايجرى مجرىٰ ذلك: ممَّا فيه إيلام خَاطِره، وتقطيعُ قَلْبه حَسَراتٍ علىٰ ما نَالَه؛ ونحو ذلك ممّا يدعو المكتوبَ إليه إلىٰ الطاعة، ويوجب الانْقياد.

وهذه نسخة كتاب من هذا النَّمَط: كَتَبَ به القاضى مُحْيِى الدِّين بن عبد الظاهر رحمه الله، إلىٰ البولس بمد(١) ملك الفرَنْج، المستولِى علىٰ طَرَابُلُس من الشام، وأَنْطاكِيَة من بلاد العَوَاصم حين غَزَاه المَلِك (٢) فى طَرَابُلُس، ثم قصد أنْطاكِيَة فأخذها من عانه(٣)، وهى:

قد علم القُومَصُ الجليل المُنْتقِلَةُ مخاطَبَتُه ـ بأخْذِ أنْطاكِيَةَ منه ـ من البُولسية إلىٰ القومصية، ألهمه الله رُشْدَه، وقَرَنَ بالخير قَصْدَه، وجعل النَّصيحةَ محفوظة عنده، ما كان من قَصْـدِنا طَرَابُلُس وغَزْونا له فى عُقْرِ الدار، وماشاهده بعـد رَحِيلنا من إخراب العمائر وهَدْمِ الأعمار، وكيف كُنِسَتْ تلك الكنائس من علىٰ بساط الأرض ودارَتِ الدَّوائرُ علىٰ كُلِّ دائر، وكيف جُعِلَتْ تلك الجزائرُ من الأجساد علىٰ سَاحل البَحْر كالجزائر، وكيف قُطِّرتِ الرجال واسْتُخْدِمَت الأولادُ وتُمُلِّكَتِ الحرائر، وكيف قُطِّعَتِ الأشجار ولم يُتْرَك إلا مايَصْلُحُ لأعواد المجَانيق ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ والستائر،

(١) كذا بالأصل باهمال النقط وفى "الكامل" لابن الأثير (ج ١٠ ، ص ٢٥٤) "بيمند".
(٢) بياض بالأصل مقدار كلمة.
(٣) كذا بالأصل ولعله "منه عنوة".

وكيف نُهِبَتْ لك ولرعيّتك الأموال والحريمُ والأولادُ والحواشى ، وكيف ٱستغنىٰ الفقيرُ وتأهّل العازب وٱستخدم الحَريمَ وركب الماشى ، هذا وأنت تنظُر نظرَ المغشىِّ عليه من الموْت ، وإذا سمعتَ صوْتا قلتَ فزعاً : علىَّ هذا الصَّوْت ، وكيف رحلْنا عنك رحيل من يعُود ، وأخّرناك وما كان تأخيرُك إلا لأجلٍ معْدُود ، وكيف فارقْنا بلادَك وما بقيَتْ فيها ماشيَه ، إلا وهى لدينا ماشيه ، ولا جاريه ، إلا وهى فى ملْكنا جاريه ، ولا ساريه ، إلا وهى بين أيدى المعاوِلِ ساريه ، ولا زرعٌ إلا وهو محصود ، ولا موجودٌ إلا وهو منك مفقود ، وما منعَتْ تلك المغاير(١) التى هى فى رءُوس الجبال الشاهقه ، ولا تلك الأوديةُ التى فى التُّخوم مُختَرِقةٌ وللعقول خارقه ، وكيف سُقْنا عنك ولم يَسْبِقْنا إلىٰ مَدينتك أنطاكِيَةَ خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تُصدِّق أننا نبْعُد عنك وإن بعُدْنا فسنعُود علىٰ الأثر ، وها نحْنُ نُعلِمُك بما تمّ ، ونُفْهِمُك بالبلاء الذى عمّ .

كان رحيلُنا عنك من طَرابُلُس يوم الأربعاء ، ونزُولُنا أنطاكيَةَ فى شهر رمَضان ، وفى حال النُّزول خرجت عساكرُك للمُبارَزة وتناصرُوا فما نُصِرُوا ، وأُسِرَ من بينهم كند اسطبل(٢) فسأل فى مراجعة أصحابك ، فدخل إلىٰ المدينة ، فخرج هو وجماعة من رُهْبانك : وإن رأيهم فى الخير مُختلف ، وقولُهم فى الشّرّ واحد ، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفَوْت ، وأنهم قد قدّر الله عليهم الموْت ، رددْناهم وقُلْنا : نحن الساعةَ لكم نُحاصِر ، وهذا هو الأوّلُ فى الإنذار والآخر ، فرجعوا به مُتشبّهين بفعْلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيْلك ورجْلك ، ففى بعض ساعة مُرّشان المرشان ، وداخَل الرُّهبُ الرُّهْبان ، ولانَ للبلاء القسْطلان ، وجاءهم الموْت من كُلّ مكان ، وفتحناها بالسّيف

(١) لم يرد فى كتب اللغة جمع المغارة على مغاير ، وإنما جمعه مغارات .

(٢) كذا فى الأصل باهمال جميع الحروف .

فى الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كلَّ من آخترته لحفظها والمحاماة عنها، وما كان أحدٌ منهم إلا وعنده شئٌ من الدنيا فما بقى أحدٌ منّا إلا وعنده شئٌ منهم ومنها؛ فلو رأيت خيّالتك وهى صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنّهابة فيها تصول والكسّابة فيها تجول؛ وأموالك وهى توزن بالقنطار، وإماءك وكلّ أربع منها تباع فتشترى من مالك بدينار؛ ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسّرت ونثرت، وصحفها من الأناجيل المزوّرة قد نشرت، وقبور البطارقة وقد تغيرت؛ ولو رأيت عدوّك المسلم وقد داس مكان القدّاس، والمذبح وقد ذبح فيه الراهب والقسّيس والشّمّاس؛ والبطارقة وقد دهموا بطارقة، وأبناء المملكة وقد دخلوا فى المملكة؛ ولو شاهدت النّيران وهى فى قصورك تخترق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق؛ وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بونصر وكنيسة القسّيان وقد زلّت كلٌّ منهما وزالت ــ لكنت تقول: يا ليتنى كنت ترابا، ويا ليتنى لم أوت بهذا الخبر كتابا؛ ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفئ تلك النيران بماء عبرتك؛ ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت، ومراكبك وقد أخذت فى السّويدية بمراكبك، لصارت شوانيك من شوانيك؛ ولتيقّنت أن الإله الذى أنطاك أنطاكية منك آسترجعها، والربّ الذى أعطاك قلعتها منك قلعها ومن الأرض آقتلعها. ولتعلم أنّا قد أخذنا ــ بحمد الله ــ منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام، وهو دركوش، وشقيف تلّ منّس[1]، وشقيف كفردبّين، وجميع ما كان لك فى بلاد أنطاكية فى هذه المدّة إقامة(؟) وكونك ما كنت بها، فيكون إما قتيلًا وإما أسيرًا، وإما جريحًا

(١) فى الاصل "تلميس" ولم نعثر عليه فى المعاجم والذى فى معجم البلدان لياقوت أن تلّ منّس حصن قرب معرّة النعمان بالشام .

وإما كبيراً ، وسلامة النفس هى التى يفرح بها الحىّ إذا شاهد الأموات ، ولعلّ الله إنّما أخّرك لأنْ تستدرِك من الطاعة والخدمة ما فات ، ولمّا لم يسلَم أحدٌ يخبرك بما جرى خبّرناك ، ولمّا لم يقدِر أحدٌ [أن] يباشرك بالبُشرى بسلامة نفسك وهلاك ماسواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشّرناك ، لتتحقّق الأمرَ على ماجرى ، وبعد هذه المكاتبة لا ينبغى لك أن تُكذّب لنا خبرا ، كما أنّ بعيد هذه المخاطبة يجب أن لاتسأل عمّا جرى .

✣
✣ ✣

وهذه نسخة فى هذا المعنى ، من إنشاء الشيخ شهاب الدّين محمود الحلَبىّ ، وهى :

هذه المكاتبة إلى فلان أقاله الله عثرة زلّته ، وأقامه من حُفْرة ذِلّتـه ، وتجاوز له عن كبيرة فِراره من جمع عدوّه على قلّته .

بلغنا أمرُ الواقعة التى لَقِىَ فيها [العدوَّ](١) بجمع قليلٍ غناؤه ، ضعيفٍ بناؤه ، كثيف فى رأى العين جمعُه ، خفيف فى المعنى وقعُه ونفعُه ، أسرعُ فى مفارقة المجال ، من الظلّ فى الانتقال ، وأشبه فى مماثلة الوجود بالعدم من طيف الخيال ، يمشون(٢) إليـه بقلبٍ واجب ، ويهتدون من تخرّصه برأيٍ(٣) بينه وبين الصّواب ألفُ حاجب ؛ ويأتمّون منه بمقدّم يرى الواحدَ من عدوّه كألف ، ويتسرّعون منه وراء مقدامٍ يمشى إلى الزّحف ولكن إلى خلف ؛ جناحُ جيشه مهيض ، وطرفُ سنانه غضيض ؛ وساقةُ عسكره طالعـه ، وطلائعُه كالنّجوم ولكنْ فى حال كونها راجعه ؛ تأسف السيوفُ بيمينه على ضارب ، وتأسى الجنائبُ حوله إذ تعدّ لمحارب فتعدّ لهارب ؛

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .
(٢) فى الأصل "يحفون عنه" والتصحيح من "حسن التوسل" .
(٣) كذا فى "حسن التوسل" والذى فى الأصل "ويهتدون من تجربيه وتهذيبه بينه" الخ ، ولامعنى له .

وأنه حين وقعت العَيْنُ على العَيْن ، وأيقَنَ عدوه لمَا رأى(١) من عَدَده وعُدَده مُعاجلة الحَيْن ، أعجلَ نُصول العِدَا عن وُصولها ، وترك غنيمة الظَّفَر لعِدَاه بعد أن أشرف على حُصُولها ، تُناديه ألسِنةُ أسِنَّته : الكَرَّة الكَرَّة فلا يَلْوِى إلى نِدائها ، وتشكو إليه سيوفُه الظَّمأَ وقد رأتْ مواردَ الوَرِيد فيردُّها إلى الغُمُود بِدائِها ، فمنح عَدُوّه مَقاتلَ رجاله ، وأباحهم كَرائِمَ مال جُنْده وماله ، وخلَّى لهم خزائنَ سِلاحه التى أعدّها لقتالهم فأصبحت مُعَدَّةً لِقتاله ، فنجا مَنْجَى الحارث بن هِشَام ، وآب بسلامةٍ أعْذَبُ منها -لو عقَل- شُرْبُ كأس الحِمَام ، وٱتَّسَم بين أوليائه وأعدائه بِسِمَةِ الفِرَار ، وكان يقال : النَّار ولا العار ، بجمع له فِرارُه من الزَّحْفِ بين النَّار والعَار ، وعاد بجمْعٍ موفورٍ من الجِرَاح ، مُوقَرٍ من الإثم والاَجتراح ، لا عِلْم بما جرى عند أسيافهم ، ولا شاهد بمشاهدتهم الوَغَى غيرَ مواقع الظُّبا فى أكتافهم ؛ فبأىّ جَنَانٍ يَطْمَعُ فى معاودة عَدُوّه مَنْ هذا قَلْبُه ، وهؤلاء حِزْبُه ، [وذلك القتال قِتَالُه وتلك الحَرْبُ حَرْبُه](٢) .

وبعد فإن كانت له حَمِيَّةٌ فستظهرُ آثارُها ، أو أرْيَحِيَّةٌ فستَشِبُّ نَارُها ، أو أَنَفَةٌ فستَحْمِله على غَسْلِ هذه الدَّنِيَّه ، وتبعثه على طَلَب غَايَتَيْن : إما شهادةٌ مُرِيحةٌ أو حياة هَنِيَّه ؛ والله تعالى يُوقِظ عَزْمَه من سِنَتِه ، ويعجل له الاَنتصاف من عَدُوّه قبل إكمال سَنَتِه .

الصـــنف العـاشر

(فى المكاتبات بالتضييق على أهْلِ الجرائم)

قال فى "مواد البيان" : لم يَزَل السلطان يكتب إلى الوُلاة -عند ما ينتهى [إليه] من إقدام الرَّعَايا على ٱرتكاب الجرائم ، وٱستباحة المحارم ، وٱقتراف المآثم ؛ كالزِّنا

---

(١) فى "حسن التوسل" «ولا يلتفت» .

(٢) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٩) .

واللِّوَاط، وشُرْب الخمْر، وقَطْع الطُّرُق، والغَصْب والتَّظَالُم، وما يجرى هذا المجرىٰ بالتضييق عليهم، و إقامة حدود الله تعالىٰ فيهم .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله البادئ بنعمته قَبْل ٱفتراض طاعته، المُمْتَنّ بفَضْله قبل إيجاب شُكْره، خالِق الخلائق جُودًا وكَرَما، ومُوسِعهم منًّا ونِعَما، الذى ٱختار دِينَ الإسلام وطَهَّره من الأرجاس، ونَزَّهه عن الأدناس، وٱختصّ به صَفْوَتَه من النـاس، وٱبتعث به محمدا سـيِّدَ المرسلين : ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . يحمده أمير المؤمنين أن فَوَّض إليه إيالَةَ خَلْقه، وأقدره علىٰ القيام بخِدْمته، ونصبه لإعزاز دينه، والمحافظةِ علىٰ مَفْرُوضــه ومَسْنُونه، وذِيَادَة العباد عن محارِمه التى نهىٰ عن التعدّى إليها، و إقامة الحدود عليهم فيها، ويسأله الصلاة علىٰ محمد صلّى الله عليه وسلم .

ثم يقال : و إنّ أميرَ المؤمنين يرىٰ أنّ مِنْ أعظم نِعَم الله تعالىٰ عليه تَوْفيقَه لحفظ ما ٱسْتَحْفَظَه من شريعته، ورِعايةِ ما ٱسترعاه من بَرِيَّته، وتَوْفيرَ القيام علىٰ مَنْ قَلَّده النَّظَرَ فيهم، وٱعتمادَ ما يعود بالصَّلاح فى الدِّين والدُّنيا عليهم، ومُسَاواته بين قريبهم وبعيدهم فى تَفَقُّده، ومُماثَلَته بين قَاصِيهم ودَانِيهم فى تَعَهُّده، فلاينال القريب [فقط] نصيبا من رِعَايَته ويعلِّم جاهلَهم، ويَهْدِى حَائِرَهم، ويُشْحِذُ بصائِرَهم، ويُثَقِّفُ مَائِدَهم، ويُصْلِحُ فاسِدَهم، ويَتَخَوَّلُهم من مَوَاعِظه بما يُبَرِّد الغُلَل، ويَشْفِى العِلَل، ويَنْسَخ الشَّك باليقين، ويُقْبِسُ مَقابِس النُّور المبين [فمن] أصغىٰ إلىٰ إرشاده سَعِد جَدُّه، ووَرىٰ زَنْدُه، وأُحْمِد يومُه وغَدُه، ومن خالف عن أمره ضَلَّ مَسْعاه، وخَسِر آخِرَته ودُنْياه، ودعا إلىٰ ٱتباع أمر الله تعالىٰ فى تقويمه و إصلاحه، والكَفّ بإقامة الحُدُود عليه من جِمَاحه .

وانتهى إلى أمير المؤمنين ما أقدم عليه الأحداث وأهل الدعارة قبلكم من احتقاب الآثام، واستدامات مراكب الحرام، والاستهتار بمحظور اللذات، والإكباب على دنيء الشهوات، التي تسلخ من الدين، وتخرج عن دائرة المسلمين، وتدفع عن تأدية العبادات، وإقامة الصلوات، وتنتظم في سلك البهائم المرسله، والسوائم المهمله. وتقصير مشايخهم وعلمائهم عن كفهم، والأخذ على أكفهم، وتعريفهم وجوه مراشدهم وتقويم أودهم، فامتعض من ذلك، وأشفق من نزول القوارع والمثلات، وحلول البليات والآيات، وارتجاع ما أودعكم الله تعالى من نعمته، وانتزاع ما ألبسكم من رحمته، وبادر بكتابه موقظا لغافلكم، ومبصرا لذاهلكم، وباعثا لكم على مراضيه الأولى، ومعاودة الطريقة المثلى، ومبادرة آجالكم بأعمالكم، والأخذ لأخراكم من أولاكم، ولسقمكم من صحتكم، ولنومكم من يقظتكم، عالمين بأن الدنيا لعب ولهو، وأن الآخرة هي دار القرار، وأنكم فيها كسفر شارفوا المنزل. فاجهدوا عباد الله واحتشدوا، وأقلعوا وارجعوا، واسمعوا وعوا، فكأنكم والله وقد توضحت خدعها، وتصرم متاعها، وجل متوقعها، والسعيد من وثق بما قدم لنفسه بعد نفاد أيامه، وورود حمامه، والشقي من أفرط وفرط، وندم حيث لا مندم- وأوعز إلى والي الحرب فلان بقراءة ما نص فيه عليكم، واختبار سيركم بعد مروره على أسماعكم، فمن رغب في التقوى، وآثر الآخرة على الدنيا، عرف ذلك وتوخاه بتكرمته وتخوله، ومن أبى إلا غواية وضلالا، وبطالة ومحالا، أقام حد الله تعالى عليه غير مراقب فيه. فرحم الله عبدا صان نفسه في هذه الدار عن العار، وحماها في الآخرة من عذاب النار، وأمير المؤمنين يرجو أن ينفعكم الله بهدايته، ويشفي صدوركم بموعظته، ويرشدكم إلى ما يفضي بكم إلى الكفاية والحماية. فليعلم فلان بن فلان ذلك من أمير المؤمنين ورسمه، وليعمل عليه بجملته، إن شاء الله تعالى.

الصنف الحادى عشَر

(الكُتُبُ فى النَّهْيِ عن التَّنازُع فى الدِّين)

قال فى " مواد البيان " : من أَهَمِّ ماصَرَفَ إليه السلطانُ تَفَقُّدَه، ووقف عليه [تَعَهُّده] أمرُ الرعايا فى أعماله ، وتنفيذُ الكُتُب إليهم بالنَّهْيِ عن التنازع فى الدين، وحَسْمِ أسباب المُجادَلة والمِراء، والتَّحْذِيرِ من اتِّبَاع البِدَع والأَهْواء، والإخْلادِ إلى مُضِلِّ النِّحَل والآراء: لأنه متى فَسَّح لهم فى هذا الباب صاروا شِيَعًا مُتَبَايِنِين، وفِرَقًا مُتَحارِبين، وانْشَقَّت عَصاهم، وانقضت حيلُهم ، وخرجوا عن أحكام أهل السلامة إلى أحكام أهـل الفِتْنة، وعاد ضَرَرُ ذلك على الدِّينِ والسُّلْطان . ولهذا صرف إليه السَّاسَةُ الحَزَمَةُ من الملوك الأهتمام، ولم يَخْلُوا بحَسْم مادَّته على تغايُرِ الأيام .

ثم قال : والرسم فيها أن تُصَدَّر بحمد الله تعالى على نِعَمه فى تأليف كلمة أهـل الإسـلام، ومامَنَّ به عليهم من الاتفاق والائتلام، وشُكْرِه على مَوْهِبَتِه فى نَزْع الغِلِّ من صُدُورهم ، والتأليفِ بين قلوبهم ، وتَصْيِيرِهم إخوانا مُتَصافِين، وخُلَّانًا مُتَوافِين، وعَوْنِهم بمـا وفَّقَهم له من إظْهارِهم على مَنْ شَقَّ عصاهم ، و إقـدارِهم بمـا مَنَحَهم من الأُلْفَة على مُرامَاة من رَامَاهم، والصلاة على سـيدنا محمد صلّى الله عليه وعلى آله وسلم . ثم يَشْفَعُ هذا بأن أمير المؤمنين بمـا مَكَّنه الله تعالى من مَرَاضيه ، ووَفَّقَه له من القيام بفَرْضه، والنُّهُوضِ بحقوق طاعته ، والعَمَلِ بكتابه وسُنَّته ، ورَغْبَته فى الخير العام، وشُمُول الصَّـلاح لكافَّة الأنام ـ لا يزال يَحُضُّ رَعِيَّته على مايقضى بسَـدَاد دُنْياهم ، وحُسْن المُنْقَلَب فى أُخْراهم ، ويرى أن أنفع ذلك عائده ، وأجْزَلَه فائده ، ما رفع عنهم أسـباب التَّنَافُر ، ودعاهم إلى التَّعاضُـد والتَّظافُر، وحال بينهم و بين الخَوْض فى مُحْدَث النِّحَل والآراء، والإصغاء إلى مُضِلِّ البِدَع والأَهْواء، التى

تَصُدُّ عن سَنَنِ الْهُدىٰ، وتُلْقِى فى مَهاوِى الرَّدىٰ، وتدعو إلىٰ شَقِّ العصا، وتقضى بانتثار النِّظام، وٱختلاف الأنام، وٱنفصام عُرىٰ الإسلام. وكَفِّهِم عن المُمَارَاة فى الدِّين، والإصْغاء إلىٰ سُنَّة المُضِلِّين، المُعَطِّلَة للسُّنَن، القادِحَة للفِتَن، الداعية إلىٰ ٱحْتِقَاب الآثام، وإراقة الدِّماء الحرام، ونحو هذا مما يضاهيه.

ثم يقول: وٱنتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين ٱلتفاتُكم عن معايشكم التى جعلها الله لدُنْيَاكم قِوَاما، وعبادتكم التى صَيَّرها لآخرتكم نِظاما، وإقبالُكم علىٰ المُمَارَاة والمنازعه، والمُنَاظرة والمجادله، إلىٰ شُكُوك يُقيمها مَنْ يرغَبُ فى الرِّياسة والتَّقَدُّم: ليفوزَ بخبيث المَطْعَم، الذى يُعْمِى البصائر، ويُفْسِدُ السرائر، ويَقْدَح زَنْدَ الضَّلال، ويُشِبُّ نَارَ المِحَال والٱنْتِحال، فٱمْتَعَضَ أميرُ المؤمنين من ذلك وخاف عليكم أليمَ عاجلته، وذَميم آجلته، وبَادَرَكم بكتابه هذا مُنَبِّهًا لغافلكم، ومُرْشِدًا لجاهلكم، وباعِثًا لكم علىٰ التَّشاغُل بما أطَابَ أخبارَكم، وحَسَّن آثارَكم: من تلاوة كتاب الله الذى آثرَكم بتلاوته، وزِيارة بُيُوت عبادته، والتأدّب بأَدَبِ نَبِيِّه وعِتْرَتِه، وأوْعَزَ إلىٰ النائب فى الحَرْب بتقويم مَنْ خرج عن أمره، وتثقيف من أصَرَّ علىٰ غَيِّه، وأن يَحْسِم الداءَ قبل ٱسْتِشْرائه، ويَسْتَدْرِكَه دُوَيْنَ ٱستفحاله، فأَصْغُوا إلىٰ زَوَاجِرِ أمير المؤمنين ومَوَاعِظه، وٱقْتَدُوا بَهْدِيه ومَرَاشِده، لتَفُوزوا بطاعته، وتَسْعَدوا بِرِضَاه، وتَسْلَمُوا فى الحاضر، من مَهَانَةٍ أنتم بغيرها أوْلىٰ، إن سلكتم الطريقة المُثْلىٰ، وفى الغابر مما أعدّه الله لمَنْ خالف عن أمره من العقاب فى الدار الأُخرىٰ، فاعلموا هذا وٱعملوا به إن شاء الله تعالىٰ.

قال: وقد يُكْتَب السلطان إلىٰ الرَّعِيَّة بالنَّهْيِ عن التَّفَاخُر بالبادِيَة والتنازع فى العَصَبِيَّة. ثم قال: والطريقة فى هذا المعنىٰ مشتقة من طريقة هذا الرسم.

الصنف الثـانى عَشَر
(المكاتبـــة بالأوامر والنـــواهى)

قال فى " مواد البيان " : علىٰ هـذه الكُتُب مَدَارُ أشغال السلطان فى أعماله ، لأنها النافذة فى تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم وِلَايَةً وعُِمَالة .

قال : وليس لهذا أمثلة فنُورِدَها ، لٰكنّه ينبغى للكاتب أن يؤكِّد القول بها ، فإن الأمرَ فيها والنَّهْىَ ـ وإن آختلف نَظْمُهُما ـ نوعٌ واحد : لأن كُلَّ مأمورٍ به مَنْهِىٌّ عن ضِـدّه ، وكُلَّ مَنْهِىٍّ عنـه مأمورٌ بِضدّه ؛ فينبغى له أن يؤكِّد القولَ فى آمتثال ما أُمِرَ ، والعملِ عليه والإنفاذِله ، والآنتهاء عمانهىٰ عنه ، والحَذَرِ من الإلمام به . ويجزم الأمرِ فى العبارة عنهما جَزْمًا تاما لا يُتَمَكَّن معه من الإخلال ببعضهما والنَّقْص فيهما لِهَوًى ؛ ويأتى من المبالغة بما يُضَيِّقُ العُذْرَ ، ومتىٰ وقع تقصيرٌ أوتَثَاقُلٌ عما حُدّد فيهما ، فإنّما يُمَثَّلُ ذلك بمُثُلٍ جامعة مع تَفَنُّنِ المعانى التى يأمر بها وينهىٰ عنها .

ثم قال : والكاتب إذا عرف الترتيب الواقعَ فى هذين الغَرَضَين علىٰ طريق الإجمال ، أمْكَنَه أن يَبْسُطَه إذا آحتاج إلىٰ التفصيل والبيان بمشيئة الله تعالىٰ .

وآعلم أنه كان للخُلَفَاءِ والملوكِ وَوُلَاةِ الأمور فى قديم الزمان عنايةٌ بالكتابة إلىٰ الرعايا بالأوامرِ والنَّواهى المتعلقة بالدِّين : من الأمْرِ بالمعروف ، والنَّهْيِ عن المُنكَر ، وما يجرى مجرىٰ ذلك ؛ وإلىٰ العُمَّال بالوَصِيَّة بالرعايا ، والآجتهادِ فيا لَدَيْهِم من جِبَايَة الخَرَاج ، والآهتمام بأمر الدَّواوين ، وما أشبه ذلك .

فأما الأوامرُ والنواهى المتعلقةُ بالدِّين ، فقد تقـدّم فى الكلام علىٰ مُصْطَلَح أهل الغَرْبِ فى أوائل هـذه المَقَالَة من إنشاء أبى زيد الفازازى ما أغنىٰ ذِكْرُه هناك عن إعادته هنا أو ذكر غيره .

وأما الأوامرُ والنواهي المتعلقةُ بأمور السَّلْطَنة، فمن ذلك ما كَتَب به أبو عبد الله ابن الجنان، عن الأمير أبي عبدالله بن هُودٍ أحدِ ملوك الطوائف بالأندلس في الرِّفْق بالرَّعِيَّة، وهو :

أما بعد حمد الله تعالىٰ مُعْلِي منَارِ الحقِّ ورافعه، ومُولِي مُتوالِي الإنعام ومُتَتابِعه؛ والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد رسوله مُشَفَّع الحَشْر وشافعه، المبعوث ببدائع الحِكَم وجَوامِعِه؛ وعلىٰ آله وصحبه المُبَادِرين إلىٰ مقاصده العَلِيَّة ومنَازِعِه، والذَّابِّين عن حَوْزَة الإسلام بمَواضِي الاعتزام وقواطعه؛ والرِّضَا عن الخليفة الإمام العباسيّ أمير المؤمنين ذي المجد الذي لا يُنَالُ سُمُوُّ مطالعه .

فإنا كتبنا إليكم، كتب الله لكم عِزَّةً قِدْحُها بالثبوت فائز، وسعادةً قِسْطُها للنَّمَاء حائز، من فلانة : وكلمة الحَقِّ منصورةُ اللِّوَاء، منشورةُ الأضواء، والتوكُّلُ علىٰ الله في الإعادة والإبداء، والتسليمُ إليه مَنَاطُ أمرنا في الانتهاء والابتداء؛ وحمدُ الله تعالىٰ وشُكْرُه وُصْلَتُنا إلىٰ نَيْلِ مَزِيد النَّعْماء والآلاء، ومكانتُكم لدَيْنا مكانةُ السَّنِيّ المَناصب، المُنْتَمِي إلىٰ كِرَام المُنْتَمَيات والمَنَاسب، المُتَحَلِّي في الغَنَاء والاكتفاء، والخلوص والصفاء، بأكرم السَّجِيَّات والمناقب، المعلومِ ما لدَيْه من المُنَاصَحة السَّالكة بأكرم السَّجِيَّات في المَنَاحِي الحِسَانِ علىٰ المَهْيَع الأوضحِ والسَّنَنِ اللَّاحب .

وقد وقفنا علىٰ كتابكم مُعْلِما بخبر فُلَانة وبما رأيتموه من المصلحة في تَحْصِينها، والاجتهادِ في سَبَب تأمينها، ونحن نَعْلَم أنكم تُرِيدُون الإصلاح، وتَتَوخَّوْنَ ما تتوسَّمون فيه النَّجَاح؛ لٰكِنْ أهَمُّ الأمور عندنا، وأَوْلىٰ ما يوافق غَرضَنا وقَصْدنا، الرِّفْقُ بالرَّعِيَّه، وحَمْلُها علىٰ قوانين الإحسان المَرْعِيَّه؛ وعلىٰ أَثَر وصول كتابكم وَصَلَنا كتابُ [أهلِ] فلانة المذكورة يَشْكُونَ ضَرر الخَدَمة المتصرِّفين فيهم، ويتظلَّمون من مُتَحَيِّفِيهم ومُتَعَسِّفِيهم؛ وفي هذا ما لا يَخْفَىٰ عليكم، ولا تَرْضَوْن به لو انتهىٰ إليكم؛

فإنه إذا كان الناظر فى خِدْمةٍ مِمَّنْ لا يُحْسِن سِياسَةَ الأمور، ولا يعلم طريقَ الرِّفْقِ الحاوِيَةَ لِرفْقِ الخاصَّة والجمهور، أعاد التَّسْكِينَ تنفيرا، والتَّيْسِيرَ تعسيرا، وتعلمون أنا لا نقدّم علىٰ إيثار العَدْلِ فى عباد الله المسلمين عَمَلا، ولا نَبْغِى لهم بَاطِنَةً بغير التخفيف عنهم والإحسان إليهم بَدَلا، وأنتم أوّلُ وأَوْلىٰ من يُعْتَقَدُ فيه أنه يُكَمِّل هذا المَقْصَد، ويَتَحَرّى فى مصالح الرعايا هذا السَّنَنَ الأرشد، وقد خاطبنا أَهْلَ فُلَانة بما يُذْهِبُ وَجَلَهم، ويَبْسُط أَمَلَهم، وعَرَّفْناهم بأنكم لو علمتم ماهو جَارٍ عليهم من [بَعْضِ] الخَدَمَةِ لأخَذْتم علىٰ يَدِه، وجازيتموه بسُوءِ معتمده، وأشعَرْنَاهم بأنّا قد استوصينا كم بهم خَيْرا، ونَبَّهْنا كم علىٰ ما يدفع عنهم ضَيْما ويَرْفع ضَيْرا، وأنتم - إن شاء الله - تستأنفون نَظَرًا جميلا، وتؤخرون عنهم الخَدَمَةَ الذين لا يَسْلُكون من السِّياسة سبيلا، وتقدّمون عليهم مَنْ تَحْسُنُ فيهم سيرَتُه، وتَكرُم فى تَمْشِيَةِ الرِّفْقِ عَلَانِيَتُه وسريرته، ومِثْلُكم لا يُؤَكَّد عليه فى مَذْهَبٍ تحسن عواقبُه، وغَرَضٍ يوافقه القَصْدُ الاحتياطىّ ويُصَاحِبه، إن شاء الله تعالىٰ.

الصنف الثالث عَشَرَ

(المكاتباتُ عند حدوث الآيات السَّماوِيَّة)

قال فى "موادّ البيان": جرت العادة أن يَكْتُبَ السلطان إلىٰ الرعايا - عند حدوث الآيات المُهَوِّلة التى يريد الله تعالىٰ بها إرشادَ عباده إلىٰ الإقلاع عن معصيته، والإقبال علىٰ طاعته، كالرِّياح العواصف، والزَّلازِل والصواعق، واحتباسِ القَطْر وخروجه فى التَّسْكاب عَمَّا جرت به العادة - كُتُبًا يُضَمِّنها من الوَعْظ الشافى الرَّقيق ما يأخذ بمجامع القلوب، ويُشْعِرُها التَّقوىٰ والرَّهْبة، ويبعث علىٰ المراقبة والنَّظَر فى العاقبة.

قال : وينبغى للكاتب أن يتلطّف فى الموعظة، ويبالغ فى الذكرى التى تخطر الخواطر وتقدح الأنفس، وتحرك العزائم نحو الإخلاص؛ فإنه إذا أبرز هذه المعانى فى صور [تُشعر] (١) الخيفة من غضب الله تعالى وعقابه، وترغّب فى عفوه وثوابه؛ نفع الله بذلك (؟) من رغب عن الهوى، ورغب فى التقوى بكتابه .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على آلائه التى يُفيضها ٱبتلاء وٱختبارا، وآياته التى يُرسلها تخويفا وإنذارا، وموهبته فى التوقيف بسابغ نعمته على طاعته، والتحذير بدافع نقمته من معصيته . والصلاة على رسوله الذى أنقذ بشفاعته، وعصم من نزول القوارع بنبوّته . ثم يقدّم مقدّمة تتضمن أن الله تعالى يقدّم الإعذار أمام سخطه وعذابه، ويبدأ بالإنذار قبل غضبه وعقابه؛ فمن ٱستيقظ من سنته، ونظر لعاقبته [ونهض] (١) إلى طاعته، وأقلع عن معصيته، كشف الرّين عن قلبه، وضاعف أجره؛ ومن أضرب عن موعظته، وتعامى عن تبصيره وتذكيره، أخذه على غرّته، وسلبه سربال نعمته .

ثم يأخذ فى حثّ الأمة على الفزع إلى الصلوات، والمسارعة إلى بيوت العبادات؛ والإكثار من التضرّع والخشوع، والاستكانة والخنوع، بإذراء سحائب الدموع؛ وإخلاص التّوبة عن مُحتقب الآثام ومُجترَح الأوزار، والتوسّل إلى الله تعالى فى قبول الإنابة بقلوب نقيّه، وطويّات على الطهارة مطويّه، وسرائر صريحه، ونيّات صحيحه؛ يُصدّقها الندم على الماضى، وعقد العزم على الإقلاع فى الآتى، والرّغبة إليه فى رفع سخطه وإنزال رحمته، وما يجارى هذا .

قلت : وهذا الصّنف من المكاتبات قد تُرك فى زماننا فلا عناية لأحد به أصلا، وإن كان مما يجب الاهتمام به وتقديمه .

(١) بياض بالاصل، والتصحيح يقتضيه المقام .

الصنف الرابع عشر

(المكاتباتُ فى التنبيه على شرف مواسم العبادة وشريف الأزمنة)

قال فى "مواد البيان" : إن الله وقّت لعباده أوقاتا عظّم شانها، ورفع مكانها؛ وأمرهم أن يتقربوا فيها إليه بتأدية مافرضه عليهم لُطفًا بهم ورأفه، وحنانًا ورحمه .

قال : ولم يزل السلطان يكتب إلى عمّاله بتنبيه الرعايا عليها ، وتعريفهم فضل العبادة فيها : ليستقبلوها بالإخبات والخشوع ، ويتلقّوها بالتضرّع والخضوع ؛ ويتوسلوا فى قبول التّوبات ، وغفران الخطيّات ؛ حفظًا لنظام الدين ، وتفقّدا لمصالح المسلمين .

قال : وينبغى للكاتب أن يحسن التأتّى فى هذه الكتب (1) ويُذكّر النّاسى وينبه الغافل اللّاهى، والمهمل السّاهى؛ ويحرّك النفوس نحو مصالحها، ويبعثها على الأخذ بفاضل الأعمال وصالحها .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على أن وهب لعباده أوقاتا يتقبلُ فيها قُربهم وأعمالهم ، ويُخفّف بالإنابة إليه عند حلولها أوزارهم وأثقالهم ؛ فيغفر لمستغفرهم، ويعفو عن مسيئهم؛ ويتقبل التّوبة عن تائبهم . والصلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلم وعلى آله . ثم يقدّم مقدّمة مبنية على تعظيم هذه الأوقات ، والإبانة عما فى قصرها على العبادات ، والمسابقة إلى الخيرات ، من عظيم الثواب. ويشفع ببعث الولاة على أخذ الرعايا بالمحافظة على السُّنن ، وتعهّد حقّ الله تعالى فيها، والتوسّع فى توكيد الحجّة ، ونفى الشبهه ؛ و إيراد المواعظ الرادعه ، والزواجر الوازعه ؛ التى تعود بشحذ البصائر، وصفاء الضمائر، والإتيان بحقوق هذه الأوقات وواجباتها،

(1) بياض بالاصل مقدار كلمة .

والفَوْز بما يُوَفِّرُه من جَزِيل بركاتها ، والتَّوفُّر على حُسْنِ مجاورتها ؛ والتَّقرُّب إلى الله تعالى بِبَذْل الصَّدَقات ، والإقبال على الصَّلَوات و زيارة بيوت العبادات ، ومُذَاكرة أهل الدِّين ، والسَّعْيِ فى مصالح المسلمين ، ونحو ذلك مما يناسبه .

ثم قال : فإن كان الكتاب مقصورا على الدعاء إلى الحجّ ، افتتح بالحمد لله على أنْ جعلَ لعباده حَرَمًا آمنًا يُمَحِّص ذنوبهم بزيارته ، ويَمْحُو آثامَهم بحَجَّه ووِفَادَته ؛ ويلى ذلك ما يليق به من الحَثّ على تأدية المَنَاسِك ، وتكميل الفرائض والسُّنَن ، وزيارة قَبْر النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، وكذلك الحكم فى سائر الأبواب الدِّينية .

الصنف الخامس عَشَر

(المكاتبةُ بالسلامة فى الركوب فى المواسم والأعياد وما ينخرط فى سِلْكِها من المواكب الجامعة)

قال فى "موادّ البيان" : جَرَت العادة أن يكاتِبَ السلطانُ عُمَّالَه ووُلَاته بسلامة المواسم الإسلامية كُلِّها : لأنها تُشَاهَدُ لجميع أصناف الرَّعايا وذَوِى الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة ، والقلوب المتعادية والمتصاحبة فى أمر الدين والدنيا ؛ وكُلّ مُتَرَبِّصٍ لِفتْنَةٍ ينتهز فُرْصَتَها . فلا تكاد هذه المَشَاهِدُ تخلو من ثَوْرَةٍ وحدوث أحداث مُنْكَرَة تُفْضِى إلى الفِتَنِ التى لا تُرْقَع . فإذا أنعم الله تعالى بالسلامة منها ، وجب التَّحدُّثُ بنعْمَته ، والشُّكْرُ لمشيئته ؛ وأن يكتب أمير المؤمنين بسلامة ما قِبَلَهُ إلى عُمَّالِه ، لتَسْكُنَ الكَافَّةُ إلى ذلك ، ويشتركوا فى حَمْد الله تعالى عليه .

واعلم أن المواسمَ التى كان يعتاد الخُلَفَاءُ الركوبَ فيها والكتابةَ بالسلامة منها هى : عِيدُ الفِطْر ، وعيد النَّحْر . وكان الخلفاء الفاطِميُّون بالديار المصرية يَعْتَادون

مع ذلك الركوبَ فى غُرَّةِ السَّـنة ، وفى أوّل رَمَضان ، وفى الجمعة الأولى ، والجمعة الثانية ، والجمعة الثالثة منه ، على ماتقدّم ذِكْرُه فى الكلام على ترتيب المملكة فى المقالة الثانية . وكذلك "عيد الغَدير" : وهو عِيدٌ من أعياد الشِّيعَة كما سيأتى ذكره . ونحن نُشير إلى ذِكْرِ مَواكبِها مَوْكِبًا مَوْكِبًا ، ونذكُرُ ما جرت به العادة فى الكتابة فى البشارة بالسلامة فى ركوب كُلِّ مَوْكِب منها .

الأوّل — البِشارَة بالسلامة فى الركوب فى غُرَّة السـنة . وقد تقدّم الكلام على صُـورَة المَوْكِب فى الكلام على ترتيب المملكة فى الدَّوْلة الفاطميـة بالديار المصرية فى المقالة الثانية .

وهذه نسخة كتاب فى معنى ذلك ، أورده أبوالفَضْل الصُّورِىّ فى تذكرته ، وهى :

الحمد لله الذى لم يَزَلْ يُولِى إحسانا وإنعاما ، وإذا أبلى عبيدَه عامًا أجدّلهم بفضله عامًا ، فقد أمدّكم معاشر [الخلفـاء][1] كَرَما ومَنًّا ، وآتاكم من جُودِه أكثر مِمَّـا يُتَمنَّى ، ومنحكم من عطائه ما يُوفِى على ما أردتموه ، ﴿وسخّر لكم اللَّيْـلَ والنَّهارَ وآتاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ﴾ وقد استقبلتم هذه السَّنة السعيده ، وإذا عَمِلْتم بالطاعة كنتم مستنجزين من ثواب الله الأغراضَ البعيده .

وصلّى الله على سيدنا محمد نَبِيِّه الذى غدتِ الجنة مُدَّخَرَةً لمن عَمِل بهُداه لَمَّـا سَمِعَه ، ومُهَيَّأة لمن آمن به واتّبع النُّورَ الذى أُنْزِل معَه ، وبيّن بإرشاده ماتجْرِى أمورُ السِّنين عليه فى العَدَد والحِساب ، ونسخ ما كانت الجاهليةُ [تفعله] فيه زِيادَةً فى الكُفْر وضَلالًا عن الصَّوَاب ؛ وعلى أخيه وابن عَمِّه أمير المؤمنين علىِّ بن أبى طالب الذى كَمَّل الله الإسـلامَ بإمامته ، وضاعف الأجْرَ لأهْلِ وِلايتـه ، ومنح شِيعتَه مَقْبُولَ شفاعته ؛

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

وعلىٰ الأئمة من ذريتهما خُلَفَاءِ الله علىٰ خلقه ، والقائمين بواجب حَقِّه ؛ والعاملين فى سياسة الكافَّة بما يُرضيه سبحانه ، ويَضْمَنُ غُفْرانه ورِضْوانَه ، وسلَّمَ عليهم أجمعين ، سلامًا باقيًا إلىٰ يَوْم الدِّين .

وإنَّ أحق النِّعَم بنَشْر الذِّكْر ، وأوجَبَها للوَصْف وإعمال الفِكْر ؛ نِعْمةٌ رفعت الشَّكَّ وأزالت اللَّبْس ، ووَضَح ضِياؤُها لأُولِي الألباب وُضُوحَ الشمس ؛ وٱشترك الناسُ فتضاعفت الفائدة لديهم ، وٱنتفعُوا بذلك فى تَوَارِيخهم ومُعَامَلاتهم ومالَهُم وعليهم ؛ وتلك [هى] المعرفةُ باليوم الذى هو مَطْلَعُ السَّنَة وأوّلها ، ومَبْدَؤُها ومُسْتَقْبلها ؛ وحقيقة ذلك ظُهُورُ إمام كُلِّ زمان . وكان ظهورُ إمام زماننا مولانا وسيِّدنا الإمام فلان ـ ليتساوىٰ فى الشرف برؤيته العامَّةُ والخاصَّةُ ، فيكون ٱستقلال رِكَابِه إشعارًا بأن اليوم الذى تَجلّىٰ فيه لأوليائه ، ولرَعَاياه المُتَفَيِّئِين ظِلَّ لِوائه ؛ هو ٱفتتاح السنة وأوّلُ مُحَرَّمها ، وعليه المُعْتَمَد فى عَدَدِ تامِّ الشهور ونَاقِصها من مُفْتَتِحها إلىٰ مُخْتَتَمِها ـ يَوْمَ كذا غُرَّةَ المحرم من سنة كذا ، فى عساكِرَ لايُحْصَر عَدَدُها ، وقبائِلَ لاينقطع مَدَدُها ؛ وإذا ٱضطرمت نار الكُفْر وٱلتهبتْ ، طَفِئَت بأنوارهم وخَبَتْ ؛ وقد تقلَّدَتْ هِنْدِيَّةً تَرُوعُ إذا أشرقت وسكنت ، فما الظَّنُّ إذا ٱصْطُحِبَت ؛ والأرض بمرورها عليها مُبْهَجَةٌ مُونِقَه ، وملائكة الله عَزَّ وجَلَّ حافَّةٌ به مُحْدِقه ؛ فأذَنَ بأن اليومَ المذكورَ هو غُرَّة السَّنة المعيَّنه ، وأن اليومَ الفُلانِىَّ أَمْسَه ٱنسلاخ كذاسنة كذا المتقدمة : لتستقيمَ أمورُهُم علىٰ أعدل نُهُوجِهم ؛ وليُحفظ نظام دينهم فى صَوْمهم وفِطْرِهم وحَجِّهم ؛ وكذلك أصدر هـذا الكتاب لِيَتْلُوَه الأميرُ علىٰ مَنْ يسكن عَمَلَه ، وجميع مَنْ قِبَلَه ؛ ويتماثلوا فى معرفته ، ويحمل كُلٌّ منهم الأمْرَ عليه فى مُعْتَقَدِه وأسباب معاملاته ؛ ويشكروا الله علىٰ النِّعْمة عليهم بهدايته . وهو يعتمد ذلك ويُطالِعُ بكائِنِه فيه إن شاء الله تعالىٰ ، وكُتِبَ فى اليوم المذكور .

الثـانى — البِشَارَةُ بالسَّـلامة فى الرُكوب فى أوّلِ شَهْر رَمَضَان ، وهى علىٰ نحوٍ مما تقدّم فى الركوب فى غُرَّة السَّنة .

وهذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك ، من إنشاء ٱبن الصَّيْرَفِىّ ، وهو :

الحمد لله كَالِئِ خلقـه فى اليَقَظَة والمَنَام ، والكَافِلِ لهم بمضاعفة الأجر فى شهر الصِّيام ؛ وصلّى الله علىٰ سـيدنا محمد الذى بعثه رحْمَةً للأنام ، وعلىٰ أخيه وٱبن عمّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طَالِبٍ أخلص وَلِىٍّ ، وأشْرَف وَصِىٍّ ، وأفْضَلِ إمام ؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتهما الدَّاعِينَ إلىٰ دار السلام ؛ صلاةً دائمـة الاتِّصَال ، مستمرّةً فى الغُدُوِّ والآصَال .

وإن من المَسَرَّة التى تُتَهَادىٰ : والنِّعْمَة الشاملة للخلق جميعا وفُرَادىٰ ، ما مَنّ الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان ، صلوات الله عليـه وعلىٰ آبائه الطَّاهِرِين ، وأبنائه الأكرمين ؛ يومَ كذا غُرَّةَ شهر رَمَضَان من سـنة كذا ، إعلاما بأوّل الشّهر وافْتِتَاحه ، وأن الصيامَ الأوّلَ من فَجْره الأوّلِ قبلَ تَنَفُّس صَبَاحه ، وتَوَجُّهِهِ إلىٰ ظاهر المُعِزِّيَّة القاهِرة المحروسة فى عساكِره المُظَفَّرَة وجنودِه ، وأوليائِه وأنصارِه وعبيدِه ؛ والمِنَّةُ بِرُؤْيته قد تساوىٰ فيها الكَافَّة ، وملائكة الله مُطِيفَةٌ حَافَّة ، وعَوْده إلىٰ قُصُوره الزاهِره ، وقد شمل المستظلين بأفْيَائِه بسعادَتَىِ الدنيا والآخره .

أُصْدِرَ إليك هذا الأمرُ لِتَقِفَ علىٰ الجمله ، وتشكُرَ النِّعْمَةَ السابغةَ علىٰ أهل المِلَّة ؛ وتَتْلُوها علىٰ أهل عَمَلِك ، وتطـالع بكائِنك فى ذلك ؛ فٱعْلَمْ هذا وٱعمل به ؛ إن شاء الله تعـالىٰ .

الثالث — الكِتَابةُ بالبشارة بالسلامة فى ركوب الجمعة الأولىٰ من شهر رَمَضَان .

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، من إنشاء ٱبن الصَّيْرَفِىّ أيضا ، وهى :

أفضل ماسُيِّرَ ذِكْرُه، ووجب حَمْدُالله تعالىٰ عليه وشُكْرُه، ماعادَ علىٰ الشريعة بالجَمَال والبَهْجَه، وأضحىٰ واصِفُه صحيحَ المَقَالِ صادِقَ اللَّهْجَه؛ فضاعفَ حَسَنَة ومَحَّص سَيِّئَه، وجعل أسباب السعادة مُتَسَهِّلَةً مُتَهيِّئَه؛ وذلك مايَسَّره الله تعالىٰ من آستقلال رِكَاب سيِّدنا ومولانا صلوات الله عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين؛ يوم الجمعة من شهر رَمَضَانَ من سنة كذا: مُؤَدِّيا خُطْبَتها وصَلَاتها، وضامنا لأُمَّةٍ آئْتَمَّتْ به خَلَاصَها يوم الفَزَع الأكبر ونَجَاتَها؛ فى وَقَارِ النبوّة وسكينة الرِّسَالَه، والهَيْبَةِ المُسْتَوْلية علىٰ العَظَمَة والجَلَالَه؛ والعساكرِ الجَمَّةِ التى تُقْلِقُ بمهابَتِها وتُزْعِج، وتَظُنُّ لكَثْرَتِها واقِفَةً والرِّكَاب يُهَمْلِج؛ ولما آنتهىٰ إليه، خَطَبَ ووَعَظَ ففتح أبوابَ التَّوْبَه، وآب إلى الطاعات مَنْ لم يُطْمَعْ منه بالأَوْبَه؛ وصلَّى صلاةً تَقَبَّلها جَلَّ وعزَّ بقَبُول حَسَنْ، وقَصَّر فى وَصْفِها ذَوُو الفَصَاحةِ واللَّسَن؛ وعاد إلىٰ مُسْتَقَرِّ الخلافه، ومَثْوىٰ الرحمة والرافه؛ وعَيْنُ الله له مُلَاحِظَه، وملائكته له حَافِظَه. أُعْلِمْتَ ذلك لتُذيعه فى أهل عملك، وتطالع بكائنك.

الرابع — المكاتبة بالبِشَارَة بالسَّلامة فى ركوب الجمعة الثانية من شهر رَمَضَان.

قد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة بالديار المِصْرِيَّة فى الدَّوْلة الفَاطِمِيَّة، فى المقالة الثانية: أن الخليفة كان يركب فى الجمعة الثانية من شهر رَمَضَان إلىٰ الجامع الأنور، وهو جامعُ بابِ البَحْرِ، الذى عَمَرَه الحاكِمُ بأمر الله، وجدّده الصَّاحِبُ شمس الدين المَقِسِيُّ.

وهذه نسخة كتاب فى المعنىٰ، من إنشاء آبن الصَّيْرَفِيّ أيضا، وهى:

لم يَزَلْ غَامِرُ كَرَمِ الله وفَضْلِه، يَفُوقُ حاضِرُه ما كان من قَبْلِه؛ فنعمة الله تعالىٰ سابغه، ومِنَنُه مُتَتَابِعه؛ ومَلَابِسها ضافِيَه، ومَغَارِسُها نامِيَه، وسَحَائِبها هامِيَه؛ وهو جَلَّ

وعَزَّ يضاعفها علىٰ مَنْ صَلَّى وصام، ويُوَالِيها عند من تَمَسَّكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقىٰ التى لا ٱنفصال لها ولا ٱنْفِصَام ؛ وتجدّد من ذلك ما كان من بُرُوزِ مولانا وسيدنا الإمام فلان : صَلَوَاتُ الله عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكْرَمين؛ يوم الجمعة من شهر رَمَضَان من سنة كذا : فى شامخ عِزِّه، وبَاذِخِ مَجْده؛ وتَوَجُّهه إلىٰ الجامع الأنْوَرِ المنسوب إلىٰ مولانا الإمام الحاكم بأمر الله جدّه ؛ سلام الله عليه وصَلَوَاتُه، وبركاته وتَحِيَّاته ؛ وعساكره قد تجاوزت الحَدّ، وكَثُرَت عن الإحصاء والعَدّ ، فإذا تأملها الطَّرْفُ ٱنْقَلَب عنها خاسِئًا وٱرْتَدّ .

ولما وصل إلىٰ الجامع المذكور خَطَبَ فأوْرَدَ من القَوْل أحْسَنَه، ووعَظَ فأسمع من الوَعْظِ أوضَحَه وأبْيَنَه ؛ وصلّىٰ صلاةً جَهَر بالقراءة فيها ورَتَّلَها، وعاد إلىٰ قُصُوره الشريفة وقد شملت البَرَكَات برؤيته، ووُفِّقَ مَنْ عَمِلَ بمَوْعِظَتِه، ونجا من ٱقتدىٰ به فى صلاته ، وٱستولىٰ علىٰ السَّعْد من جميع أرْجائِه وجِهَاته . أعلمناك ذلك لتعرف قَدْرَ النِّعْمة به، فٱشكر الله سبحانه بمقتضاه ، وٱعتمد تلاوة هـذا الأمر علىٰ رُءُوس الأشهاد؛ فٱعلم ذلك .

الخامس — المكاتبة بالسَّلامة فى الرُّكوب فى الجمعة الثالثة من شهر رَمَضَان .

قد تقـدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى المقالة الثانيـة أن الخليفة كان يركب فى الجمعة الثالثة منه إلىٰ الجامع العَتِيقِ[1] بمِصْر، فيخطب فيه ويعود إلىٰ قصره .

وهذه نسخة كتَاب فى معنىٰ ذلك ، من إنشاء ٱبن الصَّيْرَفِىّ، وهى :

(١) ما تقدم فى (ج ٣ ص ٥١١) من هذا المطبوع صريح فى أنه كان يركب فى الجمعة الثالثة من رمضان إلىٰ الجامع الأزهر ، وأنه لا يركب إلىٰ الجامع العتيق إلا فى الجمعة الرابعة ، التى أهمل هنا ركوبه إليها وحاصل ما تقدّم أنه يركب فى جمع رمضان ماعدا الأولىٰ .

من عوائد الله ـ سبحانه ـ الإحْسَانُ إلىٰ عَبِيده ، وتَعْوِيضُهم للشُّكرِ عليه بِنُمُوِّهِ ومَزِيدِه ، والامتِنانُ بتيسير عَصِيِّه ، وتعجيل قَصِيِّه ، وتقريب بعيده ؛ فهو لا يُخْلِيهم من نَوَاجِمِه ، ولا يُعْفيهم من هَوَاجِمِه .

ولما أقبل هذا الشهر الشريف كان من عُمُوم بركاته ، وشُمُول خَيْراته ؛ أن مولانا وسيدَنا الإمامَ الفلانيَّ صَلَواتُ الله عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ؛ والىٰ فيه بَرَكَاته ، وزكَّى أعمالَ المؤمنين فى آستماع آختِطابه والآئتمام بصَلاته ؛ وفى هذا اليوم وهو يوم الجمعة من شهر رَمَضَان ، أعمل ركابه إلىٰ الجامع العتيق بمصر لِيُسْهِمَ لهذه المدينة من حَظِّي الدنيا والآخره ، مثْل ما أسْهَمَه وعَجَّلَه لأهْـلِ المُعِزِّيَّة القاهره . فكانت هيبَتُه يُعْجِزُ وصفُها كُلَّ لِسان ، وظهر ـ عليه السلام ـ فى الرِّدَاءَيْنِ : السَّـيْفِ والطَّيْلَسَان ؛ والجيوشُ قد آنبسطت وآنتشرت ، والنفوسُ قد آبْتَهَجت وآستبشرت ، والألسنة قد عكفت علىٰ الدعاء بِتَخْلِيدِ مُلْكِهِ وتوفَّرت . وعند وُصُوله خَطَبَ فأحسنَ فى الألفاظ والمعانى ، وحَذَّرَ من تأخير التَّوْبَة والتَّضْجيع فيها والتَّوَانى ؛ وصلَّى صلاةً شرَّفها الله وفضَّلها ، ورَضِيَها تبارك وتعالىٰ وتَقَبَّلَها ؛ وآنْكَفَأَ عائدا إلىٰ قُصُوره ومنازله المعظمة : ضاعف الله له ثَوَابَه وأجْرَه ، وأوجب شُكْرَه ورفع ذِكْرَه ؛ ويجبُ أن تَعْتَمِد إذاعَةَ ذلك لِيُبَالِغَ الكافَّةُ فى الآعتراف بالنِّعْمَة فيه ، ويُوَاصِلُوا شكْرَ الله تعالىٰ عليه ، والمُطَالَعَةَ بما آعتمد فيه .

السادس ــ ما يكتب بالبشارة بالسَّلامة فى رُكُوب عيد الفِطْر .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب الدَّولة الفاطمية فى المقالة الثانيـة : أن الخليفة كان يركبُ لصَـلاة عِيدِ الفِطْر صبيحةَ العِيدِ ، ويخرج من باب العيـد من أبواب

القَصْر، ويتوجه إلى [المُصَلَّى][1] فيُصَلِّى ويَخْطُب، ثم يعود إلى قصوره، ويكتب بذلك إلى أعمال المَمْلَكة، تارةً مع خُلُوّ الدَّوْلة عن وَزِير، وتارةً مع آشتمالها على وَزِير .

وهذه نسخة كتاب فى معنى ذلك، مع خُلُوّ الدولة عن وزير، من إنشاء آبن الصَّيْرَفى، وهو :

الحمدُ لله نَاشِرِ لِوائِه فى الأقطار، ومُعَوِّض المُطِيعين من جَزائِه ببُلُوغ الأوطار، الذى نَسَخَ الإفطارَ بالصِّيَام ونسخ الصِّيام بالإفطار، وكَلَّف عِباده ما يُطِيقُونه ووعد عليه جَزِيلَ أجْرِه، وأسْبَغَ من نِعَمِه مالايطمع [فى القِيَام] بواجب حَمْده عليه وشُكْرِه، وصلى الله على سيدنا محمد نَبِيِّه الذى أعْلَنَ بالإيمان وبَاح، وبَيَّنَ المَحْظُور فى الشَّرِيعة والمُبَاح، وأرشد إلى ما حَرَّمَه الإسلام وحَلَّله، ومَهَّدَ سُبُلَ الهُدَى لمن آسْتَغْوَاه الشَّيطان وضَلَّله، وأوضح مَرَاتِبَ الأوقات ومَنازِلَها، وعَرَّف تَفَاوُتَ الأيام وتَفَاضُلَها، وعلى أخيه وآبن عَمِّه أميرِالمؤمنين عَلِيِّ بن أبى طَالِبٍ الذى مضت فى الله عَزَمَاتُه، وبَيَّضَتْ وجهَ الدِّينِ الحَنِيف مَوَاقِفُه ومَقَامَاتُه، وعلى الأئمة من ذرّيّتهما الذين تَكَفَّلُوا أمر الأمة نَصًّا، وآمتَطَوْا على مَنَارها فلم يألوا جُهْدًا ولم يتركوا حِرْصًا، فالحاضر منهم يُوفِى على مَنْ كان [مِنْ] قَبْله، وأحزابُ الحَقِّ فَرِحُون بما آتاهم الله من فَضْلِه، وسلم عليهم أجمعين سلاما لا آنقطاع لدَوَامه، وشَرَّفَهم تشريفًا لا آنفصام لإبرامه، وأسْنَى ومَجَّد، وتَابع وجَدَّد .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عِيد الفِطْر من سنة كذا : بعد أن وَفَّى الصِّيامَ حَقَّه، وحاز أجْرَ مَنْ جعل الله على خزائنه رِزْقَه، وبعد أن أفطر بحَضْرَته الأولياء من آله وأُسْرَته، والمُقَدَّمُون من رُؤَسَاء دَوْلَته، والمُتَمَيِّزُون من أوليائه

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عما تقدّم فى هذا المطبوع (ج ٣ ص ٥١٣) .

وشيعته . وكان من نبإ هذا اليوم أن أمير المؤمنين لما ارتقب بروزه من قصوره، وتجلى فأشرقت الأرض بنوره ، توجه إلى المصلى قاضيا لسنة العيد ، فكانت نعمة ظهوره بالنظر [للحاضر] وبالخبر للبعيد، واستقل ركابه بالعساكر المنصورة التى أبدت منظرا مفتنا معجبا، وجعلت أديم الأرض بالخيل والرجل محتجبا، وذخرت الانتقام ممن شق العصا، وتجاوزت فى الكثرة عدد الرمل والحصا، وزينت الفضاء بهيئتها، وروعت الأعداء بهيبتها، وجمعت بين الطاعة وشدة البأس ، وادرعت من التقوى أمنع جنة وأحصن لباس ؛ ولم يزل سائرا فى السكينة والوقار ، ناظرا للدنيا بعين الاحتقار ، والثرى بالجباه والشفاه مصافح ملثوم، فهما موسومتان به وهو بهما موسوم ؛ إلى أن وصل إلى مقر الصلاه، ومحل المناجاه؛ فصلى أتم صلاة وأكملها، وأداها أحسن تأدية وأفضلها ؛ وأخلص فى التكبير والتهليل إخلاص من لم يفت أمرا و يخشى الله ويتقيه ونصح فى إرشاده ووعظه ، وأغرب ببديع معناه وفصيح لفظه ؛ وعاد إلى مثوى كرامته ، وفلك إمامته ؛ محمود المقام، مشمولا بالتوفيق فى النقض والإبرام . أعلمك أمير المؤمنين ذلك لتذيعه فيمن قبلك ، وتشكروا الله على النعمة الشاملة لهم ولك ؛ فاعلم هذا واعمل به ، إن شاء الله تعالى . وكتب فى اليوم المذكور .

⁂

وهذه نسخة كتاب فى معنى ذلك، والدولة مشتملة على وزير، عن الحافظ لدين الله العلوى خليفة الديار المصرية، فى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وهى :

الحمد لله الذى أعز الإسلام وشيد مناره ، وأيد أولياءه ونصر أنصاره ؛ وأظهر فى مواسمه قوته واستظهاره، وختم الشرائع بشرف أبدى فكان حظها منه إيثاره،

وحَظُّ الإسلام ٱسْتِبْدَادَه به وٱستئثارَه؛ وصلّى الله علىٰ جدّنا محمد الذى كَرَّمه باصْطِفَائِه، وأسْعَدَ من حافَظَ علىٰ ٱتّباع نَهْجِه وٱقْتِفَائِه؛ وبَيَّن بشَرْعه ما حَلَّلَه وحَرَّمَه، ودعا الأمة بإرساله إلىٰ دِينٍ قَيِّمٍ أعلىٰ بِنَاءَه وأحْكَمَه؛ ووعدهم علىٰ مَفْرُوضه ومَسْنُونه جَزِيلَ الأَجْر، وأمر فى ٱعتقاد خِلَافه بالدَّفْع والمَنْع والزَّجْر؛ وعلىٰ أخيه وٱبن عَمِّه أبينا أميرِ المؤمنينَ عَلِيِّ بن أبى طَالِبٍ أوّلِ الأئمة الخُلَفَاء، والمُشْتَهِرةِ فضائلُه ٱشتهارا ليس به من خَفَاء؛ ومَنْ حَبَاه الله المَحَلَّ الرفيعَ والمَنَّ الجَزِيل، وخَصَّه من الشَّرَف بمـا جاء فيه من مُحْكَمِ التَّنْزِيل؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتِهما القائمين بفرض الله والمُؤَدِّينَ لحُقُوقه، والذين كَفَلَتْ أماناتُهم بانبساط نُورِ الحقّ وٱنتشارِ لِوائه وخُفُوقه؛ وسَـلَّمَ وكَرَّم، ومَجَّدَ وعَظَّم .

وكتاب أمير المؤمنين إليك يوم كذا عِيدِ الفِطْرِ من سنة إحدىٰ وثلاثين وخمسمائة، الذى أمر الله فيه بما نَهىٰ عنه من قَبْلِه، وضاعف الأجر بكَرَمِه وفَضْلِه؛ فرفع تكاليفَ الصَّوْم، وأوجَبَ الإفطارَ فى هذا اليوم؛ وساوىٰ فى ذلك [بين] كُلِّ مُتْهِمٍ ومُنْجِد، وأمر بَنِى آدَمَ فيه بأَخْذِ الزِّينةِ عند كُلِّ مَسْـجِد؛ وكان من خَبَره أن الفَجْر لمَّـا طلع مُبَشِّرًا بالشمس، ومُؤْذِنًا ببَعْثِهـا من الرَّمْس؛ تتابعت الجُيُوش المَوْفُوره، والعساكر المنصوره؛ إلىٰ أبواب القُصُور الزاهرة توكُّفًا لأنوار أمير المؤمنين، وتَرَقُّبًا لظهوره قاضيًا حَقَّ الدِّين؛ فلمـا أسفر الصُّبْحُ وأضاء، وملأت الخلائقُ الفَضَاء؛ تَجَلَّىٰ من أفْلَاك إمامته، وبَرَزَ فأَغْبَطَ كُلُّ مُؤْمنٍ بثَبَاته علىٰ المُشَايَعَـة وإقَامَته؛ وكان ظاهرًا وهو مُحْتَجِبٌ بالأنوار، ومُمْتَنِعا وهو مُنْتَهَبٌ بالأبصار؛ والكَافَّةُ يُصَافِحُون الأرض ويَجْتَهِـدون فى الدعاء بإخلاص نِيَّاتِهـم، والعساكر المؤيدة لو أنّهـا عَمَّت الأرضَ بتَطْبِيقها، وساوت بين قَرِيبها وسَحِيقها؛ وصارت كالجبال الرَّوَاسى فيهـا، لكانت قد تزلزلت ومَادَتْ بأهْلِيها، وهى مع تَبَـايُنِ أجناسها وطَوَائِفها مُتَظَافِرة علىٰ مُعَانِدى

الدّوْلة ومُخَالِفيها ، مُتَلَائمةٌ على الوَلاء ، مُتَمَالِئةٌ على الأعداء ، تَتَلَفّتُ إلى المُجَاهَدة كأنها الأُسُودُ إقْدامًا وبَاسًا ، وكأنّما فُصِّلت جَوامدُ الغُدْرانِ سِلاحا لها ولِبَاسًا ، والسيّدُ الأجَلُّ الأفضلُ التى عَظُمت به المواهب وجَلّت ، وذهبت بِوزارَته الغَياهِبُ وتجلّت ، وتَهلّل بنظره وَجْهُ المِلّة وكان عَابِسا ، وأعاد الدّوْلةَ مُعْصِرًا وقد كانت قبله عَانِسا ، وحَسُنَت الدُّنيا بأيامه إذ ليس فيها مَنْ يُضَاهِيه ، وٱنْتَظَمت أمورها على الإرادة بصدورها عن أوامره ونواهيه ، تُرتّبُ المواكبُ بمهَابَتِه ، ويُسْتغْنَى بتوغُّلها فى القلوب عن إيمائه وإشارَته ، وكُلُّ طائفة مُقْبِلَةٌ على شانها ، لَازِمَةٌ لمكانها ، مُتصَرِّفَةٌ على تهذيبه وتقريره ، عاملةٌ بآدابه : فُوقُوفُها بوُقُوفه ومَسِيرُها بمَسِيره .

وتوجه أمير المؤمنين إلى المُصَلَّى محفوفا بأنوار تُجلّى ماأنشأته سَنَابِكُ الخَيْل ، وتَمْحُو آيَةَ نَقْع قام مُثَارُها مقام ظَلَام اللّيل ، وعليه من وَقَارِ الإمامة ، وسكينة الخلافة ، ما خَصَّه الله تعالى به دون البَرِيَّة وحده ، لأنه مما وَرِث أمية رسول الله صلّى الله عليه وسلم وآله وجدّه [1] ، ولما ٱنتهى إليه قَصَد [المِحْرَاب] [2] وأمّه ، وأدّى الصَّلَاة أكْمَل أداء وأتمّه ، ثم ٱنتهى إلى المِنْبر [3] فعلاه ، ومجّدَ الله تعالى وحَمِدَه على ماأولاه ، ووَعَظ وَعْظًا خَوَّف عاقِبَةَ المعاصى والذُّنوب ، وحَلَّ وِكاءَ العُيُون وداوى مَرَضَ القُلُوب ، وأمر بسُلُوك سبيل الطَّاعات وأفعالِ البِر ، وحَثَّ على التَّوفُّر عليها فى الجَهْر والسِّر ، وعاد إلى قُصُوره المكرمه ، ومَوَاطِنِه المُقَدّسه ، وقد بذل فى نُصْحه لله ولرسوله وللمؤمنين جُهْدَه ، وفَعَل فى الإرشاد والهِدَاية مالاغَايَةَ بَعْدَه .

---

(١) كذا بالأصل .

(٢) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

(٣) فى الأصل «إلى المحراب فصلاه» ولا معنى لها .

أنباك أمير المؤمنين خبرَ هذا اليَوْم لتَشْكُرَ الله علىٰ النِّعْمَة فيـه ، وتُذِيعه قِبلَك علىٰ الرسم فيما يُجاريه؛ فآعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالىٰ .

السابع — مايكتب بالبشارة بالسلامة فى ركوب عِيدِ النَّحْر .

قد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب دولة الفاطميِّين فى المقالة الثانيـة أن الخليفة كان يركب لصَلاة عيـدِ النَّحْركما يركب لصلاة عيد الفِطْر، تارَةً مع آشتمـال الدَّوْلَة علىٰ وزير، وتارَةً مع عَدَم آشتمالها علىٰ وزير .

وهذه نسخة كتاب فى معنى ذلك، من إنشاء آبن الصَّيْرَفِىّ، وهى :

أما بعـد ، فالحمد لله الذى أعلىٰ مَنَارَ المِلَّه ، وشرَّفَ مَوَاسِمَ أهل القِبْلَه ، وكَفَّل أمير المؤمنين أمْرَ الأيّام، كما كَفَّلَه أمْرَ الأنام، فرأىٰ الناسُ من حُسْن سِيرَتِه أيْقَاظًا مالايَرَوْنَه مَجازًا فى المَنَام، وصلّى الله علىٰ جَدِّنا محمد نبيِّه الذى أرسله إلىٰ الناس كافَّه، وجعل العِصْمَةَ مُحِيطَةً به حافَّه ، فأطلع فى ظـلام الشِّرْك شَمْسَ التوحيـد وَبَدْرَه، وآمن به مَنْ شرح الله للإسلام صَدْرَه، وعصاه من تمرّد فأثقل الوِزْرُ ظَهْرَه ، وبَيَّن عباداتٍ كَرُم أجْرُهـا وعَظُمَ ثَوابُها ، وألْزَمَ طاعاتٍ جعل الجَنَّـة للعاملين بها مُفَتَّحَةً أبوابُها ؛ وعلىٰ أخيه وآبن عَمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طَالِب مُظَافِرِه ومُظَاهِرِه، والمساوى فى حُكْمه بين باطنه وظَاهِرِه، ولم يَزَلْ حاملًا علىٰ المَحَجَّةِ البيضاء جاعلًا ذلك من قُرَبِه وذَخَائِرِه ، قائمـا بحقوق الله جَاهِدًا فى تعظيم حُرُمَاتِه وشعائره ؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتِهما نُجُوم الأرض وهُدَاةِ أهلها ، والواجبةِ طَاعَتُهم علىٰ مَنْ فى وَعْرِها وسَهْلِها، والذَّابِّين بالمَشْرَفِيَّة عن حِمىٰ الشريعه، والذين مُتَابَعَتُهم من أوْجَه ذَرِيعَه .

وكتاب أمير المؤمنين هـذا إليك يوم كذا عِيدِ النَّحْر سنة كذا وكذا : وهو يومٌ أظهر الله فيه قُوّة الدَّوْلَة وآقتدارَها، وأوجب فيه — رَغْبَةً ورَهْبَةً — مسارعةَ النفوس

المخالفة إلى الطاعة وآبتدارها ، وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قصوره الزاهرة عند آنفجار الفجر ، وحافظت على ماتحرزه من كريم الثواب وجزيل الأجر ، وآستنزلت الرحمة برؤية إمام الأمه ، وأعدت الإخلاص فى خدمته من أوفى الحرمات وأقوى الأذمه ، وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طوالعه ، ومهابته تمنع كل طرف من آستقصاء تأمله وتدافعه ، وقصد المصلى فى كتائب لجبه ، ومواكب للتعظيم مستوجبه ، وعزة تتبين فى الشمائل والصفحات ، وقوة يشهد بطيب وصفها أرج النفحات ، قد غدت عددها محكمه ، وخيولها مطهمه ، وذوابلها إذا ظمئت كانت مقومه ، و إذا رويت عادت محطمه ، تتقلد صفائح متى آنتضيت أنصفت من الجائر الحائف ، ومتى آقتضبت عملا كان آقتضابها مبيضا للصحائف ، وفى ظلها معاقل للآئذين ، وبحدها مصارع للمنابذين ، وهى للدماء هوارق ، وللهامات فوالق ، ولمستغلق البلاد مفاتح ولمستفتحها مغالق .

ولما آنتهى إلى المصلى قضى الصلاة أحسن قضاء وأداها أفضل تأديه ، وآستنزل رحمة لم تزل بصلاته متماديه ، وآنتهى إلى المنبر فرقيه ، وخطب خطبة من آستخلفه الله فكان مراقبه ومتقيه ، ووعظ أبلغ وعظ ، وأبان عما للعامل بنصحه فى الدنيا والآخرة من فائدة وحظ . وعطف على الأضاحى المعدة له فنحرها جريا فى الطاعات على فعلها المتمادى ، وأضحت تتوقع التكميل بإنجازه وعيده فى الأعادى ؛ فالله يقضى بتصديقه ، ويمن بتخيله وتحقيقه ، وعاد إلى قصوره المكرمة مشكورا سعيه ، مضمونا نفعه ، مرضيا فعله ، مشمولا عبيده منه بما هو أهله . أعلمك أمير المؤمنين ذلك فاعلم هذا وآعمل به . وكتب فى اليوم المذكور .

وهـذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك، والدولة مشـتملة علىٰ وزير، من إنشاء ٱبن قادوس، وهى :

أما بعـد ، فالحمد لله ماحى دَنَس الآثام بالحجّ إلىٰ بيْته الحَرَام ، ومُوجِبِ الفَوْزِ فى المَعَادِ لمن عَمِل بمراشد أئمة الهُدىٰ الكِرَام، ومُضَاعِفِ الثَّواب لمَن ٱجتهد فيما أمر الله به من التَّلْبِيَة والإحْرام ، ومُحَوِّ الغُفْرَانِ لمن كان بفرائض الحَجّ ونَوَافِلِه شـديدَ الوَلُوعِ والغَرام، وصلّى الله علىٰ جدّنا محمد الذى لبّىٰ وأحرم، وبيّن ما أحَلّ اللهُ وحَرّم، وعلىٰ أخيه أبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طَالِبٍ الذى ضَرَب وكَبَّر، وحقَّر من طَغىٰ وتَجبَّر، وعلىٰ الأئمة من ذرّيّتِهما أعلامِ الدِّينِ ، وحُتُوف المُعْتَدِين، وسلَّم وكَرَّم، وشَرَّف وعظَّم .

وإنّ من الأيام التى كَمُلَت محاسِنُهـا وتَمّت ، وكَثُرت فضائلها وجَمّت ، ووجب تخليدُ عِزِّ صِفَاتِها، وتعيَّن تَسْطِيرُ تأثيراتها ، يَومَ عِيدِ النَّحْر من سنة كذا : وكان من قَصَصِه أن الفجْر لمـا سَـلَّ حُسَامَه ، وأبدىٰ الصَّباحُ ٱبْتسامَه ، نَهض عبيد الدَّوْلة فى جموع الأولياء والأنصار ، وأُولِى العَزِيمَـة والاَستبصار، مُيَمِّمِينَ القُصُور الزاهرة مُتَـبرِّكين بأفْنِيَتِها، ومُسْتَمْلِين بسعادتها، وتألَّفُوا صفوفاً تَبْهرُ النواظر، ويُخْجِلُ تألُّفها تألُّفَ زَهْرِ الرَّوض الناضر، مُسْتَصْحِبِين فُنُونا من الأزْيَاءِ تَرُوق، ومُسْتَتْبِعِين أصنافاً من الأسلحة يَغُضّ لَمَعُها من لَمْع اللَّهَبِ والبُرُوق، والأعلام خافِقَه، والرَّايات بألسِنَة النَّصر، علىٰ الإخلاص لإمام العَصْر، مُتَوَافقه، فأقاموا علىٰ تَشَوُّفٍ لظهوره، وتَطَلُّعٍ للتَبرُّك بلامع نوره .

ولما بَزَغَتْ شمسُ سَعادته، وجَرَت الأمورُ على إيثاره وإرادته، وبَدَتْ أنوار الإمامة الجَلِيَّه، وظهرت طَلْعَتُها المُعَظَّمة البَهِيَّه، خَرَّ الأنامُ سُجُودا بالدعاء والتمجيد، والاعتراف بأنّهم العبيدُ بَنُو العَبِيد؛ واستقلّ رِكَاب أمير المؤمنين، ووزيره السَّيِّد الأجَلّ الذى قام بنَصْرِ الله فى إنجادِ أوليائه، وتكفَّل للإسلام برفْعِ مَنَارِه ونَشْرِ لِوائه؛ ونَاضَلَ عن حَوْزَةِ الدِّين وجاهد، وناصَلَ أحزابَ الكُفَّار وناهد؛ يقوم بأحكام الوزاره، وتدبير الدولة تدبير أُولِى الإخْلاصِ والطَّهَاره؛ ويتّبع آراءَ أميرِ المؤمنين فيما تنفذ به أوامِرُه، ويعمل بأحكام الصَّوَابِ فيما تقتضيه مَوَارِدُه ومَصَادِرُه؛ ويُحْسِن السِّيَاسَة والتدبير، ويَتَوَخَّى الإصابةَ فى كُلِّ صغير من أمور الدَّوْلة العَلَوِيَّة وكبير؛ ويُخْلِصُ لله جَلَّ وعَزَّ ولإمامه، ويُكَفْكِفُ من الأعداء ببَذْلِ الجُهْدِ فى إعمال لَهْذَمه وحُسَامه؛ وسار أمير المؤمنين والعساكرُ متتابعة فى أَثَره، مُتَوَافِقَةً على امتثال أمْرِه؛ قد رفَعَت السَّنَابِكُ من العَجَاجِ سحابا، وخَيَّلَتْ جُنَنُ الجُنْدِ للناظرين فى البرِّ عُبَابا؛ والجِيَادُ المُسَوَّمَةُ تَمُوجُ فى أعِنَّتِها، وتختال فى مراكبها وأَجِلَّتِها؛ وتُسْرِعُ فتُكْسِب الرِّياحَ نَشَاطا، وتفيد المُتَعَرِّضَ لوَصْفِها إفراطا؛ وتُهْدِى لمَنْ يحاول مماثلتها غُلُوًّا واشْتِطَاطا؛ وأصواتٌ مرتفعةٌ بالتهليل، وأصواتُ الحديد تُسْمِعُ بشائرَ النَّصر بتَرْجَمة الصَّلِيل؛ ويكاد يُرْعِب الأرضَ تَزَلْزُلُ الصَّهِيل، وتَرُضُّ سَنَابِكُها الهِضَابَ وتغدو صِلابُها كالكَثِيبِ المَهِيل.

ولما انتهى رِكَابُ أمير المؤمنين إلى المُصَلَّى والتوفيق يَكْتَنِفُه، والسعادة تُصَرِّفه؛ قَصَد المِحْرَابَ فأقام الصلاه، ونَحَا المنبر فَشَرَّفَه إذ عَلَاه؛ وأدّى الصَّلاة على أكمل الأوضاع وأَتَمِّها، وأجمع [الأحوال] لمراضى الله وأعَمِّها؛ وانْثَنَى للبُدْنِ المُعَدَّة فنحر ما حضَر تَقَرُّبًا لخالِقِه، وأجرى القَانُونَ على حقائقه؛ وعاد إلى قُصُوره الزاهرة وقد غفر الله بسَعْيِه الذُّنُوب، وطَهَّر برُؤْيتِه القلوب، وبَلَّغ الأمم من المَرَاشِد نِهايَةَ المطلوب.

أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذا اليوم الّذى تشتمل المسارّ علىٰ جميعه أوّلا وآخرا ، وباطنًا وظاهرًا ؛ لتُذيع نبأه فى عمل ولايتك ، وتُشيع خبره فى الرعايا علىٰ جارى عادتك ؛ فاعلم هذا واعمل به ، وطالع مجلس النّظر السيدى الأجلى بما اعتمدته فى ذلك ، إن شاء الله تعالىٰ . وكُتِب فى اليوم المذكور .

قلتُ : وهذا الصنف من المكاتبات قد رُفِض وتُرِك استعماله بديوان الإنشاء فى زماننا .

الصنف السادس عَشَر

(المكاتبة بالبِشَارة بوفَاءِ النّيل والبِشَارة بالسّلامة فى الركوب لفَتْح الخَليج)

وهذه المكاتبة من خصائص الديار المِصْريّة، لايشاركها فيها غيرُها من الممالك . ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلُمّ جرًّا يكتبون بالبِشارة بذلك إلىٰ وُلَاة الأعمال، اهتمامًا بشأن النّيل، و إظهارا للسرور بوفائه، الّذى يترتب عليه الخِصْبُ المُؤدّى إلىٰ العِمارة وقِوامِ المملكة، وانتظام أمر الرّعيّة. وقد كان للخلفاء الفاطميّين القائمين بأمر الديار المصرية بذلك كبيرُ العناية ووافرُ الاهتمام ؛ وكانت عادتُهم فى ذلك أنّهم يكتبون بالبِشارة بوفاء النّيل كُتُبا مُفْرَدة ، و بفَتْح الخَليج وهو المعبر عنه فى زماننا بالكَسْر كُتُبًا مفردة . ولعلّ فتحَ الخليج كان يتراخىٰ فى زمنهم عن يوم الوَفاء، فيُفْرِدُون كُلّ واحد منهما بكُتُب .

فأما وفاء النّيل المبارك فهذه نسخة كتاب بالبِشَارة به فى الأيام الفاطمية ، من إنشاء ابن قادُوس ، وهى :

النّعَمُ و إن كانت شاملةً للأمم ، فإنّها مُتفاضلة الأقدار والقِيَم ؛ فأولاها بشُكر تُنْشَر فى الآفاق أعلامُه ، واعتِدَادٍ تُحكّمُ بإدراك الغايات أحكامُه ؛ نِعْمةٌ يشترك فى النّفع بها

العباد، وتبدُو بركتُها على النّاطق والصّامت الجَماد، وتلك النّعْمَة النيل المِصْرِيُّ الذى تبرز به الأرض الجُرُز فى أحسن الملابس، وتظهر حُلَلُ الرِّياض على القِيعان والبسَابِس؛ وتُرى الكُنُوزُ ظاهِرةً للعِيَان، مُتبرِّجةً بالجواهر واللُّجَيْن والعِقْيان؛ فسُبْحان مَنْ جعله سَبَبًا لإنشار المَوات، وتعالى مَنْ ضَاعَفَ به ضُرُوب البركات، ووفّر به مَوادَّ الأرزاق والأقْوات؛ وهذا الأمر صادِرٌ إلى الأمير، وقد منّ الله جلّ وعلا بوفاء النّيل المُبارك، وخُلِعَ على القاضى فلان بن أبى الرَّدَّاد فى يوم كذا وكذا، وطاف بالخِلَع والتشريفات، والمَواهب المُضَاعَفات؛ بالقاهرة المحروسة ومصر على جَارِى عَادته، وقديم سِيرَته؛ ونُودِىَ على المـاء بوفَائه ستةَ عشَر ذراعا و إصْبَعًا من سبعة عشر ذراعا؛ وآستبشر بالنِّعْمة بذلك الخَلائق، ووَاصَلُوا بالشُّكْر مواصلَةً لاتَسْتَوْقِفُهم عنها العَوَائق؛ وبَدَا من مَسَرَّات الأُمَم وآبتهاجهم مايَضْمَنُ لهم من الله المَزِيد، ويُنِيلُهم المَنَال السعيد، ويقضى لهم بالمآل الحَميد. ومُوَصِّلُ هذا الأمر إليك فلان، فاعتمدْ عند وُصُوله إليك إكرامَه وإعزازَه، وإجمال تَلَقِّيه وإفْضَالَه؛ إلى ماجرت به عادة مِثْله من رَجاء، وتَنْوِيه وآحتفاء، وإكرام وآعتناء؛ ليَعُود شاكرا. فاعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالى.

⁂

وهذه نسخة أخرى من ذلك، من إنشاء آبن الصَّيْرَفِيّ، وهى :

أَوْلى ما تَحَدَّثَ به نَاقِلُه ورَاوِيه، وتَعَجَّلَ المَسَرَّة به حَاضِرُه ورَائِيه؛ ما كانت الفائدةُ به شائِعةً لاتَحيَّز، والنِّعمةُ به ذائعةً لايَتَخَصَّصُ أحدٌ بِشُمُولها ولا يتميز؛ إذ كان عِلَّةً لتَكاثُر الأقوات، وبها يكون التَّمَاثُل فى البَقَاء والتساوِى فى الحيات؛ وذلك مامَنَّ الله تعالى به من وفَاء النِّيل المُبَارك : فإنه آنتهى فى يوم كذا من سنة كذا، إلى ستة عشر ذراعا وزاد إصبعا من سبعةَ عَشَرَ ذرَاعا؛ وقد سَيَّرْنا أيُّها الأمير فلانا

بهذه البُشْرىٰ إليك، وخصّصناه بالوُرُود بها عليك ؛ فتلقّها من الشُّكر بمُسْتَوْجبها، وٱسْتَقْبِلْهَا من الٱبتهاج والٱغتباط بما يليق بها ؛ وٱجعل الرُّسُومَ التى جَرت العادة بتوظيفها لفلان بن أبى الرَّدَّادِ محمولَةً من جهتك إلى حَضْرَتِنا، لتُولىٰ إليه من جِهَتِنا ؛ فاعلم هذا وٱعمل به إن شاء الله تعالىٰ، وكُتِب فى اليوم المذكور .

وهذا الصِّنْف من المكاتبات مُتَدَاوَلٌ بالديار المِصْرِيَّة إلىٰ آخروقت ، يُكْتَبُ به فى كُلّ سنة عن الأبواب السلطانية إلىٰ نُوَّاب السَّلْطَنَة بالممالك الشامية عند وفاء النِّيل ، وتسيرُ به البَرِيدِيَّة ؛ ورُبَّمَا جُبِي للبَرِيدِيِّ من الممالك شيءٌ بسبب ذلك . وإذا كانت الدَّوْلَة عادلَةً ضُمِّنَ الكِتَابُ أنه لايُجْبىٰ للبَرِيدِيِّ شيءٌ بسبب ذلك .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ مثالٍ شريف فى معنىٰ ذلك .

ولا زال يُرْوىٰ عنه وإليه حَديثُ الوَفَاءِ والنَّدَا ، ويُورَدُ علىٰ سَمْعِه الكريم نَبَأُ الخِصْبِ الذى صَفَا مَوْرِدَا ؛ ويُهَنَّى بكُلّ نِعْمَةٍ تكفّلت للرعايا بمضاعفة الجُودِ ومُرادفة الجَدَا ، ويُخَصُّ بكُلِّ مِنّةٍ عَمَّتْ مواهبُها الأنامَ فلن تَنْسىٰ أحدَا .

صَدَرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى : وبَحْرُ كَرَمِها لاينتهى إلى مَدىٰ ، وبِشْرُ بُشْراها دائمٌ أبَدَا ؛ تُهدى إليه سلاما مُؤكَّدا ، وثناء أضحىٰ به الشُّكْرُ مُرَدَّدَا ؛ وتُوَضِّح لعِلْمِه الكريم أن الله تعالىٰ قد أجرىٰ علىٰ جميلِ عاداته ، وأراد بالأمّة من الخَيْر ماهو المألوف من إراداته ؛ ومَنَحَ مزيدَ النِّعَم التى لم تَزَلْ تُعْهَدُ من زِيَاداته ؛ فأسدىٰ معروفَه المعروف إلىٰ خَلْقِه ، وأيّدهم بما يكون سببا لمَادَّةِ عَطائه ورِزْقِه ؛ فبلّغهم تاميلَهم ، وأجرىٰ نِيلَهُم ؛ وزادهم بَسْطَةً فى الأرض ، وملأ به المَلا وطبّق به البلادَ طُولَهَا والعَرْض ؛ ونَشَرَ علىٰ الخافِقَيْنِ لِوَاءَ خصْبِه ، وأتىٰ بعسْكَرِ رِيِّه لقتل المَحْلِ

وجَذْبِه، وبينا هو فى القَـاعِ إذ بلغ بإذْن ربِّه ؛ بجعل من الذَّهب لِبَاسَـه ، وعطَّر بالشَّذا أنفاسَه ، ولم يترك خلالَ قُطْرٍ إلا جاءه بجَاسَه ، ونصَّ السَّيْرَ فسَيَّرَ نَصَّ مجيئه فى الأرض لمَّا صَحَّح بالوفاء قِيَاسَه ، وغازَلَتْه الشمسُ فكَسَتْه حُمْرة أصيلها لما غدَت له بمشاهدتها مَاسَه ، ولم يكن فى هذا العام إلا بمقدار ماقِيلَ : أقبَلَ إذ قِيلَ : وَفَّى ، ومدّ فى الزيادة بَاعًا وبَسَطَ ذِرَاعا ، وأطلق بمواهب أصابعه كَفًّا ، وعاجلَ إدراكُ الهَرَمِ فى ابتداء أمْرِه مطال شَبَابِه ، ومرَّ على الأرض فحَلا فى الأفواه لمَّا ساغ شُكْرُ سائِغِ شَرَابِه ، واعتمد على نَصِّ الكتاب العزيزِ فكاد أن يَدْخُلَ كُلَّ بَيْتٍ من بَابِه .

ولما كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القِبْط بادرَتْ إلى الوَفَاء شِيَمُه ، وأغنَتْ أمواجُه عن مِنَّة السُّحُبِ فذُمَّتْ عندها دِيَمُه ، وزار البلادَ منه أجَلُّ ضَيْفٍ فرشَتْ له صَفْحَة خدِّها للقِرى فعمَّها كَرَمُه ، وبلغ من الأذْرُع ستة عشر ذراعا ورفع لِوَاءَه بالمزيد ونَشَر ، وجاء للبَشَر بأنواع البُشَر ؛ فرسَمْنا بتعليق سِـتْرِ مِقْيَاسِه ، وتَخْليقه وتَضْويع أنفَاسِـه ؛ وفى صبيحة اليوم المذكور كُسِرَ سَدُّ خَلِيجه على العاده ، وبلغ الانام أقصى الإراده ؛ وتباشر بذلك العـامُّ والخاصّ ، وأعلنت الألْسِنَةُ بحمـد رَبِّهـا بالإخلاص ؛ وسَطَّرَها وهو بفضـل الله ورحمتـه مُتَتَابِع المزيد ، بَسِيط بَحْره المديد ، مُتَجَدِّدُ النُّمُوِّ فى كُلِّ يَوْم من أيَّام الزِّيادة جديد . فالجناب العالى يأخذ من هذه البُشْرى بأوْفَر نَصِيب ، ويشكر نِعْمَةَ الله على ما مَنَح ــ إن شاء الله ــ هذا العامَ الخَصِيب ، ويُذِيعُ لها خبَرا وذِكْرا ، ويُضَوِّع بطَىِّ هَنَائها نَشْرا ، ويتقدّم بأن لا يُخْلَى عن ذلك بشارة بالجُمْـلة الكافيه ، لتَغْدُوَ المِنَّةُ تامةً والمَسَرَّةُ وَافِيَه ؛ وقد جهزنا بهـذه المكاتبة فلانا ، وكتبنا على يده أمثلة شريفة إلى نُوَّاب القِلاع الفلانية [جَرْيًا][1] على العادة ، فيتقدّم بتجهيزه بذلك على عادة هِمَّتِه ، فيُحِيطُ عِلْمُه بذلك .

---

(١) بياض بالأصل مقدار كلمة والتصحيح يقتضيه المقام .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخة أخرى فى معنى ذلك، كُتِبَ بها فى سابع عَشَرِ ذى القَعْدَة سنة ست وستين وسبعمائة، وصورتها بعد الصَّدْر :

وبَشَّره بأخْصَبِ عام ، وأخَصّ مَسَرَّةٍ هَنَاؤُها للوُجُودِ عامّ، وأكملِ نِعْـمةٍ تُقَابِلُ العام من عيون الأرض بمزيد الإنعام .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدِى إليه أتمّ سـلام ، وأعمّ ثناء تام؛ وتُوَضِّح لعلمه الكريم : أن الله تعالى ـ وله الحمد ـ قد جرى فى أمْرِ النيل المُبارك على عوائد ألْطَافه ، ومَنَحَ عباده وبِلَادَه من مديد نِعَمه مَزِيدَ إسْعَافه ، وأوردَ الآمال من جُوده مَنْهَلًا عَذْبا ، وملأها به إقبالا وخِصْبـا ، وأحْيَا به من مَوَاتِ الأرض فاهْتَزَّتْ ورَبَت ، وأنبتت كُلَّ بَهِيج وأنْجَبت ، وأيْنَعَت الرِّياضُ فجرت فيها الرُّوحُ ودَبَّت ، وآمتلأت الحياضُ ففاضت بالمِيَاهِ وآنْصَبَّت ، وطلع كالبَـدْر فى آزدياده ، وتَوالى على مديد الأرض بأمْدَادِه ، إلى أن بلغ حَدَّه ، ووَصَّل الفَرَجَ ومنع الشِّدَّه ، وفى يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا وكذا من شهور القِبْط ، وفَّاه الله سـتة عَشَرَ ذراعا فَاهَ فيها بالنُّجْح ، وعم ثَرَاهُ الأرضَ فأشرق بعد لَيْلِ الجَدْبِ بالرَّخاء أضْوأُ صُبْح ، وفى ذلك اليوم عُلِّقَ سِتْره ، وخُلِّقَ مِقْيَاسُه فاشتهر ذِكْرُه ، وكُسِرَ سَدُّه ، وتوالى مَدُّه ، ونَجَزَ من الخِصْبِ وعْدُه ، وعلا التُّرَعَ والجُرُوف ، وقطع الطريق فأَمَّنَ من الجَدْبِ المَخُوف ، وأقبـل بوجهه الطَّلْق المُحَيَّا ، وأسْبَلَ على الأرض لِبَاس النَّفْع فبدَّلها بعد الظَّمَإ رِيًّا ، فحَمِدْنا الله تعالى على هذه النِّعَم ، ورأينا أن يكون للجناب العـالى أوفَرُ نصيب من هذا الهَنَاءِ الأعَمّ ، وآثرنا إعلامَه بذلك : ليكون فى شُكْرِ هذه النِّعْمة أكبر مشارك ، فالجناب العالى يأخذ حَظَّه من هـذه البُشْرى ، ويتحقق ماله عنـدنا من

المكانة التى خَصَّتْه فى كُلّ مُبْهِجَةٍ بالذِّكْرَى، ويتقدم أمره الكريم بأن لا يُخْلىٰ عن ذلك حقّ بِشَاره، ولا يتعرّض إلىٰ أحدٍ بخَسَاره؛ وقد جهّزنا بذلك فلانا .

الصنف السابع عَشَرَ

(فيما يكتب فى البِشَارة بركوب المَيْدَانِ الكبير بخطّ اللُّوقِ عند وَفَاء النِّيل فى كُلّ سـنة)

وهو مما يتكرر فى كُلّ سنة عند ركوب المَيْدَان ، ويكتب به إلىٰ جميع النوّاب الأكابر والأصاغر ؛ وتجهز إلىٰ أكابر النوّاب خُيُولٌ صُحْبَةَ المثال الشريف ، ويُرْسَم لهم بالركوب فى ميادين الممالك لِلَعِبِ الكُرَة ، تأسِّيًا بالسلطان ؛ فيركبون ويلعبون الكُرَة . والعادة فى مثل ذلك أن تُنْشَأَ نسخةُ كتاب من ديوان الإنشاء الشريف ، ويكتبَ بها إلىٰ جميع النيابات ، لايختلف فيها سوىٰ صَدْرِها ، بحسب مايقتضيه حالُ ذلك النائب .

وهـذه نسخة مثال شريف فى معنىٰ ذلك ، كُتِبَ به فى ذى القَعْدَةِ سنة ستين وسبعمائة لنائب طَرَابُلُس ، وصورته بعد الصَّدْر :

ولا زَالَ تُحْمَلُ إليه أنباءُ مايرِد غُلَّتَه من مُضَاعَفَة السُّرور، وتُبَثُّ له أقوال الهَنَاء بما يَجِبُّ علتـه من النَّصْر الموفور ، ونَخُصُّه من إقبالنا الشريف بأكمل تكريم وأتمّ حُبُور .

صدرت هذه المكاتبة تُهدى إليه من السلام والثناء كذا وكذا ، وتُوَضِّح لِعلمه الكريم أننا تَحَقَّقُ مَضَاءَ عَزَائِمِه حَرْبًا وسِلْما ، واَعْتِلاَءَ هِمَمِه التى تُحْرَسُ بها الممالك وتُحْمَى ؛

وأن صَوافنه تُرْبَطُ لتُركَض ، وتُحْبَس لتَنْهَض ؛ فلذلك نُعْلِمُه من أنباء آستظهارنا مايُبْهِجُ خاطِرَه ، ويُقِرُّ ناظِرَه ؛ وهو أنَّنا لما كان فى يوم السبت المبارك خامِس شوّال ، توجَّه رِكابُنا الشريفُ إلى المَيْدانِ السعيد وفاض به جُودُنا فآخضَرّت مُرُوجُه ، وظهربه نَيِّرُنَا الأعظمُ فأشرقت آفاقُه وتشرّفت بُرُوجُه ، وأقرَّ العيونَ مُنيرُ وجْهِنا المبارك وبَهِيجُه ، وغدا كلُّ وَلِىّ بموالاة إنْعامنا مَشْمُولا ، وبمَنالات إكرامنا موصولا ؛ وركَضَ الأولياءُ بين أيدينا جياداً ألِفَتْ نِزالاً وعَرَفَتْ طِرَادَا ، وآنعطفت لِيناً وآنْقِيادَا ؛ وعُدْنا إلى مُسْتَقَرِّ مُلْكِنا الشريف وقد جَدَّدَ الله تعالى لنا إسعادا ، وأيّد لعَزْمنا المُعَانِ مَبْدَأً ومَعَادا ؛ وآثرنا إعلام الجناب العالى بهذه الوِجْهَة الميمونه ، والحركة التى هى بالبركة مقرونه : ليأخذحظَّه من السُّرور بذلك والهنا ، ويتحقق من إقبالنا الشريف عليه مايبلغ به المُنَىٰ .

⁂

وهـذه نسخة مثالٍ شريفٍ فى المعنىٰ ، كُتِبَ به فى العشرين من شعبان ، سنة أربع وخمسين وسبعمائة . وصورته بعد الصَّدْر :

ولا زالت مَيادِينُ سَعْده لاتَتَناهى إلى مَدىٰ ، وكُرَات كُرَّاته فى رِحاب النَّصْر تَلْمَعُ كنَجْم الهُدىٰ ؛ ومُدَوَّرُ صَوالِجِه كشَوَاجِر المُرَّانِ تَحْلُو بتأييدها للأولياء وتَغْدُو مَرِيرَةً للعِدَا .

صدرت هذه المكاتبةُ وظَفَرُها لايزال مؤيّدا ، ونَصْرُها لايَبْرَحُ مُؤَبَّدا ؛ تُهْدِى إليه سلاما مؤكّدا ، وثَناءً كنَشْر الأرض بالنَّدىٰ ؛ وتُوَضِّح لعلمه أننا لم نَزَلْ بحمد الله نَتَّبِعُ سَنَنَ سَلَفِنا الشريف ، ونُجْرِى الأمورَ علىٰ عوائد جميلهم المُنِيف ؛ ونرىٰ تَمْرِين الأولياء علىٰ مُمَارَسَة الحروب ، ونُؤْثِرُ إبقاء آثار الجِهَاد فيهم علىٰ أحسن أُسْلُوب ؛

فلذلك لا نُخِلُّ فى كُلِّ عام بالتَّعَاهُد إلى المَيْدانِ السعيد، والركوب إليه فى أسْعَدِ طَالِـعٍ يُبْدِئُ النَّصر ويُعيد : لِمَـا فى ذلك من ٱبتهاجٍ يَتَجَدَّد ، وأسباب مَسَرَّة لكافَّة الأنام تتأكَّد ، ودعوات أَلْسِنَتِها تتضاعف من الرعية وتَتَرَدَّد .

ولمـا كان فى يوم السبت المبارك سادس عشر شهر رَجَب الفَرْد ، ركبنا إلى المَيْدان السـعيد فى أتمِّ وقت أَخَذ من السَّـعْد بَمجْمُوعِه ، وأظهر فى أُفُقِ العساكر من وَجْهِنا الشريف البَدْرَ عند طُلُوعه ، ولم نَبْرح يومَنَا المذكور فى عَطَاءٍ نُجِيدُه ، وإنعام نُفِيدُه ، وإطلاق نُبْدِئُه ونُعيدُه ، والأولياء بين أيدينا الشريفة يَمْرَحُون ، وفى بِحَارِ كَرَمِنا المُنِيف يَسْبَحُون ، وفى مَيْدَانِ تأييـدنا المُطِيف يَسِـيحُون ، والكُرَات كالشمس تَجْنَحُ تارة وتَغِيب ، وتَخْشَىٰ من وَقْعِ الصَّوالِجَة فتقابلها بوَجْهٍ مُصْفَرٍّ مُرِيب ، ثم عُدْنا إلى القَلْعة المنصورة علىٰ أتمِّ حال ، وأسْعَدِ طالعٍ بَلَّغَ الأنام الأمانَ والآمالَ ، والعساكر بخدمتنا الشريفة مُحْدِقُون ، ومماليكنا بعُقُود وَلَائنا مُطَوَّقُون ، والرَّعَايا قد ألبسها السُّرُورُ أثوابا ، وفَتَحَ لهـا من الأبتهاج أبوابا ، وقد آثرنا إعلامَ الجناب بذلك ليأخذَ حَظَّه من هذه المَسَرَّة والبُشْرىٰ ، ويُشْـتَرِكَ هو والأنام فى هذه النِّعْمَةِ الكُبْرىٰ ، ومَرْسُومُنا للجناب أن يتقدّم بالركوب بمَنْ عنـده من الأمراء فى مَيْدان طَرَابُلُسَ المحروسة ، ويَلْعَبَ بالكُرَة علىٰ جارى العادة فى ذلك ، لِيُسَاهِمَ أوليـاءُ دولتنا القاهرة فى ذلك ، ويسلك من طُرُقِهم الجميلة أَجْمَلَ المَسَالِك .

قلت : وهذا الصِّنْفُ من المكاتبات السلطانية لم يَزَلْ مستعملا بديوانِ الإنشاء ، يُكْتَبُ به كُلَّما ركب السلطان إلى المَيْدانِ الصَّالِحِىّ بخطِّ اللُّوق ، إلى أن عُطِّلَ جِيدُه من الركوب فى أواخر الدَّوْلة الظاهرية « برقوق » وٱقْتَصر علىٰ لِعِبِ الكُرَة فى المَيْدان الذى جرت به العادة ، فتركت المكاتبة بذلك من ديوانِ الإنشاء ورُفِضَ ٱستعمالُها .

الصنف الثامن عَشَرَ

(المكاتبـة بالبِشَارة بحجّ الخليفـة)

لما كانت الأسفار، محلَّ الأخطار، وموْقعَ الاختلاف وحدوث الفتن، كانت الخلفاء يكتبون الكُتُبَ إلىٰ عُمّالهم بالسلامة عند الإيَاب من السَّفر للحجّ وغيره . والرَّسم فيها أن يذكر أن الحَجَّ من أجَلّ العبادات ، وأن من النعمة [أنْ يمنّ](١) الله تعالىٰ بقضاء المناسك، والوُقُوف بالمَشْعَر الحَرام، والطَّواف بالبَيْت العَتيق، والسَّعْي بين الصَّفَا والمَرْوَة، وما يجرى مجرىٰ ذلك من شعائر الحَجّ، ثم بَعْدُ بزيارة النبيّ صلّى الله عليه وسلم، واتفاقِ الكَلمَة فى جميع هـذه الأحوال، علىٰ كَثْرة الخلائق ومزيد الجيوش والعساكر .

وهذه نسخة كتاب بالسلامة من سَفَر الحَجّ، وهى :

الحمد لله الذى جعل بيته مَثَابةً للناس وأمْناً، وحَرَماً مَنْ دخله كان آمنا، الذى اختار دِينَ الإسلام علىٰ الأديان، وابْتَعَث به صَفْوَتَه من الإنْس والجَان، محمدا أكرم بَنِى مَعَدّ بن عَدْنَان .

يحمده أمير المؤمنين أن أعَانَه علىٰ تأدية حَقّه، ونَصَبَه لكَفَالة خَلْقه، ووَفّقه للعمل بما يُرْضيه ويُدْنِى إليه . ويسأله أن يُصَلّيَ علىٰ خير من غَارَ وأنْجَد، وصَدَر ووَرَد، وركع وسجد، ووَحَّد ومَجَّد، وصَلّىٰ وعبد، وحَلَّ وأحرم، وحَجَّ الحَرَم، وأتَىٰ المُسْتَجَار والمُلْتَزَم، والحَطِيمَ وزَمْزَم، محمد سَيِّد ولد آدم، وعلىٰ أخيه وابن عمّه مِصْبَاح الدَّلاله، ومِجَاب الرِّساله، إمام الأمّه، وبَابِ الحِكْمَه، أمير المؤمنين عَلِيّ بن أبى طَالِب،

(١) بياض بالاصل والتصحيح مما يقتضيه المقام .

مُمَزِّق الكتائب، ومُفَرِّق المواكب، ومُحطِّم القواضب، فى القُلَلِ والمناكب؛ وعلى الأئمة من ذُرِّيَّتهما الهادين، صلاةً باقيةً فى العالمين.

وإنَّ أَوْلَى النِّعم بأن يُستعذَب ذِكرُها، ويُستعطر نَشْرُها، وتتحدَّث بها الألسنه، وتُعَدّ فى مواهب الله الحسَنه، نِعَمُ الله تعالى فى التوفيق لحجّ بَيْته الذى جعله مَثابةً لزائريه، والإطافة بحرمه الذى يُوجِب المَغفِرة لقاصديه، والنُّزول بأفنيته التى من يَخْدُم بها فقد انسلخ من السَّيِّئات، وتلبَّس بالحسَنات؛ وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم النَّفرِ الأول: وقد قضىٰ بحمد الله تَفَثه، ووَفَّى نَذْره؛ وتمَّم حجَّه، وكمَّل طوافه؛ وشهِدَ مَنافعه، وأدَّى مَناسِكه؛ ووقف المَوْقِف بين يدى ربِّه قانتًا داعيا، وراغبًا راجيًا؛ وعَرَّفه بعَرَفاتٍ إعْلامَه قَبولَ سَعْيه، وإجابة تَلْبِيَته، وبلَّغه فى مِنًى أمانيه من رأفته؛ وأراه من مَخايِل الرَّحمه، ودلائل المَغْفِره؛ ماتلألأت أنوارُه، وتوضَّحت آثارُه؛ وأجراه على تفصيل العبارة فى شُمُول السَّلامة لكلّ مَنْ حجّ بحجّه، ووقف مَوْقِفَه من أوليائه وخاصَّته، وعامَّته ورعيَّته؛ وأنعم باتفاقِ كلمتهم، واجتماع أهويتِهم؛ واكتنافِ الدَّعة والسُّكون لهم، وزوالِ الاختلاف والمُبايَنَة بينهم.

فان أراد زيارة قبر النبىّ صلّى الله عليه وسلم، قال: وهو يَصْدُر بإذن الله تعالىٰ عن مَوْقفه هذا من البيت الحرام، إلى زيارة قَبْر النبىّ عليه السلام.

فان أزمع الانكفاء إلى مَقرِّه، قال:

وأشعرك أميرُ المؤمنين ذلك وهو عائدٌ بمشيئة الله تعالى إلى مقرّ خلافته، فى عزٍّ من قُدْرته، وعُلُوٍّ من كلمته، وامتداد من سُلْطانه، وتَضاعُف من جُنْده وأعوانه: لتأخذ بحظِّك من الابتهاج والجذَل، وتُذيعه بين أهل العمَل: ليشاركك العامَّة فى العلم بهذه النِّعمة فيُخلِصوا لله الشُّكرَ عليها، ويرْغَبوا إليه فى الزيادة منها؛ إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة كتاب بسلامة الخليفة من سَفَرٍ فى الجُمْلة .

والرسم فيـه أن تُذْكَرَ نِعْمَةُ الله تعالىٰ بمـا منح أميرَ المؤمنين فى سَفَره ذلك : من بُلُوغ المآرب، وتسهيلِ المقاصـد ، وإدراكِ الأوْطَار، وشُمُول النِّعْـمَة فى الذَّهاب والإيَاب ، وما يجرى مجرىٰ ذلك ممّـا ينخرط فى هذا السِّلْك ، وهذه نسخته :

الحمد لله ذى الطَّوْلِ والإنْعَـام ، والفَضْـلِ والإكرام ، والمِنَنِ العِظَام ، والأيادى الجِسَام ، الذى أرْعىٰ أميرَ المؤمنين من حِياطَتِه عَيْنًا لا تنَـام ، وآستخدم لِحرَاسَـتِه والمُرَامَاة دونه اللّيالِىَ والأيام ، وقَضىٰ له بالتوفيق والسَّعَادة فى الظَّعْنِ والمُقَام .

يحمدُه أميرُ المؤمنين أنِ آستخلصه لإمامة الأنام ، وعَدَق به أسَاليبَ النَّقْض والإبرام ، ويسألُه الصلاةَ علىٰ مَن آخْتَصَّه بشَرَف المَقَام ، وآبتعثه بدِينِ الإسـلام ، وجَلا به حَنادِسَ الظَّلام ، محمد خَاتَمِ الأنبيـاء الكِرَام ، وعلىٰ أخيه وآبن عَمِّه الهُمَامِ الضِّرْغَامِ ، أميرالمؤمنين عَلِىّ بن أبِى طَالِبٍ مُكَسِّرِ الأصنام ، وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتِهما أعْلَامِ الأحكام ، وأدِلَّةِ الحَلَال والحَرَام .

وإن أميرَ المؤمنين لايزال يتحدّث بنِعَمِ الله مُسْتَدِرًّا لأخْلَافِها ، منتَصِباً لقِطَافِها ، ويُفِيضُ فى ذِكْرِها ، مُسْتَدْعيًا للزيادة بشُكْرِها ، ويُطْلِـعُ خُلَصاءَه علىٰ حُسْنِ آثارها لَدَيْه : وسُـبُوغِ مَلَابِسِها عليـه ، ليأخذوا بحَظٍّ من الغِبْطَةِ والآستبشار ، ويَسْرَحوا فى مَسارح المَبَاهِج والمَسَارّ ، وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك حين آستقرّ رِكَابُه بناحية كذا ، مبشرا لك بنِعْمَةِ الله فى حِيَاطَتِه ، ومَوْهِبَتِه فى سَلَامَتِه ، وما أولاه من انارة (؟) الدَّليل ، وتسهيلِ السَّبِيل ، وطَىِّ المَجَاهِل ، وتَقْريب المَنَازِل ، وإعْذَاب المَنَاهل ، وإنَالَة الأوطار ، وتَذْميث الأوْعَار ، وبركَة المُتَصَرَّف ، وسعادة المُنْصَرف ، ووُصُوله إلىٰ مَقْصده

قَرِيرَ العَيْن، قليلَ الأَيْن، محفوظا ساريًا وآئبا، مَكْلُوءا عائدا وذاهبا، مُشَرَّدَ النَّصَب مسرورا، مَوْفُورَ النَّصيب مَحْبُورا، فى آجتماع من كلمة أوليائه على طاعته، ونُفُوذِ بصائرهم فى نَصْرِ رايَتِه، وإعانته على ما آستحفظه من عباده، وآسترعاه من بلاده: ليأخذ بالحَظِّ الأَجْزَل، من الآبتهاج والجَذَل، ويشكر الله تعالى على هذه النِّعْمَة المُتَجَدِّده، ويضيفها إلى سَوالِفِ نِعَمِه التَّالِدَه، ويُذِيعها بين رَعِيَّته، وأنصار دَعْوَته، ليشتركوا فى آرتشاف لُعَابِها، وآلْتِحَافِ أثوابها، فاعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالى .

قلت : وهـذا الصِّنْفُ من المكاتبات السلطانية قليلُ الوُقُوع، فإن وقع مثـله للكاتب فى زماننا، خرّجه على نِسْبَةِ الأسلوب المتقدّم .

الصنف التاسعَ عَشَر

(الكتابة بالإنعام بالتشاريف والخِلَع)

وهذا الصِّنْفُ ممّا أغفله صاحبُ "موادّ البيان" ولا بدّ منه .

والرسم فيـه أن يكتب عن الخليفـة أو السـلطان إلى مَن أخلص فى الطاعة، أو ظهرت له آثار كِفَاية: كفتح أو كَسْرِ عَدُوّ، وما يجرى مجرى ذلك .

وهذه نسخة كتاب كُتب به أبو إسحاق الصّابى عن الطائع لله، إلى صَمْصامِ الدَّوْلَة آبن عَضُـدِ الدَّوْلَة بن بُوَيْه، قَرِينَ خِلْعَةٍ وفَرَسَيْنِ بمَرْكَبَيْنِ من ذَهَب وسَيْف وطَوْقٍ، وهى :

من عَبْـد الله عَبْد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنيـن ، إلى صَمْصَامِ الدَّوْلَة وشمس الملة أبى كَالِيجار بن عَضُد الدَّوْلَة وتاج المِلّة مولى أمير المؤمنين .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنين يَحْمَد إليك الله الذى لا إلٰه إلا هو، ويسأله أن يُصَلِّىَ علىٰ جده محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم .

أما بعد، أطال الله بقاءك : فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بوّأك المنزلة العُلْيا، وأنالك من أُثْرته الغايةَ القُصْوىٰ ؛ وجعل لك ما كان لأبيك عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة ـ رحمة الله عليه ـ من القَدْر والمَحَلّ، والمَوْضِع الأرفع الأجلّ ؛ فإنه يُوجِبُ لك عند كلِّ[1] أثر يكون منك فى الخدمه، ومَقَام حَمْدٍ تَقُومه فى حِمَاية البَيْضه ؛ إنعاما يُظَاهِرُه، وإكراما يُتابِعه ويُوَاتِره ؛ والله يَزِيدُك[2] من توفيقه وتسديده، ويَمُدُّك بمَعُونَته وتأييده ؛ ويَخِيرُ لأمير المؤمنين فيما رَأْيُه مُسْتَمِرٌّ عليه من مَزِيدك وتمكينك، والإِبْقاء بك وتعظيمك ؛ وما تَوْفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيب .

وقد عرفتَ ـ أدام الله عِزَّك ـ ما كان من [أمر كردويه][3] كافرِ نِعْمَة أمير المؤمنين ونِعْمَتك، وجاحد صَنِيعَته وصَنِيعتك ؛ فى الوَثْبَة التى وَثَبها، والكبيرة التى آرتكبها ؛ وتَقْدِيره أن يَنْتَهِزَ الفُرْصَةَ التى لم يمكّنه الله منها، بل كان من وراء [ذلك] دَفْعُه ورَدُّه عنها ؛ ومعاجَلَتك إياه الحَرْبَ التى أصلاه الله نارَها، وقنّعه عارَها وشَنَارَها ؛ حتىٰ آنهزم والأَوْغَادَ الذين شَرِكُوه فى إثارة الفِتْنَه، علىٰ أقبح أحوال الذِّلّة والقِلّه ؛ بعد القَتْل الذَّرِيع، والإثخان الوجيع . فالحمد لله علىٰ هذه النعمة التى جَلَّ مَوْقِعُها، وبانَ علىٰ الخاصَّة والعامَّة أثرُها، ولَزِم أميرَ المؤمنين خصوصا والمسلمين عموما نَشْرُها والحديثُ بها، وهو المسئُول إقامتَها وإدامتَها برحْمَته .

---

(١) تقدم فى هذا المطبوع (ج ٦ ص ٣٩٦) عند بذلك أثرا .

(٢) الذى تقدم «يؤيدك» وما هنا أوضح .

(٣) بياض بالأصل، والتصحيح عما تقدم .

وقد رأىٰ أمير المؤمنين أن يُجازِيَك عن هذا الفتح العظيم، والمَقام المَجيد الكريم؛ بخِلَع تامّة، ودابّتين بمركَبَيْن من ذهب من مراكبه، وسَيْف وطَوْق وسِوار مُرَصَّع. فتلقَّ ذلك بشُكْر الله تعالىٰ عليه، والاعتداد بنِعْمَته فيه؛ والْبَسْ خِلَعَ أمير المؤمنين وتكْرِمَته، وسِرْ [من بابه][1] علىٰ حُمْلَانه، وأظهر ما حَبَاك به لأهل حَضْرَته، ليُعِزَّ الله بذلك وَلِيَّه ووَلِيَّك، ويُذِلَّ عَدُوّه وعَدُوّك؛ إن شاء الله تعالىٰ، والسلام عليك ورحمته وبركاته. وكَتَبَ فلان[2] لثَمانٍ بَقِينَ من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة: أطال الله بقاءك، وأدام عِزَّك، وأجزل حِفْظَك وحِيَاطَتَك، وأمتع أمير المؤمنين بك وبالنعمة فيك وعندك.

قلتُ: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية باقٍ علىٰ الاستعمال، متىٰ أنعم السلطانُ علىٰ نائب سَلْطَنَةٍ أو أمير أو وزير أو غيره بخِلْعَةٍ بعث بها إليه وكُتِب قرينها مثالٌ شريف بذكر ذلك؛ إلا أنه أُهمل فى ذلك السَّجْعُ والازدواج، واقتصر فيه علىٰ الكلام المحلول كما فى غيره من المكاتبات، إلا فى النادر المُعْتَنَىٰ بشأنه.

الصنف العشرون

(المكاتبة بالتَّنْوِيه والتلقيب)

قال فى "مواد البيان": جرت عادة الخُلَفَاء بالكتابة بالتلقيب، لأن اللَّقَب مَوْهِبَةٌ من مواهب الإمام: أمضاها وأجازها؛ فإذا جرت عليه كانت كغيرها من نِعَمِه التى يَمْنَحُها علىٰ عبيده؛ والكُنْيَةُ تَكْرِمَةٌ يَسْتَعملها الناس فيما بينهم، فليس حُكْمُها حُكْمَ اللَّقَب.

---

(١) بياض بالاصل والتصحيح عما تقدم (ج ٦، ص ٣٩٧).

(٢) سماه فيما تقدم «أحمد بن محمد».

قال : والرسم فى هـذه الكتب أن تفتتح بحمد الله على نعمه السابغـة الضافيه، ومواهبه الزاهية الناميه، وعوارفه التى جعلها جزاءً للمحسنين، وزيادةً للشاكرين؛ ونحوِ هذا مما يليق أن يفتتح به هذا الغرض؛ والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ثم يقال :

وإنّ أميرَ المؤمنين بما خوله الله تعالى من نعمه، وبوّأه من قسمه، وخصّه به من التمكين فى أرضـه، والمعونةِ على القيام بفرضـه، يرى المنّ على خلصائه، وإسباغَ النعم على أوليائه، وٱختصاصهم بالنصيب الأوفر من حبائه، والإمالةَ بهم إلى المنازل الباذخه، والرتب الشامخه . وإن أحقّ من وفر قسمُه من مواهبه، وغزر سهمُه من عطاياه ورغائبه، من تميز بما تميزت به من إخلاص ومطاوعه، وولاءٍ ومشايعه، وٱنقياد ومتابعه، وصفاءِ عقيدة وسريره، وحُسْنِ مذهب وسيره، ولذلك رأى أمير المؤمنين أن ينعتك بكذا لٱشتقاقه هذا النعتَ من سماتك، وٱستنباطه إياه من صفاتك، وشرّفك من ملابسه بكذا، وطوّقك بطوقٍ أو بعقد، وقلّدك بسيف من سيوفه، وعقد لك لواءً من ألويته، وحملك على كذا من خيـله وكذا من مراكبـه . ويحسن الوصف فى كلّ نوع من هـذه الأنواع وٱشتقاق الألفاظ من معانيه، يعرب عن قدر الموهبة فيه. ثم يقال : إبانةً لك عن مكانك من حضرته، وإثابةً على تشميرك فى خدمته، فالبس تشريفه وتطوّق، وتقلّد ما قلّدك به، وٱركب حمولاته، وٱبرز للخاصّـة والعامّة فى ملابس نعمائه، وٱرفُل فى حُلل آلائه، وزيّن موكبك بلوائه، وقل ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ وأعنّى على ما يسترهنها لدىّ، وخاطبْ أميرَ المؤمنين متلقبا بسمتك، متنعتًا بنعتك .

وهذه نسخة مكاتبة إلى الأفضل بن ولخشى، وزير الحافظ لدين الله الفاطمىّ، أحد خلفاء الفاطميين بالديار المصريّة، حين قرّر الحافظُ نعوته : السيدُ، الأجلُّ،

الأفضلُ، أميرُ الجيوش، سَيْفُ الإسلام، نَاصِرُ الأنام، كَافِلُ قُضاة المسلمين، وهادى دُعَاة المؤمنين، وهى :

أما بعد، فالحمد لله الذى تَفَرَّد بالإلهيه، وتَوَحَّد بالقِدَمِ والأَزَلِيَّه، وأبدع مَنْ بَرَأَ وخَلَق، وأنشأهم من غير مِثالٍ سَبَق، وٱصطَفَىٰ لتدبيرِهِم فى أرضه مَنْ بَعَثَه برِسَالته، وجعل ما جاءوا به من الشرائع من أمارةِ لُطْفه بهم ودلالته، وصلّى الله علىٰ جدّنا محمد رسوله الذى جعل رُتْبَته اخيرا ونُبُوَّته أُولىٰ، فكان أفضلَ مَنْ تقدمه نَبِيًّا وسَبَقه رسولا، وعلىٰ أخيه وٱبن عَمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طَالِبٍ الذى ذَخَرَه لخلافته، وأيّده بوزَارَتِه، مع كَوْنِهِ من منزلة الأصطفاء، وتأييد الوَحْىِ الظاهر من غير خَفَاء، بحيثُ لايَفْتَقِرُ إلىٰ وَزِير، ولا يحتاج إلىٰ ظَهِير، وإنما جعل ذلك تعليما لمن يَسْتَخْلِفُهُ فى الأرض من عباده، وتمثيلًا نَصَّ ــ جَلَّ وعَزَّ ــ إلىٰ قَصْدِه وٱعتِمَاده، لِمَا فيه من ضَمِّ النَّشر، وصلاح البَشَر، وشُمُول المنافع، وعُمُوم الخيرات التى أُمِنَ فيها من مُدَافِع، وعلىٰ الأَئمة من ذُرِّيَّتِهِما العاملين بمَرْضَاتِه، والمُتَّقِينَ له حَقَّ تُقَاتِه، والكافلين لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بأَمَانِهِ يوم الفَزَعِ الأكبر ونَجَاته، وسلَّمَ عليهم أجمعين، سلامًا متصلا إلىٰ يوم الدِّين .

والحمد لله الذى جعل النِّعَم التى أَسْبَغَها علىٰ أمير المؤمنين، بِحَسَبِ ما ٱختَصَّه به من مَنْزِلته التى فَضَّله بها علىٰ جميع العالمين، بجعله خليفةً فى الأرض، والشَّفِيعَ لِمَنْ شايعه يوم الحساب والعَرْض، وأجزل له من مِنَنِه مالا يُنَاهِضُه شُكْرٌ إلا كان ظالعا، ولا يُقَابِلُه ٱعتدادٌ إلا ٱستولىٰ عليه العَجْز فلم يكن بما يجب له طامعا، وإنَّ مِنْ أَرْفَعِها مكانا، وأَعْظَمِها شانا، وأفخمها قَدْرا، وأنبهها ذِكْرا، وأعَمِّها نَفْعا، وأَحْسَنِها صُنْعا، وأَغْزَرِها مادَّه، وأثبتها قاعدة إذا غدت النِّعَمُ شاردةً نادَّه، وأعودها فائدةً

علىٰ الخاصّ والعام ، وأضمنها للسَّـعْدِ المُسَاعِد والحَظِّ الوافر التَّام ـ ما كان من المِنَّة الشامخةِ الذُّرىٰ ، والمِنْحَة الشاملة لجميع الورىٰ ؛ والعارفةِ التى ٱعترف بها التوحيـد والإسلام ، والمَوْهِبَةِ التى [إذا] أنْفَقَ كُلُّ أحدٍ عمره فى وَصْفِها وشُكْرِها فما يُعْذَل ولا يُلَام ؛ والآيةِ التى أظهرها الله للمِلَّة الحنيفيَّة علىٰ فَتْرةٍ من الرُّسُل ، والمُعْجِزَة التى هدىٰ أهْلَه لها دون كافَّة الأمَّة إلىٰ أعدل السُّـبُل ؛ والبُرْهانِ الذى خصَّ به أمير المؤمنين وأظهره فى دَوْلَتِه ، والفَضيلةِ التى أبانت مَكَانَه من الله وكَرِيم مَنْزِلَتِه ؛ وذلك ما مَنَّ الله به علىٰ الشريعة الهَادِيَة ، والكلمة البَاقِيَة ، والخلافة النَّبويَّة ، والإمامة الحَافِظِيَّة ، منك أيُّها السيدُ الأجلُّ الأفضلُ : ولقد طال قَدْرُك فى حُلَلِ الثَّناء ، وجَلَّ ٱسْتِحْقاقُك عن كُلِّ عِوَضٍ وجَزَاء ، وغَدَت أوْصَافُك مسالةَ ٱجتماع وٱئتلاف ، فلو كانت مَقَالَةً لم يَقَعْ بين أرباب المِلَلِ شىءٌ من التَّنَاقُض فيها والاختلاف ؛ وأين يبلغ أمَدُ ٱستِجَابِك من مُنْتَحِيه ، أو يَتَسَهَّلُ إدراكُ شَأْوِه علىٰ طالبه ومُبْتَغِيه ؟ ؛ والإيمان لو تجسَّم لكان علىٰ السَّعْيِ علىٰ شُكْرِك أعظمَ مُثَابِر ، والإسلامُ لو أمكنه النُّطْقُ لقام بالدعاء لك خطيبا علىٰ المَنَابِر ؛ فأما الشِّرْكُ فلو أبقيته حَيًّا لتَصَـدّىٰ وتعرّض ، لكنَّك أنحيتَ عليـه وأدَلْتَ التوحيـد منه فانهدّ بناؤه بحمد الله وتَقَوَّض ؛ فكان لك فى حقِّ الله الغَضَبَ الذى تقرَّبْتَ به إليه فأرْضَيْتَه ، والعَزْمَ الذى صَمَّمْتَ عليه فى نُصْرَةِ الحَقِّ فأمْضَيْتَه ؛ والباطنَ الذى ٱطَّلَعَ عليه منك فنصرك ولم تُرِقْ دَمًا ، ولا رَوَّعْتَ مُسْلِما ، ولا أقْلَقْتَ أحَدًا ولا أزعجتَـه ، ولا عَدَلْتَ عن مَنْهَجِ صَوابٍ لمـا ٱنتهَجْتَه ؛ وذلك ممـا ٱشترك الكَافَّةُ فى معرفته ، وتساوَوْا فى عِلْمِ حقيقته ؛ مع ما كان من تسييرك العساكر المُظَفَّرَة صُحْبَةَ أخيك الأجَلِّ الأوحَد : أدام الله به الإمْتاع وعَضَّدَه ، وأحسن عنـه الدِّفاع وأيَّده ؛ مما جَرَت الحالُ فيه بحُسْنِ سياستك ، وفَضْلِ سِيَادَتك ؛ علىٰ أفْضَلِ ماعوّدك الله من بلوغ آمالك ، من غير أذًى لَحِقَ أحدًا من رجَالك ؛ والأمر فى ذلك أشهر من

الإيضاح ، وأبينُ من ضياءِ فَلَقِ الصَّباح ، وهذا إذا تأمّله أمير المؤمنين أوجب عليه أن يُقابلك من إحسانه ، بغاية ما فى إمكانه ، وأن يُولِيك من منّته ، أقصىٰ ما فى آستطاعته وقُدْرته ، ولم يرَ أحضرَ من أن قرّر نُعُوتَك «السيّدُ، الأجلُّ، الأفضلُ، أميرُ الجيوش ، سيفُ الإسلام ، ناصرُ الأنام ، كافلُ قُضاة المسلمين، وهادى دُعاة المؤمنين، أبو الفتح رِضْوان الحافظى» إذلا أولىٰ منك بكفالة قُضاة دولته و إرشادهم، وهداية دُعاتها إلىٰ ما فيه نجاةُ المستجيبين فى مَعادِهم ، وجدّد لك ما كان قدّمه : من تكفيلك أمرَ مملكته ، و إعادةِ القول فيما أسلفه من ردّه إليك تدبيرَ ما وراءَ سريرِ خلافته ، التذاذا بتكرار ذلك وترديده ، وآبتهاجًا بتطرية ذكره وتجديده ؛ فأمورُ المِلّة والدّولة مَعْدُوقةٌ بتدبيرك ، وأحوالُ الأداني والأقاصي موكولةٌ إلىٰ تقريرك ؛ وقد جمع لك أمير المؤمنين من آستخدامِ الأقلام ، وجعَلَ السيادةَ لك علىٰ سائر القُضاة والدُّعاة والحُكّام ، وأسجل لك بالآختصاص بالمعَالى والآنفراد ، والتوحّد بأنواع الرّياسات والآستبداد ، ولك الإبرامُ والنّقضُ ، والرّفع والخفض ، والولايةُ والعزْل ، والتقديم والتأخير ، والتّنويهُ والتأمير ، فالمُقدّم من قدّمْته ، والمحمود من حمِدْته ، والمُؤخّر من أخّرْته ، والمذموم من ذمَمْته ، فلا مخالفةَ لما أحْببْته ، ولا مَعْدِلةَ عما أردْته ؛ ولا تجاوُزَ لما حدّدته ، ولا خُروجَ عمّا دبّرته ، وأين ذلك ممّا يُضْمِرُه لك أمير المؤمنين وينْويه ، و يعتقدُه فيك فلا يزال مدىٰ الدّهر يُعيدُه ويُبْديه؟ ولو لم يكن من بركاتك علىٰ دَوْلة أمير المؤمنين ، ويُمْنِ تدبيرك العائد علىٰ الإسلام والمسلمين ، إلا أنّ أوّل عَسْكرٍ جهّزته إلىٰ جهاد الكفَرة الملاعين : وكان له النّصرُ العزيز الذى تبلّج فجْرُه ، والفتحُ المُبين الذى جلّ قدْره وآنتشر ذكْره ، والظّفرُ المُبْهِجُ للدِّين — العسكرُ المنصور علىٰ الطائفة الكافرة : قتْـلًا لأبطالها ، وأسْرًا لأعناق رِجالها ، وأخذًا لِقلاعِ المُلَسرة (١)

(١) كذا بالأصل ، وقد وضع فوقها علامة توقف لعدم ظهور معناها ، ولعلها مصحفة عن «الكفرة» .

منها، وأنه لم يُفْلِتْ من جماعتها إلا مَنْ يُخْبِرعنها؛ ولو عَلِمَ أمير المؤمنين تعظمًا يخرج عمـا تَضَمَّنَه هـذا السِّجِلّ لمـا آقتصر عليـه ، إلا أنه عَاجَلَه ما يَسُرُّه بخاهر[1] لك بمـا هو مُسْتَقِرٌّ لديه ؛ والله عزّ وجلّ يَخْدِمُك السُّعُود ، ويَخُصُّك من مواهبه بمـا يتجاوز المعهود ؛ ويُمِدُّك بمواد التوفيق والتأييد ، ويقضى لك فى كُلِّ أمورك بمـا لامَوْضِعَ فيه لمَزِيد، إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قلتُ : وهذا الصِّنْف من الكُتُب السلطانية قد رُفِضَ وتُرِك آستعماله فى زماننا فلا معوّلَ عليه أصلا .

الصـنف الحادى والعشرون
(المكاتبةُ بالإحماد والإذمام)

قال فى "مواد البيان" : السلطان محتـاجٌ إلى مكاتبة مَنْ يَقِفُ منه على طاعة وآجتهاد، ومُنَاصَحةٍ وإخلاص، بالشُّكْرِ والإحماد، والبَعْثِ على الآزدياد من المُخَالَصة وحُسْنِ السَّعْيِ فى الخِدْمة وغيرها، مما يرتبط به النِّعْمَه، ويَسْتَوْجِبُ معه حِفْظَ الرُّتبه. ومُكَاتبـةِ من يَعْثُر منه على تقصيـر وتَضْجِيع ، وتفريط وتضييع ؛ بالذّمِّ والتقريع والتّأْنيب : لأنه لايَخْلُو أعوانُ السلطان من كُفَاة يستـديم كِفَايَتَهم بتصويب مراميهـم ، وآستحسان مَسَاعِيهـم ؛ وإحْمَـادِهم على تشميرهم ، وشَرْح صُدُورهم ببَسْـط آمالهم ؛ والعِدَة برفع منازلهم ومَحَالّهم ، وتمييزهم على نُظَرَائِهـم وأشْكَالهم ؛ وتحذيرهم من التوبيخ وتقـديم الأعذار ، والتخويـف من سقوط المراتب ، وقُبْح المصاير والعواقب .

(١) فى الأصـل "وشاهد" .

قال : وينبغى للكاتب أن ينتهىَ فى خطاب مَن آنتهىٰ فى الحالين إلىٰ غايتيهما ، إلىٰ المعانى الناجعة فى الغَرَضَيْن ، ويتوسط فيهما سِمًّا التوسط الذى يقتضيه الحال المُفَاضُ فيها : لأن فى ذلك تقريرا للمُحْسِن علىٰ إحسانه ، ونَقْلًا للمُسِىء عن إساءته : لأنه إذا علم النَّاهِضُ أنه مُثَاب علىٰ نَهْضَتِه ، والوَانِى أنه مُعَاقَبٌ علىٰ وَنْيَتِه ، آجتهد هـذا فى الآستظهار بخِدْمَتِه بما يزيد فى رُتْبَتِه ، وخاف هذا من حَطِّ منزلته وتَغَيُّرِ حالته . ثم قال : والرسوم فى هذه المكاتبات تختلف بحسب آختلاف أغراضها ، وتتشعب بتَشَعُّبِ معانيها ؛ والأمر فى ذلك مَوْكُولٌ إلىٰ نظر الكاتب العارف الكامل ، ووضعه كُلَّ شَىْءٍ فى موضعه ، وترتيبه إياه فى مرتبته .

فأمّا المكاتبة بالإحماد ، فكما كُتِبَ عن صَمْصَامِ الدولة بن عَضُدِ الدَّوْلة بن بُوَيْه ، إلىٰ حاجب الحُجَّاب أبى القاسم سعد بن محمد وهو مقيم بنَصِيبِين علىٰ مُحَارَبَةِ باد الكردىّ .

كتابنا ، ووصل كتابُك مُؤَرَّخا بيوم كذا ، تذكُرُ فيه ماجرىٰ عليه أمْرُك فى الخِدْمَة التى نِيطَتْ بكِفَايَتِك وغَنَائك ، ووُكِلَت إلىٰ تدبيرك ووَفَائك : من ردّ باد الكُرْدِىّ عن الأعمال التى تَطَرَّقَها ، وحدَّثَ نفسه بالتَّغَلُّبِ عليها ؛ وتَصَرُّفك فى ذلك علىٰ مُوجِبَات الأوقات ، والتَّرَدُّدِ بين أخينا وعُدَّتِنَا أبى حَرْب : زياد بن شهرا كويه وبينك من المكاتبات ؛ وحُسْنِ بَلَائك فى تَخْيِيفه ، ومَقَامَاتك فى حَصِّ جَنَاحه ، وآثارك فى الآنفضاض علىٰ فَرِيقٍ بعد فَرِيقٍ من أصحابه ؛ وآضطرارك إيّاه بذلك وبضُرُوب الرياضات التى آستعملتَها ، والسِّيَاسَاتِ التى سُسْتَ أمرَه بها ؛ إلىٰ أن نَزَل عن وُعُورَة المَعْصِيَة إلىٰ سُهُولة الطاعه ، وآنصرف عن مَجَاهِل الغَوَايَة إلىٰ مَعَالِم الهِدَايه ، وتراجع عن السَّوْمِ إلىٰ الآقتصار ، وعن السَّرَفِ إلىٰ الآقتصاد ، وعن الإباءِ إلىٰ الآنقياد ،

وعن الاعتياص إلى الإذعان، وأن الأمر استقر على أن قبلت منه الإنابه، وبذلت له فيما طلب الاستجابه، واستعيد إلى الطاعه، واستضيف إلى الجماعه، وتصرف على أحكام الخدمه، وجرى مجرى من تضمه الجمله، وأخذت عليه بذلك العهود المستحكمه، والأيمان المغلظه، وجددت له الولاية على الأعمال التى دخلت فى تقليده، وضربت عليها حدوده، وفهمناه.

وقد كانت كتب أخينا وعدتنا أبى حرب [زياد بن شهرا كويه][1] مولى أمير المؤمنين ترد علينا، وتصل إلينا، مشتملة على كتبك إليه، ومطالعاتك إياه، فنعرف من ذلك حسن أثرك [وحزم رأيك][1] وسداد قولك، وصواب اعتمادك، ووقوع مضاربك فى مفاصلها، وإصابة مراميك أغراضها، وماعدوت فى مذاهبك كلها، ومتقلباتك بأسرها، المطابقة لإيثارنا، والموافقة لما أمرت به عنا، ولا خلت كتب أخينا وعدتنا أبى حرب من شكر لسعيك، وإحماد لأثرك، وثناء جميل عليك، وتلويح وإفصاح بالمناصحة الحقيقة بك، والموالاة اللازمة لك، والوفاء الذى لا يستغرب من مثلك، ولا يستكثر ممن حل فى المعرفة محلك، ولئن كنت قصدت فى كل نهج استمررت عليه، ومعدل عدلت إليه، مكافحة هذا الرجل ومراغمته، ومصابرته ومنازلته، والتماس الظهور عليه فى جميع ماتراجعتماه من قول، وتنازعتماه من حد، فقد اجتمع لك إلى إحمادنا إياك، وارتضائنا ما كان منك، المنة عليه إذ سكنت جاشه، وأزلت استيحاشه، واستللته من دنس لباس المخالفه، وكسوته حسن شعار الطاعه، وأطلت يده بالولايه، وبسطت لسانه بالحجه، وأوفيت به على مراتب نظرائه، ومنازل قرنائه، حتى هابوه هيبة الولاه، وارتفع بينهم عن مطارح العصاه.

---

(١) الزيادة عن رسائل الصابى المخطوطة.

فالحمد لله على أن جعلك عندنا محمودا، وعند أخينا وعدّتنا أبي حرب مشكورا، وعلى هذا الرّجل مانًا، وفي إصلاح ما أصلحت من الأمر مُثابا مأجورا؛ وإياه نسأل أن يُجرِيَ علينا عادته الجارية في إظهار آياتنا، ونُصرة أوليائنا، والحكم لنا على أعدائنا، وإنزالهم على إرادتنا؛ طوعًا أو كرهًا، وسلمًا أو حربا؛ فلا يخلو أحدٌ منهم من أن تحيط لنا بعنقه رِبقةُ أمرٍ، أو منّةُ عفوٍ؛ إنه جلّ ثناؤه بذلك جدير، وعليه قدير.

ويجب أن تُنفذ إلى حضرتنا الوثيقة المكتتبة على باد الكردي إن كنت لم تُنفذها إلى أوان وصول هذا الكتاب : لتكون في خزائننا محفوظه، وفي دواويننا منسوخه؛ وأن تتصرّف في أمر رُسُلِه وفي بقيّة ــ إن كانت بقيت من أمره ــ على ما يرسمه لك عنّا أخونا وعُدّتنا أبو حرب، فرأيك في العمل على ذلك، وعلى مطالعتنا بأخبارك وأحوالك، وما يُحتاج إلى علمه من جهتك، مُوَفّقا إن شاء الله تعالى.

وأما الإذمام فيختلف الحال فيه باختلاف الملوم فيه والمذموم بسببه . فمن ذلك الذمّ على [ترك] الطاعة وشقّ العصا.

كما كتب عمارة يصف شخصا بأنه لمّا ارتفع مكانه، وعلا قدره، بطر معيشته، وخرج عن طاعة الخليفة : وأن فلانا كان ممّن عُرفت حاله : في غموض أمره، وخمول ذكره، وضيق معيشته، وقلّة عدده وناهضته، ولا تجاوز حياته ما يقوله، ولا يتعاطى ماوراء ذلك ولا يرومه، ولا تُمنّيه نفسه، ولا يدفع يد لامس عنه بقوة تنوء بملإٍ، ولا عِزّ يلجأ إليه . فأنعم عليه أمير المؤمنين وأكرمه وشرّفه، وبلغ به الغاية التي لم يكن يرجوها ولا تُرجى له؛ وبسط له من الدّنيا، وآتاه من غضارتها ونعمتها، وعزّها وسلطانها، مالم يؤتِ أحدا من أهل زمانه. فلما مكّن الله

له فى الدنيا طَغىٰ وتجبَّر، وعلَا وتكبَّر؛ وظَنَّ أن الذى كان فيه شيءٌ قاده إلىٰ نفسه بحَوْله وقُوّته: تَهْويلا من الشَّيْطان، وآستدراجًا منه له.

وكما كتب عبدُالحميد فى مثله:

أما بعد، فقد بلغ أميرَ المؤمنين عنك أمْرٌ لم يَحْتَمِلْه لك، إلا ما أَحبَّ من رَبِّ صنيعته قِبَلَك، وآستِتْمام مَعْرُوفه إليك؛ وكان أميرُ المؤمنين أحَقَّ مَنْ أصلح ما فَسَد منك؛ و إنَّك إن عُدْتَ لمثل مقالتك، وما بلغ أميرَ المؤمنين عنك؛ رأىٰ فى مُعاجَلَتك رَأْيَه؛ فإن النِّعْمة إذا طالت بالعبـد مُمْتَدَّةً أَبْطَرَتْه: فأساء حَمْلَ الكرامه، وآستثقل العافيه؛ ونسب ماهو فيه إلىٰ حِيلَتِه، وحُسْنِ نَبْتِـه ورَهْطِه وعَشِيرَته. و إذا نزلت به الغِيَر، وآنكشفت عَمَايَةُ العَشىٰ عنه؛ ذَلَّ مُنْقَادًا، ونَدِمَ حسيرا؛ وتَمكَّن منه عَدُوُّه: قادرا عليـه، وقاهِرًا له. ولو أراد أميرُ المؤمنين مُكافأتك بلَفْظك، ومُعاجَلَة إفْسادِك، جمع بينه و بين من شَهِد فَلَتاتِ خَطَئك وعَظِيمَ زَلَّتك؛ ولعمرى لوحاول أميرُ المؤمنين مكافأتك بلفظك فى مَجْلِسك، وجُحُودِك فَضْلَه عليك، لرَدَّك إلىٰ ما كُنت عليه، ولَكُنْتَ مُسْتحِقًّا.

وفى مِثْله:

فإن صَاحِبَ البَرِيد كَتَبَ إلىَّ عن أصحابك بكذا، فقلتُ: إنهـم لم يُقْدِموا علىٰ ما أقدموا عليـه حَتّىٰ عَجَمُوك، فعَرَفوا خَوَرَ عُودِك، وضَعْفَ مَكْسِرك، ومَهَـانَة نَفْسِك، وأنّه لاغَيْرَ عندك ولا نَكِير.

ومن ذلك الذَّمُّ علىٰ الخطإ، كما كتب أحمد بن يوسف:

كأن البُخْلَ والشُّؤْمَ صارا معـا فى سَهْمِه، وكانا قبـل ذلك فى قِسْمِه؛ فحازهمـا بالوِراثه، وآسـتحقّ ما آستملك منهما بالشُّـفْعَه؛ وأشهد علىٰ حِيازَتِهما أهلَ الدّين

والأمانة حتى خلصا له من كُلّ ممانِع ، وسَلِمَا له من تبِعَة كُلّ مُنَازِع ؛ فهو لا يُصيب إلا مُخطِئا ، ولا يُحسِنُ إلا نَاسِيا ، ولا يُنفِقُ إلا كَارِها ، ولا يُنصِفُ إلا صَاغِرا .

قلت : وهذا الصِّنف من المكاتبات السلطانية لا يمتنع وُقُوعُه فى وَقْتٍ من الأوقات . فإن عَرَضَ له مُوجِبٌ ، راعى الكاتبُ فيه صورة الحال ، وكتب على مايوجبه المقام ، وتَقْتَضِيه تلك الوَقْعَةُ .

الصنف الثانى والعشرون

(مايُكْتب مع الإنعام لنُوّاب السَّلْطَنة بالخَيْل والجَوارح

وغيرها من أنواع الإنعامات) وهذا الصِّنْفُ من المستعمل فى زماننا كُلَّ وَقْت

فأما مايُكْتَبُ مع الإنعام بالخَيْلِ ، فقد جرت العادة أن السلطان يُنْعِمُ بالخَيْلِ على نوّاب السلطنة بالشام ، ويُكْتَب بذلك مِثالات شريفة إليهم . ورُبَّما أنعم بالخيل وكُتِب بها فى غير ذلك .

وهذه نُسْخة مِثالٍ شريف من ذلك :

ضاعف الله تعالى نِعْمَةَ الجناب وخَصَّه من النِّعَم بما لاتُحصى له آثار ، ولا يُتعَلَّق له بغُبَار ، ولا يوصف بحالٍ واحدة : لأنه إن جرى فبَحْرٌ و إن وقَفَ فَنار .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بكُلّ سلام لا تُدْرِك لسوابقه غايه ، ولا تُحصى له نِهايه ، ولا يردّ منه كل ماجاء وله فى وجهه كفلَقِ الصُّبْح آيه ، ولا يَتَقَدّم فى مَيْدان إلا وقد حُمِلَ له فى كُلِّ مكانٍ رَايَه . وتُوَضِّح لعلمه الكريم أنه قد جُهِّزَ له قرينَها ماجرت به عادته من الحُصُنِ التى لايَدَّعى البَرْقُ أنه لها نَظِير ، ولا تُجارِى الرِّياحُ من سوابقها مايَطِير ؛ كم لها فى مَيْدانٍ مَجَال ، وكم لها فى رؤية دَوِّيَّة ارتجال ؛

وكم دُعِىَ الوغىٰ بها علىٰ كُلِّ ضامِرٍ فأتت رجالا تَقْدَحُ سَنابِكُها نارا، وتَفِيضُ جَوانِبُها من الرَّكْض عَقارا، و يتكفَّل بَدِيعُها بكُلِّ مَرام، وتُعطِى ما فى يديها لأنها من الكرام؛ وقد تشرَّفت من نِعمِنا الشريفةِ بالسُّرُوج واللُّجُم والعِدّة المُكَمَّله، وتحلَّت من الذَّهب والفِضَّة ما يُغْنِى بجملته المُفَصَّله، وأرسلناها إليه تَرْقُصُ فى أعِنَّتِها زَهْوا، وتَتْرُك بِطِيبِ صَهِيلِها كُلَّ بَحْرٍ تَخُوضُه إلىٰ المنايا رَهْوا؛ وتوجَّه بها فلان كالعرائس المَجْلُوّة فى حُلَلها، والنُّجُومِ لولا ما تميزت به من حَلْيِ عَطَلِها؛ والسَّحابِ إلا أنَّها لا تحتاج مِنَّةَ الرِّياح فى تَنَقُّلها .

فلْيُقابِلْ هـذه النِّعْمةَ الشريفةَ بشُكْرِها، وليَتَسلَّم هذه الصَّدَقاتِ العميمة التى تَعْـتَرِفُ كُلُّ نِعْمَةٍ بقَدْرِها؛ وليحمد الله من تَفَقُّداتنـا الشريفةِ علىٰ كَرَمِ فَرَسٍ جاء وهو سابِق، وجُودِ جَوادٍ لا يدور معـه السَّحاب فى طَابِق؛ و يعتمدها لارتقاء كُلِّ صَهْوَةٍ مُنِيفه، وجِهادِ أعداء الله عليها بين أيدينا الشريفه؛ و يعيد الواصـل بها إلىٰ خِدْمَةِ أبوابنا العاليه، والله تعالىٰ يديم عليه بنا النِّعَمَ المُتَوالِيَه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

✤ ✤ ✤

آخـــر: ولا زال إقبالنا يُمِدُّه من الصَّافِنَاتِ الجِيادِ بما يُبارِى الرِّياح، ويتيمَّنُ بغُرَرِها الصَّباح، ويطلق أعِنَّتَها فى حَلْبَـةِ السِّبَاق فتسبق برَكْضِهـا ذَوَاتِ الجَناح؛ ولا برح إنعامنا يُتْحِفُه بكُلِّ طِرْفٍ يُبْهِجُ الطَّرْف، ويَثْلَجُ الصَّدْرُ بمـا آستمدّ عليه من المَلاحة التى تَرُوق العَيْنَ وتَفُوق الوَصْف، ويُفْرِدُه بما آجتمع فيه من الحُسْنِ واليُمْنِ: إذ هو واحدٌ كالألف – تُهْدِى إليه سلاما تَعْبَقُ بِطِيبِ نَشْرِه أرْجاؤُه، وثناءً يُعرِب عما فى ضميره من عُلُوِّ قَدْرِه وسُمُوِّ ذِكْرِه فيُشْرِق سَناؤُه ويُضَاعِفُ ثَنَاؤُه؛ وتوضِّح لعلمه الكريم أنه غير خَافٍ عنه ما يَصِل إلىٰ أبوابنا الشريفة من الخيول البَرْقِيَّة فى كُلِّ عام،

وما نَخُصُّه منها بكُلِّ ميمونِ الغُرَّةِ مُبارَكِ الطَّلْعَةِ هَنِيءِ السَّيْرِ على الإنعام؛ وقد أرسلنا إلى جنابه الكريم من ذلك سَهْمَه، وأضفنا إلى ذلك ما ٱستَصْلَحْناه من الخَيْل العَرَبيَّة الغربيه والعِتاقِ العجيبة العربيه (؟) مما الخَيْرُ معقودٌ بنواصيها، فتَزْهَقُ على صَهَوَاتِها نفوسَ الأعداء، وتَسْتَنْزِلُها من صَيَاصِيها؛ فيأخذ الجناب العالى ما يَخُصُّه من ذلك، ويُفَرِّقُ الباقِيَ على من رَسَمْنا له به بيُمْنِ رَأْيِهِ المُبارَكِ الذى لا يُسَاهِمُه فيه أحَدٌ ولا يُشَارِكُ؛ ويُجَهِّزُ الخَيْلَ المخصوصة بفلان إليه، والله تعالى يضاعف عِزَّ ظُهُورِها عند ٱمتطائها لديه.

وأما مايكتب مع الإنعام بالجوارح [فمما يُكْتَبُ][1] مع إرسال سُنْقُرٍ.

وقد بعثنا إليه بسُنْقُرٍ كأنَّه مَلِكٌ مُتَوَّج، ورِزْقٌ مُرَوَّج؛ تَجَرَّأَ على سَفْكِ الدِّماء، وأبى أن يَطْلُبَ رِزْقَه إلا من السماء؛ يَوَدُّ الكُرْكِيُّ لو خَلَصَ من مَخَالِبِه، ويخافُ أن يَسْلَمَ من خرط الشَّبَكَةِ[2] ويَقَعَ فى كَلَالِيبِه؛ يُدْرِكُ الصَّيْدَ ولا يُؤَجِّلُه، ويرفَعُ صَدْرَه ثم يُومِى إليه برأسه كأنَّه يستعجله؛ قد جَمَع من المحاسن كُلَّ الصُّنُوف، وكُتِبَتْ عليه أسْطُرٌ تُقْرَأُ بما تُقْرَى به الضُّيُوف.

ومما يكتب مع إرسال صَقْر.

وقد وجَّهنا إليه بصَقْرٍ لا تُؤْسَى له من الصَّيْد جِراح، ولا يَدَعُ من وَحْشٍ يَسْرَحُ ولا طَائِرٍ يطير بجَناح؛ أينما تَوَجَّهَ لايأتِ إلا بخَيْر، وحَيْثُما أُطْلِق كان حَتْفَ الوَحْشِ والطَّيْر؛ يَدَعُ أقطارَ الفَلَاةِ مَجْزَرَه، أو رَوْضَةً بالدماء مُزْهِرَه؛ يَجِدُ إلى الطير فى عَنَقِه، ويُحَلِّقُ إلى السماء فيرجع وطَائِرُه فى عُنُقِه؛ تَخَافُه العُفْرُ على نفوسها، وتَخْضَع له ولأمثاله فما تخرج إلا والطَّيْرُ على رُءُوسها؛ يزيد خُبْرُه فى مَظَانِّ الصَّيْد على الخَبَر،

(١) بياض بالأصل، والتصحيح بمقتضيه المقام.

(٢) كذا فى الأصل و"التعريف".

وتخرج الظِّبَاءُ وقد تَسَجَّتْ خَوْفًا منه فى مُلَاءَةٍ من العَجَاجِ مَخِيطَةٍ من قرونها بالإِبَر، شَدِيدِ الأَيْدِ، قد بنى على الكَسْر حُرُوفَ الصَّيْد، يَحْمَد مُقْتَنِيه أيامَه الغُرّ، ويقول له إذا تَلَفَّتَ إلى الصيد: إن جَلَبْتَ صَبُعًا فأَنْتَ حر، لايَصْحَبُ مُسْتَصْحِبُه معه إلا مَزَادَه، وأينما سار حَامِلُهُ ـ وهو معه ـ كان معه زَادَه.

ومما يكتب مع إرسال شَاهِين.

وقد وُجِّهَ إليه بِشَاهِينٍ إذا حَلَّق وراء الطَّيْر شاهَتْ به الوُجُوه، وشاهدت الآمالُ به ماترجوه، قد أصبح كلُّ مُحَلِّق الجَنَاح رَهِينَ يَدِه، وكُلُّ سارب من الوَحْشِ طَعَامَ يَوْمِهِ أو غَدِه، لايُتْعِبُه خَلْفَ الطَّرِيدة بُعْدُ المَدَى، ولا يَرُدُّه خوفُ مَسَافَةٍ ولا تَقَحُّمُ رَدَى، رِبيَّةُ عام لم يُمَتَّع بطُولِ مادَهْر، وممتدَّة منه فى الطَّلَق مثل ريح سُلَيْمانَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورَوَاحُها شَهْر.

ومما يكتب مع إرسال كُوهِيَّة.

وقد جَهَّزْنا إليه كُوهِيَّه، هى بالمحاسن حَرِيَّه، ولكثرة الإِقْدَامِ جَرِيَّه، يَكِلُ بها صاحِبُها أَمْرَ مَطْبَخه، ويمدها من الطيرِ مَنْ ليس بمُصْرِخه، لا تَعِفُّ عن دم، ولا تُرَى أطرافُها إلا مُثْمِرة[1] بعُنَّابٍ أو مُخَضَّبَة بعَنْدَم، قد أَخْلَتْ[2] من كُلِّ سانح، ولَبِسَتْ زِيَّ الرَّاهِبِ المُتَعَبِّد وفتكت بكُلِّ سائح.

ومما يكتب مع سقاوة.

وقد جهزنا إليه بسقاوه، مَخَالِبُها على الطَّيْر كالحديد أو أَشَدُّ قَسَاوَه، تُسِيلُ دِماءَ الصيد كالمَذَانِب[3]، وتَكْسُو الأرض حِبَرًا من رِيَاشِ الحُبَارَى وفِرَاءً من جُلُود الأرانب،

(١) كذا فى "التعريف" (ص ٢٢٥) وفى الأصل «مسمرة».
(٢) فى الأصل «قد أحلت من كل شائح» والتصحيح عن "التعريف".
(٣) كذا فى "التعريف" وفى الأصل «كالدايب».

وجَعلتْ فى قَبْضَةِ الكَفِّ ما كانت العين عليه تَدُور ، وتكفّلَتْ بِكفايةِ المَطْبَخ ومَلأَتِ القُدُور .

ومما يُكْتَبُ مع إرسال باز .

وقد بعثنا إليه بِبَازٍ مهما لَقِىَ لَقِف ، ومهما خَطَا لَدَيْه خَطِف ، كأنما خُطَّ جَوْهَرُه بقَلَم ، أو رِيشَ عليه من الصَّباح والظُّلَم ، قد أُعِدَّ للطوارق ، وأُدْرِأ بِمثْلِ الطَّوارِق ، قد دَحَضَ حُجج الحَجَل ، وكسرها حَتّى أبان عليها حُمْرَةَ الخَجَل ، لا يُسْأَل فى الصيد عما نَهَب ، ولا تُعْرَف له قِيمَةٌ إلا أنَّ له عَيْناً من الذَّهَب .

ومما يُكْتَب مع الفَهْد .

وقد أنعمنا عليه بفَهْدٍ أَهْرَتِ الشِّدْق ، ظاهرِ الحِذْق ، بادِى العُبُوس ، مُدَثَّر الملبوس ، شَثْنِ البَراثِن ، ذى أنْيابٍ كالمُدَىٰ ومَخالِبَ كالمحاجن ، قد أخذ من الفلَقِ والغَسَقِ إهابا ، وتقمَّصَ من نُجْلِ الحَدَقِ جِلْبابا ، يُضْرَبُ المَثَلُ فى سُرْعَةِ وُثوبِ الأجل به وبشِبْهِه ، وتكاد الشَّمْسُ مُذْ لَقَبُوهَا بالغزالة لا تَطْلُع من الوَجَلِ على وَجْهِهِ ، يَسْبِقُ إلى الصيد مَرامِىَ طَرْفِه ، ويَفُوتُ لَحْظَ مُرْسِله إليه فلا يستكمل النظرَ إلا وهو فى كَفِّه ، وتَتَقَدَّمُه الضَّوارِى إلى الوَحْشِ فإذا وَثَبَ له تعثَّرَتْ من خَلْفِه[(١)] .

وأما ما يُكْتَبُ مع الإنعام بالسلاح .

فمن ذلك — وقد جهزنا إليه سَيْفاً تَلْمعُ مَخايِلُ النَّصْرِ من غِمْدِه ، وتُشْرِقُ جواهر الفَتْحِ فى فِرِنْدِه ، وإذا سابق الأَجَلَ إلى قَبْضِ النُّفُوس ، عَرَف الأَجَلُ قَدْرَه فوقف عند حَدِّه ، ومتى جُرِّد على مَلِكٍ من مُلُوك العِدا وَهَتْ عَزائمُه ، وعجز جَناحُ جَيْشه

(١) وقع فى هذه الرسالة تحريف كثير فى الأصل ، فصححناها من "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

أن تَنْهَض به قَوادِمُه، وعلم أنه سَيْفُنا الذى على عَاتِقِ المَلِكِ [الأعز][(١)] نِجادُه وفى يَدِ جَبَّار السمٰوات قائمه .

الصـنف الثالث والعشرون
(المكاتبة بالبِشَارَة عن الخليفة بوَلَدٍ رُزِقه)

والرسم فيها أن يذكر شَرَف الخلافة وعُلُوّ رُتْبَتها، ويشير إلى تخصيص الخلافة بمصيرها إليه دون سائر البَرِيَّة، وانتقالها إليه بالتَّوارُث من آبائه الطاهرين كابِرًا عن كابِر، وبقائها فى عَقِبِه إلى الأبَد . ثم يتخلص إلى ذكر النِّعْمَة على أمير المؤمنين التى أنعمها الله تعالى عليه، وأنَّ مِنْ أعظمها نِعْمَةً أنْ رَزَقه الله تعالى ولدا، ويذكر آسمه وكُنْيته، ويَصِفُه بما يناسبه .

وهذه نسخة كتاب فى معنى ذلك، وهى :

الحمد لله مُؤَيِّد الإسلام بخُلَفائِه الراشدين، ومُظْهِرِ الإيمان بأوليائه الهادين، الذى جعل الإمامة كَلِمَةً باقية فيهم إلى يوم الدِّين، وأقام منهم الحَاضِرَ المُتَّبَع، والمَرْجُوّ المُتَوقَّع، وأطلع منهم فى سماء الهِداية شُهُبًا لايَخْبو منها شِهَابٌ حتّى يتوقَّد شِهاب، وفتح بهم للإرشاد أبوابا لايُرْتَجُ منها بابٌ حتّى يُفْتَح باب .

يحمده أمير المؤمنين أن فوّض إليه مَنازِلَ آبائه، ووفّقه (؟) بانتقال ماوَرِثَه من آبائه إلى أبنائه، ويسأله أن يُصَلِّيَ على من كَرَّمه بوِلادته وشَرَّفه بالانتساب إلى شجرة سيدنا محمد خاتَمِ رُسُلِه، المُتَرجِمِ عن توحيده وعَدْلِه، وعلى أخيه وابن عَمِّه علىّ بن أبى طالبٍ قَسِيمه فى فَضْلِه، ووَصِيِّه على أمَّته وأهْلِه .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وإن أولى النعم بأن يُفاض فى شكرها، وتُعطَّر المحافل بنشرها، نعمةٌ حاطت دعائم الدين، وأمرَّت حبل المسلمين، وتساوى فى [تناوُل](١) قطافها الكافه، وآذنت بشُيوع الرَّحمة والرافه، وأضحت بها النُّبوّة مُشرقة الأنوار، والإمامةُ عالية المنار، والخلافةُ مختالةَ المنبرِ والسَّرير، رافلةً فى حُلَل الابتهاج والسُّرور .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وقد رزقه الله تعالىٰ وَلَدا ذكرا مُباركا رضيًّا، سمّاه فلانا، وكنّاه أبا فلان، فجلا بنهار غُرَّته الدَّامس، وافترّ بمقدمه العابس، واخضرّ بيُمن [نقيبته](١) اليابس، ووثقت الآمال بسعادة مَقْدَمه، وتطلّعت الأعناق إلىٰ جوده وكرمه؛ مُبَشّرا لك بهذه النُّعمىٰ الحسنة الأثر، القليلة الخطر، علمًا بمكانك من ولائه ومُخالَصته، وسُرورك بما يُفيضه الله عليه من شآبيب نعمته : لتأخذ من المسرَّة والجذل بحظّ المولىٰ المُخلص، والعبد المتخصّص، ولتُشيع مضمونَ كتابه فيمن قبلك من الأولياء، ليُشاركونا فى الشُّكر والثَّناء، فاعلم هذا واعمل به، إن شاء الله تعالىٰ .

[قلتُ](١) وهذا الصِّنف من المكاتبات السلطانية مستعملٌ فى البِشارة عن السلطان إذا حدث له وَلَدٌ، فيُكتَب بالبِشارة به إلىٰ نوّاب السلطنة وأهل المملكة .

الصنف الرابع والعشرون

(ما يُكتب عن السلطان بالبِشارة بعافيته من مرض)

وهذه نسخة كتاب بعافية المَلك النَّاصر « محمد بن قلاوون » من مرض، إلىٰ صاحب ماردين، وهو :

---

(١) بياض بالاصل والتصحيح من المقام .

ولا زالت البشائر على سمعه الكريم متواتره ، والمسارّ إلى مقام ملكه سائره ، والتهانى، ببلوغ الأمانى، من كمال شفائنا تجعل ثغور الثغور باسمة ووجوه الدهور ناضره ، ونعم الله تعالى مقابلة بالشكر الجزيل على أن أجدّ ملك الإسلام بافتقاده، وأبقى للدين المحمدى ناصره . أصدرناها إلى المقام العالى ومواردنا من الصحّة حلوة فى الأفواه، وألسنتنا شاكرة لنعم الله، وعافيتنا تجدّد فى كلّ جديد، وصحّتنا قد بلغت من المزيد مائريد، وقد ألبسنا الله تعالى من الشفاء ثوبا قشيبا، ونصرنا نصرا عزيزا وفتح لنا فتحا مبينا – تهدى إليه سلاما تتأرّج به أرجاء ملكه، وثناء تنتظم الأثنية فى سلكه، وتوضّح لعلمه الكريم ما حصل من عافيتنا التى تضاعف بها فرح الإسلام والمسلمين، ووجب الشكر عليهم والحمد لله ربّ العالمين .

الضرب الثانى

(من مقاصد المكاتبات السلطانية مايكتب عن السلطان فى الجواب)

وكلّ معنى من المعانى الوارد بها الكتاب إليه يشتقّ جوابه منها ، وغالب مايعتنى به من ذلك جواب مايرد من المكاتبات بالتقادم والهدايا، وما فى معنى ذلك .

وهذه أدعية من ذلك يستضاء بها فى أوائل الأجوبة عن المعانى التى ترد فيها .

جواب سلطانى عن وصول خيل : – ولا زال يتحف بكلّ صاهل فى الجحفل ، وجمال فى المحفل، وأجرد إذا أمّ غاية لمعت فى أثره البروق تتطفّل، ومسوّم يلتزم جلاله بمزيد جلاله ، وكيف لا وهى إذا أسدلت عليه يتكفّل ! . أصدرناها والعطر يضوع من سلامها، والمسك يفوح من ختامها، وآثار الندى تحكى آثار أقلامها .

آخر فى المعنىٰ : ولا زال مُحتَفِلًا بالجِياد وإرسالها، ومُهْدِيًا لِركابِنا الشَّريف السَّوابِقَ التى إذا لم يسابقها شئٌ من الحيوان تجلّت فى مُسابَقة ظِلالها، ويَنتَقِى لمواكبنا الخُيُولَ التى إذا أصبحت فى مَدًى أصبحت الرياحُ تتعلق بأذيالها . أصدرناها .

آخر فى مثله : ولا زال يُهْدِى إلينا من الجِيادِ بَحْرا، ويَقُود من العِرابِ ما تملأُ غُرَّتُه المَواكِبَ بِشْرا، وإذا طلع فى الكَتِيبَة يزيدها عِزًّا ونَصْرا، من كُلّ طِرْفٍ تأصَّلَ حُسْنا وحَسُنَ إهَابًا وجلَّ قَدْرا .

آخر فى مثله : وأعلىٰ له علىٰ صَهَوات العِتاقِ مُرْتَقىٰ، وخصّه بكُلِّ جَوادٍ وهو مُنتَقِلٌ إليه مُنتَقىٰ، وأطلع عليه نَواصِىَ الصَّوافِنِ التى عُقِد الخيرُ بها عَقْدا مُوثَقًا . أصدرناها ونُورُ التَّحايا من أرجائها يُنير، ومَفاخِرُها تشرَّف بها كُلُّ مِنبَرٍ وسَرير، وركائبُ أثْنِيَتِها تسير إلىٰ مقامه فتَطِيبُ راحلةً فى ذلك المَسِير .

آخر فى مثله : ولازال يُهْدِى من الجِيادِ المُسَوَّمة أصائلها، ويُتحِفُ مما يجيبه عند الوِفَادَةِ عليه صاهلها، ويقابل أكْرَم غُرَّة : الخَيْرُ معقودٌ بناصيتها واليُمْنُ يُقابِلها، ويمتِّع بأعزّ جَوادٍ حِلْيَةُ الشَّفَقِ دون إهابه إذ يُماثِلها، وسُرْعةُ البَرْقِ خِفّتُه إذ يُساجِلُها .

الضــرب الثـالث

(من الكتب السلطانية الكُتُب الصادرة عن نوّاب السلطنة إلىٰ النوّاب بسبب مايرد عليهم من المثالات السلطانية)

اعلم أنه قد جرت العادة بأنّه إذا ورد علىٰ نائب السلطنة بالشّام مِثالٌ شريفٌ من الأبواب السلطانية، يأمرهم (١) كَتَبَ نائب الشّام إلىٰ نُوّاب السلطنة بورود

(١) بياض بالاصل ولعله بأمر .

المثـال الشريف مُبَشِّرًا بذلك ، ويجهز إلىٰ كُلٍّ منهم مع المثال الوارد إلىٰ كُلِّ نائب من نوّاب السلطان معنىٰ المثال الوارد من الأبواب السلطانية بذلك . إلا أنه يكون حاكيا لصُورَة المِثال الوارد بذلك، لأنّه مُبْتَدِئه ، ويشتمل ذلك علىٰ عدّة أمور .

فمن ذلك جلوس السلطان علىٰ تخت المُلْك ، فيخبر نائبُ الشّام فى الكتاب الصادر عنـه إلىٰ بعض النوّاب بأنّ المِثَالَ الشريف ورد عليه بذلك ، وأنه ورد كتاب إلىٰ المكتوب إليه بجهزه إليه .

[وهذه نسخة كتاب من ذلك] كُتِب به عن نائب الشّام إلىٰ بعض نُوَّاب السلطنة ، بالبِشارَة بسلطنة السلطان الملك الصّالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، وقد ورد علىٰ يَدِ بعض الحُجّاب . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة ، فى سـنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، وهى بعد الصدر :

أمتعه [الله] من البشائر بما يتوضّحُ علىٰ جَبِينِ الصّباح بِشْرُه ، وبما يَتَرجّحُ علىٰ مِيزَانِ الكواكب قَدْرُه ، وبما يَنْفَسِحُ من أوقات أَمْنٍ لايَخْتَصِمُ فى ظِلِّها زيدٌ وعمرٌو حتّى يقال : ولا زَيْدُ النَّحْوِ وعَمْرُه ، ويُنْهِى بعد دعاء يَتَبلَّجُ فى الليل فَجْرُه ، وثناء يَتَأَرّجُ فى طَيِّ النَّسِيم نَشْرُه ، وَوَلَاءٍ يتساوىٰ فى درجات الصَّفَاءِ سِرُّه وجَهْرُه ـ أنّ خَيْرَ البشائر ماخَصّ أولياءَ الدَّوْلَةِ الشريفة وعَمَّ الرعايا ، وسَمَا إلىٰ ثُغُور الإسلام خَبَرُه الجَلِيّ فقال : «أنا ابْنُ جَلَا وطَلَّاعِ الثَّنَايَا» وقُسِمَت مَسَرَّته علىٰ كافِلِي الممالك فقالت مملكة مولانا : « لَنَا المِرْبَاعُ مِنْهَـا والصَّفَايَا » وسلك المملوكُ من الإسراع بإشاعته الحَقّ الواجب ، وجَهّز خِدْمَته بين يَدَيِ المِثالِ الشريف الذى سبق طائرُ يُمْنِه ولٰكِنّه جاء وفى خدمته حاجب ، وهى البُشْرىٰ الواردةُ فى الأمثلة الشريفـة السلطانيه ، المالكية المَلَكيه ، الصالحية العِمَاديه ، العريقة فى نَسَب النَّصْر بالأنساب النّاصِرِيّة المنصورة ، أعلىٰ الله

تعالىٰ أبدًا علىٰ قواعد المُلْكِ عِمَادَها، وصَرَّفَ بها الأَعِنَّةَ لِمَا سَرَّ وصرفها عمّا دهىٰ؛ بجلوسه علىٰ كُرْسِيِّ المملكة الذى هو آية سَعْدِه الكُبْرىٰ، وتَخْتِ السَّلْطَنَة الذى عاينه مَلِكُ الجُودِ والعِلْمِ فقال: السَّلامُ عليك بَحْرا، وإجماعِ الأمة علىٰ أنه صَالِحُ المؤمنين، وكُفاةِ الحَلِّ والعَقْدِ علىٰ أنه سُلْطَان الإسلام والمسلمين، وأركانِ البَيْتِ النَّاصرىِّ علىٰ أنه عِمَادُه، وعلىٰ أنه سَنَدُه المُكَمِّلُ وإذا انقضَّ بيتٌ سِنَادُه؛ فياله جُلُوسًا قامت فيه كواكبُ السَّعْدِ مشدودةَ المَنَاطِق، ويالَه إجْمَاعًا ٱتفق فيه — حَتّىٰ من تصميم السيوف وتعبير الأقلام — كُلُّ صَامِتٍ ونَاطِق؛ ويالَه بَيْتَ مُلْكٍ أبىٰ الله إلا أن يقيم وَزْنَهُ أَفْضَلُ الأفاعيل، ويالَهُ مَلِكًا قال الدَّهْرُ الطويلُ ٱنتظاره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَىٰ الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾. ويالَهُ أمرا بلَغ خُبْرُه وخَبَرُه الأَوْطَار والأوطان، ونفذت بُرُدُه المِصْرِيةُ علىٰ حِينِ فَتْرَةٍ تالِيَةٍ له السُّعُود: ﴿فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ وحُشِرَ الناسُ ضُحًى ليوم الزِّينَه، وجاءوا إليها مستبشرين من أدنىٰ وأقصىٰ كُلُّ مَنْ فى المَدِينَه، وضُرِبَت البشائرُ ويا عَجَبا! أنها تُضْرب ومكانَتُها من القلوب مكينه. حتّىٰ إذا أخذت مِصْرُ حظَّها من الهَنَاء قُسِّمَتْ علىٰ الأمصار، وأضاء بارِقُ نَشْرِها من كُلِّ وَجْهٍ فسمت بالشَّامَاتِ غُرَّةُ الابصار، ورَكَضَ بَرِيدُ الخير بمُبَارَكِ باب البريد، ووصل نَيْلُ النِّيلِ إلىٰ أنهار دمشق فبَرَدَىٰ علىٰ الشُّكْرِ ثابِتٌ ويَزِيد، وبُشِّرَ الإسلامُ من وجه الخَلَفِ الصَّالِحِ بأكرم مَنْ بَرّ، وٱستفاض الاسم الشريف: فلو كُلِّفَ مُشْتَاقٌ فوق وُسْعِهِ لسعىٰ إليه المِنْبَر.

فالحمد لله علىٰ أن سُرَّ البيتُ الشريفُ النَّاصِرِىّ بجمع شَمْلِه، وعلىٰ أن أتى المُلْكَ العقيمَ الصَّالِحُ من أَهْلِه، وقد جهَّزَ المملوكُ المِثَالَ الشريفَ المختصَّ بمَوْلَانا: ومَوْلَانا أَوْلىٰ من ٱنتظمت لديه دُرَرُ هذه الأخبار الثَّمِينَه، وعُظِّمَت بناحِيَته شعائرُ هذه الدَّوْلَة المكينه، وكَمَّلَ لخيرِ حِمَاه خَيْرَ قرينه؛ والله تعالىٰ يُعِزُّ الإسلامَ بعزمه، ويُمْضِى الآجالَ

والأرزاق على يَدَىْ حَرْبه وسِلْمه ، ويُنْجِزُ لرايه ورايَتِهِ النَّصْر قبل أن يطوف الأولياء بعَلَمِه، وقبل أن يُحيط الأذكياء بعِلْمِه .

ومن ذلك الكتابة بورود مثال شريف بعافِيَة السلطان الملك الصالح عِمَادِ الدِّين إسماعيل ، بن الناصر محمد بن قلاوون، فى خلافة المعتضد بالله أبى الرَّبيع سليمان ؛ من إنشاء الشيخ جمال الدّين بن نُبَاتَة ، وهى بعد الألقاب :

أورد الله عليه من الهَنَاءِ كُلَّ سَرِىّ يَسُرُّه، وكُلَّ سَنِىّ يَقَرُّ أمام ناظره الكريم ويُقِرُّه، وكُلَّ وفىّ إذا طلع فى آفاق حَلَبَ قيل : لله دَرُّه ؛ ولا زالت البشائر تلقاه بكل وَجْه جميل ، وبكُلّ جَلِىّ جليل ، وبكُلّ خَبَرٍ تَصِحُّ الدنيا بِصِحَّته فليس بها غيْرَ النسيم عليل ؛ تَقبيلاً يُزَاحِم عُقُودَ الثُّغُور ، ويكاد يمنع ضَمَّ الشَّفَتَيْنِ للَّثْم طُولُ الاَبتسام للسُّرُور؛ ويُنْهِى بعد رَفْع اليَد بدُعَائِه ، وضَمِّ الجوانح على وَلَائِه ، وجَزْمِ الهَنَاءِ المشترك بمَسَرَّة مولانا وهَنَائِه ؛ أن المثال الشريف زاده الله شَرَفا ، وزاد فَضْل سلطانه على العباد سَرَفا، ورد بالبِشَارَة العُظْمىٰ ، والنُّعْماءِ التى ماضاهتها الأيام قَبْلُ بنُعْمىٰ ؛ والمَسَرَّة التى يأكُلُ حديثَها أحاديثَ المَسَرَّات أكْلًا لَمًّا ، ويُحِبُّها الإسلامُ والمسلمون حُبًّا جَمًّا ؛ بسلامة جَوْهَرِ الجسد الشريف من ذلك العَرَض ، وشفائه الذى فى عيون الأعداء منه شِفَارٌ تَطْعَنُ وفى قلوبهم مَرَض ؛ وأَنَّ مادَّةَ الأدواء بحمد الله قد ٱنْحَسَمَت ، والواردةَ مِنَ الاَفتقاد بالأجْرِ والعافية قد ٱبتسمت ؛ وأن ظُنُون الإشفاق قد ٱضْمَحلَّت ، ونَسَماتِ الرَّوْض قد فَدَتِ الجِسْمَ الشَّرِيفَ فَٱعْتَلَّت ، وأخْبارَ الهَنَاء يُعيِّنُها كُلُّ بَرِيد نَشْوَانَ من الفَرَح [ينشدُ] أَسَائِلُها أىّ المَوَاطِنِ حلَّت ؛ فيالَهَا بِشَارَةً خَصَّت الإسلام وعَمَّت بَنِيه ، وسارت فوق الأرض وسَرَتْ تحتها أسْلَافُ المُلْك ومُبْتَنِيه ؛ وشَمِلَت البِلَاد وعِبَادَها ، والسَّلْطَنَة وقد حجب الله عِمَادَها عمّا دهىٰ ، والمُلْكَ السليمانىَّ وقد ثَبَّتَ الله

به على الدنيا من السماء خَيْمَتَها ومن الجبال أوْتادها، والطَّيْر وقد حملت وُرْقُه أوْراق السُّرور، والوَحْش وقد قالت مَهاه : على عَيْنِي أتحمّل ذلك السَّقامَ أو ذلك الفُتُور؛ ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وكَفَى بِاللهِ عَلِيماً ﴾ والألطافُ الرَّاحِمُ بها المؤمنين من خَلْقِه ﴿ وكَانَ بالمؤمنين رَحِيماً ﴾ .

وكان وُرُودُ هذا المثال الشّريف على يد فلان ، فَيَالَهُ من وَارِدٍ لمَشَارِعِ الأمْنِ أوْرد، ولِرَوائِعِ الناس عن القلوب حَجَبَ أوْرَدَ؛ وقد جهزه المملوك بالمثال الشريف المُخْتَصّ بمولانا وهذه الخِدْمَة بعد أن ضربت البشائرُ مُسَوَّغَةً فى كُلِّ ضَرْبٍ من التهانى ، وزُيِّنَت البَلَد زِينَةً مانظمتْ فيها غيرَ العقود أيْدى الغَوانِى ؛ فيأخذ حَظَّه من هذه البُشْرَى، ونَصِيبَه من هذا الوجه الذى ملأ الوجود بِشْرا، وشَطْرَه من الهَناءِ المخصوص الذى تَعَجَّلَ منه المملوك شَطْرا؛ والله تعالى يَسُرُّه بكُلِّ خير تُشْرِقُ زواهره، وتَعْبَقُ فى كمائم الدُّرُوج أزاهِرُه، ويَتألَّقُ على يَدِ بَرِيدِه من المخلقات كُلُّ كَوْكَبِ صُبْحٍ تملأ الدنيا بَشَائِرُه .

ومن ذلك المكاتبة بورود المثال الشريف بوَفَاءِ النِّيل .

إذا ورد على نائب الشام بوَفَاء النِّيل المُبَارَك ، كَتَبَ نائبُ الشَّام عن نفسه إلى نائب حَلَبَ وغيره ، من نوّاب السلطنة بالممالك الشامية ، بُورُودِ المثَال الشريف عليه بذلك ، ويُكْتَب عنه كما يُكْتب عن السلطان : من السَّجْع ، و إيراده مَوْرِدَ البِشَارَة ، و إظهارِ الفرح والسرور بذلك ، لايكاد يُخالفه إلا فى كونه وَارِدًا مورد الحكاية لمثال السلطان ، ومثالُ السلطان مُخْبِرٌ بذلك ٱبتداء .

وهذه نسخة مثال كريم من ذلك عن نائب الشَّام ، من إنشاء الشيخ جَمَالِ الدِّين ٱبن نُبَاتَةَ، كُتِبَ به لسنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، وهى بعد الصدر :

لا زالت مُبَشِّرَةً بكُلِّ مُبْهِجه، مُعَطِّرَةَ الأرجاء بكُلِّ سائرة أَرِجَه ، مُيَسِّرَةَ الأوقات بمَقْدَمَىْ سَمَاعٍ وعِيَانٍ : كلاهما للمسارّ مُنْتِجَه، مُسْتَحْضِرَةً فى معالى الكَرَم كُلَّ دقيقة تشهدُ بَسْطَةُ النِّيلِ أنها أَرْفَعُ منه دَرَجَه ، ويُنْهِى بعد دعاءٍ ماالرَّوْضُ أَعْطَرُ من شَذَاه ، ولا مَاءُ النِّيل و إن كَرُمَ وَفَاءً بأوفىٰ من جَداه ، أن المرسوم الشريف زاده الله تعالىٰ شَرَفا ، ورد بوَفَاء النِّيـل المبارك وحَبَّـذَا هو من وَفِىٍّ مُوَافِى ، ومُتَغيِّرِ المَجْرىٰ وعَيْشُ البِلَادِ به العَيْشُ الصَّافِى ، وحَسَنِ الزِّيَارَة والرَّحِيل ماضاهَتْه الغُيُوث فِى ولافِى ، ووَارِدٍ من معَبَّد بعيد ، وجَمِيلٍ لا جَرَمَ أن مَدَّه(١) ثابِتٌ ويَزِيد ، وجَائِدٍ إذا تتابع حَيْثُ تَيَّارُه يُقَلِّد بِرُّهُ وذُرُّه من الأرض وساكنها كُلَّ جِيـد ، و إذا ذُكِر الخِصْب لمكان عِيـده المشهود أَلقىٰ السَّمْعَ وهو شهيـد ، وذلك فى يوم كذا ، وأن البـلاد جُبِرَتْ بكَسْر خَلِيجِه ، وآستقامت أحوالُها بتَفْرِيجِه : وأَثْنَتْ عليه بآلائه ، ووَسَمَتْ لَوْنَه الأَصْهَبَ علىٰ رَغْمِ الصَّهْباءِ بأَحْسَنِ أسمائه ، وخُلِّق فملأت الدُّنيـا بَشَائِرُ مُخَلَّقِه ، وعُلِّق سِـتْرُه المِصْرِىّ التِّبْرِىّ فزكا علىٰ مُعَلَّقِه ، وحَلَّقَ مسير تِرَاعِه علىٰ القُرىٰ فبات علىٰ النَّدَا ضَيْفُ مُحَلَّقِه ، وحَدِّثْ عن البحرِ ولا حَرَج ، وآنعرج علىٰ البِقَاعِ يَلْوِى مِعْصَمَه فلله أوقات ذلك اللَّوىٰ والمُنْعَرَج ، وآستقرّت الرعايا آمنين آملين ، وقُطِع دابِر الجَدْبِ بسُعُود هذه الدَّوْلة القَاهِرَة ﴿وقيل الحمد لله رَبِّ العَالَمين﴾ ورُسِمَ أن لا يُجْبىٰ حَقُّ بِشَارَة ، ولا تَعْبَثَ يَدُ التنقيص منها ليزدادَ الخَبَرُ نُورًا علىٰ نُور ، ويكون فى إيثاره وحُسْنِه الخَبَرَ الحَسَنَ المأثور ، ووصل بهـذا الخبر فلان وعلىٰ يده مثال شريف يختص بمولانا وقد جهز به ، فيأخذ مولانا حَظَّه من هـذه البُشْرىٰ ، ويُوضِّحُ بهـا علىٰ كُلِّ الوجوه

(١) فى الاصل "لاجرم أن يده".

بِشرا، والله تعالىٰ يملأ له بالمَسَرَّات صَدْرا، ويضع بعدلِه عن الرعية إصْرا، ويَسُرُّهم فى أيامه بكُلِّ واردٍ يقول الإحسان لمُتَحَمِّله : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة كتاب آخر فى المعنىٰ إلىٰ بعض النوّاب، من إنشاء الشيخ جمَال الدِّين آبن نُبَاتَةَ أيضا، وهى بعد الصدر :

وضاعف موادّ نِعَمه ونَعْمَائِه ، ومَسَرَّته وهَنَائه ، وحفظ عليه ما وُهِبَه من المناقب التى يَرْوِى النِّيلُ عن كَرَمِه ووفَائِه ، وشَرَّفَ السُّيُوفَ لكونها من سِمَاتِ كَرَمِه والسُّبُولَ لكونها من سمائه .

المملوك يُجَدِّد الخِدْمَةَ بنَفَحات سـلامه وثَنَائِه ، ويَصِفُ وَلَاءً لو تجسَّم لآستمدّت عَيْنُ الشمس من سَنَائِه ، ويُنْهِى أن المرسومَ الشريفَ زاده الله تعـالىٰ شرفا، ورَدَ مُبَشِّرا بوفاء النيـل المبارك فى يوم كذا ، فياله ربيعًا جاء فى ربيع ، وحاملًا فى مُفْرَدِه الفَضْـل الجميع ، وداعِيًا بالخِصْبِ ينشد كُلَّ ثانِيَـةِ آثنين رَيْحَانَةَ الدَّاعى السميع ، ومُتَغَنِّيًا علىٰ مِنَصَّـةِ المِقْيَاسِ عرْسه يُجْلىٰ عليـه من شِبَاكِها السِّتْرُ الرفيع ، وأنه أقبل والبلادُ أشهىٰ ماتكون لِلُقْيَاه، وأشْوَقُ ماترىٰ لمباشرة رِيِّه ورَيَّاه، وقد آمتدّت أيدى الجُسُور لفَمه، وآسـتعدّت شِفَاهُ الجُرُوف اللُّعْسُ لِلَثْمِه ، فكَرُم عليها زائره، وصَحِبها بالنُّجْح ساريه وسـائره، ودارت علىٰ الجَدْبِ من خطوط الأمواج دوَائرُه ، وعَمَّت المنافع، وتلقت عيون الفلا ناهِلَةً بالأصابع ، وفاض البَحْر ببره، ونشر رِدَاءَه علىٰ الأرض وسَيَضُوعُ رَوْضُها بنَشْره، وخُلِّق المقياس فيالك من قياس بُشْرىٰ غير ممنوع ، وكُسر الخليجُ فياله غُصْن قلم علىٰ النيل وطائِرُ سَجْعِه علىٰ القُرَاتِ مسموع ، ورُسِمَ أن

لا يُخْبِي حَقٌّ بشاره ، ولا يدخلَ فيها التنقيصُ لدارٍ ولا التنغيصُ لداره ؛ ووصل بهذا الأمر فلانٌ وقد جُهِّز بما على يده، والله تعالى يُمَتِّعُ مولانا من أقسام المسارِّ بصُنُوف، ويدفع عن حُصُون الإسلام بيُمْنِه أيدى الصُّرُوف، وينفعها بظِلَالِه التى آواها مُلْكُه الكريمُ إلى جَنَّةٍ : وكذلك الجنَّة تحتَ ظِلَالِ السُّيُوف .

الضرب الرابع

(من المُكاتبات السُّلْطانية ما يُكْتَب عن النُّوَّاب والأتباع إلى الخليفة أو السلطان ، وفيه مهيعان)

المهيع الأوّل

(فى الأجوبة عن الكُتُب السلطانية السابقة فى الضَّرْب الأوّل)

قد تقدّم فى الكلام على مقدِّمة المكاتبات فى أول هذه المقالة ذِكْرُ الخلاف : هل الكُتُب الابتدائية [أعلى رُتْبَةً[1]] فى الإتيان بها أم الجوابية، وذِكْرُ الاحتجاج لكُلٍّ من المذْهَبَيْن ، وذِكْرُ التحقيق فى ذلك ؛ فليراجع من مَوْضِعه هُنَاك . ونحن نذكر الكلام على أجوبة الكُتُبِ السابقة على الترتيب المتقدّم، جارِين فى ذلك على ماقرّره فى "موادّ البيان" .

فأما الجواب عن الكتاب الوارد بانتقال الخلافة إلى الخليفة ، فإنّ الكتاب إن كان متضمنا التعزية فى سَلَفِه ، والهَنَاءَ بتَجَدُّد النِّعْمَة عنده فى آنتقال الخلافة إليه ، فالرَّسم فيما يُكاتَب به عن الخليفة أنْ يُبْنَى على الاستبشار بالنِّعْمَة فى خلافته،

(١) بياض بالأصل . والتصحيح عما تقدم فى (ج ٦ ص ٣٢٣) .

والمُسَارَعة بإخلاص الضمير إلى الدُّخول فى طَاعَتِه وبَيْعَتِه ، وٱنْفِسَاح الآمال فى دَوْلَتِه ، والشُّكْرِ لله تعالىٰ علىٰ جَبْرِ الوَهْنِ وعُلُوّ كلمة الإسلام والمسلمين بدَعْوَتِه ، وتَعْزِيَتِه عن أبيه ، بما يُوجِبُه مَحَلّ المحْنَة ويقتضيه ، يعنى إن كان الخليفةُ الميّتُ أباه ، فالدعاء له بأن يُنْهِضَه الله تعالى بما حَمَّلَه ، ويُعِينَه علىٰ ما كَفَّلَه ، ويَقْرِنَ مُلْكَه بالجَدّ السعيد ، والخُلُود والتأبيد ، وإدَالَة الأولياء ، وإذَالَة الأعداء ، ونحو هذا مما يُجَارِيه .

وإن كان الكتاب الوارد بٱنتقال الخِلَافَة إليه عن أبيه ، ومَنْ فى معناه مِمَّن يُوَالِيه فى المَحَبَّة ، فإنَّ الكاتب يَحُوم فى الجواب علىٰ ماحصل بذلك من صلاح حال الأمَّة ، وٱستقامة أمر الرَّعِيَّة بانتقال الخلافة إليه ، من غير أن يُصَرِّح بذَمّ الذاهب قَبْله .

ولا يخفىٰ أن الجواب عن ورود الكتاب بانتقال السلطنة إلىٰ السلطان وجُلُوسه علىٰ تَخْتِ المُلْك فى معنىٰ الجواب فى ٱنتقال الخلافة إلىٰ الخليفة ، لا يكاد يُفَرَّق بينهما ، علىٰ ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالدعاء إلىٰ الدِّين ، فإنما يتكلَّفُها كُتّاب مُخَالِفِى المِلَّة ، لأنها إنما تصدر إليهم . قال فى "مواد البيان" : إلا أنه لاغنىً لكُتّاب الإسلام عن عِلْمِ ما يقع فيها ، لتَتَقَدَّم عندهم المَعْرِفَة بما يُجِيبُ به المخالفون ، فيأخذوا عليهم بأطراف الحُجَّة إذا كاتبوهم ٱبتداء أو جوابا .

قال : ولا تَخْلُو أجوبة هذه الكُتُب من أربعة معَانٍ :

أحدها — إجَابَةُ الدعاء إلىٰ الدِّين ، وقَبُولُ الإرشاد والهُدىٰ ، والنُّزُوعُ عن الغَيّ ، والإقْبَالُ علىٰ التَّبْصِرَة والتذكرة ، بعقائدَ خالصة ، ونِيَّاتٍ صريحة .

والثانى — الإصرارُ علىٰ ماهُم مُتَمَسِّكُونَ به ، وتَمَحُّلُ الشُّبْهَة فى نُصْرَتِه ، وٱدِّعاءُ الحقّ فيما يعتقدونه ، والمُغَالَطة عن الإجابة إلىٰ قبول ما دُعُوا إليه .

والثالث — بَذْلُ الجِزْيَةِ والمُصَالحه، والجُنُوحُ إلى السِّلم والمُوَادعه .

والرابع — إظهار الحَمِيَّة ، والقيامُ فى دفاع مَنْ يَرُومُ ٱقْتِسَارَهم على مفارقة شرائعهم وأديانهم ، وبَذْلُ الأنفس فى مُقَارَعَتِه .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالحَثِّ على الجِهَاد، فقد ذكر فى "موادّالبيان" أنها لاتخرج عن معنيين :

أحدهما — إجَابَةُ الصَّرِيخ، والمُبَادَرَةُ إلى التَّشْمِير فى الجِهَاد ، والقِيَامُ فى مَعُونَة الأولياء، على كِفَاح الأعداء .

والثانى — الاعْتِذَارُ والتَّعَلُّلُ والتَّثَاقُل .

هذا إن كانت الكُتُب صادرةً إلى القُوَّادِ والمُقَدَّمين . أما إذا كانت مقصورةً على الاستنفار، فلا جوابَ لها إلا النُّفُور أو الإمساك . قال فى "موادّ البيان" : والطريق إلى إقامة العُذْر لِلْمُسْتَصْرَخ فى التأخر عن مُسْتَصْرِخه متى أراد الاعتذار عنه صَعْبٌ على الكاتب، ولا سِيَّما إذا كانت الأعذار مُتَكَلَّفَة غير صحيحة .

قال : وينبغى أن يتأتَّى لذلك ويُحْسِنَ التلطُّف فيـه ، ولا يَعْتَلّ بكذب صُرَاح ينكشف لِلْمُعْتَذَرِ إليه .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالحَثِّ على لُزُومِ الطاعة ، إذا وردت على النوّاب والوُلَاة وأُمِرُوا بقراءتها فى أعمالهم على الرَّعَايَا ، فإنه يكون : إما بانقياد الرَّعَايَا إلى مادُعُوا إليه ، أو ٱستدامتهم لمَرْكَبِ النِّفَاق، وٱسْتِدْعَاءِ مَادَّة لتقويمهم .

وأما الجواب عن الكتب إلى مَنْ نَكَثَ عَهْدَه من المُعَاهَدين ، فقد ذكر فى "موادّ البيان" أنها لاتخلو من أحد أربعة مَعان .

أوّلها — الاعتذارُ والاستقالة من مراجعة النَّكْثِ، والرغبةُ فى الصفح عن النَّبْوَةِ، والمُسامحةِ بالهَفْوَة .

والثانى — المغالطة والمراوغه، واستعمالُ المُداهَنةِ والمُخادَعه .

والثالث — التَّجليحُ والمُكاشَفَة .

والرابع — إيجاب الحُجّةِ علىٰ المجوب (؟) عنه فى أنه المبتدئ بفسخ ماعاقَدَ عليه .

قال : والكاتب إذا كان ماهرا كسا كُلَّ معنًى من هذه المعانى الغَرَضَ اللّائقَ به فى الصناعة .

وأما الجواب عن الكُتُب إلىٰ مَنْ خَلَعَ الطاعة ، فقد قال فى "مواد البيان" : إنها تحتمل معنيين : أحدهما الاعتذار ، والآخر الإصرار ؛ وكُلُّ واحدٍ منهما محتاجٌ إلىٰ عبارةٍ لائقةٍ به . ثم قال : والكاتب إذا كان حاذقا، عَرَفَ سبيلَ التَّخلُّصِ فيها بمشيئة الله تعالىٰ .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردةِ بالفُتُوح، فإنّها إن صدرت من السلطان إلىٰ وُلَاته، فينبغى أن يُبْنىٰ جَوابُها علىٰ الاستبشار بمَوْقِع النِّعَم فى الظَّفَرِ بالعَدُوّ، والجَذَلِ بمُتَجَدِّدِ الفتح، وأنَّ ذلك إنّما تَهيَّأ بسعادته، وعُلُوِّ رأيه وانبساط هَيْبته ، وما عوّده من إظهار أوليائه ، وخِذْلَانِ أعدائه ؛ وأنّهم قد أشاعوا هذا النّبأ فى الخاصّة والعامّة من رعاياه فابْتَهَجُوا به، وشكروا الله تعالى عليه ودَعَوْا له بصالح الدعاء . وإن صدرت من وُلَاةِ الحَرْبِ إلىٰ السلطان، فينبغى أن يكون مايجيبهم به مَبنيًّا علىٰ حمد الله تعالىٰ علىٰ عَوارِفه، والرَّغْبَة فى مُضاعَفَة لَطائفه ؛ وشُكْرِه علىٰ إنجاز وَعْدِهِ فى الإظفار بأعداء المِلّةِ والدَّوْلةِ ونحو هذا . ومُخاطَبَة أهل الطاعة بما يُرْهِفُ عزائمهم ، ويُقَوِّى شَوْكَتَهم ؛ وتَقريظِ وَالِى الحَرْبِ ووَصْفه بما يُشْحِذُ بَصيرَتَه فى الخِدْمة، والثَّناءِ علىٰ

الأَجْنَاد ، ووَعْدِهم بجزيل الجـزاءِ علىٰ الجهاد والإبلاء ؛ إلىٰ غير هذا ممـا يقتضيه الحال ، ويُوجِبُه تدبير الأمرِ الحاضر .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالاعتذار عن السلطان عند ما يَحْصُلُ له زَلَلٌ فى التدبير أو [فى] الظَّفَرِ بقبض الأعداء علىٰ جَيْش من جُيُوشه ، فإنمـا تقع الإجابة عنها إذا نُفِّذَتْ إلىٰ أحد العُمَّال خصوصا . قال فى "مواد البيان" : وحينئذ فينبغى أن يكون الجوابُ عنها مَبْنِيًّا علىٰ تَقْوِيَةِ نفس السـلطان وتوثيقه بالأدِلَّة ، وأن ماناله لا يتَوَجَّه كثيرا علىٰ ذَوِى الحُرَمِ ، إلا أن عواقب الفَلَجِ والظَّفَـرِ والإصابَةِ فى الرَّأْىِ والتدبير تكون لهم ، ونحو هذا ممـا يُجَارِيه ويليق به .

قال : أما إذا كانت المكاتبة فى ذلك إلىٰ الكَافَّة ، مُمَهِّدَةً لِعُذْرِ السلطان ، قَاطِعَةً قَالَةَ الرَّعِيَّة عنه ، فإنه لاجواب عنها : لأنها إذا لم تَوَجَّهْ إلىٰ واحدٍ بعَيْنِه لاتَسْتَدْعِى خِطَابا .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن السلطان بالنَّهْىِ عن التَّنَازُعِ فى الدِّين ، إذا صـدرت إلىٰ العُمَّال ، وأُمِرُوا بقراءتها علىٰ الرَّعَايَا علىٰ منابر أعمالهم ، فإنه يُبْنَىٰ الأمر فيها علىٰ آمتثال الأمْرِ ، والمطالعةِ بآرتسام القوم مارُسِمَ لهم فيها . أما إذا كانت صَادِرَةً لتقرأ علىٰ العامَّة لِيُبْصِرُوا ما فيها ويعملوا عليه ، فإنه لاجواب عنها ، لأنها إنما تشتمل علىٰ مَوَاعِظَ ومَرَاشِدَ تَخَوَّلُ بها الأئمة رَعَايَاهُم .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالأوامر والنَّوَاهِى ، فقد ذكر فى "مواد البيان" أن الكتاب الوارد فى ذلك : إن كان شيئا قد جزم المتبوعُ فيه الأمْرَ ، وضَيَّقَ علىٰ التَّابِـعِ فى إيثاره سبيلَ المُرَاجَعَةِ فيه ، فإن الجواب عنه سَهْلٌ : لأنه إنمـا يُجِيبُ بجواب جامع ، وهو وُقُوفُه علىٰ ما أُمِرَ به وإنْفَاذُه له . وإن كان الوارد أمْرًا محتملا للمراجعة ، من حَيْثُ إنَّ فى إمضائه إذا أُمْضِىَ إفسادًا للعمَل ، وإخلالا بأسـباب

المُلْك والسلطان ، فالجواب عنه شاقٌّ صَعْبٌ : لأنه ينبغى أن يُبْنَىٰ علىٰ تَلَطُّفٍ شديدٍ فى الإبانة عمـا يُنْتِجُه ذلك المأمور به إذا أُنْفِـذَ علىٰ وجهه من فَتْقٍ وخَلَلٍ ، ومَوْرِدُ المراجعة فى ألفاظه لا يَتَبَيَّنُ فيه إزْراء علىٰ رَأْيِ الرئيس ولا طَعْنٌ فى تدبيره : بأن تكون نَاطِقَةً بأنَّ رَأْيَه الأعلىٰ ، وتدبيره الأَصْوَب ؛ فيكون باطنُ الكلام توقيفا علىٰ الصَّواب ، وظاهِرُه تَصْوِيبا وتقريظا : لأن كثيرا من الرؤساء والمُلُوك يُعْجَبُون بآرائهم ، ويُنْزِلُون أنفسهم بحُكْمِ الرياسـة فى منزلة من لا يُرَاجَعُ ولا يُعَارَضُ فيما يأمر به .

قال : وقد تأتى من كُتُب الأوامر كُتُبٌ يأمر الرئيس فيها المرءوسَ بشَرْحِ حالٍ واقتصاص أمور . ثم قال : وأجوبة هذه الكُتُب يجب أن تكون مُسْتَقْصِيَةً للمعنىٰ المُنْشَرِح ، مُسْتَوْلِيَةً علىٰ حَوَاشِيه ، غير مُخِلَّة بشىء ممـا يحتاج إلىٰ تَعَرُّفه منه .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام عنـد حُدُوث الآيات السماويّة ، وهى مشتملة علىٰ مَوَاعِظَ ومَرَاشِدَ يَتَخَوَّلُ بها الأئمة رَعَايَاهُم ؛ فإذا صدرت إلىٰ العُمَّال وأُمِرُوا بقراءتها علىٰ الرَّعَايَا ، فأجوبتها إنمـا تُبْنَىٰ علىٰ امتثال الأمر والمطالعة بارتسام القوم ما رُسِمَ لهم فيهـا . أما إذا كانت صادرةً لتُقْرَأَ علىٰ العامَّة ليَتَبَصَّروا بمـا فيها ويعملوا عليه ، فإنه لا جواب عنها .

وأما الجواب عن التَّنْبِيه علىٰ مواسم العبادة ، فإنه يصدر عمَّن وَرَدَ عنه إلىٰ الإمام بعـد شُهود ذلك المَوْسِم ، والانْفِصَالِ عنه علىٰ حال السلامة ، كما فى صلاة العيـد ونحوها . قال فى " موادّ البيان " : وأَجْوِبَتُها تصدر إلىٰ الخلفاء مقصورةً علىٰ ذِكْرِ ما مَنَّ الله تعالىٰ به من قَضَاءِ الفريضة علىٰ حَالِ الائتلافِ والاتِّفاق ، وشُمُول الأَمْنِ والهُدُوِّ والسُّكون ، وسُبُوغ النِّعْمَة علىٰ الكَافَّة ؛ وأن ذلك بسعادة وعِنَايَة الله تعالىٰ بدَوْلَته وبرَعِيَّته ، ونحوها ممَّـا يقتضيه المعنىٰ .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام إلىٰ وُلَاةِ أمْرِه بالسلامة فى ركوب اول العـام وغُرَّة رَمَضَان ، والجمعة الأولىٰ والثانيـة والثالثة منه ، وعِيدَىِ الفِطْر والأضحىٰ ، وفَتْح الخَلِيج بعد وفاء النيل ، فقد قال فى "مواد البيان" : إنّه إن كان الكتاب عن السلامة فى صلاة العِيدَيْنِ أو جُمَع رَمَضَان ، فينبغى أن يكون مَبْنِياً علىٰ وُرُود كُتُبِه متضمنةً ما أعان الله تعالىٰ عليه أميرَ المؤمنين من تَأْدِيَةِ فريضته ، والجَمْع فى صلاة عِيدِ كذا بِرَعِيَّتِه ، وما ألبسه الله تعـالىٰ من الهَدْيِ والوَقَار ، وأفاضه عليه من البَهَاءِ والأنوار ، وبُرُوزه فى خَاصَّتِه وعَامَّتِه إلىٰ مُصَـلَّاه ، وسماعِ خُطْبَتِه وعَوْده إلىٰ قَصْرِه الزاهر ، وعليه تلَأْلُأُ القَبُول لصَلَاته ودُعَائه ، مما أجراه الله تعالىٰ فيه علىٰ عادة آلائه ، ووقف عليه وقابله بالشكر والإحماد ، والآعتراف والآعتداد ، وآقْتَصَّه علىٰ رءوس الأشهاد ، فأغْرَقُوا فى شُكْرِ الله تعالىٰ علىٰ المَوْهِبَةِ فى أمير المؤمنين ، ورَغِبُوا إليه فى إطالة بَقَائِه مُرَامِياً عن الإسلام والمسلمين ، ونحو هذا مما يُجَارِيه .

ثم قال : فإذا نُفِّذَتْ هذه الكتب من العُمَّالِ إلىٰ أمير المؤمنين مُبَشِّرَةً بآجتماع رعاياه لتأدية فريضتهم ، وعَوْدِهم إلىٰ منازلهم سالمين ، فينبغى أن يكون الجواب عنهـا : «وصل كتابك مُتَضَمِّنًا مالا يزالُ الله تعالىٰ يُولِيه لأمير المؤمنين فى رَعِيَّتِه ، وخاصَّتِه وعَامَّتِه : من آتفاق كلمتهم ، وآئتلاف أفْئِدَتِهم وسـلامة كَافَّتِهم ، ومامَنَّ الله به عليه وعليهم من آجتماعهم لتأدية فريضتهم ، وعَوْدِهِم إلىٰ منازلهم ، علىٰ السَّلَامة من ضمائرهم ، والطَّهَارَة من سرائرهم ، فَحَمِدَ أمير المؤمنين الله تعالىٰ علىٰ ذلك وسأله مَزِيدَهُم منه ، وتَوْفِيقَهُم لمـا يُرْضِيه عنهم ، وشكر مَسْعَاكَ فى سياستهم ، وآمْتِدَادَ يَدِك فى إيالَتِهم ، وهو يأمرك أن تَجْرِىَ علىٰ عادتك ، وتسير فيهم بجميل سيرتك» وما يليق بهذا .

ثم بَنَىٰ علىٰ ذلك سائرَ كُتُب السلامة، وقال: ينبغى أن يُسْتَنْبَطَ من نَفْسِ كُلِّ كتاب منها المعنىٰ الذى تجب الإجابة به، مثل أن يكون الكتاب ورد من أمير المؤمنين إلىٰ أحد عُمَّالِهِ، مُبَشِّرًا بسلامته من سَفَرِهِ؛ فينبغى أن يُبْنَىٰ جوابُه علىٰ ما صُورَتُه: «ورد كتاب أمير المؤمنين مُبَشِّرًا عبده بما هَيَّأه الله تعالىٰ له من السلامة ويُمْنِ الوِجْهَه، مع تقريب الشُّقَّه، وإنالة المَسَارّ، وتسهيل الأوطار، وإدناء الدار؛ فوقف العبد عليه، وآمتثل المرسوم فى إطلاع الأولياء علىٰ ما نُصَّ فيه من هذه البُشْرىٰ؛ فَعَظُمَتْ المِنْحَةُ لديهم، وجَلَّت النِّعْمَةُ عندهم، وآنشرحت صُدُورهم، وآنفسحت آمالُهم، ووفقُوا بصُنْع الله تعالىٰ لهم؛ وآرتفعت أيديهم إلىٰ الله سبحانه بالرغبة فى حِيَاطَةِ أمير المؤمنين قَاطِنًا وظَاعِنًا، وحُسْنِ صَحَابَتِه حَالًّا وراحلا؛ وجميل الخلافة علىٰ مَنْ خَلَفَه من حامَّتِه وعَامَّته، وأهل دَعْوَتِه وخاصَّة دَوْلَته؛ والله تعالىٰ يجيب فى أمير المؤمنين صَالحَ الدُّعاء، ويَمُدُّه بطُولِ البَقَاء» وما ينتظم فى سِلْكِ هذا الكلام ويُضَاهيه.

قلت: وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المكاتبة السلطانية الآبتدائية: أن المكاتبة بالبِشَارَة بالسلامة فى رُكُوب العِيدَيْنِ وما فى معناهما من قدوم السَّفَرِ وغيره، قد ترك آستعماله بديوان الإنشاء فى زماننا. فإن قُدِّرَ مِثْلُه فى هذه الأيام، أجراه الكاتبُ علىٰ نَحْوٍ ممَّا تقدّم، علىٰ مايقتضيه مصطلَح الزمان فى المكاتبات السلطانية.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالخلَع وما فى معنىٰ ذلك، فينبغى أن يكون مَبْنِيًّا علىٰ تعظيم المِنَّه، والآعتراف بجزَالَة المِنْحَه، وجميل العطية، وزائد الفَضْل؛ وأن ما أُسْدِىَ إليه من ذلك تَفَضُّلٌ عليه، وتَطَوُّلٌ من غير آستحقاق لذلك؛ بل فَائِضُ فَضْلٍ، وجزيل آمتنان؛ وأنه عاجز عن شُكْرِ هذه النِّعْمَة والقيامِ بواجبها، لا يَسْتَطيع

لها مكافأةٌ غير الرَّغْبَـةِ إلى الله تعالى بالأدْعِيَـةِ لهذه الدَّوْلَة. وما يناسب ذلك من الكلام ويُلَائمه .

وأما الجواب عن الكُتُب بالتَّنْوِيهِ والتلقيب إذا صـدرت إلى نوّاب المملكة ، فالذى ذكره فى "موادّ البيان" أن المُنَوَّه به يُجِيبُ عَمَّا يَصِلُه من ذلك بوُصُولِ الكتاب إليه، ووُقُوفه عليه، ومَعْرِفَتِه بقَدْرِ العَارِفَة مما تضمنته الرَّغْبَةُ إلى الله تعالى فى إيزاعه الشُّكْرَ، ومَعُونَتِه على مقابلة النِّعْمَة بالإخلاص والطـاعة . أما إذا كُتِبت بالتَّنْوِيهِ والتلقيب لأحَدٍ من المقيمين بحَضْرَةِ الخلافة ، فإنه لاجواب لها .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالإحماد والإذمام، فيختلف الحال فيه : فإن كان الكتاب الوارد بالإحماد والتَّقْرِيظ ، فجوابه مقصور على الشُّكْر الدال على وقوع ذلك الإحمـاد مَوْقِعَه من المحمود ، ومُطَالَبَتِه لنفسه بالخروج من حَقِّه باستفراغ الوُسْع فى الأسباب المُوجِبَةِ للزيادة منه . وإن كان الكتاب بالإذمام : فان كان ذلك لِمَوْجِدَةٍ بسبب أمْرٍ بلغه عنه من عَدُوٍّ أو حاسِـدِ نِعْمَةٍ أو منزلة هو مَخْصُوصٌ بهـا من رئيسه ، كان الجواب بالتَّنَصُّلِ والمقابلة بمـا يُبَرِّئُ سَاحَتَه ، ويَدُلُّ على سلامة نَاحِيَتِه، وأن يُورِدَ ذلك بصيغة تُزِيلُ عن النفس ما سبق إليها، وتَبْعَثُ على الرِّضا. وكذلك فى كل واقعة بحسبها، ممـا يحصل به التَّنَصُّلُ والاسترضاء ونحو ذلك .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة مع الإنعام السـلطانىّ ، فعلى نحو ماسـبق فى الخِلَع : من تعظيم المِنَّة ، والاعتراف [بجَزَالَة المِنْحة](١) وجميل العطية ، وزيادة الفَضْل، وما فى معنى ذلك ممـا تقدّم ذكره .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الخليفة أوالسلطان بتجدّد وَلَدٍ، فإنه يكون بإظهار السرور والاغتباط ، وزِيَادَةِ الفَرَح والسُّرُور بمـا مَنّ الله تعالى به من تكثير

(١) بياض بالأصل والتصحيح عما تقدّم قريبا فى الجواب عن الخلع .

العَدَد، وزيادة المَدَدِ، والرَّغْبة إلى الله تعالىٰ فى أن يُوالِىَ هذا المَزِيدَ ويُضاعِفه. ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بعافية الخليفة أو السلطان من مَرَضٍ كان قد عَرَضَ له ، فطريقه حَمْدُ الله تعالىٰ وشُكْرُه علىٰ مامَنَّ الله تعالىٰ به من العافية ، وتَفَضَّلَ به من إزاحة المَرَضِ ، ووِقَايةِ المَكْرُوه ، وإظْهارُ الفَرَح والسرور بذلك . وما يَنخرط فى هذا السِّلْك .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالتعزية بوَلَدٍ أو قَرِيبٍ، فإنه يظهر فيه الغَمَّ (١) والحُزْنَ والكآبَةَ، وحَمْدَ الله تعالى علىٰ سلامة نَفْسه، والرَّغْبَةَ إلىٰ الله تعالىٰ فى الخَلَف عليه، إن كان المَيِّتُ وَلَدًا، مع الدعاء بطُولِ البَقَاءِ وخُلُودِ الدَّوْلَة، وما يجرى هذا المجرىٰ .

وهذه نسخ أجوبة عن مكاتبات سلطانية، مما يَكْثُرُ وقوعه، ويَتَعَدَّدُ تَكْرارُه، يَسْتَضِىءُ بها الكاتب فى كتابة الأجوبة، ويَنْسُجُ علىٰ مِنْوالها .

✦
✦ ✦

نسخة جواب عن كِتَابٍ وصل من الخليفة بانتقال الخلافة إليه، كُتِب به إلىٰ أمير الأمراء، قَرِينَ خِلْعَةٍ وسَيْفٍ وتاجٍ وسِوَارَيْنِ ، من إنشاء أبى الحسين بن سعد، وهو :

فإن كان سَيِّدُنا أميرُ المؤمنين ، بما أعلم من فَضْل مُراعَاتِه لأمور الدِّين، وصِدْق عِنَايَتِه بمصالح المسلمين، وأُفِيضَ له(؟) من مَوَاهِبِ الله عندهم، وصُنُوف نِعَمِه عليهم؛ فيما هداه من طُرُقِ الرَّشاد، وبَصَّرَهُ إياه من مَنَاهِجِ الصَّواب؛ وقَرَنه به من التَّوْفيق فى عَزَائِمِه، والجِدِّ فى مَرَاسِمِه، وتَوَعَّدَه فيه بالخيرات التامَّه، والكِفَايَة العامَّه؛ فى كُلِّ

(١) فى الأصل "التغمم" ولم نعثر عليه فى كتب اللغة .

أمْرٍ يُمْضِيه، ورَأْيٍ يَرْتئيه؛ آعتمادًا له بحُسْنِ المَعُونة علىٰ ما آسترعاه، ووَصْلِه بالمَزيد فيما خوّله وأعطاه، وحِرَاسةِ ماساقه إليه من إرْثِ النُّبُوّه، وحَمّلَه إياه من ثِقْلِ الإمامه؛ لما عَرَفَه من نُهُوضِه بالعبْء، وقيامه بالحَقّ فيما نَاطَه وأسنده إليه، وتأمُّلِه ماتأمّله من حال عبـده الذى لم يزل لِطَاعَتِه مُعْتَقِدًا، وبعِصْمَةِ وِلَايَتِـه مُعْتَضِدًا، ولوَقْتٍ يُبَلِّغُه منزلة الإحماد، ويحوز له عَائِدَةَ الآجتهاد، فيما أرضاه مُرْتَصِدًا، ولسَعْيِه ونِيَّتِه، وظاهره وطَوِيَّتِه، معتمدا، ووُجُودِه أيّدَه الله فى يسير ما آمتحن به بَلَاءَه، وعرف فيه غَنَاءَه، مَوْضِعًا للصَّنِيعَه، مُحْتَمِلًا للعارفه، مُقِرًّا بحقّ النِّعْمَه، عارفا بقَدْر المَوْهِبَه، وتَرَقُّبِهِ فُرْصَةً ينتهزها فى إبداء عَزْمِه، وإمضاء رَأْيِه، وأنّه [وَاثِقٌ] بالآستظهار بمكانه، والإسْهامِ له فى عِزّ سُلْطَانِه؛ حتّى أسفرت رَوِيَّتُـه، وآستقرّت عَزِيمته، فاختَصّ عبده بجميـل الأثَر، وآصطفاه بلطيف الحُظْوة، وآعتمد عليـه فى إمَارة الأمراء، مُوفِيًا به علىٰ رُتْبَةِ النُّظَراء، وكَاسِيًا له حُلَّةَ المَجْدِ والسَّنَاء، وردّ إليـه تدبير الرجال، وتقدير أمور العُمَّال، وشَـفَعَ ذلك بالتَّكْنِيَةِ والتَّلْقِيبِ فى مَشَاهِدِ حَفْلَتِـه، ومجالس خَلْوَتِه، وأكمل الصُّـنْعَ عنده بإلحاق عبـده فيما قَسَم لكُلٍّ واحدٍ منهما من شريف حِبَائِه، وسَنِيِّ عَطَائِه، وتجاوز فى التَّكْرِمَة له إلىٰ أعلىٰ الأحوال، وأرْفَعِ الرُّتَبِ والمَحَالّ، فيما أمَرَ ـ أعلىٰ الله أمره ـ بحَمْلِه إليه من الخِلْعَة التى يَبْقَىٰ شَرَفُ لِبَاسِها [على] الأيام، ويُخَلَّدُ ذِكْرُها علىٰ الدُّهُورِ والأعوام؛ والسَّيْفِ الذى تَفَاءَل لعبده فيه بما يرجو يُمْنَ مولاه وسَعَادَةَ جَدِّه: أن يُحَقِّقَه الله فى الآعتماد به علىٰ أعدائه، وغَمْدِه فى نُحُورِ مُشَاقِّيه وغَامِصِي نَعْمَائِه؛ والتَّاجِ المُرَصَّعِ الذى نَظَم له جَوَامِعَ الفَخْر، والوِشَاحِ المُوَشَّى الذى وشّحه حِلْيَةَ الجمال مدىٰ الدهر؛ والطَّوْقِ الذى طوّقه قلائد المَجْد، والسِّوَارَيْنِ اللَّذين آذناه بقوّة العَضُد وبَسْطَة اليَد؛ واللِّواءِ المعقودِ به مَفَاتحُ العِزّ فى طاعته، المرفوع به معالم النَّصْرِ علىٰ شَانِئِ دَوْلَته؛ ووصل إلىّ وفهمته .

وسيّدنا أمير المؤمنين ـ فيما أكرمه الله به من خلافته ، وأتمنه من الحكم على بريّته ، ووكّله إليه من حُقُوق الدِّين ، وحياطته كَرَم المسلمين ، وإحياء السِّيَرِ الرّضيّه ، والسُّنَنِ الحميده ، وإماطة الأحكام الجائره ، والمظالم الظاهره ، وتقويم أَوَد المملكة بعد تزعزع أركانها ، وتصدّع بُنْيَانها ، وإعزاز الأمة وإيناسها ، بعد أن آشتملت [الذِّلّة](١) عليها وتمكنت الوحشةُ فيها ، وحكم اليأس فى آمالها ، وغلب القنوط على أطماعها ، وتفاءل بما آعتمده له ، وفوضه إلى نظره : من الحِلْيَة بحقائقه ، والتوكيد بما لم تزل المخايل فيه لائحه ، والأمارات منه واضحه ، والشَّواهِدُ به صادقه ، والدلائل عليه ناطقه ، حتّى تدارك بنعمة الله الدِّينَ بعد أن طُمِسَ مَنارُه ، وتعفّتْ آثاره ، ودَرَسَتْ رُسُومُه ، وغارَتْ نُجُومُه ، وأنحىٰ الشَّيطانُ بجرانه ، وآشرأبّ لتبديله بعُدْوانه ، وآنتدب لنُصْرَةِ الإسلام برأيٍ يستغرق آراء الرِّجال ، وحِلْمٍ يَسْتخِفُّ رواسى الجبال ، ورويّةٍ تستخرج كوامنَ الغيوب ، وتكشفُ عنها حنادس الشكوك ، وباعٍ لما يمتدّ إليه بسيط ، وذراعٍ لما ينتظم عليه رحيب ، وصدرٍ يتّسعُ لمعضلاتِ الأمور ، ويُشرِقُ فى مُدْلَهِمّاتِ الحوادث ، فشرّدَ أعداء الله بعد أن آتصلت بهم مُهْلَةُ الاغترار ، وتطاولتْ بهم مدّة الإصرار ، ومدَّ رواق المُلْك وضرب قِبابه ، وثبّتَ أواخيهُ وأحْصد(٢) أسبابه ، وقطع أطماعَ المُلْحدين ، وأبطل كَيْدَ الكافرين ، وفتّ فى أعضاد المُنابِذين ، فتحصّنت البيضه ، وآجتمعت الكلمه ، وآتفقت الأهواء المتفرقه ، وآنتظمت الآراء المتشعّبه ، وسكنت الدّهماءُ المضطربه ، وقرّت القلوبُ المُنْزعجه ، وصدقت خواطر الصُّدور المُثلجه ، وظهر الحقّ ورسخ عموده ، وبهر جماله ونضر عوده ، ونُشرت أعلامه وطلعت سعوده ، وعزّ أولياؤه ونُصرت جنوده ، وساخ

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح من المقام .

(٢) فى الأصل «أخضد» وهو تصحيف .

بالباطل قَدَمُه، وٱنقطعت وَصَائِلُه وعِصَمُه، وٱنْبَتَّتْ حِبَالُه ورُمَمُه، وٱنحلَّت أسبابه وذِمَمُه ـ حَقِيقٌ بما بَانَ من فَضْلِه، وٱسْتَفَاضَ فى الأمّة من عَدْلِه، وعَمَّ كَافَّةَ الرَّعِيَّة من طَوْلِه، ووصلت إلىٰ المِلِّيّ والذمىّ والدَّانى والقَاصى عَائِدَةُ الخَيْرِ فى أيامه، وفائدة الأَمْنِ بمملكته وسُلْطَانه، ومَأْمُولٌ لأفْضَلِ مابدا لعَبْده من ثَمَرَةِ ٱجتبائه وٱصْطِفَائه، وما تَغَمَّدَه به من النِّعَمِ العظيمه، والمَوَاهِبِ الجسيمه، وأسْبَغَه عليه من العوارف السَّنِيَّه، ورَفَعَهُ إليه من المنازل العَلِيَّه، التى تَقْصُر عنها هِمَمُ ذَوِى الأقدار، وتَقِفُ دونها آمَالُ أُولِى الأخْطَار، مُقَدَّمًا له علىٰ أهل السَّوَابِقِ من أنصار دَوْلَته، وأشياع دَعْوَته .

فلو ترادفت أَلْسُنُ العبـاد ـ أيَّدَ اللهُ أميرَ المؤمنين ـ علىٰ ٱختلاف لُغَاتهم، وتَبَايُنِ طَبَقَاتهم، وتَفَاوُتِ حالاتهم، فى مقابلة نِعْمَة سَيِّدنا التى أعْشَىٰ العُيُونَ بَهَاؤُها، وتأدية حقوقه التى أعيا المجتهدين قَضَاؤُها، لكانت ـ حَيْثُ ٱنتهتْ، وأنَّى تَصَرَّفَتْ، علىٰ ٱستفراغ القُدْرة وٱستنفاد الطاعة ـ غيرَ مُقَارِبَةٍ حَدًّا من حدودها، ولا مُؤَدِّيَةٍ فَرْضًا من فُرُوضها، وإذا كان الأمر علىٰ ذلك ـ أيَّدَ اللهُ أميرَ المؤمنين ـ فى فَوْتِ الإحسان مقاديرَ الشُّكْر، وإيفائه علىٰ مَبَالِغِ الوُسْع، فقصدُ عبده فى جَبْرِ النَّقِيصه، وسدّ الخَلَّه، الٱزديادُ فى الطَّاعه، والإخْلَاصُ فى المُوَالَاة والمُشَايَعه، وإدامةُ الٱبْتِهَالِ إلىٰ الله تعـالىٰ، ورَفْعُ الرَّغْبَة فى مَعُونَةِ عبد أمير المؤمنين علىٰ مُجَافَاة[1] بَلَائه، والتَّفَرُّدُ بجزائه، وتجديدُ المسألة فى إطالة بَقَائه: فى عِزٍّ لاتَبْلَىٰ جِدَّتُه، وسُلْطَانٍ لاتنتهى مُدَّتُه، ومَوَادَّ من مَنَاجِحِه ومَوَائِدِه، ورَوَادِفَ من عَوَائِده، مُتَظَاهِرَةٍ لاينقطع منها أَوَّلٌ حتَّى يلحق تَالِيه، ولا يَنْصَرِمُ سَالِفُه حتَّى يَنْصَرِفَ آتيه، ويكون المآل بعد ٱستيفاء شُرُوطِ الأمل، وتَقَضِّى حُدُود المَهَل، إلىٰ النَّعِيم المُقِيم، فى جِوَارِ العزيزِ الكريم .

(١) فى الأصل «مصافاة» وهو تصحيف .

ومن تمامِ إفضال سيّدنا على عبده، ونظامِ معروفه عنده ؛ بدؤه إيّاه بما يمتحن به خفّةَ نهضته ، وسرعةَ حركته ؛ وقعوده لأمره بجدٍّ حديد ، وبعيشٍ عتيد ؛ وصمدُه لما يحظيه لذلك مولاه ، ويحوز له حمده ورضاه ؛ بصدقِ بصيرته ، وخلوص سريرته ؛ واستسهالٍ لكلّ خطّه ، وتجشّمٍ لكلّ مشقّه ؛ دنتِ المسافةُ أم شسعتْ ، قربتِ الطيّةُ أم نزحتْ ؛ وسيّدُنا أهلٌ لاستتمام يدٍ ابتداها ، وإكمالِ عارفةٍ أنشاها وكرامةٍ ابتناها ؛ باستعمال عبدِه بأمرِه ونهيه ، واعتماده لمهمّاته بحضرته وفى أطراف مملكته ؛ إن شاء الله تعالى .

✦✦✦

قلت : وهذه نسخة كتاب أنشأته : ليكتب به إلى أمير المؤمنين المستعين بالله ، أبى الفضلِ العبّاس خليفة العصر ، عن نائب الغيبة بالديار المصرية ، حين وردتْ كتبُه الشريفةُ من الشأم إلى الديار المصريّة بالقبض على النّاصرِ فرج بن الظاهر برقوق بالشّام ، واستبداده بالأمر دون سلطانٍ معه ، فى أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة ، مفتتحًا له بـ«يقبّل الأرض» التى يكاتَب بها الملوك . وإن كان قد تقدّم من كلام المقرّ الشّهابىّ بن فضل الله أن المكاتبة إلى أبواب الخلافة بالدعاء للديوان ، لا يختلف فيه ملكٌ ولا سوقةٌ ، وهو :

يقبّل الأرضَ وينهى ورودَ المثال الأشرف الميمون طائره ، المرقوم على صفحاتِ الأفلاك تهانيه المحمول على متنِ السّحاب بشائره ، الشّاهد بالفتح المبينِ أوائله وبالنّصرِ العزيزِ أواخره ؛ متضمّنًا ما منّ الله تعالى به من جميل الصّنع الذى وكفتْ بالخيْرِ سحائبه ، وخفىّ اللّطف الذى بهرت العقولَ عجائبه ؛ بما منح الله تعالى به مولانا أميرَ المؤمنين مدّ الله تعالى على الإسلام وارفَ ظلّه ، وأنام الأنام بمدّ رواقِ

الإمامة المعظمة فى مِهَادِ عَدْلِه ، ومكَّنَ له فى الأرض كما مكَّنَ لآبائه الخُلَفاء الراشدين من قَبْلِه : من جُلُوسه علىٰ سُدَّة الخلافة المُقَدَّسة التى وُصِلَ مُنْقَطِعُ حديثِها بإسناده ، وحازَمَنها بأشْرَفِ مَقْعَدٍ تُرَاثَ آبائه الكِرَامِ وأجْدَادِه ؛ وآبتسم ثَغْرُ الخلافة بعبَاسِه ، وتآنَسَ منها جانب الدِّين بعد الآستيحَاشِ بإيناسه ؛ فقَبَّلَ الملوكُ له الأرضَ خاضعا ، ولَبَّى أوامِـرَه الشَّرِيفةَ ضَارِعا ، وأجاب دَاعيَه بالآمتثال سَامِعاً طائعا ؛ وسجَـدَ سُجُودَ الشُّكْرِ لذلك فعُرِفَ بسِـيمَاه ، وآنتسب إلى الوَلَاءِ الشَّرِيف الإمامىّ آنتساباً شاملاً لآسمه ومَعْنَاه ؛ وأَعْلَمَ مَنْ قِبَلَهُ من الأمراء والأجناد بذلك فقابلوه بالآستبشار طُرًّا ، وتلقوها تَلَقِّيًا يليق بمثلها و إن كان لامِثْلَ لِهذه البُشْرىٰ ؛ وقُرِئَتْ المُطْلَقَاتُ الشريفة علىٰ المنابر فسَكَنَتِ الدَّهْمَاء وقَرَّتْ ، وسَرَتْ ألفاظُها إلىٰ الأسماع الشَّيِّقَة فسُرَّتْ ، وكُرِّرَتْ ألفاظُها العَذْبَةُ مِراراً فحَلَتْ لدىٰ النفوس إذ مَرَّتْ ؛ وآرتفعت الأصوات بالدعاء بَدَوامِ هذه الدَّوْلَةِ النَّبَوِيَّةِ دَواماً لايَسْتَشْعِرُ مُسْتَشْعِرٌ خِلَافَه ، لِتَحْقِيقِ ظُهُورِ مُعْجِزَة أكْرَمِ مُرْسَلٍ بعد الثمانمائة بقوله لعمِّه العباس : " ألَا أُبَشِّرُكَ يا عَمّ : بى خُتِمَتِ النُّبُوَّةُ و بوَلَدِكَ تُخْتَمُ الخلافه " .

✦ ✦ ✦

وهـذه نسخة جواب عن نائب طَرَابُلُس عن مِثَالٍ شريف ورد بوفاة السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » وآستقرار وَلَدِه السلطان الملك المنصور «أبى بكر» مكانه فى المُلْكِ بعَهْدٍ من أبيه . من إنشاء القاضى تاج الدين بن البارنبارى ، بعـد التَّعْزِيَة بأبيه السلطان الملك الناصر، وهى :

ويُنْهِى وُرُودَ المرسوم الشريف شَرَّفَه الله تعالىٰ وعَظَّمَه ، يتضمن أمْرَ المُصَابِ الذى كادَتْ لِوُقُوعه الأرْضُ تتزلزل بأهْلِها ، والعُقُول تَتَزَيَّلُ عن مَحَلِّها ، وبَلَغَتِ القُلُوبُ

الحَنَاجِر، وآستوحشتِ القُصورُ وآستأنست المقَابِر، وتصدّعتْ له صُدُورُ السيوف ورُءوسُ المَنَابِر، وقَصَمَ الظُّهور، وشيَّبَ السُّودَ من الشُّعور، وجرّعَ كُئُوسه، وصدّعَ الحَوْزَةَ المحروسه، وذلك بما قدّر الله تعالىٰ من آنتقال مولانا السلطان السعيد، الشهيد، والدِ مولانا السلطان ـ خلّدَ الله مُلْكَه ـ إلىٰ رحمتِه ورضوانه: فأجرىٰ المملوكُ عِوَضَ الدُّموعِ دَمَا، وأقام الإسلامُ والمسلمون عليه مأتَمَا، وتغير البدرُ المُنِيرُ لفقْده فأمسىٰ مُظْلِمَا، ونَدَبهُ الإسلام فى سائر محارِبِه ومُصَلَّاه، وأسِفَ عليه البيتُ الحرامُ ورُكْنَاه ﴿إنَّا لله وَإنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

لَمَّا دخل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم المدينة، أشرق منها ذلك اليومَ كُلُّ شيء، ويومَ قُبِضَ أظلم منها كُلُّ شيء، وكان أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضى الله عنه أثبتَ النَّاسِ يوم وَفَاتِه صلّى الله عليه وسلّم، وهو الخليفة من بَعْده، ومولانا السلطان الشهيد ـ قدّس الله رُوحَه ـ كان مُتَشَرِّفًا باسم نبيِّه، ومُتَبَرِّكًا فى ذُرِّيَّتِه الشريفة بذِكْرِ سَمِيِّه[1]، ولو ذَابَتِ المُهَجُ أسَفًا عليه لَمَا أنصفتْ، وقد أسِفَتْ عليه الأُمَمُ بأسْرِهَا وحَقّ لها أنْ أسِفَت، نَبَتَتْ لحُومُنَا من صَدَقَاتِه، وغَمَرَتِ المُلُوكَ والممَالكَ مجزلاتُ هِبَاتِه، وما نُقِلَ من قَصْرِه إلّا إلىٰ جنّاتِ النّعِيم، وما فَارَقَ مُلْكَه إلا وبَاتَ فى جِوَارِ اللهِ الكَرِيم، وكان سُلْطَانَنَا وهو اليوم عند الله سُلْطَان، فسقىٰ الله عَهْدَهُ صَوْبَ الرَّحْمَةِ والرِّضْوَان.

وبحمد الله قد جُبِرَت القُلُوبُ المُنْصَدِعَةُ بجلوس مولانا السلطان ـ خلّد الله مُلْكَه ـ علىٰ تَخْتِ السَّلْطَنَة المعظمة والله مَعَه، وما جَلَسَ علىٰ كُرْسيّ الملك إلا أهْلُه، ولا قام بأمْرِ المسلمين إلا مَنْ عَلِمَ فَضْلَه؛ ومولانا السلطان وَارِثُ المُلْكِ الناصريّ المنصور

(١) أى أبى بكر.

حقا ، والقائمُ بِشأْن السلطنة غَرْباً وشَرْقًا ؛ وخُلاصةُ هذا البَيْتِ الشريف زاده الله نَصْرا ، وأدام مُلْكَهُ دوامًا مُسْتَمِرًّا ، والعُيُون الباكية قد قَرَّت الآن بهـذه البُشْرىٰ ، والقُلُوبُ الثّاكِلَةُ قد مُلِئَتْ بَهْجَةً : ﴿إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا﴾ وآستقرّ الإسلام بعد قَلَقِه ، ونامَ علىٰ جَفْنِه بعد أَرَقِه ؛ وآستقبلت الأُمَّة عامًا جَدِيدا ، وسلطانا مَنْصُوراً سَعِيدا ؛ وآستبشرت القِبْلَتَان ، وتَنَاجىٰ بالمَسَرَّة الثَّقَلان ؛ والذِّين كفروا أَمْسَوْا خَائِبِين ، والذّين آمنوا أَضْحَوْا فَرِحِين ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ومَوْلانا السلطان هو العَرِيقُ في سلطنة الإسـلام ، والإمَامُ الأعظم آبن الإمام ؛ خَلَّد الله مُلْكَه مادامَتِ الأيام ، وأحسن عَزاءَهُ في خَيْرِ سلطان الأنام ؛ وآبتهلت الألسنة بالتَّرَحُّم علىٰ مولانا السلطان الشهيد ـ قَدَّسَ اللهُ رُوحَه ـ بدُمُوعٍ سائله ، وقُلُوبٍ موجوعة بجِرَاحَاتِ النِّيَاحَاتِ ثم عُوِّضُوا بالمَسَرَّاتِ الكَامِلَه ؛ والدعاء مرفوع لمولانا السلطان ـ خَلَّد الله مُلْكَه ـ بَرّاً وبَحْرا ، والبـلاد مُطْمَئِنَّةٌ والعساكر علىٰ مايَجِبُ من التَّمَسُّكِ بالطاعة الشريفة ، والتشريف بإقبال دَوْلَةِ سلطانهم ، ووارث سلطانهم ؛ وكان المملوك يَوَدُّ لو شاهد مولانا السلطان ـ خَلَّدَ اللهُ مُلْكَه ـ علىٰ ذلك السَّرِيرِ والمِنْبَر ، وقَبَّلَ الأرضَ بين يَدَيِ المَوَاقِفِ المُعَظَّمَة والمَقَامِ الأكبر ، إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه نسخة جَوَابٍ عن وُرُودِ المثال الشريف بِرُكُوبِ السلطان بالمَيْدَان ، والإذن للنواب في لِعْبِ الكُرَة ، وهي :

ويُنْهِي وُرُودَ المثال الشريف شَرَّفَه الله تعـالىٰ وعَظَّمَهُ ، يتضمن الصَّدَقَةَ التي أَجْرَتْ أَوْلِيَاءَها علىٰ أجمل عادةٍ من الاحتفال ، والمَرَاحِمَ الشاملة التي وَسَّعَتْ لهم كَرَمَها سافرةً عن أَوْجُه الإقبال ، والبُشْرىٰ التي جَمَعَتْ من أنواع المَسَرَّاتِ ما بلغتـه

الآمال ؛ وهو أنّ الرِّكابَ الشريف ٱستقلّ إلىٰ المَيْدانِ السعيد نهار السَّبْتِ فى كذا من شهر كذا : فى أسْعَدِ طَالِـع ، وأيْمَنِ وَقْتٍ مُطَاوِع ؛ وفى الخِدْمَةِ الشريفة من الأمراء - كثَّرهُم الله تعالىٰ - مَنْ جَرت العادة بهم من كُلِّ كَمِىٍّ مُقَنَّع ، قد لبس من الطاعة بُرْدًا وبالإخلاص تَدَرَّع ، وٱمْتطىٰ من فَائِض الصَّدَقاتِ الشريفة صَهْوةَ سَابِقٍ قَدْ شَمَّر للسَّبْقِ ذَيْلا ، وفَرٍّ كَبَرْقٍ لَمَعَ لَيْلا .

وأنّ مولانا السلطان - خلَّد اللهُ مُلْكه - طلع عليهم طُلُوعَ البَدْرِ عنـد الكَمَال ، وحَوْلَه المماليك الشريفة كالأنْجُم الزاهرة التى لا تُعَدُّ ولا تُشَبَّهُ بمثَال ، والجِيادُ لا يُرىٰ لها أثرٌ من الرَّكْض ، والكُرَةُ تتشرَّف بالصَّوْلَجَانِ كما تَتَشَرَّفُ بالتقبيل الأرض ؛ وعاد الرِّكابُ الشريف - زاده الله شَرَفًا وعَظَّمَه - إلى القَلْعةِ المنصورة ، إلى مَحَلِّ المملكة الشريفه ، وفى دست السلطنة المُعَظَّمه ؛ محفوفا من الله تعـالى بلُطْفِه ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ .

وما ٱقْتَضَتْه الآراء الشريفه ، والمَرَاحِمُ المُطِيفَه ؛ وآثرتْ به إعلامَ المملوك بذلك ، والمرسوم الشريف - شَرَّفَه الله تعـالى وعَظَّمَه - أن يتقدّم المملوكُ بالنُّزُولِ إلىٰ مَيْدانِ فُلانَةَ المحروسة ، ومعه مماليك مولانا السُّلْطَان - خَلَّدَ الله تعالىٰ مُلْكَه - والأمراء ؛ فقابل المملوك هذه الصَّدَقَات ، بتَقْبِيلِ الأرض ورَفْعِ الدَّعَوات ؛ وجمعوا بين الكُرَة والصَّوْلَجَان ، وحصـل لهم من المَسَرَّاتِ مالا يَحْصُرُه بيَان ؛ وٱنبَسَطَتْ نفوسُهم إذ أصبحوا فى أمْنٍ وأَمَان ، وٱبتهلوا إلىٰ الله تعالىٰ بدوام هذه الأيام التى نَوَّعَتْهم بأنواع الإحسان ؛ وضَجُّوا بالأدْعِيَةِ لمولانا السلطان - خَلَّدَ الله مُلْكَه - التى عَمَّتْ مَوَاهِبُه وفاق بمَكَارِمه المَـاضِين ، وأَرْبىٰ علىٰ سَلَفِه الشريف بالعَطَاءِ والتَّمْكِين ، جعل الله أعْداءَه تحْتَ قَهْرِه إلىٰ يوم الدِّين ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

✣

وهذه نسخة جواب بوفَاءِ النِّيل المُبَارَك، كتب به عن نائب طَرَابُلُس، وهى :

ويُنْهِى وُرُودَ المثال الشريف ـ شَرَّفَه الله تعالىٰ وعَظَّمَه ـ الذى أشرقت أنوارُ تَهَانيه، وتَألَّقتْ بُرُوقُ ألفاظه ومَعَانيه؛ فبَشَّرَتْ بفَيْض فَضْل الرَّحْمه، وعموم الرعايا بتَوَاتُرِ عَمِيم النِّعْمَه؛ ووَفَاءِ النِّيلِ المبارك الذى ما بَرِحَ فى هـذه الأيام الزاهرة يَفِى بعَهْدِه، ويَسُلُّ سَيْفَ الخِصْبِ من غِمْدِه، ويَقْتُلُ المَحْلَ بحُمْرَة مَتْنِه وجَوْهَرِ حَدِّه؛ مُهَنِّئًا للأولياء بهذه الدَّوْلَةِ التى أصبحت قُلُوبُهم مُطْمَئِنَّةً بالأَمْنِ والرَّخاء، مَسْرُورَةً بمـا مَنَّ الله به من تَرَادُفِ الآلاء وعُمُوم النَّعْماء؛ وحَالَ ماورد المرسوم الشريف ـ شَرَّفه الله تعالىٰ وعَظَّمَه ـ بادَرَ المملوك إلى آمتثال المَرْسُومِ الشريف بتقبيل الأرض والسَّمْعِ والطَّاعة، وأَخَذَ كُلٌّ حَظَّهُ من هذه البُشْرىٰ، التى عَمَّتْ تَهَانِيها بَرًّا وبَحْرًا؛ وجَعَلَتْ أُمورَ هـذه الأمة بُيُمْنِ بَرَكَةِ هـذه الأيام الشريفة بعد عُسْرٍ يُسْرا؛ وقد عاد فلان البَرِيدِىُّ ومَنْ معه إلىٰ الأبواب الشريفة بالجواب الشريف، طالع بذلك إن شاء الله تعالىٰ .

✣

آخر فى المعنىٰ :

ويُنْهِى ورود المثال الشريف زاده الله عُلُوًّا وشَرَفا، وبَيَّضَ له فى القِيامَة صُحُفا؛ يتضمَّن أَنْواعَ الإنعام الجزيل، وإبْداءَ آثار السُّرُور بمـا يَسَّرَ اللهُ من وَفَاءِ النِّيـل؛ فأشْرَقَتْ أَنْوارُ تَهَانيه، وتَأَلَّقَتْ بُرُوقُ ألفاظه ومَعَانيه؛ فبَشَّر بفَيْض فَضْل الرَّحْمَه، وعموم الرعايا بتَوَاتُرِ عموم النِّعْمَه؛ إذ جاء مُحَيَّاهُ فى هذا العام طَلْقا، وسَلَكَ فى عوائد البِرِّ والإحسان طُرُقا؛ واذن ببلوغ المَرامِ والمُرَاد، وكُسِرَ سَـدُّ خَليجه جَبْرًا للعباد

والبلاد ، حيث ملأ الأرض رِيًّا ، وأهدى من نفحات الأمن والمنّ رَيًّا ، والمرسوم الشريف - شرّفه الله وعظّمه - بأن لا يُجبى على ذلك حقّ بِشاره، ولا يتعرض إلى أحد بخساره ؛ فقابل المملوك المثال الشريف والمرسوم الشريف بتقبيل الأرض والسمع والطاعة، وبادر المملوك إلى إذاعة هذه البشرى، التى عمّت تهانيها برًّا وبحرا ، وجعلت أمور هذه الأمة بيمن بركة هذه الأيام الشريفة بعد عُسْرٍ يُسْرا ، واستنطق الألسنة بالدعاء لهذه الدولة القاهره ، وجلا وتلا صور الهناء وسور الآلاء بهذه النعمة الوافية والمنة الوافره ؛ وسأل الله تعالى أن يخلّد مُلك مولانا السلطان ، ويوالى أنباء البشائر فى أيامه الشريفة مروية بالأسانيد الحسان ؛ وقد عاد فلان البريدى بالأبواب الشريفة - شرّفها الله تعالى وعظّمها - بهذا الجواب الشريف ، وقد عاين ابتهال أهل هذه المملكة الفلانية بالدعاء بدوام هذه الأيام الزاهرة السارّة بهذه البشائر بخلوّها من الكُلَف والخسارة ، طالع بذلك . إن شاء الله تعالى .

✢

وهذه نسخة جواب عن مثال شريف بوصول فرس إنعام ، كُتب به عن نائب طرابلس ، وهى :

يقبّل الأرض وينهى ورود المرسوم الشريف أعلاه الله تعالى وشرّفه ، يتضمن ما اقتضته الآراء الشريفة من الخير التامّ، والإنعام العامّ، والصدقة الوافية الوافرة الأقسام، التى ما برحت ممالك هذه الدولة الشريفة فى إنعامها العميم تتقلّب، والخيل السوابق بسعادتها الأبدية تُجلب وتُجنب وتُركب : من تجهيز الحصان البرقى بسرجه ولجامه وعدّته الكامله ، وشمول المملوك بالصدقات التى ما برحت مترادفة متواصله ، ولعبد هذا البيت الشريف شامله ؛ وقبّل المملوك الأرض وقبّل حوافره، واعتدّ

بهذه النِّعْمَة الباطنة والظَّاهِره، وأعدّه ليومَى تجمُّلٍ وجِهاد، ولِقاءِ عَدُوٍّ وطِراد، والله تعالى يُخَلِّدُ هذه الصَّدَقاتِ الشريفةَ التى مابَرِحَتْ تشمل القَرِيبَ والبَعِيد، والمَوالِىَ من أولياء هذه الدَّوْلَةِ الشريفة والعَبِيد، طالع بذلك، إن شاء الله تعالى.

✣

وهــذه نسخة جوابٍ عن وُصُولِ خَيْلٍ من الإنعام السُّلْطَانِىّ، من إنشاء الشيخ شِهابِ الدِّين محمود الحَلَبِىّ.

ويُنْهِى وُصُولَ ماأنْعَمَ به من الخَيْـلِ التى وُجِدَ الخَيْرُ فى نواصِيها، ونَتَّخِذُ(1) صَهَواتُها حُصُونًا يُعتَصَمُ فى الوَغَىٰ بصَياصِيها.

فمِنْ أشْهَبَ غَطَّاهُ النَّهار بحُلَّته، وأوطاه اللَّيْلُ علىٰ أَهِلَّته، يَتَمَوَّجُ أدِيمُهُ رِيًّا، ويتأرّج رَيًّا، ويقول من ٱستقبَلَه فى حُلِىِّ لِجامِه: هذا الفَجْرُ قد طلع بالثُّرَيَّا، إن ٱنْفلتت(2) فى المَضايِقِ ٱنْسابَ ٱنْسِيابَ الأَيْم، وإن ٱنفرجت المَسالكُ مَرَّ مُرُورَ الغَيْم؛ كَمْ أبْصَر فارِسُه يَوْمًا أبيضَ بطَلْعَتِه، وكَمْ عايَنَ [طَرْفُ](3) السِّنانِ مَقاتِلَ العَدُوّ فى ظلام النَّقْع بنُورِ أشِعَّتِه، لايَستَنُّ داحِسُ فى مِضْمارِه، ولا تَطْمَعُ الغَبْراءُ فى شَقِّ غُبارِه، ولا يَظْفَر لَاحِقٌ من لَحاقِه بسوىٰ آثاره، تُسابِقُ يَداهُ مَرامِىَ طَرْفِه، ويُدْرِكُ شَوارِدَ البُرُوقِ ثانِيًا من [عِطْفِه](3).

ومِنْ أدْهَمَ حالِكِ الأديم، حالِى الشَّكِيم، له مُقْلَةٌ غانِيَـةٍ وسَالِفَةُ رِيم؛ قد ألبسه اللَّيْلُ بُرْدَه، وأطْلَعَ بين عَيْنَيْه سَعْدَه، يَظُنُّ مَنْ نَظَر إلىٰ سَوادِ طُرَّتِه، وبَياضِ حُجُولِه

(١) فى "حسن التوسل" (ص ٩٩) «وأدخرت».

(٢) فى "حسن التوسل" (ص ٩٩) إن «ٱلتفّت المضايق» وهى أوضح.

(٣) بياض بالأصل والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩).

وغُرَّته ، أنه توهَّم النَّهار نهراً فخاضه ، وألقىٰ بين عينيه نُقْطةً من رشاش تلك المخاضه ؛ لَيِّنُ الأعطاف ، سريعُ الانعطاف ، يُقبِلُ كالليل ، ويمرُّ كجُلمودِ [صخرٍ] (١) حطَّهُ السَّيل ؛ يكادُ يَسْبِقُ ظِلَّه ، ومتىٰ جارىٰ السَّهمَ إلىٰ غرضٍ بلغه قبْله .

ومن أشْقَر : وشَّاهُ البرقُ بلهبه ، وغشَّاهُ الأصيلُ بذهبه ، يتوجَّسُ (٢) مالديه بدقيقتين ، وينفضُ وفْرتيْه عن عقيقتين ، ويَنزِلُ عِذارُ لجامه من سالفتيْه علىٰ شقيقتين ؛ له من الرَّاح لَونُها ، ومن الرِّياح لِينُها ، إن جرىٰ فبرقٌ خفق ، وإن أسرع فهلالٌ علىٰ شفق ؛ لو أدرك أوائل حرب بني وائلٍ لم يكن للوجيه وجاهه ، ولا للنَّعامة نباهه ، ولكان ترْكُ إغارة [سكاب لؤماً وتحريم بيْعها سفاهه] (٣) يركُضُ ماوجد أرضاً ، وإذا اعترض به راكبه بحراً وثب عرضاً .

ومن كُميتٍ نهْد ، كأنَّ راكبه فى مهْد ، عندمىّ الإهاب ، شماليّ الذَّهاب ، يزلُّ [الغلام] (٤) الخِفُّ عن صهواته ، وكأنَّ نغم الغريض ومعْبدٍ (٥) فى لهواته ؛ قصير المَطا ، فسيح الخُطا (٦) ، إن ركب لصيْدٍ قيَّد الأوابد ، وأعجل عن الوثوب الوحش اللَّوابد ؛ وإن جُنِّب إلىٰ حرْبٍ لم يزْورَّ من وقْع القنا بلبانه ، ولم يشْكُ لو علم الكلام بلسانه ، ولم يُردْ دون بلوغ الغاية ـ وهي ظفرُ راكبه ـ ثانياً من عنانه ؛ وإن سار فى سهلٍ اختال بصاحبه كالثَّمِل ، وإن أصعد فى جبلٍ طار فى عِقابه كالعُقاب وانحطَّ فى مجاريه

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩) .

(٢) فى "حسن التوسل" «يتوخش» .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٤) الزيادة عن "حسن التوسل" .

(٥) فى الأصل «ومقبل» والتصحيح عن "حسن التوسل" .

(٦) فى الأصل «سريع» والتصحيح عن " « " .

كالوَعِل ، مَتىٰ ما تَرَقَّ العَيْنُ فيــه تَسَهَّل ، ومَتىٰ أراد البَرْقُ مُجارَاتَهُ قال له الوُقُوفُ عند قَدْرِهِ : ماأنْتَ هُنَاكَ فتمهَّل .

ومن حَبَشِيٍّ أصــفر يَرُوقُ العَيْن ، ويَشُوقُ القَلْبَ(١) بمشابهته العَين ، كأن الشَّمْسَ ألقَتْ عليه من أَشِعَّتِها جِلالًا ، وكأنَّهُ نَفَرَ من الدُّجىٰ فاعْتَنَقَ منهعُرْفًا واعْتَلَقَ أحْجالًا ، ذى كَفَلٍ يَزِينُ سَرْجَه ، وذَيْلٍ يَسُدُّ إذا آستدبرته منــه فَرْجَه ، قد أطْلَعَتْهُ الرِّيَاضَةُ علىٰ مُرادِ فارِسه ، وأغناه نُضارُ لَوْنِهِ ونَضارَتُه عن ترصيع قَلائِدِه وتَوْشِيعِ مَلَابِسِه ؛ له من البَرْقِ خِفَّةُ وَطْئِــه وخَطْفُه ، ومن النَّسِيم لِينُ مُرُورِه(٢) ولُطْفُه ، ومن الرِّيحِ هَزِيزُها إذا ما جَرىٰ شَأْوَيْنِ وَابْتَــلَّ عِطْفُه ؛ يطير بالغَمْز ، ويُدْرِكُ بالرِّيَاضَةِ مَوَاقِعَ الرَّمْز ، ويَعْدُو كألِف الوَصْلِ فى آستغناء مِثْلِها عن الهَمْز .

ومِنْ أخْضَرَ حَكَاهُ من الرَّوْضِ تَفْوِيفُه ، ومن الوَشْيِ تَقْسِيمُه وتَأْلِيفُه ، قد كَسَاهُ النَّهَارُ واللَّيْلُ حُلَّتَيْ وَقَارٍ وسَنَا ، وآجتمع فيه من السَّوادِ والبَيَاضِ ضِدَّانِ لمَّا آسْتَجْمَعا حُسْنًا ، ومنحهُ البَازِى حُلَّةَ وَشْيِه ، ونَحَلَتْهُ الرِّيَاحُ ونَسَمَاتُها قُوَّةَ رَكْضِه وخِفَّةَ مَشْيِه ؛ يُعْطِيكَ أَفَانِينَ الجَرْى قبل سؤاله ، ولَمَّــا لم يُسَابِقْهُ شَىْءٌ من الخَيْلِ أغراه حُبُّ الظَّفَرِ بِمُسَابَقَةِ خَيَالِه ، كأنه [تَفَارِيقُ](٣) شَيْبٍ فى سَوَادِ عِذَار ، أو طَلَائِــعُ فَجْرٍ خالط بَيَاضُه الدُّجىٰ ، فمــا سَجىٰ ، ومَازَجَ ظَلَامُه النهار ، فما أنار ؛ يَخْتَالُ لمشاركة آسم الجَرْى بينه وبين المَــاءِ فى السَّيْرِ كالسَّيْل ، ويَدُلُّ بسَبْقِه علىٰ المعنى المُشْتَرَك بين البُرُوقِ اللَّوامِعِ

(١) فى الأصل « العين » والتصحيح عن "حسن التوسل" .

(٢) فى الأصل «طروقه» والتصحيح عن " « « " .

(٣) الزيادة عن "حسن التوسل" .

وبين البَرْقِيَّة من الخَيْل ، ويكذب [المَانَوِيَّة](١) لتولُّد اليُمْن فيه بين إضاءة النَّهار وظُلْمَةِ اللَّيل .

ومِنْ أبْلَق ظَهْرُه حَرَم ، وجَرْيُه ضَرَم ؛ إن قصد غَايَةً فوجود الفضاء بينه وبينها عَدَم ، وإن صُرِّف فى حَرْبٍ فعَمَلُه ما يشاء البَنَانُ والعِنَانُ وفِعْلُه ما تُرِيد الكَفُّ والقَدَم ، قد طابق الحُسْنُ البَدِيعُ بين ضِدَّىْ لَوْنِه ، ودَلَّتْ على اجتماع النَّقِيضَيْنِ عِلَّةُ كَوْنِه ، وأشبه زَمَنَ الرَّبِيع باعتدال اللَّيْلِ فيه والنَّهار ، وأخذ وَصْفَ حُلَّتَى الدُّجَى فى حَالَتَىِ الإبدار والسِّرار ، لاتكِلُّ مَنَاكِبُه ، ولا يَضِلُّ فى مَجرات الجُيُوش رَاكِبُه ، ولا يحتاج لَيْلُه المُشْرِقُ بمجاورة نَهاره إلى أن تسترسل فيه كَوَاكِبُه ، ولا يُجَارِيه الخَيَالُ فَضْلًا عن الخَيْل ، ولا يَمَلُّ السُّرَى إلا إذا مَلَّه مُشْبِهاه : النَّهارُ واللَّيْل ، ولاتَتَمَسَّكُ البُرُوق اللَّوَامِعُ من لَحَاقه بسوى الأثَر فإن جهدت فبالذَّيْل ؛ فهو الأبْلَقُ الفَرْد ، والجَوَادُ الذى لمُحَارِبه العَكْسُ وله الطَّرْد ، قد أغنته شُهْرَةُ نَوْعِه فى جِنْسه عن الأوصاف ، وعدَلَ بالرِّيَاح عن مُبَارَاته لسُلُوكها له فى الاعْتِراف جادَّة الإنصاف .

فترَقَّى الملوكُ إلى رُتَبِ العِزِّ من ظُهُورِها ، وأعدّها لخِطْبَة الجِنَانِ إذ الجِهَادُ عليها من أنْفَسِ مُهُورِها ، وكَلِفَ برُكُوبِها فكُلَّما أكمله عاد ، وكلما أمَّلَه شَرِهَ إليه فلو أنَّه زَبَدُ الخَيْلِ(٢) لَمَا زاد ، ورأى من آدابِها مادَلَّ على أنها من أكْرَمِ الأصَائل ، وعَلِمَ أنَّها لِيَوْمَى سِلْمِه وحَرْبِه جُنَّةُ الصَّائِدِ وجُنَّةُ الصَّائِل(٣) ، وقابَلَ إحْسَانَ مُهْدِيها(٤) بثنائه ودُعَائِه ،

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) كذا فى "حسن التوسل" وفى الأصل «زبد البحر والخيل» .

(٣) كذا فى "حسن التوسل" وفى الأصل «جنة للصائل وجنة لصائل» .

(٤) فى الأصل «الصدقات الشريفة» والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وأعَدّها فى الجِهَادِ لمُقَارَعةِ أعداء الله وأعدائه [والله تعالىٰ يَشْكُرُهُ الذى أفرده فى النَّدىٰ بمَذَاهِبِه، وجَعَل الصَّافِنَاتِ الجِيَادَ من بعض مَوَاهبه](١) .

المهيع الثانى

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ به عن نُوَّاب السلطان والأتباع إلىٰ السلطان ٱبتداء)

وهو علىٰ أنواع كثيرة، نذكر منها ما يَسْتَضِىء به الكاتب فى مثله .

فمن ذلك ما يُكْتَبُ عن نائب كُلِّ مملكة إذا وصل إلىٰ مَحَلِّ وِلَايَته .

قد جرت العادة أن النائب إذا وصل إلىٰ مَمْلَكَتِه ومَقَرِّ وِلَايَتِه، كَتَب إلىٰ السُّلطان يُخْبِرُه بذلك و بما المملكة عليه .

وهذه نسخة مكاتبة من ذلك، كُتِبَ بها عن نائب حَلَب فى معنىٰ ذلك، وهى :

يُقَبِّلُ الأرضَ ويُنْهِى أن المملوك وَصَلَ إلىٰ المملكة الفلانية المحروسه، وحَلَّ مَحَالَّها المَأْنُوسَه، التى شَمِلَتْه الصَّدَقَاتُ الشريفة بكَفَالَتِها، وأهَّلَتْـهُ المَرَاحِمُ المُنِيفَةُ لإيالَتِها، رَافِلًا فى حُلَلِ الإنعام الشريف، مُتَفَيِّئًا ظِلَّ العِزِّ الوَرِيف، صُحْبَةَ فُلَانٍ مُسَفِّرِه، ودخلها يوم كذا من شهر كذا لَابِسًا تَشْرِيفَه الشريف المُنْعَم به عَلَيْه، مَاشِيًا لِمَحَلِّ الكَرَامَةِ الذى سار إليـه، [بحضور مَنْ جَرَت العـادة بحُضُوره](٢) من قُضَاةِ القُضَاةِ والأمراء والحُجَّـاب، والعَسَاكِرِ المنصورة والأصْحَاب، علىٰ أجْمَـل العوائد، وأكمل

---

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) الزيادة مأخوذة من نسخة الكتاب التالية وهى من سقط الناسخ .

القَوَاعِد، وقَبَّلَ الأرضَ ببَابِ القَلْعَة المنصوره، ودخل دَارَ العَدْلِ الشريف وَقُطُوفُ الأَمَانِى له مَهْصُوره، وقُرِئَ بها بحَضْرَةِ أولياء الدَّوْلَة تَقْلِيدُه، وعَظَّمَ المَرَاسِمَ الشريفة تَأْبِيدُه، وتَصَدَّى لِمَا نَصَبَتْه له المراسم الشريفة من إنْصَافِ المظلوم، وتَنْفِيذِ كُلِّ مُهِمٍّ شريفٍ ومَرْسُوم، وتَصَفَّحَ أحوالَ المملكه، وسَلَكَ كُلُّ أَحَدٍ مَسْلَكَه، وٱسْتُجْلِبَت الأدعيةُ لمولانا السلطان، وٱجتهد فى حِيَاطَة البلاد ممَّن يمدّ إليه شَيْطَانُ المُفْسِدِين بأشْطَان، وٱنتظم له أمر المملكة بالمَهَابَة الشريفة أَحْسَنَ ٱنتظام، وبلغ به كُلُّ وَلِىٍّ من قَهْرِ العَدُوِّ غَايَةَ المَرَام، وقد أعاد المَمْلُوكُ فلانًا مُسَفَّرَه إلى خِدْمَة الأبواب الشريفة مُزَاحَ الأعذار، مُبَلَّغَ الأوطار، على العادة ـ طالع بذلك ـ ولا زال منه مَزِيدُ الشَّرَفِ والعُلُوّ، إن شاء الله تعالى .

✢

وهذه نسخة كتاب فى المعنى إلى الأبواب السلطانية عن نائب طَرَابُلُس، وهى :

يُقَبِّلُ الأرضَ وينهى أنَّه وصَلَ إلى طَرَابُلُس المَحْرُوسَة مَغْمُورًا بالصَّدَقَاتِ الشريفه، والإنعامات المُطِيفَه، صُحْبَةَ مملوك مولانا السلطان فلان خَلَّدَ اللهُ تعالى مُلْكَه، وأُلْبِسَ تَشْرِيفَه الشَّرِيف، وقُرِئَ تقليدُه الشريفُ بدار العَدْلِ، وقَبَّلَ الأرضَ مِرَارًا على العادة . وتقدّم المملوكُ بالحَلِفِ الشَّرِيف على النُّسْخَة المُجَهَّزَة صُحْبَةَ المُشَار إليه من الأبواب الشريفة عظَّمَها الله تعالى، بحُضُورِ مَنْ جَرَت العادة بحُضُوره : من قُضَاةِ القُضَاة والأمراء، وكَتَبَ خَطَّه عليها، وٱنتصب المَمْلُوكُ لخَلَاص الحقوق، وإزالة المَظَالم، ونَشْرِ لِوَاءِ العَدْلِ الشريف، لِيَنْتَصِفَ المَشْرُوفُ من الشريف، ويَنْزَجِرَ القوىُّ عن الضَّعِيف، وٱتِّبَاعِ الحَقِّ فى القَضَايَا، وٱستجلاب الأدعية بدوام هذه الدَّوْلَة العادلة من الرَّعَايَا، ورَتَّبَ أمور الأزاك المنصورة على أَكْمَلِ عَادَةٍ وأجمل

قاعدة، وقد عاد فلان إلى الأبواب الشريفة، شرّفها الله تعالى وعظّمها، لِيُنْهِىَ بين يدى الأيادى المُعظَّمة ماعاينَه من المملوك من إخلاصِه فى الطاعة الشريفة ومُغالاته. طالع بذلك . إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك مايكتب به فى التَّهْنِئة بالخلافة :

أما التهنئة بالخلافة، فقد قال فى "موادّ البيان" : من الأدب المُستفيض تَرْفِيهُ الخلفاء عن الهَناء والعَزاء، إكْبارًا لهم وتعظيما. إلا أنّنا رأينا ذوى الأخْطار من القُدَماء قد شافَهُوهم بالعَزاء مُسَلّين، وبالهَناء داعين، وربّما دَفع الكاتبُ إلى صُحْبة رئيس يَقتضى محلُّه أن يُهَنِّئَ الخليفةَ بتجدّد النعم لديه، ويُعزِّيه لمتطرّق النوائب إليه؛ فاحْتيجَ إلى أن يُرْسَم فى هَناءِ الخُلفاءِ وعَزائهم ما يُحْتَذَى عليه، عند الحاجة إلى آستعمال مِثْله .

وهذه نسخة تَهْنِئة بالخلافة، أوْرَدَها فى "موادّ البيان" وهى :

أولى النّعم - خلّد اللهُ مُلْكَ مولانا أمير المؤمنين - بأن تَنْطِقَ بها ألسُنُ الذّاكِرين يَضُوعُ عِطْرُها، وتَتَناقلَها أفواهُ الشّاكِرين يَفُوحُ نَشْرُها - نعمةُ إيلائه فى خلافته التى جعلها ذُخْرًا للأنام، وعِصْمةً للإسلام، وحاجزًا بين الحَلال والحَرام؛ وقِوامًا للائتلاف والاتّفاق، وزِمامًا عن الاختلاف والافتراق؛ ونظامًا لصلاح الخاصّة والعامه، وسبيلا إلى اجْتماع الكلمة وسُكون الأمه؛ وسببًا لحقْن الدّماء، ودعة الدّهْماء، ومُجاهدة الأعداء، وإقامة الصّلوات، وإيتاء الزّكوات؛ والعَمَلِ بالفرائض والسُّنَن، وحَسْمِ البِدَع والفِتَن؛ وعَدْقها بالأخيار وَرَثَة نبيِّه وعِتْرته، والأبرار الطّهَرة من أُرُومة رسوله وشجرته؛ الّذين نَصَبَهم دُعاةً إلى طاعته، وهُداةً لبريّته، وأعلامًا لشريعته؛ يأمرون بالمعروف ويأتمرون، وينْهَوْن عن المُنكر وينتهون، ويقضون

بالحق وبه يعدلون ، وكلما لحق منهم سلف بمقر أوليته ، أقام خلفا يختصه بانتخابه وتكرمته .

والحمد لله الذى قصر خلافته على أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم الماضى الذى كانت مفوضة إليه ، والآتى الذى أقرت عليه ، وأنجز لهم ماوعدهم من إبقاء الإمامه ، فى عقبهم إلى يوم القيامه ، واستخلص لها فى عصرنا هذا وليها الحامى لحقيقتها ، المرامى عن حوزتها ، المعز لكلمتها ، الرافع لرايتها ، المحدد لحدودها ، الحافظ لعقودها ، وسلم قوسا منه إلى باريها ، وناطها بكفئها وكافيها ، وأفضى إليه بشرف الولادة والأبوه ، وميراث الإمامة والنبوه ، وألف به بين القلوب الآبيه ، وجمع عليه النفوس النائيه ، واتفقت الآراء بعد تباينها وتنافيها ، وتطابقت الأهواء على اختلافها وتعاديها ، واستدت ثلمة الدين بعد انثغارها ، واطمأنت الدهماء بعد نفارها ، حمدا يكون لنعمته كفاء ، ولموهبته جزاء .

وخلافة الله وإن كانت الغاية التى لاتنزع الهمم إليها ، ولا تتطلع الأمانى عليها : لاختصاص الله بها صفوته من بريته ، وخالصته من أهل بيت نبيه وعترته ، فإن أمير المؤمنين يتعاظم عن تهنئته بوصولها إليه ، وسبوغ ملابسها عليه ، إذ لايسوغ أن يهنأ بإدراك ما كتب الله له أن يدركه بأقلام الأقدار ، على صفحات الليل والنهار ، والعبد يسأل الله تعالى ضارعا إليه فى إنهاض أمير المؤمنين بما حمله وكلفه ، وتوفيقه فيما كفله واستخلفه ، وأن يمكن له فى الأرض ، ويعلى يده بالبسط والقبض ، ويمده بعز السلطان ، وعلو الشان ، وظهور الأولياء ، وثبور الأعداء ، وإعزاز الدين ، وابتزاز الملحدين ، وتقوية يده فى نصرة الإسلام ، وسياسة الأنام ، ويعرف رعيته من يمن دولته ، وسعادة ولايته ، ما يجمعهم على الطاعة والموافقه ، ويعصمهم من المعصية والمفارقه ،

ويوفّقهم من الإخلاص فى مُوالاته، لما يُوفِّر حظّهم من مَرْضاته؛ ويجعل وِلايته هذه مقرونةً بآنفساح المُدّة والأجل، وبُلُوغ المُنَى والأَمل، وصالح القولِ والعمل؛ ويُبلّغه فى مملكته ودولته أفضل ما بلّغه خليفةً من خلفائه، ووليًّا من أوليائه .

ومن ذلك ما يكتب فى البِشارة بالفُتوح .

قد جرت العادة أن السلطان إذا وجه جيشا لِفتح قلعةٍ أو قُطرٍ من الأقطار وحصل الفتحُ على يديه أن يكتب إلى السلطان مُبشّرًا بذلك الفتح، مُنوّهًا بقدره، معظّما لأمره؛ وما كان فيه: من عزيز النَّصر وقوة الظَّفر .

[فمن مكاتبة فى البشارة بفتح حصنِ المَرْقَب، وهى] (١) :

قد أسفر عن الفتح المُبين صباحُه، والتأييد وقد طار به مُحلِّق التباشير تخفق فى الخافقين جناحُه؛ والإسلام وقد وطئ هامة الكُفر بقدمه، والدين وقد عزّ بفتكات سيفه المنصور فأنِف أن يكون الشِّركُ من خَدَمه؛ والأفلاك وقد علمت أنه لهذا الفتح القريب كان آجتماعُ كواكبها، والأملاك وقد نزلت لتشهد أحمدَ النُّصرة البدرِيّة فى صُفوفها ومواكبها؛ وحصنِ المَرْقَب وقد ألقت عليه المِلّة الإسلامية أشعةَ سعدِها، وأنجزت له الأيام من الشَّرف بها آمالَهُ بعد ماطال آنتظاره لوعدها ، وأمّنته الأقدارُ التى ذلّلته للإسلام أن تطاولَ إليه الحوادثُ من بعدها؛ وقد أحاطت العُلوم بأن هذا الحصنَ طالما تحت الأحلام ، أن تُخيِّل فتحهُ لمن سلَف من الأنام ،فما حدّثت الملوكُ أنفسها بقصده إلا وثناها الخجل، ولاخطبته ببذل

---

(١) لم يذكر المؤلف عنوانا لهذه المكاتبة، فذكرنا عنوانها بحسب ما يقتضيه المقام ليلتئم الكلام . وقد بحثنا عن هذه المكاتبة فى الكتب التى بأيدينا فلم نهتد إليها، غير أن الشيخ شهاب الدين محمودا الحلبى قد ذكر فقرات منها فى "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

النّفائس والنُّفُوس إلا وكانت من الحِرْمانِ على ثِقة ومن مُعَاجلة الأجلِ وَقته على وَجل؛ وحَوْلَه من الجبال كُلّ شامخ تتهيّبُ عُقابُ الجوّ قطْعَ عِقابِه، وتقفُ الرّياح خَدَمًا دون التّوقُّلِ فى هِضابِه؛ [وحَوْلَه من](١) الأودِيَةِ خَنادِقُ لا تُعلَم منها الشّهور إلا بأنصافها، ولا تُعْرَفُ فيها الأهِلَّة إلا بأوصافها؛ وهو مع ذلك قد تقرّطَ بالنُّجُوم، وتَقرطَقَ بالغُيوم، وسَما فَرْعُه إلى السّماء ورَسَا أصْلُه فى التُّخُوم؛ تَخالُ الشّمسُ إذا علَتْ أنّها تَتَنقّلُ فى أبراجه، ويَظُنُّ مَنْ سَما إلى السُّها أنّه ذُبالَةٌ فى سِراجه؛ فكم من ذى جُيُوش قد مات بِغُصّة، وذِى سَطَوات أَعْمَلَ الحِيَل فلم يَفُزْ من نَظَرِه على البُعْد بفُرْصَة؛ لا يَعْلُوه من مُسَمّى الطيرِ سوى نَسْرِ الفَلَكِ ومِرْزَمِه، ولا يَرمُق مُتَبرّجاتِ أبراجه غيرُ عَيْنِ شمسه والمُقَلِ التى تَطْرِفُ من أنجُمِه؛ وقد كان نُصِبَ عليه من المجانيق ما سِهَامُه أنفَذُ من سِهامِ الجُفُون، وخطَراتُه أسْرعُ من لَحَظاتِ العُيُون؛ لا يُخاطَبُ إلا بِوَساطة رُسُلِه بضمير الطّلاب، ولا يُرى لِسانُ سَهْمِه إلا كما تُرى خَطَفاتُ البَرقِ إذا تألّق فى عُلُوّ السّحاب؛ فنَزَلَتْ عليه الجُيُوش نُزُول القَضاء، وصَدَمَتْه بِهِمَمِها التى تستعير منها الصّوارِمُ سُرْعَةَ المَضاء ورَوْعَةَ الانتِضاء؛ فنظَرَتْ منه حِصْنًا قد زَرّرَ عليه الجَوُّ جَيْبَ غَمامِه، وافْتَرّ ثغرُه كلّما جذَبَ عنه البرقُ فاضلَ لِثامِه؛ فتذلّلتْ صِعابُه، وسُهِّلَت عِقابُه، ورُكِزَتْ للجنوبات(؟) فى سَفْحِه وطالما رامَتِ الطّيرُ أدْناه فلم تَقْوَ عليه القَوادِم، وكم هَمّتِ العَواصِفُ بتَسَنُّم رُباه فأصبحت مُحلِّقَةً تبكى عليها الغمائم؛ فضُرِبَ بينها وبين الحِصْنِ بسُورٍ باطنُه فيه الرّحمةُ وظاهِرُه من قِبلِه العَذاب، ونُصِبَتْ فوقه من الأسِنّة ثُغور بَرّاقةُ الثّنايا ولكنّها غير عِذاب؛ فعادَ ذلك السّفحُ مُصَفّحًا بصِفاحِها،

---

(١) فى الأصل «فى الأدوية» والتصحيح من "حسن التوسل".

مُشْرِقًا بأعلام أَسِنَّة رِماحِها، فأرْسَلَت إلى أرْجائِها ماأرْبىٰ علىٰ الغَمائِم، وزاد في نفحه[(١)] علىٰ التَّمائِم .

وكانَ بِها مِثْلُ الجُنُونِ فأَصْبَحَتْ ٭ ومِنْ جُثَثِ القَتْلىٰ عَلَيْهَا تَمائِمُ!

ونُصِبَتْ عليها المَجانِيقُ فلم تَزَعْ حَقَّ جِنْسِها، وسَطَتْ عليها فأَصْبَحَ غَدُها في التَّحامُلِ أَبْعَدَ من أَمْسِها ، وٱستنهضتها العِدَا فأَعْلَمَتْهُم أنَّها لا تُطِيقُ الدِّفاعَ عن غيرها بعد أن عَجِزَتْ عن نَفْسِها، وبسطت أنْفُهَا أَمارَةً علىٰ الإذعان، ورَفَعَتْ أصابِعَهَا: إما إجابَةً أن تَدِلَّ للتَّشَهُّد و إما إنابَةً إلىٰ طَلَب الأَمَان، فخاف العِدَا من ظُهُور هذا الاستظهار، وعَلِمُوا أن المَجانِيقَ فُحُولٌ لاتثبت لها الإناثُ التي عَرِيَتْ من النَّفع بأيديهم فاستعانوا عليهن مَعَ العِدَا بطُولِ الجِدَار، فمند ذلك غَدَتْ تَكْمُن كُمُون الأساوِد وتَثِبُ وُثُوبَ الأُسُود، وتُبارِى بها الحُصُونُ السَّماءَ فكُلَّما قَذَفَتْ هـذه بكواكبها النَّيِّرة قَذَفَ هذا بكَواكِبِه السُّود، ولم يُكْسَرْ لهم مَنْجَنِيقٌ إلا ونَصَبوا آخَرَ بمَكانِه، ولاقُطِعَتْ لأَحَدٍ إصْبَعٌ إلاوصل الآخَرُ بِبَنانِه، فظَلَّت تحارَبُ مِثْل الكُماه، وتَتَحامَلُ تَحامُلَ الرُّماه، حتىٰ لَقِحَتْ وفَسَحَتْ للرِّضَا مَجَالًا، ومالَتْ ومِيلَ فيها وكذلك الحَرْبُ تكون سِجَالًا .

هذا والنُّقُوبُ قد دَبَّتْ في باطنه دَبِيبَ السَّقَام، وتَمَشَّتْ في مَفاصِـله كما تَمَشَّى في مَفاصِـلِ شارِبِها المُدام، وحَشَتْ أَضَالِعَه نارًا تُشْبِهُ نارَ الهَوىٰ : تُحْرِقُ الأحشاءَ ولا يَبْدُو لها ضِرام، قد داخلت مرسـلة الوَجَل، فتحققوا حُلُولَ الأجل، وعَلِمُوا أن هذا الفَتْحَ الذي تَمادَتْ عليه الأيام قد جاء يَسْعىٰ إلىٰ مابين يَدَيْه علىٰ عَجَل، وأَيْقَنَ الحِصْنُ بالانتظام في سِلْكِ الممالك الشريفة فكاد يُرْقِصُه بمَنْ فيه فَرْطُ الجَذَل، وزاد

(١) كذا بالأصل ولعله في نفعه .

شَوْقُه إلى التشريف و بِاصَبابَةٌ لوسمها وآسمها مشتاق لكنهم أظهروا الجَلَد ، وأخفَوْا ضِرامَ نارِ الجزع وكَيْفَ تَخْفى وقَدْ وقَدْ ، وتَدَفَّقَتْ إليهم الجُيُوش فملأت الأُفق ، وأحاطَتْ بهم إحاطَةَ الطَّوقِ بالعُنُق ، ونهضت إليهم مُسْتَمِدَّةً من عَزَماتِ سُلْطانِها ، مُسْتَعِدَّةً لانتزاع أرواح العِدَا على يَدَيْها من أوطانها ، فانقطعت بهم الظُّنُون ، ودارت عليهم رَحى المَنُون ، وأمطرت عليهم المَجانيقُ أحجارَها ﴿فوقَعَ الحَقُّ و بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُون﴾ وحَطَّتْ بساحَتِها عِقْبانُ تلك الأحجار ، فهدمَتِ العَمائرَ والأعمار ، وأجْرَتْ فى أرجائها أنهار الدِّماء فهلَكُوا بالسَّيفِ والنَّبْلِ والنَّار ، وتحكَّمت هذه الثلاثة فى أهل التَّثليثِ فبُدِّلُوا بالخوف من أمْنِهِم ، وهَرَبُوا منها إلى مَخايل حِصْنِهِم .

ولما ركب الأوَّلُ للزَّحْفِ فى جُيُوشه التى كاثَرَتِ البَحْرَ بأمواجه ، تزلزل الحِصْنُ لِشِدَّةِ رَكْضِه ، وتَضَعْضَعَ من خَوْفِ عِصْيانِه فلَحِقَتْ سَماؤه بأرْضِه ، وتَحَلَّلَتْ قَواعِدُ ماشُيِّد من أركانه فانحلت ، وألْقَتِ الأرضُ ما فيها وتَخَلَّتْ ، ومَشَتِ النَّارُ من تحتهم وهم لا يَشْعُرُون ، ونُفِخَ فى الصُّورِ بل فى السُّورِ فإذا هم قِيامٌ يَنْظُرُون ؛ وما كان إلا أن قابلت العساكرُ ذلك البُرْجَ حتَّى أهوى يَلْثِمُ التُّراب ، وتأدَّبَ بآداب الطاعة فَخَرَّ راكعًا وأناب ، فهاجمتهم الجُيُوش مُهاجَمَةَ الحُتُوف ، وأسرعت المَضاء والانتضاء فلم تَدْرِ العِدَا : أهُمْ أم الَّذين فى أيمانهم السُّيُوف التى تَسْبِقُ العَذَل . وثَبَتَ منهم من لم يجِد وراءه مَجالًا فلَجَئُوا إلى الأمَان ، وتمسَّك دَنِيءُ كُفْرهم بعِزَّة الإيمان ، وتَشَبَّثُوا بساحل العَفْو حتَّى ظَنُّوا أنَّهم أُحِيطَ بهم وجاءَهُم المَوْج من كُلِّ مَكان ؛ وسالونا أن يكونوا لنا من جُمْلَةِ الصَّنائع ، وتَضَرَّعُوا فى أن تَجْعَلَ أرْواحَهم لسُيُوفنا من جملة الودائع فنتصدّق عليهم بأرواحهم كَرَما ، وظَلُّوا على مَعْنَى الحديث النَّبَوِىِّ :

يَرَوْنَ المَمَات يَقَظَةً والحَيَاةَ حُلُما وأطلقتهم اليد التى لايَخِيبُ لدَيْها الآمل، وأعْتَقتْهم اليُمنىٰ التى فِجَاجُ الأرض فى قَبْضتها : فمتىٰ تَشاء تَجْمَعُ عليهم الأَنامِل، وَخرجُوا بنُفُوس قد تجرّدت حَتَّى من الأجسام، ومُقَلٍ طَلَّقَتِ الكَرا خَوْفاً من الصَّـوارِم التى تَسُلُّها عليهم الأحْلَام، وسُطِّرَتْ والمدينةُ قدتُسُنِّمَ أعلاها، وشِعَارُ الإيمان قد جَرَّدها من لِبَاسِ الكُفْر وأعراها، والأعلام قد سَلَكَتْ إلىٰ ذلك الحِصْـنِ أعلىٰ مَرْقىٰ، والسَّـعادةُ قد بَدَّلَت بِيَعَهُ مَسَاجِدَ ومَحَارِيبَهُ قِبْلَةً وكانت شَرْقا ؛ فأصبح يَرْفُلُ فى حُلَلِ الإيمان، وأَذْعَنَ بالطاعة فأخرس جَرْسَ الجَرَس به صَوْتُ الأذَان؛ إن شاء الله تعالىٰ .

[ومن ذلك] مايكتب به فى التَّعازى إلىٰ الخلفاء .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ التَّهْنِئَة بوِلَايَةِ الخلافة ، أنه كما ينبغى أن لايُهَنَّأَ الخليفة بالخلافة إعظاما، فكذلك ينبغى أن لايُعزَّى فى مُصَابِه . إلا أنه رُبَّما دَعَتْ ضرورةُ الكاتبَ إلىٰ ذلك : لإكرام بعض أخصاء الخليفة إياه بالكتابة بذلك إلىٰ الخليفة . ولايخفىٰ أن الحال فى ذلك تختلف باختلاف المعزّى : من وَالِدٍ أو وَلَدٍ أو غيرهما .

[وهذه نسخة مكاتبة فى معنىٰ ذلك](١) ذكرها فى "مَوَادِّ البيان" وهى :

أما بَعْدُ ، فإن الله تعـالىٰ جعل خِلَافته لخَلْقِه قِوَاما، ولبَرِيَّتِه نِظَاما، وجعـل له خُلَفَاء يَدَّخِرُهم لميراثها، ويَخْتَصُّهم بتُرَاثِها، فإذا انقضت مدّة مَاضِيهم : لِمَا يريده الله من استدنائه إلىٰ مَقرّ خُلَصَائِه، نَقَلَها إلىٰ نُورِه باصطناعه واصطفائه .

والحمـد لله الذى قَصَرَ خِلَافَتَه علىٰ أمير المؤمنين وآبائه ، وجعـل منهم زَعِيمَهم المـاضِيَ الذى كانت بيديه مَوَارِيثُها، والآتِيَ الذى صار إليه [تُرَاثُها] .

---

(١) بياض بالأصل، والتصحيح يقتضيه المقام .

والحمد لله الذى ختم لأمير المؤمنين المُنْتَقِلِ إلى دار الكرامة بأفضل الخاتمه، وأحْسَنَ له الجزاءَ عن السَّعْيِ فى الأمّه، وأنْعَمَ بآستخلاص أمير المؤمنين لإمامة خليقته، وحياطة شريعته، وحماية بلاده، وسياسة عباده، ولوراثة تُراث آبائه وأجداده؛ وجعل الماضى منهم مَرْضيًّا عنه، والآتى مَرْضيًّا به؛ وأعْتَدت الرَّعِيَّةُ من عَدْل أمير المؤمنين ما جَبَر كَسْرَها فى خَليفته، وصَبْرَها فى رَزِيّته؛ وهو المسئول أن يُلْهِمه على المصيبة فى سَلَفه الطاهر صَبْرا، وعلى ما أخلفه عليه فى تأهيله لخلافته التى لا كِفاءَ لها شُكْرا، بمَنّه وفضله إن شاء الله تعالى.

✣

[وهذه نسخة كتاب فى التَّعْزِيَة أيضا[1]] وهى:

إنّ الله خصّ أمير المؤمنين بما هو أهْلُه من خلافته، وعَظَّم مَحَلَّه بما نَصَبه له من إمامة بَرِيَّته، وجعله عِمادًا لأهل الإسلام تجتمِعُ عليه أهْواؤهم، وتَسْكُن إليه أمْلاؤهم، ويصلح به دينُهم ودُنْياهم، ويستقيم به أمْرُ أُولاهم وأُخْراهم؛ فإذا أسبغ نِعْمةً من نِعَمه عليه، وظاهر مَوْهبةً من مَواهبه لَدَيْه، شَرِكوه فيها، ونَهَضُوا معه على الشُّكْر عليها؛ وإذا آبتلاه ببَلِيّه، وآمتحن صَبْره برَزِيّه، أخذوا بالنَّصيب العظيم من الحادث، والحظِّ الجسيم من الكارث، [و]ما أفردوه بثواب الله فيها وما جعله جَزاءً من الأجْر عليها.

وإن الله تعالى كان أعار أمير المؤمنين من وَلَده فلان ـ رضى الله عنه ـ عارِيَةً من عَوارِيه، وبلَّغه من الآستمتاع بها ما آحْتُسِب من أمانيه؛ ثم آسترجعها ليُثقّل بها ميزانَه، ويُضاعِف إحسانه، ويجعلها له ذُخْرا، ونورا يَسْعى بين يَدَيْه وأجْرا؛ فعظم

(١) بياض بالاصل، والتصحيح بمقتضيه المقام.

بذلك المُصَابُ علىٰ رعيَّته، وكَبُرَ الرُّزْءُ على أهل دَعْوَته، لما كانوا يرجونه من سُكُون القُلُوب، ونَقْعِ الخُطُوب، وٱستقرارِ قوَاعِدِ الخلافَه، وشُمُول الرَّحْمة والرَّافه، وقد حصل أميرالمؤمنين علىٰ نِعَمٍ كثيرة من مَوْهِبَتِه وثَوَابِه فى ٱستعادته، وحَصَلَ كافَّةُ خاصَّته علىٰ القَلَقِ لفَقْده، والأسىٰ من بعده، وقد جعله الله تعالىٰ صَلاحَ كُلِّ فَساد، وثِقَافَ كُلِّ مَيَاد، ومَهْبِطَ كُلِّ رَحْمَه، وطَرِيقَ كُلِّ نِعْمَه، وهو خليق بأن يُظْهِرَ من صَبْرِه، ورِضَاهُ بقضاء الله وتسليمه لأمْرِه، مايَبْعَثُ علىٰ التَّأَسِّى به، والتَّأَدُّب بأدَبِه، والله تعالىٰ يُحْسِنُ لأميرالمؤمنين الخَلَف، ويُعَوِّضُهُ أحْسَنَ العِوَضِ فى المُؤْتَنَف، ويُوَفِّرُ حَظَّهُ من الثَّوَاب، ويُعْظِمُ له الأجرَ علىٰ المُصَاب، ويُرِيه فى أوليائه وأحبابه، أعظمَ مَحَابِّه وغايَةَ آرابه، وينقل المَنْقُول إلىٰ إيوان الكَرَامة والاحتفاء، بأفاضل الأجداد والآباء، بفَضْلِه ورَحْمَتِه، إن شاء الله تعالىٰ.

[وهـذه] نسخة كتاب: كُتِبَ به إلىٰ الأبواب السلطانية عنـد فَتْحِ (آيَاس)(١) قاعدةِ بلاد الأَرْمَنِ وٱنتزاعها من أيديهم، وهى:

يُقَبِّلُ الأرضَ ويُنْهِى أن لَيْلَةَ الانتظار أطْلَعَتْ صَبَاحَهَا، ومَوَاعِيدَ الآمال بعثت علىٰ يَدِ الإقبال نَجَاحَهَا، والعَسَاكِرَ المنصورةَ جَرَّدَتْ رابِعَ رَبِيعِ الأوّلِ بمدينة آيَاسَ صِفَاحَهَا، وأوردت إلىٰ الصُّدُورِ رِمَاحَهَا، فلم يكُنْ إلا كلَمْحِ البَصَر، ولِسَانُ صِدْقِ القِتالِ قائلٌ: بأنَّ الجَيْشَ النَّاصِرِىَّ قد ٱنتصر، وٱنقضىٰ ذلك النَّهار، بإيقاد نار حَرْبِ الحِصَار، علىٰ أبْرَاجٍ وأسْوَار، أُدِيرَتْ علىٰ المِينَا كما أُدِيرَ المِعْصَمُ علىٰ السِّوَار، فما أشرق

(١) كان الأولىٰ ذكر هذه المكاتبة مع المكاتبات التى ذكرت فى البشارة بالفتوح، إذ لامناسبة فى ذكرها هنا، تأمل.

صَباحُ الصِّفَاحِ ولَاح ، إلّا والأعلام النّاصِرِيّة على قُلّةِ القَلْعَة مائسَـةُ الأعطاف من الارْتِيَاح ، مُعْلِنَةٌ ألْسِنَتُها بحيّ على الفَلاحِ وحيّ على النّجَاح ، وعِزُّ الإسلام يُقَابِلُ ذُلَّ الكُفْر : بهذا النَّصْرُ وهذا الافْتِتَاح ، وجَمْعُ الأرْمَنِ المَلاَ تفرّق ما بين قَتْلٍ وأَسْرٍ وانْتِزَاح ، ولَعِبَتْ أيدى النِّيران فى القَلْعَة وجَوانبهـا ، وتفرّقت من الأسوار أعضاء منا كبها ، ونَطَق بالأقْدَارِ لِسَانُ النّـار : هٰذى مَنَازِلُ أهْلِ النّار فى النّار .

ثم انتقلت المحَاصَرَةُ إلى قَلْعَةِ البَحْر ، وضَمَّ الأرْمَنَ المَلاَ إليها سَيفُ القُدْرَة والقَهْر ، وهذه القَلْعَةُ عَرُوسٌ بِكْرٌ فى سماء العِزّ شاهقه ، لم يَسْبِقْ لأحدٍ من الملوك الأوائلِ إلى خِطْبَتِها سَابِقَه ، قد شَمَخَتْ بأنفِهَا ، ونأت بعِطْفِها ، وتاهَتْ على وَامِقِها ، وغَضَّتْ عَيْنَ رَامِقِها ، فهى فى عُقَابِ لَوْحِ الجَوّ كالطائر ، وسَـوَّرَها البَحْر والحَجَر فلا يكاد يَصِلُ إلى وَكْرِهَا النّاظِر ، وقد أُوثِقَتْ بحَلَقَاتِ الحَدِيد ، وقُيِّدَتْ كأنّها عاصِيةٌ تُسَاقُ بالأصفاد إلى يَوْمِ الوَعِيد ، فأرْسَـل عليها المَنْجَنِيقُ عُقَابَه ، وأعْلَقَ بها ظُفُره ونَابَه ، فكشف من شُرُفَاتِها شَنَبَ ثَغْرِها ، وسَقَاها بأكُفّ أَسْهمه كُئُوسَ حِجَارَةٍ فتمايَلَتْ من شِـدّةِ سُكْرِها ، وفَضّ من أبراجها الصَّنادِيقَ المُقْفَلَه ، وفَصّـلَ من أسوارها الأعضاء المُتّصِلَه ، فتَزَلْزَلَ عَمَدُهَا ، وزِيلَ عن مكانه جَلْمَدُها ، وعلت الأيْدِى المُرَامِيَة بهـا ، وغُلّت الأيدى المُحَامِيةُ عنها ، واشْتَدّ مَرَضُها من حرارة وَهَجِ الحِصَار ، وضَعُفَتْ قُوّتُها عن مقاومة تلك الأحجـار ، ولم يَبْقَ على سُورِهَا من يَفْتَحُ له جَفْنًا ، وشَنّ المَنْجَنِيقُ عليها غَارَتَه إلى أنْ صَارَتْ شَنًّا ، فأرسَلَ إليها من سَمَـاءِ غَضَبِه رُجُومًا ، ووَالَى ذلك عليها سَبْعَ ليال وثَمَانِيَةَ أيّام حُسُومًا ، فبادرت إلى الطّاعَة واستسلمت ، وكَرّر نَحْوَها رُكُوعه فَسَجَدَت ، ورَكِبَتْ الجيوشُ المنصـورة عِوَضَ الصّافِنَاتِ اللُّجَج ، وسَمَحَتْ فى سبيل الله عَزّ وجَلّ بالمُهَج ، فعند ذلك سَارَعَ أهْلُها إلى التَّعلُّق بأسباب الهَرَب ،

وكان خَرابُ قلعةِ المينا هذى لخرابِ قلعتهم من الحرب، وأحرقوا كبِدها من أيديهم بنار الغضب، وانتزحوا منها ليلا، وجرّوا من الهزيمة ذيلا، وتسلّمها المسلمون، وتحسّر عليها الحسرة الكبرى الكافرون، وهدمت حجرا حجرا، وصافحت بجبهتها وجه الثرى، وأعدمت من الوجود عينا وأثرا، فما أعجب هذا الفتوح وأغرب!، وما أحلى ذكره فى الأفواه وما أعذب!!، وما ألذّ حديثه فى الأسماع وما أطرب!!، وما أسعد هذا الجيش الناصرى وما أنجب!!!.

بُشراكَ بُشراكَ هذا النصرُ والظفرُ * هذا الفتوحُ الّذى قد كان يُنتظَرُ!
فتحٌ مبينٌ ونصرٌ جلّ موقعُه * سارتْ به ولهَ الأملاكُ والبشَرُ!
عجائبٌ ظهرت فى فتحِه بهرتْ * لم تأتِ أمثالَها الأيام والسِّيَرُ!
لو كان فى زمنٍ ماضٍ به نزلتْ * فى وصفِ وقعتِه الآياتُ والسُّوَرُ!
هذى أياسُ التى قد عزّ جانبُها * وعزّ خاطبُها حتّى أتى القدَرُ!
جاءت إليها جيوشٌ كمْ بها أُسُدٌ * بيضُ الصِّفاحِ لها الأنيابُ والظُّفُرُ
جيشٌ لهامٌ كبحرٍ زاخرٍ لجِبٍ * إذا سرى لا يُرى شمسٌ ولا قمَرُ!
يسيرُ بالنصرِ أنّى سار متّجهًا * ما زال يقدُمُه التأييدُ والظفَرُ.
جيشٌ له اللهُ والأملاكُ ناصرةٌ ، * مليكُه ناصرٌ للدّين منتصرُ!
يومَ الخميسِ رأيتُ الخيلَ حاملةً * على رءوسِ عُداةٍ هامُها أُكَرُ،
وقلعةَ البحرِ كانت آيةً لهُمُ * فمَنْ يسيرُ فأضحتْ للورى عِبَرُ!
كانت بأفْقِ سَماءِ العزِّ شاهقةً * أبراجُها باسقاتٌ نحوَها خطَرُ!

فَرَكِبَ المُسْلِمُونَ البَحْرَ بَاذِلَةً * أَرْوَاحَهَا فى سبيل اللهِ تَدَّخِرُ،
لم يَبْقَ منهم أَمِيرٌ لا ولا مَلِكٌ * يَأْوِى مَقَرًّا إلى أن مُدَّتِ الجُسُرُ!
وعَجَّلَ اللهُ بالفَتْحِ المُبِينِ لَهُم * هٰذَا الفُتُوحُ الّذى تُوفَى له النُّذُرُ
يَرْضَى به اللهُ والإسْلَامُ قَاطِبَةً * وشَاهِدُ القَوْلِ فيه العَيْنُ والأَثَرُ!

تم الجزء الثامن . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء التاسع

وأوله القسم الثانى

(من مقاصد المكاتبات الإخوانيات)

والحمد لله رَبِّ العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خَاتَمِ الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامُه

وحَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيل

(المطبعة الأميرية، ٤٢٤٧/١٩١٥/٣٠٠٠)